

المسرح الهمل
غفر الله له ولوالديه

ذخائر العرب

٦١

المجاسن والمسائوي

تأليف

إبراهيم بن محمد البيهقي

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم



دار المعارف

المسرح الهمل
غفر الله له ولوالديه

المسيرة رفع الحمل

غفر الله له ولوالديه

2009-01-20

ذخائر العرب

٦١

المجاسين والمسايير

تأليف

إبراهيم بن محمد البيهقي

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الأول



دار المعارف

المسيرة رفع الحمل
غفر الله له ولوالديه

www.alkottob.com

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.٢٠٠٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

يضمّ كتاب «المحاسن والمساوى» طائفةً من ضروب الآداب وغرر الكلام؛ وتدور حول النفس الإنسانية وما يتعلّق بها من الصفات والأفعال، وما يعترّيا من دوافع الخير، أو نوازع الشر؛ وما تتضح به من سرى الأخلاق ومحمود الشمائل، أو ما يصدر عنها مما يؤذى المروءة، ويخدش كريم الأحساب؛ وبذلك اجتمع فيه من رائع الشعر ورضين القول، وموروث الخبر والحكمة والمثل؛ ما لم يجتمع في كتاب، مع تناسب الأبواب، وتقسيم الفصول، وإحكام الوضع، وجمال التصنيف. ومع طول البحث في كتب السير والتراجم، وتقصى أسفار التاريخ والطبقات؛ فإنه لا يعلم شيء عن مؤلف الكتاب؛ سوى أن اسمه «إبراهيم بن محمد البيهقي»؛ كما جاء في المقدمة وصفحة العنوان، وكما نقل عنه الدميرى في حياة الحيوان؛ عند الكلام على خلافة عبد الملك بن مروان^(١)؛ وأنه كان يعيش في زمن المقتدر بالله (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ)؛ كما يفهم من الخبر الذى أورده المؤلف في باب محاسن المسيرة^(٢) في هذا الكتاب، وهو قدر لا يسدّ حاجةً لباحث أو مؤرخ.

ويرجع الفضل الأوّل في نشر هذا الكتاب وتيسيره لقراء العربية إلى الدكتور فريدريك شوالى؛ أحد المتقدّمين من المستشرقين الألمان؛ ممن عُنا بنشر النفيس من تراث العرب الخالد. حقّقه؛ وطبعه في سنة ١٩٠٢، بمطبعة جيسن؛ ووضع له مقلمة باللغة الألمانية؛ وذيله بحواشٍ ومقابلات باللغة اللاتينية؛ وقد بذل جهداً يشكر، وقام بعمل يذكر.

وفي سنة ١٩٢٥ قام المستشرق الألماني أشر بعمل فهرس له مفصلة؛ كتبها بخط، ثم صورت بالزئكغراف؛ وعملت منها نسخ محدودة، لم تعرف إلا في دائرة ضيقة عند العلماء المستشرقين بأوروبا^(٣).

وعن هذه الطبعة أعيد نشره. بمطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٩٠٦، بعد حذف المقلمة والتعليقات.

وأساس العمل الذى قام به شوالى مخطوطتان:

(١) نشرة القاهرة سنة ١٢٨٤هـ.

(٢) الدراسات العربية في أوروبا لجوهان فوك ص ٣٦٥ طبع ليزج سنة ١٩٥٥.

إحداها نسخة بمكتبة جامعة ليدن، محفوظة برقم ٢٠٧١، تقع في ٢٩٤ صفحة، وتنقص من أولها بمقدار ٣٠ صفحة، ومن آخرها بمقدار صفتين؛ مكتوبة بخط معتاد؛ ويبدو أن ناسخها على شيء من المعرفة بأصول النسخ، وعنوانات الفصول فيها بخط أكبر، ومتوسط الأسطر فيها ٢٣ سطراً، ومتوسط عدد الكلمات ١٨ كلمة، وقد رمز إليها بالحرف (L).

والنسخة الثانية محفوظة بمكتبة الجمعية الآسيوية البنغالية في كلكتا، وهي نسخة يبدو أن بآخرها نقصاً؛ إذ أن الناسخ قد أضاف عند نهاية ما وقف عليه من نسخة الأصل التي نقل عنها عبارة الختام، مما يوهم أنها كاملة؛ وقد أتمها نسخاً في ١٣ ربيع الأول سنة ١٦٠ هـ؛ وتقع في ٢١٩ ورقة، متوسط الأسطر فيها ٣٠ سطراً، ومتوسط الكلمات ١٢ كلمة، وقد رمز إليها بالحرف (C).
وحينما قصدت إلى إعادة تحقيق هذا الكتاب، اتخذت نشرة شوالى أصلاً، واستأنست بنسختين مصورتين عن الأصلين اللذين رجع إليهما، ورمزت إلى المطبوعة بالحرف (ط)، وإلى نسخة ليدن بالحرف (ل)، وإلى نسخة كلكتا بالحرف (ك).

كما أتى رجعت إلى كتب الأدب والتاريخ ودواوين الشعراء ومعاجم اللغة، واستعنت بكل ذلك على إيضاح المبهم، وردّ المحرف، وشرح الغريب، مما تراه في حواشى الكتاب.
وكان من أهم الكتب التي أفدت منها في هذا السبيل، كتاب «المحاسن والأضداد» المنسوب إلى الجاحظ (فان فلوتن)^(١). والكثير من نصوص الكتابين تكاد تكون متحدة، والأخبار مشتركة، مما يحمل على الظن أن مؤلفها واحد، أو أنها كتابان أخذتا عن أصل مشترك.
وأرجو بما قمت به من البشرح والتعليق وما صنعتته من الفهارس المتنوعة، أن يكون الكتاب قد أصبح قريب الجنى، دافى القطوف.

كما أرجو أن يكون عملاً للناس نافعا، وعند المولى سبحانه مقبولاً.

١٨ شوال سنة ١٣٨٠ هـ

٤ أبريل سنة ١٩٦١ م

محمد أبو الفضل إبراهيم

(١) طبع في ليدن سنة ١٨٩٨ م.

وبه الأمان من الخذلان

الحمد لله رب العالمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على محمد النبي الأمي الهاشمي الأبطحي، المكي المدني، الهادي المهدي، السراج المضيء، والقمر المنير، التقى النقي؛ وعلى أهل بيته الطيبين الأخيار، السادة الأطهار، المقسطين^(١) الأبرار، الذين خلَقوا من طينة واحدة؛ وجلبوا على فطرتهم، ودرجوا على حوزتهم، وميزوا بحكمتهم، و [ساروا]^(٢) على منهاجه وملته، وفازوا بطاعته؛ وسلّم تسليماً كثيراً دائماً.

قال الشيخ إبراهيم بن محمد البيهقي: قال مُصعب بن الزبير: إن الناس يتحدثون بأحسن ما يحفظون، ويحفظون أحسن ما يكتبون، ويكتبون أحسن ما يسمعون، فإذا أخذت الأدب فخذها من أفواه الرجال، فإنك لا تسمع منهم إلا مختاراً^(٣).

وقال لقمان لابنه: يا بني تنافس^(٤) في طلب الأدب، فإنه ميراثٌ غيرُ مسلوب، وقرينٌ غيرُ مغلوب، ونفيسٌ حظٌّ في الناس^(٥) مطلوب.

وقال الزهري: الأدب ذكرٌ لا يُحبه الذكور من الرجال، ولا يبغضه إلا مؤنثهم.

وقيل^(٦): إذا سمعت أديباً فاكته ولو في حائط.

قال: وقال المنصور بن المهدي للمأمون: أيحسُن بِمَثَلِي^(٧) طلبُ الأدب؟ قال: لأن^(٨) تموت طالباً للأدب خيرٌ من أن تعيش قائماً بالجهل: قال: فإلى متى يحسُن بي ذلك؟ قال: ما حسنت بك الحياة. وقال الزهري: ما سمعتُ كلاماً أوجز من كلام عبد الملك بن مروان لو ليده حيث يقول: اطلبوا معيشة لا يقدر عليها سلطانٌ جائر؛ قيل: ما هي؟ قال: الأدب.

وقال بزرجهمر: ياليت شعري أي شيء أدرك من فاته الأدب! أم أي شيء فات من أدرك الأدب ومادته من الكتب!

* * *

وقد أهدى بعض الكتاب إلى صديق له دفترًا وكتب له: هديتي هذه - أعزك الله - تزكو^(٩) على

(٦) المحاسن والأضداد: «وقال».

(٧) المحاسن والأضداد: «بنا».

(٨) ك: «لئن»، وصوابه من المحاسن والأضداد.

(٩) تزكو: تنمو.

(١) المقسطون: من أقسط في الأمر؛ إذا عدل.

(٢) زيادة يقتضيها السياق.

(٣) المحاسن والأضداد: «فإنك لا ترى وتسمع».

(٤) المحاسن والأضداد: «نافس».

(٥) المحاسن والأضداد: «من الناس».

الإفناق، وتربو على الكد^(١)، لا تفسدها العواري^(٢)، ولا تُحَلِّقُهَا كَثْرَةُ التَّقْلِيْبِ؛ وهى أُنْسٌ فى الليلِ، والنهارِ، والسُّفْرُ والحضرِ، تصلحُ للدنيا والآخرة. تؤنسُ فى الحلوةِ، وتمتعُ فى الوحدةِ. مسامرٌ مساعدٌ، ومحدِّثٌ مطواعٌ، وندِيمٌ صديقٌ.

وقال بعضهم: الكتبُ بساتينِ العلماءِ.

وقال آخرٌ: الكتابُ جليسٌ لا مثنوةٌ له.

وقال الفضل بن سهل للمأمون وهو بدمشق بدير مُرَّان مشرف على غوطتها: يا أمير المؤمنين، هل رأيتَ لحسنها شبيهاً فى شيءٍ من مُلكِ العربِ؟ يعنى الغوطة. قال: بلى والله، كتابٌ فيه أدبٌ يجلو الأفهامَ، ويُرَكِّى القلوبَ، ويؤنسُ الأنفُسَ، أحسنُ منها.

* * *

وقال الجاحظ: الكتابُ نعم الذُّخْرُ والعقْدة^(٣)، ونعم الجليسُ والقعدة^(٤)، ونعم النُّشْرَةُ^(٥) والنزْهَةُ، ونعم المشتغلُ والحرفَةُ، ونعم الأنيسُ ساعةُ الوحدةِ، ونعم المعرفةُ ببلادِ الغربةِ، ونعم القرينُ والدخيلُ، ونعم الوزيرُ والتنزيلُ. الكتابُ وعاءٌ ملىٌّ علمًا، وظرفٌ حُشِيٌّ ظَرْفًا، إن شئتَ كان أعياً من باقِلٍ، وإن شئتَ كان أبْلَغُ من سحبانٍ وائلٍ؛ وإن شئتَ ضَحِكْتَ من نوادره، وإن شئتَ بكيتَ من مواعظه. ومن لك بوعظِ مُلِهٍ^(٦)، وبناسكٍ فاتك، وناطقٍ أحرَسَ! ومن لك بطبيبٍ أعرابى، ورومىٍّ وهندى، وفارسىٍّ ويونانىٍّ، وندِيمٍ^(٧) مولدٍ، ووصيٍّ مُتَمِّعٍ! ومن لك بشيءٍ يجمعُ الأوَّلَ والآخِرَ، والناقصَ والوافى، والشاهدَ والغائبَ، والرفيعَ والوضيعَ، والفتىَّ والسَّمينَ، والشكلَ وخلافه، والجنسَ وضدَّه!

وبعد، فما رأيتُ بستانًا يُحْمَلُ فى رُدنٍ^(٨)، وروضةً تُنقلُ فى جِجرٍ، ينطقُ عن الموقِ، ويُترجمُ عن الأحياءِ، غيرِه.

ومن لك بمؤنسٍ لا ينامُ إلا بنومِكِ، ولا يَنْطِقُ إلا بما تهوى، آمنٌ من فى الأرضِ، وأكتمٌ للسَّرِّ من صاحبِ السَّرِّ، وأحفظٌ للوديعَةِ من أربابِ الوديعَةِ.

ولا أعلمُ جارًّا أبرَّ، ولا خليطًا أنصفَ، ولا رفيقًا أطوعَ، ولا معلمًا أخضعَ، ولا صاحبًا أظهرَ كفايةً ولا عنايةً، ولا أقلَّ إِمْلالًا^(٩) وإبرامًا، ولا أبعدَ عن مرآةٍ، ولا أتركُ لشغبِ، ولا أزهدَ فى جدالِ،

(١) ك: «الكسد»، وما أثبتته من المحاسن والأضداد.

(٢) فى إحدى نسخ المحاسن والأضداد «العوادي».

(٣) العقدة: ما فيه بلاغ الرجل وكفايته.

(٤) الجاحظ فى المحاسن: «العقدة» وفى الحيوان «العدة».

(٥) النشرة: التسييم.

(٦) ك: «مثله» وما أثبتته من المحاسن والأضداد والحيوان.

(٧) الحيوان ١: ٣٩ ونهاية الأرب ٧: ١٧: «وقديم».

(٨) الردن، بالضم: أصل الكم والجمع أردان.

(٩) ك: «مالالا» تصحيف.

ولا أكف عن قتال من كتاب! ولا أعمُّ بيانًا، ولا أحسن مؤاناةً، ولا أعجل مكافأةً، ولا شجرة أطول عمراً ولا أطيب ثمرًا، ولا أقرب مُحْتَقِيٍّ، ولا أسرع إدراكًا، ولا أوجد في كلِّ إِبَّانٍ^(١) من كتاب، ولا أعلم نتاجًا في حدّاته سنّه، وقرب ميلاده، ورخص ثمنه، وإمكان وجوده، يجمع من التدابير العجيبة، والعلوم الغريبة، ومن آثار العقول الصحيحة، ومحمود الأذهان، اللطيفة، ومن الحكم الرُفِيعَة، والمذاهب القديمة، والتجارب الحكيمة، الأخبار عن القرون الماضية، والبلاد المترامية، والأمثال السائرة، والأمم البائدة، ما يجمعه كتاب^(٢).

ولولا الحكيم المخطوطة^(٣)، والكتب المدونة، لبطل أكثر العلم، ولعلب سلطان النسيان سلطان الذكر، ولما كان للناس مفرع إلى موضع استذكار؛ ولو لم يتم^(٤) ذلك لحرماننا أكثر النفع. ومن لك [بمن] لا يبتدئك في حال شغلك، ولا في أوقات عدم نشاطك، ولا يحوجك إلى التمثل والتنم! ومن لك بزائر إن شئت جعلت زيارته غيبًا، وورده خمسًا^(٥). وإن شئت لزمك لزوم ظلك! والكتاب هو المجلس الذي لا يطريك، والصديق الذي لا يقلبك، والرفيق الذي لا يملك، والمستريح^(٦) الذي لا يؤذيك، والجار الذي لا يستبطيك، والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق، ولا يعاملك بالمكر، ولا يخدعك بالنفاق. والكتاب هو الذي إن نظرت فيه أطال إمتاعك، وشحد طباعك، وبسط لسانك، وجود بيانك، وفخم ألفاظك، وعمّر صدرك، وحبك تعظيم الأتوام، ومنحك صداقة الملوك؛ يطبعك في الليل طاعته بالنهار، وفي السفر طاعته في الحضر وهو المعلم الذي إن افتقرت إليه لم يحقرك، وإن قطعت عنه المادّة، لم يقطع عنك الفائدة، وإن عزلت لم يدع طاعتك، وإن هبت عليك ريح أعدائك لم ينقلب عليك، ومتى كنت متعلقًا به ومتصلًا منه بأدنى حيل، لم تضطرك^(٧) معه وحشة الوحدة إلى جليس السوء. وإن أمثل ما يقطع به الفراغ نهارهم، وأصحاب الكفايات ساعات ليالهم، نظرة في كتاب لا يزال لهم فيه ازدياد أبدًا في تجربة وعقل ومرودة، وصون عرض، وإصلاح دين ومال، وربّ صنعة وابتداء إنعام.

ولو لم يكن من فضله عليك، وإحسانه إليك إلا منعه لك من الجلوس على بابك، ونظرك إلى المارة بك، مع ما في ذلك من التعرض^(٨) للحقوق التي تلزم، ومن فضول النظر، وملابسة صغار الناس، ومن خطور^(٩) ألفاظهم الساقطة، ومعانيهم الفاسدة، وأحوالهم الرديّة، وطرائقهم^(١٠)

(١) إبان كل شيء: وقته وحينه الذي يكون فيه.

(٢) ك: «ما يجمع من كتاب» وما أنبته من المحاسن والأضداد.

(٣) المحاسن والأضداد «المحفوظة».

(٤) ك: «وأنتم». وما أنبته من المحاسن والأضداد.

(٥) الخمس في الأصل: من إظهار الإبل؛ وهو أن ترعى ثلاثة أيام وترد الرابع.

(٦) المستريح: طالب العطاء في رفق.

(٧) ك: «تضرك» والوجه ما أنبته من الحيوان.

(٨) «التعرض» والصواب ما أنبته من المحاسن والأضداد.

(٩) الحيوان: «حضور».

(١٠) المحاسن والأضداد: «وجهالاتهم».

المنومة، وأقلامهم الحبيبة القبيحة؛ لكان في ذلك السلامة ثم الغنيمة، وإخراج^(١) الأصل مع استفادة الفرع. ولو لم يكن في ذلك إلا أنه يشغلك عن سُخفِ المنى، وعن اعتياد الراحة، وعن اللعب وكل ما أشبهه، لقد كان في ذلك على صاحبه أسخف النعمة، وأعظم المنّة.

وهو الذي يزيد في العقل ويشحنه، ويداويه ويهبه، وينفي الخبث عنه، ويفيد العلم، ويصدق بينك وبين الحجة، ويقودك للأخذ بالثقة، ويعمر الحال، ويكسب المآل. وهو منبّه^(٢) للمورث، وكنز عند الوارث، غير أنه كنز لا زكاة فيه، ولا حقّ للسلطان يخرج منه. هو كالضيعة التي لا تحتاج إلى سقى ولا إسجال بإيقار^(٣)، ولا إلى شرط ولا إكثار، وليس عليها عشرٌ للسلطان ولا خراج.

ولولا ما رَسَمَت لنا الأوائل في كُتُبِها، وخَلَدت مِن عَجِيبِ حِكْمِها، ودَوَّنت من أنواعِ سِيرِها؛ حتى شاهدنا بها من غاب عنا، وفتحنا بها كلُّ منغلقٍ علينا؛ جمعنا في قليلنا كثيرهم، وأدرَكنا ما لم نُدرِكْه إلا بهم، لقد كان يُخَسِّ حَظَّنَا منه. وأكثر كُتُبِهم نفعًا، وأشرف منها حظًا، وأحسن موقعا؛ كُتِبَ الله عزَّ وجلَّ التي فيها الهدى والرحمة، والإخبار عن كلِّ عبرة، وتعريف كلِّ سيئة وحسنة، وما زالت كتبُ الله جلَّ وعلا في الألواحِ والصُّحفِ والمصاحف، فقال جلَّ ذكره: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ﴾^(٤)، فذكر صحف موسى الموجودة، وصحف إبراهيم البائدة، وقال: ﴿أَلَمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾^(٥) وقال عزَّ وجلَّ: ﴿مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾^(٦). وقال: ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾^(٧). وقال: ﴿وَأُمَّا مَنْ أُوثِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾^(٨). وقال: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾^(٩).

ولو لم تكن تُكْتَبُ أعمالهم لكانت محفوظةً لا يدخل ذلك المحفظ نسيان، ولكنه تعالى جدّه، علم أن نسخه أوكد وأبلغ وأهيب في الصدور، فقال جلَّ ذكره: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(١٠).

ولو شاء الله أن يجعل البشارات بالمرسلين على الألسنة ولم يودعها الكتب لفعل، ولكنه تبارك وتعالى عَلِمَ أن ذلك أتم وأبلغ وأكمل وأجمع. وفي قول سليمان عليه السلام: ﴿أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا قَالِقَةَ إِيَّاهُمْ﴾^(١١)، وقد كان عنده من يبلغ الرسالة على تمامها من عِفريت وإنسى وغيرهما، فرأى الكتاب أهبى وأحسن، وأكرم وأفخم، وأنبل من الرسالة^(١٢). ولو شاء النبي ﷺ، ألا يكتب إلى قيصر وكسرى والنجاشي والمقوقس، وإلى ابني الجَلْتندي^(١٣) وإلى العَبَاهلة من حِمير، وإلى هودّة،

(١) ك: «وإخزان» وما أتيت من المحاسن.

(٢) في ك: «شبهة» تحريف، والمنبهة: المشرقة والملاة، من النباهة؛ وهي ضد الخمول.

(٣) الإسجال: من أسجل الحوض، إذا ملأه، والإيقار: استيفاء العامل الخراج.

(٤) سورة النجم ٣٦، ٣٧. (٨) سورة الإنشقاق ١٠.

(٥) سورة البقرة ١، ٢. (٩) سورة الإسراء ١٤.

(٦) سورة الأنعام ٣٨. (١٠) سورة المجاثية ٢٩.

(٧) سورة الانفطار ١١. (١١) سورة النمل ٢٨.

(١٢) في الكلام حذف البيت، والتقدير: «وفي قول سليمان... ما ينوه بشأن الكتاب». والغرض من الحذف التفضيح.

(١٣) هما جيفر وعمرو ملكا عمان، إمتاع الأسماع ١: ٤٣٣.

والملوك العظاء والسادة النجباء، لَفَعَلَ، وَلَوْجَدَ المَبْلَغَ المَحْصُومَ من الخطأ والزَّلَلِ، والتبَدُّل؛ ولكِنَّ ۞ عِلْمَ أَنَّ الكِتَابَ أَشْبَهَ بِنَتْلِ الحَالَةِ، وَأَلِيقَ بِنَتْلِ المَرَاتِبِ، وَأَبْلَغَ فِي تَعْظِيمِ مَا حَوَاهُ الكِتَابُ. وَحَمَلَهُ وَإِنْ كَثُرَ وَرَقُهُ، فَلَيْسَ مِمَّا يُمِيلُ؛ لِأَنَّهُ وَإِنْ كَانَ كِتَابًا وَاحِدًا، فَإِنَّهُ كُتِبَ كَثِيرَةً، فَإِنْ أَرَادَ قِرَاءَةَ الجَمِيعِ لَمْ يَصِلْ عَلَى البَابِ الأوَّلِ حَتَّى يَهِجُمَ عَلَى الثَّانِي، وَلَا الثَّالِثَ حَتَّى يَهِجُمَ عَلَى الرَّابِعِ، فَهُوَ أَوَّلًا مُسْتَفِيدٌ وَمُسْتَظَرَفٌ^(١)، وَبَعْضُهُ يَكُونُ حَاتِمًا لِبَعْضِ، وَلَا يَزَالُ نَشَاطُهُ زَائِدًا؛ مَتَى خَرَجَ مِنْ أَثَرِ صَارَ فِي خَبْرٍ، حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ خَبْرٍ إِلَى شِعْرٍ، وَمِنَ الشَّعْرِ إِلَى النَّوَادِرِ، وَمِنَ النَّوَادِرِ إِلَى تَنْفٍ وَإِلَى مَوَاعِظٍ، حَتَّى يَفْضَى بِهِ إِلَى مَرْجٍ وَفِكَاهَةٍ، وَمُلْحٍ وَمَضَاحِكٍ وَخُرَافَةٍ. وَكَانُوا يَجْعَلُونَ الكِتَابَ نَقْرًا فِي الصَّخُورِ، وَنَقْشًا فِي الحِجَارَةِ، وَحَلْقَةً مَرَكَبَةً فِي البُنْيَانِ - وَرَبْمَا كَانَ الكِتَابُ هُوَ النَّاقِي^(٢)، وَرَبْمَا كَانَ الكِتَابُ هُوَ المَحْفُورُ - إِذَا كَانَ ذَلِكَ تَارِيخًا لِأَمْرٍ جَسِيمٍ، أَوْ عَهْدًا لِأَمْرٍ^(٣) عَظِيمٍ، أَوْ مَوْعِظَةً يُرْتَجَى نَفْعُهَا، أَوْ إِحْيَاءَ شَرَفٍ يَرِيدُونَ تَحْلِيدَ ذِكْرِهِ؛ كَمَا كَتَبُوا عَلَى قَبَةِ غَمْدَانَ^(٤)، وَعَلَى بَابِ القَيْرَوَانِ، وَعَلَى بَابِ سَمَرْقَنْدٍ، وَعَلَى عَمُودِ مَآرِبٍ^(٥)، وَعَلَى رُكْنِ المُشَقَّرِ^(٦) وَعَلَى الأَبْلَقِ^(٧) الفَرْدِ مِنْ تَيْهَاءَ، وَعَلَى بَابِ الرَّهَاءِ^(٨) يَعْمَدُونَ إِلَى المَوَاضِعِ الرِّفِيعَةِ المَشْهُورَةِ، وَالأَمَاكِنِ المَذْكُورَةِ، وَيَضَعُونَ الحِطَّ فِي أَعْدِ المَوَاضِعِ مِنَ الدُّثُورِ، وَأَمْنَعِهَا مِنَ الدُّرُوسِ، وَأَجْدَرُ أَنْ يَرَاهَا مِنْ مَرٍّ، وَلَا تُنْسَى عَلَى مَرُورِ الدَّهُورِ. وَعَمَدُوا إِلَى الرُّسُومِ وَنَقُوشِ الحَوَاتِيمِ، فَجَعَلُوهَا سَبَبًا لِحِفْظِ الأَمْوَالِ وَالحِزَانِ؛ وَلَوْلَاهَا لَدَخَلَ عَلَى النَّاسِ الضَّرَرُ الكَبِيرُ. وَلَوْلَا خُطُوطُ المِهندِ لِضَاعِ مِنَ الحِسَابِ أَكْثَرُهُ، وَلَبَطَلَتْ مَعْرِفَةُ التَّضَاعِيفِ؛ وَنَفَعَ الحِسَابُ مَعْلُومٌ، وَالحَلَّةُ فِي مَوْضِعٍ فَقَدَهُ مَعْرُوفَةٌ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عِدَّةَ السِّنِينَ وَالحِسَابِ﴾^(٩).

وَلَوْلَا الكِتَابُ المَدُونَةُ وَالأَخْبَارُ المَخْلُودَةُ، وَالحِكْمُ المَخْطُوطَةُ^(١٠) الَّتِي تَجْمَعُ الحِسَابَ وَغَيْرَ الحِسَابِ، لِبَطَلِ أَكْثَرِ العِلْمِ. وَلَوْلَا الكِتَابُ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ أَهْلُ الرِّقَّةِ وَالمَوْصِلِ وَبَغْدَادَ وَاسْطَ مَا كَانَ بِالبَصْرَةِ أَوْ حَدَّثَ بِالكُوفَةِ فِي بِياضِ يَوْمٍ؛ حَتَّى تَكُونَ الحَادِثَةُ بِالكُوفَةِ عُدُوَّةً، فَيَعْلَمُهَا أَهْلُ البَصْرَةِ قَبْلَ المَسَاءِ، وَذَلِكَ مَشْهُورٌ فِي الحِمَامِ إِذَا أُرْسِلَتْ.

وَكَانَتْ العَرَبُ تَعْتَمِدُ^(١١) فِي مَآثِرِهَا عَلَى الشَّعْرِ المَوْزُونِ وَالكَلَامِ المَقْفِيِّ، وَكَانَ ذَلِكَ دِيوَانِهَا، عَلَى

(١) ك: «مستظرف».

(٢) ك: «الباقى». وما أثبتته من المحاسن والأضداد.

(٣) ك: «عهد عظيم» وما أثبتته من المحاسن والأضداد.

(٤) غمدان: قصر بصنعاء، بناه أليشر بن يحيى.

(٥) مآرب: قصر بين صنعاء وحضرموت من بلاد اليمن.

(٦) المشقر: حصن بالبحرين.

(٧) الأبلق القرد: حصن السموئل بن عاديا، وتياه: بلد بين الحجاز والشام.

(٨) الرها: مدينة بالجزيرة.

(٩) سورة يونس ٥.

(١٠) المحاسن والأضداد: «المحفوظة».

(١١) ك: «تعتمد» وما أثبتته عن الحيوان.

أنَّ الشَّعْرَ يفيدُ قُضِيْلَةَ البِيَانِ عَلى الشَّاعِرِ الرَّاعِبِ، وَفُضِيْلَةَ الأَثَرِ عَلى السَّيِّدِ المَرْغُوبِ إِلَيْهِ. وَكَانَتْ العِجْمُ تَقْيِدُ مَآثِرَهَا بِالبِنْيَانِ، فَبِنْتُ مِثْلَ بِنَاءِ أَرْدَشِيْرٍ، وَبِنَاءِ إِصْطَخْرَ وَبِيضَاءِ المَدَائِنِ، وَشِيْرِيْنِ^(١)، وَالمُدْنَ وَالحِصُونَ، وَالقَنَاطِرَ وَالجِسُورَ.

ثُمَّ إِنْ العَرَبُ شَارَكَتِ العِجْمُ فِي البِنْيَانِ، وَتَفَرَّدَتْ بِالشَّعْرِ، فَلَهَا مِنَ البِنْيَانِ عُمدَانِ، وَكِعْبَةٌ^(٢) نَجْرَانِ، وَقَصْرٌ مَآرِبِ، وَقَصْرٌ شُعُوبِ^(٣) وَالأَبْلَقُ القَرْدُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ البِنْيَانِ.

وَتَصْنِيفُ الكُتُبِ أَشَدُّ تَقْيِيْدًا لِلْمَآثِرِ عَلى مَرِّ الأَيَّامِ وَالدَّهُورِ مِنَ البِنْيَانِ؛ لِأَنَّ البِنْيَانِ لَا مَحَالَةَ يَدْرُسُ وَتَعْفُو رَسُومُهُ، وَالكِتَابُ بَاقٍ يَوقِعُ مِنَ قَرْنٍ إِلَى قَرْنٍ، فَهُوَ أَبَدًا جَدِيدٌ، وَالنَّاظِرُ فِيهِ مُسْتَفِيدٌ. وَهُوَ أَتْلَعُ فِي تَحْصِيْلِ المَآثِرِ مِنَ البِنْيَانِ وَالتَّصَاوِيرِ. وَأَهْلُ العِلْمِ وَالنَّظَرِ وَأَصْحَابُ الفِكرِ وَالعِبَرِ، وَالعُلَمَاءُ بِمَخَارِجِ المَلَلِ وَأَزْيَابِ النُّحْلِ وَوَرِثَةِ الأنْبِيَاءِ، وَأَعْوَانُ الخُلَفَاءِ؛ يَكْتُبُونَ كِتَابَ الظَّرْفَاءِ وَالمَلْحَاءِ، وَكُتُبَ المَلَاهِي وَالفِكَاهَاتِ، وَكُتُبَ أَصْحَابِ المَرَاءِ وَالحِصُومَاتِ، وَكُتُبَ أَصْحَابِ العَصِيْبَةِ وَحِمِيَةِ الجَاهِلِيَّةِ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يَفْرُطُ [فِي] التَّعَلُّمِ فِي أَيَّامِ جِهْلِهِ، وَخَمُولَ ذِكْرِهِ، وَحَدَاثَةِ سَنَةٍ.

وَلَوْلَا جِيَادُ الكُتُبِ وَحِسَانُهَا لَمَا تَحَرَّكَتْ هِمُّ هُؤُلَاءِ لَطَلْبِ العِلْمِ، وَنَازَعَتْ إِلَى حُبِّ الأَدَبِ، وَأُنْفَتَ مِنْ حَالِ الجَهْلِ، وَأَنْ تَكُونَ فِي عِمَارِ الحُشُوءِ^(٤)، وَيَدْخُلَ عَلَيْهِمُ الضَّرَرُ وَالحِقَارَةُ وَسُوءُ الحَالِ بِمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ لَا يَمْكِنُ الإِخْبَارُ عَن مَقْدَارِهِ إِلَّا بِالكَلَامِ الكَثِيرِ، وَلِذَلِكَ قَالَ عَمْرُ بْنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تَسُودُوا. وَقَالَ بَعْضُ الحُكَمَاءِ: ذَهَبَ المَكَارِمُ إِلَّا مِنَ الكُتُبِ.

وَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بالقَلَمِ﴾^(٥). فَوَصَفَ نَفْسَهُ تَعَالَى جَدُّهُ بِأَنَّهُ عَلَّمَ بالقَلَمِ، كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ بِالكَرَمِ، وَاعْتَدَّ بِذَلِكَ فِي نَعِيهِ العِظَامِ، وَأَيَّادِيهِ الحِجَامِ، وَوَضَعَ القَلَمَ فِي المَكَانِ الرَّفِيعِ، وَنَوَّهَ بِذِكْرِهِ، وَأَقْسَمَ بِهِ كَمَا أَقْسَمَ بِمَا يُحِطُّ بِهِ، فَقَالَ: ﴿يَنْ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾^(٦).

وَالقَلَمُ أَرْجَحُ مِنَ اللِّسَانِ؛ لِأَنَّ كِتَابَتَهُ تُقْرَأُ بِكُلِّ مَكَانٍ، وَيُظْهِرُ مَا فِيهِ عَلَى كُلِّ لِسَانٍ، وَيُوجَدُ مَعَ كُلِّ زَمَانٍ. وَمُنَاقَلَةُ اللِّسَانِ وَهَدِيَّتُهُ لَا يَجَاوِزَانِ مَجْلِسَ صَاحِبِهِ وَمَبْلَغَ صَوْتِهِ، وَالكِتَابُ يَخَاطِبُكَ مِنْ بَعِيدٍ؛ وَقَدْ قَالُوا: القَلَمُ أَحَدُ اللِّسَانِيْنَ. وَقَالُوا: كُلُّ مَنْ عَرَفَ النِّعْمَةَ فِي بَيَانِ اللِّسَانِ، كَانَ أَعْرَفَ بِفَضْلِ النِّعْمَةِ فِي بَيَانِ القَلَمِ، وَقَدْ يَعْتَرِي القَلَمَ مَا يَعْتَرِي المُوَدَّبَ عِنْدَ ضَرْبِهِ وَعِقَابِهِ، فَمَا أَكْثَرَ مَنْ يَعْزِمُ عَلَى عَشْرَةِ أَسْوَاطٍ فَيَضْرِبُ مَائَةً، لِأَنَّهُ ابْتَدَأَ الضَّرْبَ وَهُوَ سَاكِنُ الطَّبَاعِ، فَأَرَاهُ السُّكُونَ أَنَّ الصَّوَابَ فِي الإِقْلَالِ، فَلَمَّا ضَرَبَ تَحَرَّكَ دَمُهُ فَأَشَاعَ الحَرَارَةَ فِيهِ، وَزَادَ فِي غَضْبِهِ، فَأَرَاهُ الغَضْبَ أَنَّ الرَأْيَ فِي الإِكْتَارِ، وَكَذَا صَاحِبُ القَلَمِ، فَمَا أَكْثَرَ مَنْ يَبْتَدِئُ الكِتَابَ وَهُوَ يَرِيدُ مَقْدَارَ سَطْرِيْنِ فَيَكْتُبُ عَشْرَةَ!

(١) قصر شيرين: قريب من قرمسين في طريق بغداد.

(٢) كعبة نجران: بنية بناها بنو عبد المدان على بناء الكعبة وعظموها مضاعة للكعبة.

(٣) قصر شعوب: قصر باليمن معروف بالارتفاع.

(٤) الحشوة: رذال الناس. (٥) سورة العلق ٣، ٤. (٦) سورة القلم ١.

وقد قيل: القلم الشاهد والغائب، يُقرأ بكلِّ لسان، وفي كلِّ زمان.
وقالوا: ظاهر عقول الرجال في اختيارها، ومدون في أطراف أقالمها؛ ومصباح الكلام حسن الاختيار.

وقالوا: القلم مجهز جيوش الكلام، يخدم الإرادة، ولا يمل الاستزادة، ويسكت واقفاً، وينطق سائراً على الأرض، بياضه مظلم، وسواده مضيء؛ وقال الشاعر^(١):

قَوْمٌ إِذَا خَافُوا عِدَاوَةَ مَعْشَرٍ سَفَكُوا الدِّمَاءَ بِأَسِنَّةِ الْأَقْلَامِ
وَلَشَقَّةٌ مِنْ كَاتِبٍ بِمَدَادِهِ أَمْضَى وَأَقْطَعُ مِنْ صَنِيعِ حُسَامِ

[الكامل]

وقال آخر أيضاً:

لَعَمْرُكَ مَا السِّيفُ سَيْفُ الْكَيْمِ بِأَخْوَفٍ مِنْ قَلَمِ الْكَاتِبِ
لَهُ غَايَةٌ إِنْ تَأَمَّلْتَهَا ظَهَرَتْ عَلَى سِرِّهِ الْغَائِبِ
أَدَاةُ الْمَنِيِّ فِي جَانِبِيهِ فَمِنْ مِثْلِهِ رَهْبَةُ الرَّاهِبِ
سِنَانُ الْمَنِيِّ فِي جَانِبِ وَسَيْفُ الْمَنِيِّ فِي جَانِبِ
أَلَمْ تَرِ فِي صَدْرِهِ كَالسِّنَانِ وَفِي الرُّدْفِ كَالْمَرْهَفِ الْقَاضِبِ
فِيَجْرِي بِهِ الْكُفُّ فِي حَالِهِ عَلَى هَيْئَةِ الطَّاعِنِ الضَّارِبِ

[المتقارب]

وقال آخر أيضاً ملفزاً:

وَأَعْجَفَ رِجْلَاهُ فِي رَأْسِهِ يَطِيرُ حَثِيثًا عَلَى الْأَمْلَسِ
مَطَايَاهُ مِنْ تَحْتِهِ الْإِصْبَعَانِ وَلَوْلَا مَطَايَاهُ لَمْ يُلْمَسِ

[الطويل]

وقال آخر سامحه الله: ^(٢)

وَأَعْجَفَ مُنْشَقَّ الشَّبَابَةِ مُقَلِّمٍ مُؤَشَّى الْقَرَأِ طَاوِي الْحِشَاءِ أَسْوَدَ الْقَمِّ^(٣)
إِذَا هُوَ أَضْحَى فِي الدَّوَاةِ فَأَعْجَمٌ وَيُضْحَى فَصِيحًا فِي يَدِي غَيْرِ أَعْجَمِ
يَنَاجِي مَنَاجَاةَ أَعْرَ مُرَّرًا مَتَى أَسْتَمِعَ مَعْرُوفَهُ يَتَبَسَّمُ

[الوافر]

وقال آخر رحمه الله: ^(٤)

لَكَ الْقَلَمُ الَّذِي لَمْ يَجْرِ يَوْمًا بِغَايَةِ مَنْطِقِي فَكَبَا بَعِي

(١) لابن الرومي، ديوانه الورقة ١٦، وهي أيضا في زهر الأدب ٤٣٢ مع اختلاف في الرواية.

(٢) الأبيات في أدب الكتاب للصولي ٨١ مع اختلاف في الرواية، ونسبها إلى القضاض.

(٣) القراء: الظاهر. (٤) الأبيات في أدب الكتاب للصولي ٨٥ مع اختلاف الرواية.

وَيَجْرَحُ، وَهُوَ ذُو بَالٍ رَخِيٌّ
وَلَا الضَّمَامُ سَيْفُ الْمَذْجَجِيِّ

[مخلع البسيط]

وَمَيْتَسَمٌ عَنِ الْقِرطَاسِ يَأْسُو
فَمَا الْمِقْدَادُ أَعْضَبُ مِنْ شِبَاهِ

وقال وأجاد:

وَلِحَظَةِ الْوَعْدِ مِنْ حَبِيبِ
مُصِيبَةِ الْعَوْدِ وَالْقَضِيبِ
فِي رَاحَتِي شَادِنِ رَبِيبِ
طَالَتْ بِهِ مَدَّةَ الْمَغِيبِ
تُنَمِّقُ الصَّبْرَ فِي الْقُلُوبِ
أَطْرَبَ مِنْ عَاشِقِ طُرُوبِ

[البسيط]

أَحْسَنُ مِنْ غَفَلَةِ الرَّقِيبِ
وَالنَّغْمِ وَالنَّقْرِ مِنْ كَعَابِ
وَمِنْ بَنَاتِ الْكُرُومِ رَاحًا
كَتَبُ أَدِيبِ إِلَى أَدِيبِ
فَنَمَّقَتْ كَفَّهُ سَطُورًا
تَتْرَكُ مِنْ سَطُرَتْ إِلَيْهِ

وقال آخر:

خَوْفًا عَلَيْهَا لَمَّا أَخْشَى مِنَ التُّهْمِ
مِنهَا ثَلَاثَةُ أَقْلَامٍ عَلَى قَلَمِ^(١)

[مجزوء الوافر]

إِذَا اسْتَمَدَّتْ صَرَفَتْ الطَّرْفَ عَنْ يَدِهَا
كَأَنَّمَا قَابَلَ الْقِرطَاسَ إِذَا مَشَقَّتْ

وقال أشجع في جعفر البرمكي:

تَبَيَّنَ فَضْلُهُ الْقَلَمَ
لِفَضْلِ الْكُتُبِ مُذْنَجًا

[مجزوء الوافر]

إِذَا أَخَذَتْ أَنْامِلُهُ
تَطَاطَأَ كُلُّ مَرْتَفَعٍ

يقدم ويؤخر، أراد: إذا أخذت أنامله القلم تبين فضله.

وفي الخط قال: نظر المأمون إلى مؤامرة بخط حسن، فقال: لله در القلم، كيف يحوك وشي

المملكة!

وقال يحيى بن خالد البرمكي: الخط صورة رُوحها البيان، ويدها السرعة، وقدهاها التسوية، وجوارحها معرفة الفصول.

وقال في مثله رحمه الله تعالى:

فَدَيْتُكَ مِمَّ تَجْتَنِبُ الْجَلِيلَا
دَقِيقًا مِثْلَ صَاحِبِهِ نَحِيلَا

[الوافر]

تَقُولُ وَقَدْ كَتَبْتُ دَقِيقَ خَطِّي
فَقَلْتُ لَهَا: نَحَلْتُ فَصَارَ خَطِّي



وقال علي بن الجهم في صفة الكُتُب: إذا غَشِيَنِي النَّعَاسُ فِي غَيْرِ وَقْتِ النَّوْمِ تَنَاوَلْتُ كِتَابًا، فَأَجِدُ اهْتِرَازِي مِنَ الْفَوَائِدِ [التي] فِيهِ، وَالْأَرْبَحِيَّةِ الَّتِي تَعْتَادُنِي وَتَعْتَرِيَنِي مِنْ سُرُورِ الْإِسْتِنْبَاهِ^(١) وَعَزِّ التَّبْيِينِ؛ أَشَدَّ إِيقَاطًا مِنْ نَهْيِ الْحِمَارِ، وَهَذَّةِ الْهَدْمِ^(٢). وَإِنِّي إِذَا اسْتَحْسَنْتُ كِتَابًا وَاسْتَجِدَّتْهُ رَجَوْتُ فِيهِ فَائِدَةً؛ فَلَوْ تَرَانِي سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ أَنْظُرُكُمْ بَقِيَّ مِنْ وَرَقِهِ، مَخَافَةَ اسْتِنْفَادِهِ وَانْقِطَاعِ الْمَادَّةِ مِنْ قِبَلِهِ، وَإِنْ كَانَ الْكِتَابُ عَظِيمَ الْحَجْمِ، وَكَانَ الْوَرَقُ كَبِيرَ الْقَدْرِ، [فَقَدْ تَمَّ عَيْشِي، وَعَظَمَ سُرُورِي]^(٣).

وَدَكَرَ لَهُ الْعُتْبِيُّ كِتَابًا لِبَعْضِ الْقَدَمَاءِ، فَقَالَ: لَوْلَا طَوْلُهُ لَنَسَخْتَهُ؛ فَقَالَ: مَا رَغِبْتِي إِلَّا فِيهَا زَهْدَتَ عَنْهُ، وَمَا قَرَأْتُ كِتَابًا كَبِيرًا فَأَخْلَانِي مِنْ فَائِدَةٍ، وَلَا أَحْصِي كَمْ قَرَأْتُ مِنْ صِغَارِ الْكُتُبِ فَخَرَجْتُ مِنْهَا كَمَا دَخَلْتُ فِيهَا^(٤).

وقال ابن داحية: كان عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا يجالس الناس، ونزل مقبرة من المقابر، وكان لا يكاد يرى إلا وفي يده كتاب يقرأ فيه^(٥)، فسئل عن ذلك وعن نزوله المقبرة، فقال: لم أر أوعظ من قبر، ولا أنس من كتاب، ولا أسلم من الوحدة^(٦).

وقيل لابن داحية وقد أخرج إليه كتاب أبي الشَّمَمَقِ وهو في جلود كوفية، ودفتين^(٧) طائفيتين لا بخط عجيب، فقال: لقد ضيع درهمه صاحب هذا الكتاب، وقال: والله إن القلم ليعطيكم مثل ما تعطونه؛ ولو استطعت أن أودعه سويداء قلبي وأجعله مخطوطاً على ناظرى لفعلت.

وقال بعضهم: كنت عند بعض العلماء، وكنت أكتب عنه بعضاً وأدع بعضاً، فقال لى: اكتب كل ما تسمع، فإن أحسن ما تسمع خير من مكانه أبيض.

وقيل:

| | |
|--------------------------|--|
| أما لو أعى كل ما أسمع | وأحفظ من ذلك ما أجمع ^(٨) |
| ولم أستفد غير ما قد جمعت | لقليل هو العالم المقتنع ^(٩) |
| ولكن نفسي إلى كل نو | ع من العلم تسمع تنزع |
| فلا أنا أحفظ ما قد جمعت | ، ولا أنا من جمعه أشبع ^(١٠) |
| ومن يك في علمه هكذا | يرى دهره القهقري يرجع |

(٤) الحيوان ١: ٥٣، ٥٤.

(٥) الحيوان: «يقرؤه».

(١) الحيوان ١: ٥٢، «الاستبانة».

(٢) الهدم: الصوت.

(٣) تكلمة من الحيوان ١: ٥٢.

(٦) الحيوان ١: ٦٢، وذكر بعدها: «فقليل له: قد جاء في الوحدة ما جاء! فقال: ما أفسدها للجاهل، وأصلحها للعاقل».

(٧) في ك: «وورقتين طابقتين ما بخط»، وما أثبتته من الحيوان ١: ٦١.

(٨) محاسن الملاحظ ١٣، ونسبها إلى الأصمعي، والحيوان ١: ٥٩، ونسبها إلى محمد بن يسير.

(٩) الحيوان: «المصنم».

(١٠) بعده في الحيوان:

وَأَخْصَرَ بِالْوَعْيِ فِي تَجَلِّيسِي وَعَلِمِي فِي الْكُتُبِ مُسْتَوْدَعِي

إذا لم تكن حافظًا واعيًا فجمعك للكُتُبِ لا يَنْفَعُ
[المتقارب]

وقال بعضهم: الحفظ مع الإقلال أمكن، ومع الإكثار أبعُد؛ وهو للطباع مع رطوبة القضيبي أقبِل.
ومنها قول الشاعر:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبي خاليًا فتمكَّنَّا^(١)
[الطويل]

وقيل: التعلُّم في الصِّغر، كالنَّقش في الحجر؛ فسمع ذلك الأحنف فقال: الكبيرُ أكثرُ عقلًا، ولكنه أكثرُ شغلًا.
وكما قال:

وإن من أدبته في الصِّبا كالعودِ يُسقى الماءَ في غرسِهِ^(٢)
حتى تراه مورقًا ناضرًا بعد الذي أبصرت من يُيسِهِ
[السريع]

والصبي على الصِّبا أفهم، وله ألف، وإليه أنزع، وكذلك العالم على العلم، والجاهل على الجهل، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾^(٣)؛ لأن الإنسان عن الإنسان أفهم، وطباعه بطباعه آنس، ومن التقط كتابًا جامعًا كان له غنمه، وعلى مؤلفه غرْمه، وكان له نفعه، وعلى صاحبه كدّه، ومتى ظفر بمثله صاحب علم فهو وادع جام، ومؤلفه متعوب مكدود، وقد كفى مؤنة جمعه وتبعه، وأغناه عن طول التفكير، واستنفاد العمر، وكان عليه أن يجعل ذلك من التوفيق والتسديد إذا بالغ صاحبه في تصنيفه، وأجاد في اختياره.
قال أبو هفان:

إذا آنس الناس ما يجمعون أنست بما يجمع الدفتر
له وطرى وله لذي على الكأس؛ والكأس لا تحصر
تدور على الشرب محمودة لها الموردُ الحرقُ والمُصدِرُ^(٤)
يغنيهم ساحرُ المقتلين كشمس الضحى طرفه أحورُ
وريحانهم طيبُ أخلاقهم وعندهم الوردُ والمبهرُ^(٥)
على أن همتنا في الحروب فتلك الصناعة والمتجرُ

[المتقارب]

(١) للمجنون، ديوانه ٢٨٣.

(٢) الحيوان ١: ٤٠، ٤١، ونسبها إلى صالح بن عبدالقدوس.

(٣) سورة الأنعام ٩.

(٤) الحرق: الكريم.

(٥) ك: «المبقر».

قال: لما قلتها عرضتها على ابن دِهقان، فقال: إذا سمع بها الخليفة استغنى بها عن الندماء.

وأنشد غيره:

نعم المحدث والرفيق كتاب
لامفشيًا سرًا إذا استودعته
تلهو به إن خانك الأصحاب
وتنال منه حكمةً وصوابٌ

[الكامل]

وقال آخر:

نعم الجليس بعقب قعدة ضجرة
ورق تضمن من خطوط أنامل
للملك والأدباء والكتاب
فيقال خلو، وهو في الأصحاب

[الكامل]

قال: وأنشدنا أبو الحسن على بن هارون بن يحيى النديم رحمه الله:

إذا ما خلوت من المونسين
فلم أخل من شاعر محسن
ومن حكيم بين أثنائها
وإن ضاق صدرى بأسراره
وإن صرح الشعر باسم الحبيب
وإن عذت من ضجرة بالهجاه
فناديت منه كريم الغيب
فلمست أرى مؤثرًا ما حبيت

[المقارب]

وقال في الذهن:

إذا ما عدت طلبة العلم ما لها
عدوت بتشمير وجد عليهم
من العلم إلا ما يخلد في الكتب
ومجبرتي سمعي ودقترها قلبي

[البيسط]

وقال آخر:

يأبى الطالب الآداب مبتدرا
فحملها أدب تحوى به أدبا
لا تشه عن حملك الألواح للأدب
وسوف تنقل ما فيها إلى الكتب

(١) المنذر: من يأتي بالنادر من القول أو الفعل، وفي ك: «مبدر» تحريف.

وليس في كلِّ وقتٍ ممكناً قلمٌ ودَفترٌ يا عديم المثل في الحسبِ

وكلُّ ما تقدّم ذكرُهُ من مناقبِ الكُتُبِ ووصفِ محاسنها؛ فهو دون ما يستحقُّه كتابنا هذا؛ فقد اشتمل على محاسن الأخبار، وطرائف الآثار؛ وترجمناه بكتاب «المحاسن والمساوي»؛ لأن المصلحة في ابتداء أمر الدنيا إلى انقضاء مدتها، امتزاج الخير بالشرِّ، والضارُّ بالنافع، والمكروه بالمحبيب، ولو كان الشرُّ صرفاً مَحْضاً لهلك الخلق، ولو كان الخيرُ مَحْضاً لسقطت المحبَّة، وتقطعت أسبابُ الفِكرَةِ، ومتى بطل التخيير، وذهب التميّز، لم يكن صبرٌ على مكروهه، ولا شكرٌ على محبوب، ولا تعاملٌ ولا تنافس في درجة، وما توفيقنا إلا بالله، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

واقفتحنا كتابنا هذا بذكر النبي ﷺ، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين الأبرار الأخيار، لما رجونا فيه من الفضل والبركة، واليمن والتوفيق. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وإخوته من النبيين وآله الطيبين أجمعين.

محاسن رسول الله

صلى الله عليه وسلم

اختاره^(١) الله من خير أرومات^(٢) العرب عُصْرًا، ومن أعلى ذوائب قريشِ قَرْعًا، وأكرم عيدان قَصِيَّ مَجْدًا، ثم لم يزل بلطفه لنبينه ﷺ وآله، واختياره إياه بالآباء الأخير، والامتهات الطواهر؛ حتى أخرجَه في خير زمان، وأفضل أوان. تفرَّع من شجرةٍ باسقةٍ الندى، شامخة العلاء، عربية الأصل، قرشية الأهل، منافية الأعطان، هاشمية الأغصان، ثمرتها القرآن. تندى بماء ينابيع العلم، في رياض الحلم، لا يدوى عودها، ولا تحفُ ثمرتها، ولا يضل أهلها، أصلها ثابت، وفرعها نابت^(٣). فيألها من شجرة ناضرة، خضراء ناعمة أغرست في جبلٍ قفر، وبلدٍ وعر، محلٍ ضرع، غير ذى زرع؛ عند بيتك المحرم، وبلدك المكرم، فهو صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الأخيار كما قال بعض الحكماء: لئن كان سليمان عليه السلام أعطى الرِّيحَ عُذُّوها شهر ورواحها شهر، لقد أعطى نبينا ﷺ البراق الذى هو أسرع من الرِّيح. ولئن كان موسى عليه السلام أعطى حجرًا تتفجر منه اثنتا عشرة عينًا، لقد وضع أصابعه عليه وعلى آله السلام في الإناء والماء ينبع من بين أصابعه حتى ارتوى أصحابه رضى الله عنهم وما لهم من الخيل. ولقد كان رديف^(٤) عمه أبي طالب بذي المجاز^(٥)، فقال: يا بن أخى قد عطشت، فقال: عطشت يا عم؟ قال: نعم، فثنى وركه فنزل، وضرب بقدمه الأرض، فخرج الماء، فقال: اشرب؛ فشرب حتى روى. ولئن كان عيسى عليه السلام أحيا النفس بإذن الله، لقد رفع ﷺ ذراعًا إلى فيه فأخبرته أنها مسمومة، وكان ﷺ يخبر بما في الضمائر، وما يأكلون، وما يدخرون.

ثم دعاؤه المستجاب الذى لا تأخير فيه، وذلك أن النبى ﷺ، لما لقي من قريش والعرب من شدة أذاهم له، وتكذيبهم إياه، واستعانتهم عليه بالأموال، دعا أن يجيب^(٦) بلادهم، وأن يدخل الفقير بيوتهم، فقال: «اللهم اجعلها عليهم سنين كسنى يوسف. اللهم اشدد وطأتك^(٧) على مضر» فأمسك الله عز وجل عنهم القطر حتى مات الشجر، وذهب الثمر، وقلت المراعى، فماتت المواشى،

(١) ك: «اختاره».

(٢) الأرومة، بفتح الهمزة وضماها: أصل الشجرة؛ وتستعار للحسب.

(٣) ك: «ثابت».

(٤) الرديف: الراكب خلف الراكب.

(٥) ذو المجاز: موضع بعرفة؛ كان به سوق تقام ثمانية أيام في الجاهلية.

(٦) ك «تخرب».

(٧) ك: «أوطانك»؛ والصواب ما أثبتته من الكامل ٢: ٨٢.

حتى اشتروا القِدًّا^(١)، وأكلوا العِلْهَزَ^(٢)، فعند ذلك وقد حاجبُ بنُ زُرارةٍ إلى كِسْرَى يشكو إليه الجَهْدَ والأزْلَ^(٣) ويستأذنه في رَعَى السَّوَادِ، وهو عَيْنِ ضَمِينٍ عن قومه وأرهنه قوسه^(٤) فلما أصاب مُضْرَّ خِصَاصَةِ الجَهْدِ، ونَهَكَمُ الأَزْلَ، وبلغت الحجَّةُ مبلغها، وانتهت الموعظةُ منتهاها، دعا بفضلَه ﷺ الذي كان بدأهم به، فسأل ربَّه عزَّ وجلَّ الحِصْبَ وإِدْرَارَ الغَيْثِ^(٥)، فاتاهم منه ما هَدَمَ بيوتهم، ومنعهم^(٦) حوائجهم، فكلموه في ذلك، فقال: «اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا»، فأمر الله ما حوَّاهم. ودعا صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم على المُسْتَهْزِئِينَ بكتاب الله عزَّ وجلَّ. وكانوا اثني عشر رجلاً، فكفاه الله جلَّ اسمه أمرهم، فقال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾^(٧).

وقصة عامر بن الطفيل ودعاؤه عليه^(٨). وناطقه ﷺ ذئبٌ، وأظلمته غمامة، وحنَّ إليها عود المنبر، وأطعم عسكراً من ثريدة^(٩) في جسم قطة، وسقى عامراً، ووضأهم من مِضْأةٍ جسم صاع. ورسوخ قوائم فرس سُراقَةَ بن جُعْشَمِ^(١٠) في الأرض، وإطلاقه له بعد أن أخذ موثقه، ومَرِيه ضرعَ شاةٍ حائل^(١١) فعادت كالحامل، والتزاق الصخرة بيد أربد، وما أراه الله عزَّ وجلَّ أباً جهل حين أهوى بالصخرة نحو رأس رسول الله ﷺ وهو ساجد، فظهر له فحلٌ ليلقُم رأسه، فرمى بالصخرة، ورجع يشدُّ إلى أصحابه، قد انتفع لونه، فقالوا له: ما بالكَ؟ فقال: رأيتُ فحلاً لم أر مثله يريد هامتي.

وأما ما أراه الله أعداءه من الآيات فأكثر من أن يُحصَى.

منها ما رواه عبد الله بن وهب^(١٢) عن اللَّيْثِ بن سعد، قال: أتى أربد بن ربيعة وعامر بن الطفيل إلى رسول الله ﷺ، فقال أحدهما للآخر: أنا أشغله بالكلام حتى تقتله، فوقف أحدهما على النبي ﷺ، فلما طال عليه انصرف، فقال لصاحبه: ما صنعت شيئاً! قال: رأيتُ عنده شيئاً رجله في الأرض ورأسه في السماء، لو دنوتُ منه أهلكني، وأما أربد فأصابته صاعقة، وأنزل الله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾^(١٣)؛ وأما عامر فإنه قال لرسول الله ﷺ: لنا

(١) القد: السير يقد من المجد غير مديوخ. (٦) القد: السير يقد من المجد غير مديوخ.

(٢) الطلّيز: طعام من الدم والوبر.

(٣) الأزْل: الشدة والجهد.

(٤) أرهنه الشيء: جعله رهناً.

(٨) في خبر ذكره المبرد في الكامل ٤: ٣٦، ٣٢؛ قال فيه: إن عامراً قال للنبي عليه السلام: لأغزونك على ألف أشقر وألف شقراء. فقال عليه السلام: «اللهم إن لم تهد عامراً فاكفنيه»، ثم ذكر أن عامراً غدَّ بعد ذلك ومات في ديار بني سلول بن حصصمة.

(٩) الثريدة: كسرة الحبز المبلولة بماء اللحم.

(١٠) ك: «جعشم»؛ والصواب ما أثبتته من القاموس.

(١١) في الإحياء ٢: ٣٨٦ في فصل عن معجزاته ﷺ: «ومسح ضرع شاة حائل لآل بن لها».

(١٢) في ك: «وهب بن منبه»، وهو خطأ؛ فوهب بن منبه مات سنة ١١٠ على المشهور، والليث بن سعد مات سنة ١٧٥؛

ولعل الصواب ما أثبت؛ فالليث بن شيوخ ابن وهب، والخبر في تفسير الطبري، يرويه عن يونس عن ابن وهب. وانظر تهذيب

التهذيب ٨: ٤٥٩.

(١٣) سورة الرعد: ١١.

أهل الوبر، ولكم أهل المدر، فقال ﷺ: «لكم الأعنة»، فقال: لأملأها خيلا عليكم ورجلا، فلما ولي قال رسول الله ﷺ: «اللهم اكفنيه»، فأخذته غدة فقتلته.

وعن محمد بن عبد الله، قال: بينا رسول الله ﷺ قائم يصلي، إذ رآه أبو جهل، فقال لنفر من قريش: لأذهبن فأقتلن محمداً، فدنا منه؛ قال: ورسول الله ﷺ قائم يصلي ويقرأ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ..﴾^(١) حتى بلغ آخرها، فانصرف أبو جهل وهو يقول: هذا وأبيكم وعيد شديد، فلقى أصحابه فقالوا له: ما بالك لم تقتله! قال: والله إن بيني وبينه رجلاً له كتيبت^(٢) ككتيبت الفحل يعدو بي، يقول: أدن أدن.

وعن عبد الله، أن أعرابياً جاء بعكة^(٣) من سمن، فاشتراها أبو جهل، فأمسك العكة وأمسك الثمن، فشكاه الأعرابي إلى قريش فكلموه، فأبى عليهم، فقال بعض المستهزئين: يا أعرابي، أتحب أن تأخذ عكتك وتمنها؟ قال: بلى، قال: أترى هذا الرجل المار؟ الله فكلمه - يعنى النبي ﷺ. فأتاه الأعرابي وشكا إليه أمر العكة، فخرج ﷺ حتى وقف بباب أبي جهل فناده باسمه، فخرج إليه ترعد فرائصه، فقال له: أد إلى هذا عكته وتمنها. فدخل أبو جهل، فدفع إلى الرجل العكة، فخرج الأعرابي إلى قريش وأخبرهم بذلك، ثم خرج أبو جهل، فقالت له قريش: كلمناك أن تؤدى الأعرابي حقه فأبيت، ثم جاءك ابن عبد المطلب فدفعته إليه ذلك! فقال: إن معه لجملاً فاتحاً فاه، ينظر ما أقول، فيلتقم رأسي، فما وجدت بداً من إعطائه حقه.

وأما أنس الوحش به، فيما حدثنا إسماعيل بن يحيى بن محمد، عن سعيد بن سيف بن عمر، عن أبي عمير، عن الأسود قال: سألت رجل هندی بن^(٤) أبي هالة...^(٥): حدثنا بأعجب ما رأيت أو بلغك عن رسول الله ﷺ. فقالت: كل أمره كان عجباً، وأعجب ما رأيت، أنه كان لي ربائب وحش كنت أنس بهن وألفهن، فإذا كان يومه الذي يكون فيه عندي لم يزلن قياماً صواف ينظران إليه، ولا يلهيهن عن النظر إليه شيء، ولا ينظرن إلى غيره، فإذا شخص قائماً سمون إليه بأبصارهن، فإذا انطلق مولىً لاحظنه النظر، فإذا غاب شخصه عنهن ضربن بأذنانهن وأذانهن، وكان ذلك يعجبني.

وعن عبد الملك بن عمير، أن النبي ﷺ مر بظبية عند قانص، فقالت: يا رسول الله، إن ضرعى قد امتلأ، وتركت خشفين^(٦) جاعين، فخلني حتى أذهب وأرويهما، ثم أعود إليك فتربطني، فقال:

(١) سورة العلق: ٢٠١. (٢) الكتيبت: أول هدر البكر.

(٣) العكة للسمن كالثكوة للبن، وهي أصغر من القرية.

(٤) ك: «بنت»، تصحيف؛ وهند بن أبي هالة التميمي، ربيب النبي ﷺ أمه خديجة وانظر الإصابة ٣: ٥٧٨.

(٥) بياض بالأصل، والحديث بما يقرب من هذه الرواية نقله صاحب إمتاع الأسماع ٣: ٦٢٧ - مصورة دار الكتب

المصرية) عن عائشة من عدة طرق.

(٦) الخشف: ولد الظبية أول ما يولد.

«صيد قومٍ وَزَيَّبَتْهُمْ»، قالت: يا رسول الله، فإني أعطيك عهداً الله لأرجعن، فأخذ عليها عهداً الله، ثم أطلقها وأرسلها، فما لبثت إلا يسيراً حتى جاءت وقد فرغت ما في ضرعها، فقال ﷺ: «لمن هذه الطيبة؟ قالوا: لفلان، فاستوهبها منه، ثم خلى سبيلها، وقال: «لو أن البهائم تعلم ما تعلمون من الموت، ما أكلتم سمينا»^(١)».

وأما محاسن شهادات السباع له بالنبوة، فمن ذلك ما روى أن أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية خرجا من مكة، فإذا هما بذئب يكذب طيبة؛ حتى إن نفسه كاد أن يبلغ ظهر الطيبة أو شبهاً بذلك، إذ دخل الطيبى الحرم، فرجع الذئب، فقال أبو سفيان: ما أرض سكتها قوم أفضل من أرض أسكنها الله إيانا؛ أما رأيت ما صنع الذئب! أعجب منه حين رجع! فقال الذئب: أعجب من ذلك محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بالمدينة، يدعوكم إلى الجنة، وتدعونه إلى النار. فقال أبو سفيان: واللوات والعزى، لئن ذكرت ذلك بمكة لنتركها خلوا!

وذكروا أن رافع بن عميرة بن جابر كان يرعى غنماً، إذ غار الذئب عليها، فاحتمل أعظم شاة منها، فشد عليه رافع ليأخذها منه، وقال: عجبا للذئب يحتمل ما حمل! قال: فأقضى الذئب غير بعيد؛ وقال: أعجب منه أنت! أخذت مني رزقا رزقنيه الله تعالى؛ فقال رافع: يا عجبا للذئب يتكلم! فقال الذئب: أعجب من ذلك، الخارج من تهامة يدعوكم إلى الجنة، وتأبون إلا دخول النار! فأقبل الرجل إلى النبي ﷺ، وقد جاءه جبريل عليه السلام فأنبأه بما كان؛ فقص النبي ﷺ ما كان، فأمن وصدق، وقال^(٢):

| | |
|---|---------------------------------------|
| رَعَيْتُ الضَّأْنَ أَحْمِيهَا بِنَفْسِي | من اللص الحفي وكل ذئب ^(٣) |
| فَلَمَّا أَنْ رَأَيْتُ الذَّنْبَ يَعْوِي ^(٤) | وبشرني بأحمد من قريب |
| يَبْشُرُنِي بِدِينِ الْحَقِّ حَتَّى | تبيئت الشريعة للمنيب |
| رَجَعْتُ لَهُ وَقَدْ شَمَرْتُ نَوْبِي | عن الكعبين معتمدا ركوب ^(٥) |
| فَالْقَيْتُ النَّبِيَّ يَقُولُ قَوْلًا | صوابا ليس بالقول الكذوب |
| أَلَا أُبَلِّغُ بَنِي عَمْرٍو بِنِ عَوْفٍ | وأختهم جديلة أن أجيبى |
| دُعَاءَ الْمُصْطَفَى لَا شَكَّ فِيهِ | فإنك إن تحببى لا تخيبى |

ومن محاسن رسول الله ﷺ وبركته، ما رواه محمد بن إسحاق، عن سعيد بن ميناء، عن جابر بن عبدالله قال: عملنا مع رسول الله ﷺ في الخندق، وكانت عندي شوية غير سمينة، فقلت: والله لو صنعت هذه الشاة لرسول الله ﷺ! قال: فأمرت امرأتى، فطحنت شيئا من شعير، فصنعت له

(١) ك: «سمنا».

(٢) الاستيعاب ١٧٥.

(٣) الاستيعاب: «من اللص واللصت سواء».

(٤) الاستيعاب: «فلما أن سمعت».

(٥) الاستيعاب: «على الساقين قاصرة الركيب».

منه خبزًا، وذبحت الشاة، فشويتها، فلما أمسينا، وأراد رسول الله ﷺ الانصراف، قلت: يا رسول الله، إنى صنعت لك شويةً وشيئا من خبز الشعير، وأحب أن تنصرف معي إلى منزلي - وإنما أريد أن ينصرف معي رسول الله ﷺ وحده - فلما قلت له ذلك، قال: نعم، ثم أمر بصارخ فصرخ: «انصرفوا إلى بيت جابر» فقلت: «إنا لله وإنا إليه راجعون»! وأقبل رسول الله ﷺ والناس معه، فأخرجتها إليه، فسمى ثم أكل وتواردها الناس، كلما فرغ قوم قاموا وجاء قوم حتى صدر أهل الخندق عنها.

وروى عن محمد بن إسحاق أن ابنة لبشير بن سعد، قالت: دعيت أُمِّي عمرة ابنة رَواحة فأعطتني حَفَنَةً تمر في ثوبي وقالت: يا بُنَيَّةُ، اذهبي إلى أبيك بهذا. قالت: فأخذتها وانطلقت بها، فمررت برسول الله ﷺ وأنا ألتمس أبي، فقال عليه الصلاة والسلام: «تعالى يا بُنَيَّةُ، ما هذا معك؟» قلت: تمر بعثت به أُمِّي إلى أبي بشير بن سعد، فقال: «هاقي به» فصبيته في كَفَى رسول الله ﷺ فما ملأتهما. ثم أمر بثوب فبسط، ثم دَحَا^(١) التمر عليه فتبدد فوق الثوب، ثم قال لإنسان عنده: «ناد في أهل الخندق، أن هلموا إلى الغداء». فاجتمع أهل الخندق عليه، فجعلوا يأكلون منه، وجعل هو يزداد حتى صدر أهل الخندق عنه وهو يسقط من أطراف الثوب^(٢).

ومن آياته ﷺ ما لا يعرفها إلا الخاصة، وهي محاسن أخلاقه وأفعاله التي لم تجتمع لبشر من قبله، ولا تجتمع لأحد من بعده؛ وذلك أنا لم نر، ولم نسمع لأحد قط صبره وحلمه^(٣)، ووفائه وزهده، وجوده ونجدته، وصدق لهجته، وكرم عشيرته وتواضعه، وعلمه وحفظه، وصمته إذا صمت، ونطقه إذا نطق، ولا كفهوه وقلة امتنانه، ولم نجد شجاعاً قط إلا وقد فر؛ مثل عامر فر عن أخيه الحكم يوم الرِّقْمِ^(٤)، وعيينه فر عن أبيه يوم نِسار^(٥)، وبسطام عن قومه يوم العُظَالِي^(٦).

وكان له ﷺ وقائع، مثل أحد وحنين وغيرها فلا يستطيع منافق أن يقول: هاب حرباً أو خاف.

(١) دحاه: بسطه.

(٢) سيرة ابن هشام ٣: ٢٣٣، مع اختلاف في الرواية.

(٣) «وحلمه».

(٤) يوم الرِّقْمِ، لعطفان على بنى عامر، والرِّقْمِ: جبال دون مكة.

(٥) لضية وتيمم على بنى عامر، والنِسار: جبال صغار.

(٦) ذكره ياقوت، وقال: «وفر بسطام بن قيس الشيباني في هذا اليوم، فقال فيه ابن حوشب:

فإن يك في يوم الغبيط ملامةً فيوم العُظَالِي كان أحرزى وألومًا
وفر أبو الصهباء إذ حس الوغى وألقى بأبدان السلاح وسلاً

[الطويل]

وأما زهده ﷺ، فإنه ملك من أقصى اليمن إلى شحر عُمان، إلى أقصى الحجاز، إلى عذار^(١) العراق، ثم توفي ﷺ وعليه دين، ودرعه^(٢) مرهونه في ثمن طعام أهله، لم يبن داراً، ولا شيّد قصرًا، ولا غرس نخلاً، ولا شقّ نهرًا، ولا استنبت عينا. واعتبر برؤيته اللذين كان يلبسهما، وحاتمه. وكان ﷺ يأكل على الأرض، ويلبس العباءة، ويجالس الفقراء، ويمشي في الأسواق، ويتوسّد يده، ولا يأكل متكئا، ويقصّ من نفسه.

وكان ﷺ يقول: «إنما أنا عبد أكل كما يأكل العبد، وأشرب كما يشرب، ولو دُعيت إلى ذراعٍ لأجبت، ولو أهدى إلى كراع^(٣) لقبلت».

ولم يأكل قطّ وحده، ولا ضرب عبده، ولم ير عليه الصلاة والسلام أدار رجله بين يدي أحد، ولا أخذ بيده أحد فانتزع يده من يده؛ حتى يكون الرجل هو الذي يرسلها.

وأما كرمه ﷺ في فتح مكة، وقد قتلوا أعمامه ورجاله وأولياءه وأنصاره، وأذوه وأرادوا نفسه، فكان يتلقّى السّفه بالحلم، والأذى بالاحتمال، وكان متى كان لهم [أكرم] عنهم أصفح كانوا الأمّ وعليه ألح. والعجب أنهم كانوا أحلمّ جيل إلا فيما بينهم وبينه، فإنهم كانوا إذا ساروا إليه أفحشوا عليه، وأفرطوا في السّفه، ورموه بالفِرث والدماء، وألقوا على طريقه الشوك، وحتّوا في وجهه التراب، وكان لا يتولّى هذا منه إلا العظاء والأخوال والأعمام، والأقرب فالأقرب، فإذا كانوا كذلك كان أشدّ للغيظ، وأثبت للحدف؛ فلما دخل عليه السلام مكة قام فيهم خطيبًا، فحمد الله عزّ وجلّ وأثنى عليه، ثم قال: أقول كما قال أخى يوسف: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(٤).

وأما محاسن قوله فإنه ذكر زيد بن صوحان فقال: «زيد وما زيدا يسبقه عضو منه إلى الجنة»، فقُطعت يده يوم نهاوند في سبيل الله^(٥).

ووعده أصحابه بيضاءً إصطخر، وبيضاء المدائن، وقال لعدى بن حاتم: «لا يمتعك ما ترى - يعني ضعف أصحابه وجهدهم - فكأنهم ببيضاء المدائن قد فتحت عليهم، وكأنهم بالطعينة تخرج من

(١) عذار: موضع بين الكوفة والبصرة.

(٢) الدرع: ثوب ينسج من زرد الحديد يلبس في الحرب، يذكر ويؤنت.

(٣) الكراع: ما دون الركبة من الساق.

(٤) سورة يوسف ٩٢.

(٥) الخبر كما في الاستيعاب ١٩٢: «روى من وجوه: أن النبي ﷺ كان في مسيرة له، فبينما هو يسير؛ إذ هوم؛ فجعل يقول:

زيد، وما زيدا جندب وما جندب! فستل عن ذلك فقال: رجلان من أمي؛ أما أحدهما فتسبقه يده - أو قال بعض جسده - إلى الجنة يتبعه سائر جسده، وأما الآخر فيضرب ضربة يفرق بها بين الحق والباطل». قال ابن عبد البر: أصيبت يد زيد يوم جلولاء،

ثم قتل مع علي رضي الله عنه يوم الجمل.

الحيرة حتى تأتي مكة بغير خفير^(١)؛ فأبصر ذلك كله عدي^(٢).

وقال لعمار بن ياسر: «تقتلك الفئة الباغية»، فكان كما قال؛ حتى قال معاوية: إنما قتله من أخرجه.

وضلت ناقته ﷺ، فأقبل يسأل عنها، فقال المنافقون: هذا محمدٌ يخبرنا عن خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته! فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن رجلاً يقول في بيته: إن محمداً يخبرنا عن خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته! ألا وإني لا أعلم إلا ما علمني ربي عز وجل، وقد أخبرني أنها في وادي كذا وكذا، تعلق زمامها بشجرة». فبادر الناس إليها، وفيهم زيد بن أرقم وزيد بن لصيب^(٣) فإذا هي كذلك^(٤).

ولما استأمن أبو سفيان بن حرب إليه عليه الصلاة والسلام، أمر^(٥) عمه العباس أن يأخذه إلى خيمته حتى يصبح، فلما صار في قبة العباس ندم على ما كان منه، وقال في نفسه: ما صنعت! دفعت يدي هكذا؛ ألا كنت أجمع جمعاً من الأحابيش^(٦) وكنانة وألقاه بهم، فلعل كنت أهزمه! فناداه رسول الله ﷺ من خيمته: إذا كان الله يبخرك يا أبا سفيان! فقال أبو سفيان: يا عباس، أدخلني على ابن أخيك، فقال له العباس: ويلك، يا أبا سفيان! ما أن لك ذلك! فأدخله على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، قد كان في النفس شيء؛ وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله حقاً!

وقوله ﷺ لما يكون من بعده؛ بما حدث به محمد بن عبد الرحمن بن أذينة، عن سليمان بن قيس، عن سلمان بن عامر، عن سلمان الفارسي، قال: قال رسول الله ﷺ: «إني رأيت على منبري هذا اثني عشر رجلاً من قريش يخطب كلهم: رجلاً من ولد حرب بن أمية، وعشرة من ولد أبي العاص بن أمية»، ثم التفت إلى العباس، وقال: «هلاكم على يدي ولدك».

* * *

وأما جماله وبهاؤه ومحاسن ولادته ﷺ، فما روى عن عثمان بن أبي العاص، قال: أخبرتني أمي أنها حضرت أمانة أم النبي ﷺ لما ضربها المخاض، قالت: جعلت أنظر إلى النجوم تتدلى حتى قلت: لتقعن علي؛ فلما وضعته خرج منها نورٌ أضاء له البيت والدار، حتى صرت لا أرى إلا نوراً. قالت: وسمعت أمانة تقول: لقد رأيت وهو في بطني أنه خرج مني نورٌ أضاءت له قصور الشام، ثم ولد ﷺ، فخرج معتمداً على يديه، رافعاً رأسه إلى السماء كأنه يخطب أو يخاطب.

(١) ك: «حقير». تصحيف، وفي الإصابة: «بغير جوار».

(٢) وانظر الخبر برواية أخرى في الإصابة ٢: ٤٦١.

(٣) لصيب، ضبطه ابن حجر في الإصابة، بلام مهملة ومثناة مصغراً.

(٤) الخبر في الإصابة ١: ٥٥٤.

(٥) ك: «أني».

(٦) أحابيش قريش؛ سموا بذلك لأنهم تحالفوا بالله، أنهم ليد على غيرهم؛ ما سجا ليل، ووضح نهار، وما رسا حبشي.

وحبشي: جبل بأسفل مكة.

وروى عن أنس بن مالك، قال: كان رسول الله ﷺ أشجع الناس، وأحسن الناس، وأجود الناس، ما مسست بيدي ديباجاً ولا حريراً ولا خزاً، ألين من كف رسول الله ﷺ. وعن جابر بن سمرة، قال: رأيت رسول الله ﷺ في ليلة البدر وعليه حلة حمراء، فجعلت أنظر إليه وإلى القمر، فلهو أحسن في عيني من القمر.

وعن جابر بن زيد، عن أبيه، قال: أتيت النبي ﷺ في مسجد الخيف^(١)، فناولني يده، فإذا هي أطيب من المسك، وأبرد من الثلج.

و[من]^(٢) فضله الذي أبر به على جميع الخلائق ومحاسنه ما روى عن وهب ابن منبه أنه قال: لما خلق الله عز وجل الأرض ارتجت واضطربت، فكتب في أطرافها: «محمد رسول الله»؛ فسكنت.

[وأمّا]^(٣) عقله عليه الصلاة والسلام، فقد روى أن عقول جميع الخلائق من الأولين والآخرين في جنب عقل رسول الله ﷺ، كرملة من بين جميع رمال الدنيا.

ومن محاسنه ﷺ الإسراء، وهو ما روى عن الحسن بن أبي الحسن البصرى - رحمه الله - يرفعه، قال: قال رسول الله ﷺ: إني لنائم في الحجر إذ جاء جبريل عليه السلام، فغمزني^(٤) برجله، فجلست فلم أرسيناً، ثم عدت لمضجعي، فجاءني الثانية فغمزني، فجلست وأخذ بعضدي، فخرج بي إلى باب الصفا، وإذا أنا بدابة أبيض بين الحمار والبغل، له جناحان في فخذيه، يضع حافره منتهى طرفه، فقال لي جبريل: أركب يا محمد، فدنوت إليه لأركب، فتنحى عني، فقال له جبريل عليه السلام: يا براق مالك! فواقه ما ركبك خير منه قط. فركبت وخرجت ومعى صاحبى لا أفوته ولا يفوتني؛ حتى انتهى بي إلى بيت المقدس. فوجدت فيه نفرًا من الأنبياء قد جمعوا لي، فأممتهم، ثم أتيت بإناءين من خمّر ولبن فتناولت اللبن وشربت منه وتركت الخمر. فقال جبريل عليه السلام: هديت وهديت أمتك، وحرمت عليهم الخمر. ثم أصبحت بمكة. قال: فلما ذكر رسول الله ﷺ ذلك، ارتد كثير ممن كان آمن به، وقالوا: سبحان الله! أذهب محمد إلى الشام في ساعة من الليل ثم رجع والعير تطرد شهرًا مدبرة وشهرًا مقبلة! فبلغ ذلك أبا بكر رضى الله عنه، فأقبل حتى جلس بين يدي رسول الله ﷺ. فقال: يا رسول الله، ما يقول هؤلاء! يزعمون أنك حدثتهم بأنك قد أتيت الشام هذه الليلة ورجعت من ليلتك؛ قال: قد كان ذلك؛ قال: يا رسول الله؛ فصف لي المسجد، قال: فجعلت أصفه لأبي بكر وأنا أنظر إليه. فكلما حدثته عن شيء قال: صدقت. أشهد أنك رسول الله! حتى فرغت من صفته. فقال رسول الله ﷺ يومئذ: «فأنت الصديق يا أبا بكر»!

(١) الخيف: موضع في منى.

(٢) زيادة. يقتضيها السياق.

(٣) زيادة يقتضيها السياق.

(٤) في ابن هشام: «فهمزني».

محاسن المعراج

عبدة بن (١) سلمان، عن سعيد بن أبي عروبة (٢)، عن قتادة، عن أنس بن مالك، قال: أخبرنا نبي الله ﷺ، قال: بينا أنا بين اليقظان والنائم عند البيت؛ إذ سمعتُ قائلاً يقول: أحدُ الثلاثة بين الرجلين. فانطلق بي فشرح صدرى، واستخرج قلبي، ثم أتيتُ بطست من ذهب؛ فيه من ماء زمزم، فغسل به، ثم أعيدَ مكانه، وحُشى إيماناً وحكمة، ثم أتيتُ بدابة فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند أقصى طرفه، فحملتُ عليه، فانطلقنا حتى أتينا السماء الدنيا، فاستفتح جبريلُ، فقيل: من هذا؟ قال: جبريلُ؛ قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعثَ إليه؟ قال: نعم؛ ففتح لنا، قالوا: مرحباً به! ولنعم المجيء جاء! فأتيتُ على آدم، فقلتُ له: يا جبريلُ، من هذا؟ قال: هذا أبوك آدم، فسلمتُ عليه، فقال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح! وانطلقنا حتى أتينا السماء الثانية، فاستفتح جبريلُ عليه السلام، فقيل: من هذا؟ قال: جبريلُ؛ قيل: ومن معك؟ قال: محمد؛ قيل: وقد بُعثَ إليه؟ قال: نعم. ففتح لنا؛ وقالوا: مرحباً به؛ ولنعم المجيء جاء! فأتيتُ على يحيى وعيسى، فقلتُ: يا جبريلُ، من هذان؟ قال: عيسى ويحيى؛ قال: فسلمتُ عليهما، فقالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح! ثم انطلقنا حتى أتينا السماء الثالثة؛ فكان مثل قولهم الأول. فأتيتُ على يوسف فسلمتُ عليه فقال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح! ثم انطلقنا حتى أتينا السماء الرابعة، فأتيتُ على إدريس عليه السلام. فسلمتُ عليه، فقال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح! ثم أتينا السماء الخامسة. فأتيتُ على هارون، فسلمتُ عليه، فقال مثل ذلك؛ ثم أتينا السماء السادسة، فأتيتُ على موسى عليه السلام، فقال مثل ذلك. ثم أتينا السماء السابعة فأتيتُ على إبراهيم عليه وعلى آله السلام فقال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح! ثم رُفِعَ لنا البيت المعمور، فقلتُ: يا جبريلُ، ما هذا؟ قال: البيت المعمور، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك. إذا خرجوا منه لا يعودون فيه. ثم رُفِعَتْ لنا سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى، فإذا أربعة أنهرٍ يخرجون من أسفلها، فقلتُ: يا جبريلُ، ما هذه الأنهار؟ قال: أما النهران الظاهران؛ فالنيل والفرات. وأما الباطنان فنهران في الجنة، ثم أتيتُ بإناءين من خمر ولبن، فاخترت اللبَن، فقيل لى: أصبت! أصاب الله بك أمتك على الفِطْرَةِ. وفرضت على خمسون صلاة. فأقبلت بها حتى أتيت على موسى عليه السلام، فقال: بِمِ أُمِرْتُ؟ قلت: بخمسين صلاة كل يوم، قال: أمتك لا يطيقون ذلك؛ فإني قد بلوتُ الناس قبلك وعالجتُ بني إسرائيل أشد المعالجة؛ فارجع إلى ربك عز وجل فاسأله التخفيف؛ قال: فرجعتُ إلى ربي؛ فحطَّ على خمسا. فأتيت على موسى عليه السلام فقال: بِمِ أُمِرْتُ؟ فأنيأتُ بما حطَّ عني، فقال

(١) له «ابن أبي سليمان»، والصواب ما أتتته من ك؛ وانظر ترجمته في طبقات الحفاظ ١: ٢٨٦.

(٢) ورد الاسم في الأصلين مصحفاً، والصواب ما أتتته، وانظر ترجمته في طبقات الحفاظ ١: ١٦٧.

مثل مقالته الأولى. فما زلت بين يدي ربي جلّ وعزّ أستحيط حتى رجعت إلى خمس صلوات فأثبت على موسى عليه السلام فقال: بَمِ أُمِرْتَ؟ فقلت: بخمس صلوات كل يوم، قال: أمتك لا يطيقون ذلك فارجع إلى ربك جلّ ذكره وأسأله التخفيف؛ فقلت: رجعت إلى ربي تبارك وتعالى حتى استحييت، لا ولكني أرضى وأسلم، فلما جاوزت نوديت: إني قد خففت عن عبادي وأمضيت فريضتي، وجعلت بكلّ حسنة عشرًا أمثالها.

وانظر إلى رَوْتَقِ ألفاظه عليه السلام وصحة معانيه وموضع ذلك من القلوب، مع قلة تعمقه وبعده عن التكلف، كقوله ﷺ «زويت لي الأرض؛ فأريت مشارقتها ومغارها، وسيلبع ملك أمتي ما زوى لي منها»^(١).

قوله: «زويت»؛ جمعت.

ومثله: «إن المسجد لينزوي من النخامة كما تنزوي الجليدة في النار»^(٢).

ولا يكون الانزواء إلا بانحراف مع تقبّض.

وقال: «إن منبري هذا على ترعة من ترع الجنة»^(٣).

وهي لروضة تكون في المكان المرتفع.

وقال: «إن قريشًا قالت: إني صنبور»^(٤). وهي النخلة تبقى منفردة ويذوق أصلها، تقول: إنه فردّ ليس له ولد، فإذا مات انقطع ذكره.

وقال في أبي بكر رضي الله عنه: «ما أخذ من الناس عرضت عليه الإسلام إلا كانت له كيبوة غير أبي بكر فإنه لم يتلعم»^(٥). أي لم ينتظر ولم يمكث، والكيبوة مثل الوقعة.

وقال في عمر رحمه الله: «لم أر عبقرياً يفري قريه»^(٦). والعبقرى: السيد، يقال: هذا عبقرى قومه؛ أي سيدهم. ويفري قريه، أي يعمل عمله.

وقال في عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه: «إن لك بيتاً في الجنة، وإنك ذو قرنيها». يريد أنه ذو طرفيها.

وقال في الحسين بن عليّ رحمهما الله، حين بال عليه وهو طفل، فأخذ من حجره: «لا تُزرموا ابني»^(٧).

(١) ابن ماجه ٢: ١٣٠٤، واللسان ١٩: ٨٣، والنهاية ٢: ١٣٥ مع اختلاف في الروايات.

(٢) النهاية في: ١٣٥، وقال في شرحه: «أي ينضم ويقبض، وقيل أهل المسجد وهم الملائكة».

(٣) النهاية ١: ١١٣، ونقل عن ابن قتيبة: «معناه أن الصلاة والذكر في هذا الموضوع يؤديان إلى الجنة؛ فكانه قطعة منها».

(٤) النهاية ٢: ٢، وقال في شرحه: «وأصل الصنبور سمعة تنبت في جذع النخلة لا في الأرض. وقيل: وهي النخلة المنفردة التي يذوق أسفلها، أرادوا أنه إذا قلع انقطع ذكره، كما يذهب أثر الصنبور لأنه لا عقب له».

(٥) النهاية ٤: ٦.

(٦) النهاية ٣: ١٩٩، قال، ويروى: «فريه» بسكون الراء والتخفيف.

(٧) النهاية ٢: ١٢٤.

الإزرام: القَطْع، يقال للرجل يقطع بوله: أَرْزَمَ.

وقال في الأنصار: «إنهم كَرِشَى وَعَيْبَى، ولولا الهجرة لكنتُ أمرًا منهم»^(١).

أى من الأنصار. الكَرِش: الجماعة. والعيبة، أى هم موضع سِرِّى، ومنه أخذت العيبة.

وقال ﷺ: «لئن الله التامصة والمنتمصة، والواشرة والموتشرة، والواصلة والمستوصلة»^(٢)، والواشمة والموتشمة»^(٣).

فالتامصة: التى تنتف الشعر من الوجه، ومنه قيل للمناقش: المنماص. والمنتمصة التى يُفعل بها ذلك. والواشرة: التى تشر أسناتها، وذلك أنها تفلجها. وتحددها حتى يكون لها أشر؛ والأشْر: تحدُّ ورقة فى أطراف الأسنان. [والموتشرة: التى تأمر من يفعل بها ذلك]، والواصلة: التى تصل شعرها بشعر غيرها والمستوصلة: التى تأمر من يفعل بها ذلك^(٤). والواشمة: المرأة تفرز ظهر كفها ومعضمها بإبرة حتى تؤثر فيه، وتحشوه بالكحل. [والموتشمة التى يفعل بها ذلك]^(٤)

وذكر أيام التشريق فقال: «هى أَيَّامُ أَكَلٍ وَشُرْبٍ وبعال»^(٥). يعنى النكاح.

وقال: «يُحَشَّرُ الناسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً بِهَما»^(٦).

وهو البهيم الذى لا يخالط لونه لونه سواه، من سواد كان أو غيره، يقول: ليس فيهم شيء من الأمراض والعاهات التى تكون فى الدنيا.

وقال فى صلح الحديبية: لا إغلال ولا إسلال»^(٧)

والإسلال: السرقة، والإغلال: الخيانة.

وقال: «اللهم إني أعوذ بك من وعناء السفر وكآبة القلب، والخور بعد الكور» - الحوب^(٨) إذا

كان بالباء، والكور إذا كان بالنون، تقول: يكون فى حالة جميلة فيرجع عنها، وإذا كان جميعا بالراء فهو النقصان بعد الزيادة^(٩).

وقال ﷺ: «خمرُوا آتَيْتِكُمْ، وَأَوْكُوا أَسْقَيْتِكُمْ، وَأَجِيفُوا الأبواب»^(١٠). وأطفئوا المصابيح، وأكفئوا

سببانكم، فإن للشيطان انتشاراً وخطفة»، يعنى بالليل.

التخمير: التغطية. والإيكاء: الشدُّ، واسم الخيط الذى يشدُّ به السقاء الوكاء. وأكفئوا: يعنى

ضموهم إليكم.

(٤) تكلمة من النهاية واللسان.

(٥) النهاية ١: ٨٦.

(٦) النهاية ١: ١٠١.

(٧) النهاية ٣: ١٦٨. وقال: «وقيل: الإغلال ليس الدرود والإسلال: سل السيوف.

(١) النهاية ٣: ١٤٢، ٤: ١٥.

(٢) كذا فى النهاية واللسان.

(٣) النهاية ٤: ١٧٧، ٢١٢، ٢١٤.

(٧) النهاية ٣: ١٦٨. وقال: «وقيل: الإغلال ليس الدرود والإسلال: سل السيوف.

(٨) النهاية ١: ٢٦٩.

(٩) قال فى النهاية: «وأصله من نقض العمامة بعد لفها».

(١٠) النهاية ١: ٣٢٠، ٤: ٢٥، ٢٢٩.

وقال في دعائه: «لا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدُّ»^(١).

الجَدُّ بفتح الجيم: الغنى والحظُّ في الرزق، ومنه قيل: لفلان في هذا الأمر جَدٌّ، إذا كان مرزوقاً. وقال: «إن رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ في رُوعِي؛ أنْ نَفْسًا لا تَمُوتُ حتَّى تَسْتَوِي - أو تَسْتَكْمَلَ - رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَجْلُوا في الطَّلَبِ»^(٢).

قوله: «نَفَثَ في رُوعِي»، بضم الراء؛ النَّفَثَ شَبَّهَ بِالنَّفْعِ. ورُوعِي، يقول: في خَلْدِي. وقال ﷺ: «صُومُوا لرؤيتي، وَأفْطِرُوا لرؤيتي، فإن حالَ بَيْنَكُم^(٣) وَبَيْنَهُ سَحَابٌ أو ظُلْمَةٌ أو هَبْوةٌ، فأكْمِلُوا العِدَّةَ»^(٤).

هَبْوةٌ، يعني عُبْرَةٌ.

وقال ﷺ: «إن العرشَ على مَنْكِبِ إسرَافيلَ، وإنه ليتواضعُ لله جَلٌّ وعِزٌّ حتَّى يصيرَ مثلَ الوَصِّعِ»^(٥).

الوصِّعُ: ولدُ المصافير^(٦).

وقال ﷺ حين سئل: أين كان ربُّنا جَلٌّ جلاله قبل أن يَخْلُقَ السَّمواتِ والأرْضينَ؟ فقال: «كان في عِماءٍ تحتهُ هِواءٌ»^(٧).
العِماءُ: السحابُ.

وقال ﷺ: «عَمُّ الرِّجْلِ صِنُّ أَبِيهِ»^(٨).

يعنى أن أصلها واحد، وأصل الصُّوِّ إنما هو في النَّخْلِ، قال الله عزَّ وجلَّ: «صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ»^(٩)، الصِنَوَانُ المَجْتَمِعُ، وَغَيْرُ الصِنَوَانِ المَتَفَرِّقُ.

وقال: «مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ ثم نَسِيَهُ لَقِيَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ أَجْدَمٌ»^(١٠). أى مَقْطُوعُ اليَدِ. وقال لرجل أتاه، وقال: يا رسولَ اللهِ، أَيْدِالكِ الرِّجْلُ امرَأَتُهُ يَمْهَرُها؟ قال: لا، إلاَّ أنْ يَكُونَ مُلْفَجًا»^(١١)؛ فقال له أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: بأبي وأمي أنت يا رسولَ اللهِ! إنما نَشَأَتْ فينا بَيْننا، وَنَحْنُ قَدْ سافَرْنَا وَأَنْتَ مَقِيمٌ، فَتَرَاكَ تَتَكَلَّمُ بِكلامٍ لا نَعْرِفُهُ ولا نَفْهَمُهُ! فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللهُ جَلٌّ وَعِزٌّ أَدْبَنِي وَأَحْسَنَ أَدْبِي، وَهَذَا الرِّجْلُ كَلَّمَنِي بِكلامِهِ فَأَجَبْتُهُ عَلَى حَسْبِهِ». قال: أَيْدِالكِ الرِّجْلُ امرَأَتُهُ يَمْهَرُها، أى يُمَاطِلُها. فقلت: لا، إلاَّ أنْ يَكُونَ مُلْفَجًا، أى مُعْدِمًا.

(١) النهاية ١: ٤٧، وقال في معناه: «لا ينفع ذا الغنى منك غنا، وإنما ينفعه الإيمان والطاعة».

(٢) النهاية ٣: ١٣٠.

(٣) في الأصلين «بينك»، والصواب ما أنبته من نهاية ابن الأثير. (٨) النهاية ٣: ٣.

(٩) سورة الرعد ٤.

(٤) النهاية ٤: ٢٣٨.

(١٠) النهاية ١: ١٥١.

(٥) النهاية ٤: ٢١٦.

(١١) النهاية ٢: ٢٩، ٤: ٦٢.

(٦) النهاية: هو طائر أصغر من العصفور، والجمع صيعان.

فكلامه ﷺ وأخلاقه ومذاهبه، تدلّ على أنه موافق لقول الله جلّ وعز: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾^(١). ولقوله: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾^(٢). وقال جلّ ذكره: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(٣)، فلما علم أنه قد قبل أذبه قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٤)، فلما استحكّم له ما أحبّ قال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(٥).

(١) سورة الأنعام ١٢٤.

(٢) سورة الدخان ٣٢.

(٣) سورة الأعراف ١٩٩.

(٤) القلم ٤.

(٥) سورة الحشر ٧.

مَسَاوِيٌّ مِنْ تَنَبُّأٍ

رُويَ أَنَّ مُسَيْلِمَةَ بِنَ حَبِيبِ الْكَذَّابِ، كَتَبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَذَلِكَ فِي آخِرِ سَنَةِ عَشْرٍ: «مَنْ مُسَيْلِمَةُ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ أَمَا بَعْدُ، فَإِنِّي قَدْ شُورَكْتُ^(١) فِي الْأَمْرِ مَعَكَ، وَإِن لَنَا نَصْفَ الْأَرْضِ، وَلَقَرِيشٍ نِصْفَ الْأَرْضِ، وَلَكِنَّ قَرِيشًا قَوْمٌ يَعْتَدُونَ». فَقَدِمَ عَلَيْهِ رَسُولَانُ مِنْ قَبْلِ مُسَيْلِمَةَ بِهَذَا الْكِتَابِ، فَقَالَ: «أَمَا وَاللَّهِ لَوْلَا أَنْ الرِّسْلَ لَا يُقْتَلُونَ لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَكُمَا»^(٢). ثُمَّ كَتَبَ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ: السَّلَامُ^(٣) عَلَيَّ مِنْ أَتْبَعِ الْهُدَى. أَمَا بَعْدُ، فَإِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مِنْ عِبَادِهِ مَنْ يَشَاءُ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ»^(٤).

قِيلَ: وَأَنَّهُ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ مَعَ عَمِّهِ، فَلَمَّا خَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ، قَالَ الْأَحْنَفُ لِعَمِّهِ: كَيْفَ رَأَيْتَهُ؟ قَالَ: لَيْسَ بِمُتَّبِعِيٍّ صَادِقٍ، وَلَا بِكَذَّابٍ حَاقِقٍ.

وَمِنْهُمْ طَلِيحَةُ، تَنَبَّأَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ يَقُولُ: إِنْ ذَا النُّونِ^(٥) يَأْتِيهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَقَدْ ذَكَرَ مَلَكًا عَظِيمًا، فَلَمَّا كَانَ أَيَّامَ الرَّدَّةِ بَعَثَ أَبُو بَكْرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ - خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَيْهِ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى عَسْكَرِهِ^(٦) وَجَدَهُ قَدْ ضَرَبَتْ لَهُ قُبَّةٌ مِنْ أَدَمٍ، وَأَصْحَابُهُ حَوْلَهُ، فَقَالَ: لِيُخْرِجْ إِلَيَّ طَلِيحَةَ، فَقَالُوا: لَا تُصَغِّرْ نَبِيًّا هُوَ طَلِيحَةُ. فَخَرَجَ إِلَيْهِ، فَقَالَ خَالِدٌ: إِنْ مِنْ عَهْدِ خَلِيفَتِنَا أَنْ يَدْعُوكَ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فَقَالَ: يَا خَالِدُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ! فَلَمَّا سَمِعَ خَالِدٌ ذَلِكَ انصَرَفَ عَنْهُ، وَعَسْكَرَهُ بِالْقَرْبِ مِنْهُ عَلَى مِيلٍ.

فَقَالَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ لَطَلِيحَةَ: لَا أَبَالُكَ! هَلْ أَنْتِ مُرِينَا بِعِضِ نَبِيِّتِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَكَانَ قَدْ بَعَثَ عِيونًا لَهُ حِينَ سَارَ خَالِدٌ مِنَ الْمَدِينَةِ مُقْبِلًا إِلَيْهِمْ، فَعَرَفُوهُ خَيْرَ خَالِدٍ، فَقَالَ: «لَتُنَّ بَعَثْتُمْ فَارَسِينَ، عَلَى فَارَسِينَ أَعْرَبِينَ مَحْجَلِينَ، مِنْ بَنِي نَصْرِ بْنِ قَعِينٍ، أَنْتُمْ كُمْ مِنَ الْقَوْمِ بَعِينٍ». فَهَيَّئُوا فَارَسِينَ فَبَعَثُوهُمَا، فَخَرَجَا يَرْكُضَانِ، فَلَقِيَا عَيْنًا لَخَالِدٍ مُقْبِلًا إِلَيْهِمْ، فَقَالَا^(٧): مَا خَبَرَ خَالِدًا؟ أَوْ قَالَا: مَا وَرَاءَكَ؟ قَالَ: هَذَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ فِي الْمُسْلِمِينَ قَدْ أَقْبَلَ، فَزَادَهُمْ فَتَنَةً وَقَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ! فَلَمَّا كَانَ فِي السَّحْرِ نَهَضَ

(١) الطبري: «أشركت».

(٢) في إحدَى رِوَايَاتِ الطَّبْرِيِّ عَنْ نَعِيمٍ: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لَهَا حِينَ قَرَأَ كِتَابَ مُسَيْلِمَةَ: مَا تَقُولَانِ أَنْتَا؟ قَالَا: نَقُولُ كَمَا قَالَ. فَقَالَ: أَمَا وَاللَّهِ، وَسَأَقِ بَقِيَةَ الْخَبْرِ».

(٣) الطبري: «سلام».

(٤) الخبير في تاريخ الطبري ٣: ١٦٦، ١٦٧، وهو أيضًا في ابن الأثير ٢: ٢٠٤، ٢٠٥، وذكر بعده: «وقيل أن دعوى مسيلمة وغيره النبوة كانت بعد حجة الوداع ومرضته التي مات فيها، فلما سمع الناس بمرضه وثب الأسود العنسي باليمن، ومسيلمة باليمامة، وطلحة في بني أسد».

(٦) ل: «مسكنه».

(٧) في ك، ل: «وقالا».

(٥) ابن الأثير: «جبريل».

خالد إلى طليحة فيمن معه من أصحاب رسول الله ﷺ، فلما التقى الصَّفَانِ تَزَمَّلَ^(١) طليحة في كساء له ينتظر زَعَمَ الوَحْيِ، فلما طال ذاك على أصحابه، وألح عليهم المسلمون بالسيف، قال عيينة بن حِصْنٍ: هل أتاك بعد^(٢) قال طليحة من تحت الكساء: لا، والله ما جاء بعد، فقال عيينة: تبا لك آخر الدهر! ثم جذبه جذبة جاش^(٣) منها، وقال: قَبِحَ اللهُ هذه من نبوة! فجلس طليحة، فقال له عيينة: ما قيل لك؟ قال قيل لي: «إن لك رَحًا كرحاه، وأمرًا لا تنساه»؛ فقال عيينة: قال علم الله جلَّ وعزَّ أن سيكون لك أمرٌ لا تنساه؛ هذا كَذَابٌ ما يورك لنا ولا له فيها يطالب. ثم هرب عيينة وأخوه فأدركوه وأسروه، وأفلت أخوه، وخرج طليحة منهزمًا، وأسلمه شيطانه حتى قدم الشام، فأقام عند بني جَفْنَةَ الفسَّانين حتى فتح الله عزَّ وجلَّ أجنادين^(٤) وتوفى أبو بكر وأسلم طليحة إسلامًا صحيحًا، وقال:

وإني من بعد الضلالة شاهدٌ شهادة حقِّ لست فيها بملجِدٍ^(٥)

[الطويل]

ومنهم من تنبأ بعد في أيام الرشيد، رجل زعم أنه نوح، فقيل له: أنت نوح الذي كان، أم نوح آخر؟ قال: أنا نوح الذي لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، وقد بعثت إليكم لأنِّي الخمسين عامًا، تمام الألف سنة. فأمر الرشيد بضربه وصلبه، فمرَّ به بعض المختئين وهو مصلوبٌ، فقال صلى الله عليك: يا أبا ناس! ما حصل في يدك من سفينتك إلا دَقَلْها! وهو الذي يكون في وسط السفينة كجذع طويل^(٦).

ومنهم رجل تنبأ في أيام المأمون، فقال للحاجب: أبلغ أمير المؤمنين أن^(٧) نبي الله بالباب. فأذن له، فقال ثمامة: ما دليل نبوتك؟ قال: تحضر لي أمك فأواقعها^(٨) فتحيل من ساعتها، وتأتي بغلام مثلك. فقال ثمامة: صلى الله عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته^(٩)، أهون علي من إحضارك أُمِّي ومواقعتها^(١٠).

(١) تزمل: تلفف.

(٢) الطبرى: «هل أتاك جبريل بعد».

(٣) جاش: هاج واضطرب.

(٤) أجنادين: موقع بالشام من نواحي فلسطين؛ كانت به الواقعة المشهورة بين المسلمين والروم؛ قال ياقوت: «وكانت لاثني عشر ليلة بقيت من جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة، قبل وفاة أبي بكر رضى الله عنه بنحو شهر».

(٥) انظر تاريخ الطبرى ٣: ٢٢٧، وتاريخ ابن الأثير ٢: ٢٢٢.

(٦) العقد لابن عبد ربه ٦: ١٤٧.

(٧) ك: «أنى».

(٨) فى العقد: «تحضر لى يائمامة امرأتك أنكحها بين يديك فتلد غلامًا ينطق فى المهد بخبر أنك نبي».

(٩) العقد: «فقال ثمامة: أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله، فقال المأمون: ما أسرع ما أمنت به! قال: وأنت يا أمير المؤمنين، ما أهون عليك أن تتناول امرأتى على فراشك!».

(١٠) العقد ٦: ١٤٨.

محاسن أبي بكر الصديق

رضوان الله عليه ورحمته

رَوَى عَنْ ابْنِ عَمْرِو بْنِ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا؛ قَالَ: دَخَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَسْجِدَ، وَأَبُو بَكْرٍ عَنْ يَمِينِهِ وَعَمْرٌ عَنْ شِمَالِهِ، فَقَالَ: «هَكَذَا نَبِئْتُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».
وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَيْدِي مَنْ أَهَلَ السَّمَاءَ بِجَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ، وَمَنْ أَهَلَ الْأَرْضَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعَمْرٍ»، وَرَأَاهَا مَقْبِلَيْنِ فَقَالَ: «هَذَانِ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ».
وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَمْرِو بْنِ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّهُ قَالَ: لَوْ وُزِنَ إِيمَانُ أَبِي بَكْرٍ بِإِيمَانِ أَهْلِ الْأَرْضِ لَرَجَحَ

٣٣

وَرَوَى عَنْ عَمْرِو بْنِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالصَّدَقَةِ، وَوَأْفَقَ ذَلِكَ مَا لَمْ عِنْدِي، فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبِقْتُهُ، فَجِئْتُهُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟» قُلْتُ: النُّصْفَ. وَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَالِهِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟» قَالَ: اللهُ حَقًّا وَرَسُولُهُ؛ فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَسْبِقُكَ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا.

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «وَدِدْتُ أَنْيَ شَعْرَةَ فِي صَدْرِ أَبِي بَكْرٍ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
وَعَنْ عَطَاءٍ، عَنْ أَبِي الدُّرْدَاءِ، أَنَّهُ مَشَى بَيْنَ يَدَيْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَتَمَشَى^(١) بَيْنَ يَدَيْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْكَ؟ مَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ وَلَا غَرَبَتْ بَعْدَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ عَلَى أَحَدٍ أَفْضَلَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ»^(٢).

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَلَيْهِ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا عَلِيُّ، هَلْ تَحِبُّ الشُّبْحَيْنِ؟»، قُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «لَا يَجْتَمِعُ حُبُّكَ وَحُبُّهَا إِلَّا فِي قَلْبِ مُؤْمِنٍ».
وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «رَحِمَ اللهُ أَبَا بَكْرٍ! زَوَّجَنِي ابْنَتَهُ، وَحَمَلَنِي إِلَى دَارِ الْهَجْرَةِ، وَعَتَّقَ بِلَالًا مِنْ مَالِهِ».

وَعَنْ أَنَسٍ، عَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ فِي الْغَارِ: لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ فِي قَدَمَيْهِ لِأَبْصَرْنَا! فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ، بَاثِنِينَ، اللهُ جَلَّ وَعَزَّ نَالَتْهَا!».
وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، وَهُوَ عَاصِبٌ رَأْسَهُ حَتَّى صَعَدَ الْمَنْبَرُ فَقَالَ: «إِنِّي قَاتِمٌ السَّاعَةَ عَلَى الْحَوْضِ، وَإِنْ عَبْدًا عَرَضَتْ عَلَيْهِ

(١) ط: «المشي» : تحريف.

(٢) الحديث في الرياض النضرة ١: ٩١، مع اختلاف في الرواية.

الدُّنيا وزينتها، فاختر الآخرة». فلم يفتن لها أحدٌ إلا أبو بكر رضى الله عنه، فقال: بأبي أنت وأُمِّي! بل نفيديك بأبائنا وأبنائنا، وأنفسنا وأموالنا! وبكى، فقال: «لا تَبْك يا أبا بكر، إن من آمنِ الناسِ علىَّ في صُحبته وماله أبا بكر، ولو كنتُ متَّخِذًا خَليلاً من الناسِ لا تَتَّخِذُ أبا بكر، ولكن أخى في الإسلام، لا يبقى في المسجد بابٌ إلاَّ باب أبي بكر»، فبكى أبو بكر وقال: أنا ومالٍ لك يا رسول الله.

وعن أبي المنكير، قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «دعوا لى صاحبي! إني بُعثتُ وقال الناس كلُّهم: كذبت، وقال لى: صدقت» يعنى أبا بكر رضى الله عنه.

وعن محمد بن عبيد، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، قال: بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص في غزوة ذات السلاسل^(١)، فجاء وقد ظهر، فقال: يا رسول الله أتى الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة»، قال: لستُ أسألك عن النساء. قال: «إذا أبوها، أبو بكر».

وعن الحسن، قال: قال رسول الله ﷺ: «يجيء يوم القيامة رجلٌ إلى باب الجنة، ليس منها باب إلاَّ وعليه مَلَكٌ يهتف به: هَلُمَّ هَلُمَّ ادخُلْ! فقال أبو بكر رضى الله عنه: إن هذا لسعيد، قال: «هو ابن أبي قحافة».

وعن سليمان بن يسار، إن رسول الله ﷺ، قال: «في المؤمن ثلاثمائة وستون خَصْلَةً من الخير، إذا جاء بواحدةٍ دخل الجنة» قال أبو بكر رضى الله عنه: بأبي أنت وأُمِّي! أفي منها شيء؟ قال: «هى كلها فيك يا أبا بكر».

وعن ابن عمر رضى الله عنه، قال: بينا النبي ﷺ جالسٌ وعنده أبو بكر رضى الله عنه، وعليه عِبَاءَةٌ قد خَلَّها^(٢) في صدره بخلال، إذ نزل عليه جبريلٌ عليه السلام فقال: يا رسول الله، مالى أرى أبا بكر عليه عِبَاءَةٌ قد خَلَّها في صدره؟ قال: أنفقَ ماله علىَّ قبل الفتح، قال: فأقرته من الله عزَّ وجلَّ السلام وقل له: يقول لك ربُّك تبارك وتعالى: «أراض أنت عني في فرك أم ساخط؟»، فقال أبو بكر: أعلى ربِّي أغضب! أنا عن ربِّي راضٍ^(٣).

وعن علي بن أبي طالب رضى الله عنه، قال: كنتُ جالسًا عند النبي ﷺ، إذ طلع أبو بكر وعمر رضى الله عنهما، فقال ﷺ: «وهذان سيِّدانُ كهول أهل الجنة من الأوَّلين والآخِرِينَ، مَن مضى، ومَن بقى، إلاَّ النبيَّين والمرسلين. لا تُخْبِرهما يا على».

وعن جابر، قال: كنتُ مع رسول الله ﷺ، فسمعتَه يقول: «يطلع علينا من هذا الفجِّ^(٤) رجل من أهل الجنة»، فطلع أبو بكر رضى الله عنه، ثم قال: «يطلع علينا من هذا الفجِّ رجل من أهل

(١) السلاسل: ماء بأرض جذام؛ وبه سميت الغزوة، كانت سنة ثمان. ابن الأثير ١: ١٥٦.

(٢) ك: «خللها».

(٣) الرياض النضرة ١: ١٣٤. (٤) الفج: الطريق الواسع بين جبلين.

الجَنَّةَ»، فطلع عمر رضى الله عنه، ثم قال: «يَطْلَعُ عَلَيْنَا مِنْ هَذَا الْفَجِّ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ عَلِيًّا»، فطلع على رضى الله عنه.

وعن ابن عباس، قال: قال أبو بكر: يا رسول الله، ما أحسن هذه الآية؟ قال: آيتها؟ قال: قوله تبارك وتعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، أَرْجَعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي، وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾^(١). فقال يا أبا بكر، إن الملك سيقولها لك.

وقيل: إنه لما أسلم أبو قحافة، لم يعلم أبو بكر رضى الله عنه بإسلامه حتى دخل على النبي ﷺ، فقال: ألا أبشرك يا أبا بكر بما يسرك؟»، قال: مثلك يا رسول الله من يبشر بالخير، فما هي؟ قال: «أسلم أبو قحافة»، قال: يا رسول الله، لو بشرتني بإسلام أبي طالب كان أقر لعيني فإنه أقر لعينك! فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى علا بكاؤه جزعًا لما فاتته من إسلام أبي طالب، وقال: «رحمك الله يا أبا بكر!» ثلاثًا.

(١) سورة الفجر ٢٧ - ٣٠.

محاسن عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ورحمته

عن أبي هريرة رحمه الله، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «بيننا أنا نائم، إذ رأيتني على قليب^(١)، وعليها دلو، فنزعت ما شاء الله، ثم أخذها مني أبو بكر - أو قال ابن أبي قحافة - فنزع منها دُتوباً^(٢) أو ذنوباً، وفي نزعه ضعف، والله جلّ وعزّ يغفر له، ثم أخذها عمر فلم أر عبقرياً من الناس يفري فريه^(٣) حتى ضرب الناس بعطن^(٤)»^(٥).

وروي أن امرأة في الجاهلية تسمى عاصية أسلمت فكرهت اسمها، فأتت عمر رحمه الله، فقالت: «يا رسول الله، فسمني باسم الإماء! ثم أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: بأبي أنت وأمي! إنني كرهت اسمي، فسمني فقال: «أنت جميلة» فقالت: يا رسول الله، إنني أتيت عمر فسماني جميلة، ففضبت، فقال: «أو علمت أن الله جلّ وعزّ عند لسان عمر ويده!».

وعن سعيد بن جبير في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٥) قال: نزلت في عمر خاصة. وعن عليّ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «رحم الله عمر! يقول الحق وإن كان مرأاً؛ تركه الحق ما له من صديق!».

وعن سعيد بن جبير، قال: إن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ: اقرأ على عمر السلام، وأعلمه أن غضبه عزّ، ورضاه حكم.

وعن عثمان بن مظعون: مرّ بنا عمر رضي الله عنه ونحن جلوس عند النبي ﷺ، فقال: «هذا أغلق باب الفتنة، لا يزال بينكم وبين الفتنة باب ما عاش هذا بين أظهركم - أو ظهر أئمتكم» فقال بيمينه، وشبك بين أصابعه.

وعن ابن عباس، عن النبي ﷺ، قال: «جاءني جبريل حين أسلم عمر فقال لي: تباشرت الملائكة بإسلام عمر، وعمر سراج أهل الجنة».

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «بيننا أنا في الجنة إذ رأيت داراً، فأردت أن أدخلها، فسألت لمن هي؟ فقيل: هي لعمر بن الخطاب، فذكرت غيرته فرجعت»، فقال

(١) القليب: البئر العادية القديمة.

(٢) الذنوب: الدلو، تذكر وتؤنث.

(٣) يقال: هو يفري الفري، أي يأتي بالأمر العجيب.

(٤) ضرب الناس بعطن، أي أرووا إبلهم، ثم أروها إلى عطنها، والمحدث في صحيح مسلم ٤: ١٨٦.

(٥) سورة التحريم ٤.

عمر: يا رسول الله، لست ممن يغار عليه^(١).

وعن عليّ رضي الله عنه؛ ما كنا نُبعد أن السكينة كانت تنطق إلى لسان عمر^(٢).

وعن عطاء، عن ابن عباس، قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾، إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾، فقال عمر: ﴿تبارك الله أحسن الخالقين﴾^(٣). فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لقد ختمها الله عز وجل بما قلت يا عمر».

وعن سعد بن أبي وقاص رحمه الله، قال: استأذن عمر على رسول الله ﷺ، وعنده نسوة من قريش قد علت أصواتهن، فأذن له، فلما دخل بادرن الحجاب، فضحك رسول الله ﷺ، فقال عمر: أضحك الله سنك، بأبي أنت وأمي! مم ضحكت؟ فقال: «أعجب من اللواتي كن عندي لما سمعن صوتك بادرن الحجاب»، فقال: أنت كنت أحق أن يهين يا رسول الله! ثم أقبل عليهن، وأغلظ هن، وقال: اتهينني ولا تهين رسول الله ﷺ! قلن: نعم، إنك أفظ وأغلظ، فقال رسول الله ﷺ: «يا عمر، والذي نفسي بيده، ما لفيك الشيطان سالكا فجا إلا سلك فجا غير فجا».

(١) الحديث في صحيح مسلم ٤: ١٨٢٢، وفيه: «أو عليك يغار!».

(٢) النهاية لابن الأثير ٢: ١٧٢.

(٣) سورة المؤمنون ١٢ - ١٤.

محاسن عثمان بن عفان
رضى الله عنه ورحمه

عن أنس بن مالك، قال: كان رسول الله ﷺ في حائط من حيطان المدينة، فجاء أبو بكر رحمه الله، فقال: افتح له، وبشره بالجنة، ثم جاء عمر رحمه الله، فقال: افتح له وبشره بالجنة، ثم جاء عليُّ رضوان الله عليه فقال: افتح له وبشره بالجنة. فلما جاء عثمان رحمه الله ورحمهم أجمعين، وقد بدت من فخذ رسول الله ﷺ ناحية، فقال: افتح له وبشره بالجنة، وغطَّأها، فقالوا: يا رسول الله، مالك لم تغطَّأ حين جئنا؟ فقال: «ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة!»
وعن النبي ﷺ: «إن الله جل وعزَّ أمرني أن أزوج كريمة عثمان بن عفان» رحمه الله.

محاسن علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ورحمته

عن أبي حيان التميمي^(١)، عن أبيه، عن علي بن أبي طالب رحمه الله، قال: قال: النبي ﷺ: «رحم الله علياً! اللهم أدر الحق معه حيث دار».

وعن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر قريش، والله لبيعتن الله عليكم رجلاً منكم، قد امتحن الله قلبه للإيمان، يضرب رقابكم على الدين»، فقال أبو بكر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: لا، فقال عمر: أنا هو يا رسول الله؟ قال: «لا، ولكنه خاصف النعل»، وأنا أخصف نعل رسول الله ﷺ.

وعن جابر قال: قال قال رسول الله ﷺ لعلي: «هذا وليكم بعدى إذا كانت فتنة». وعن مصعب، عن أبيه، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «ما لكم ولعلي^(٢)! من آذى علياً فقد آذاني».

وعن علي رضي الله عنه، قال: هلك في رجلان: عدو مبغض، ومحب مفرط. وقال: ليحبنى أقوام حتى يدخلهم حبي النار، ويبيغضني أقوام حتى يدخلهم بغضى النار، هم الرافضة^(٣) والناصية^(٤). وعن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: لا يحب علياً منافق، ولا يبغض علياً مؤمن». وعن عمرو^(٥) بن الأصم قال: قلت للحسن بن علي رضوان الله عليهما: هؤلاء الشيعة يزعمون أن علياً مبعوث الآن، قال: كذبوا، والله ما أولئك بشيعة! ولو كانوا كما يقولون ما أنكحنا نساءه، ولا قسمنا ميراثه.

وعن فاطمة رضي الله عنها قالت: دخل عليُّ علياً، وأنا عند النبي ﷺ، فقال: «أبشر يا أبا الحسن، أما إنك في الجنة، وإن قوماً يزعمون أنهم يحبونك، يرفضون الإسلام، يرقون منه كما يرق السهم من الرمية، لهم نير^(٦) يقال لهم الرافضة، فإن أدركتهم فقاتلهم فإنهم مشركون».

(١) في ك، ل: «التميمي»، والصواب ما أثبت؛ وهو يحيى بن سعيد بن حيان الكوفي، وانظر تهذيب التهذيب ١١: ٢١٤.

(٢) ل: «ولي».

(٣) الروافض: قوم من الشيعة؛ ساء، بذلك لأنهم تركوا زيد بن علي. قال الأصمعي: كانوا يابغوه ثم قالوا له: أبرأ من الشيخين فتقاتل معك؛ فأبى وقال: كانا وزيرى جدى، فلا أبرأ منها، فرفضوه وارفضوا عنه، فسماوا رافضة اللسان - رفض.

(٤) الناصية: قوم كانوا يتدينون ببغضة علي. اللسان - نصب.

(٥) ل: «عمر».

(٦) في حاشية ل: «لقب».

قال: وحدنا رجل حضر مجلس القاسم بن المجمع، وهو والى الأهواز، قال: حضر مجلسه رجل من بني هاشم، فقال: أصلح الله الأمير! ألا أحدثكم^(١) بفضيلة لأمر المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه! قال: نعم إن شئت، قال: حدثني أبي، قال: حضرت مجلس محمد بن عائشة بالبصرة، إذ قام إليه رجل من وسط الحلقة، فقال: يا أبا عبد الرحمن، من أفضل أصحاب رسول الله ﷺ؟ أبو بكر، وعمر، وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة، بن الجراح فقال له: فأين على بن أبي طالب؟ قال: يا هذا، تستفتي^(٢) عن أصحابه أم^(٣) عن نفسه؟ قال: بل عن أصحابه. قال: إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾^(٤)، فكيف يكون أصحابه مثل نفسه!

وعن عطاء، قال: كان لعليّ رحمه الله موقف من رسول الله ﷺ يوم الجمعة، إذا خرج أخذ بيده فلا يخطو خطوة إلا قال: «اللهم هذا عليّ أتبع مرّضاتك، فأرض عنه»، حتى يصعد المنبر. وحدتنا إبراهيم بن أحمد الغضائري^(٥) بإسناد يرفعه إلى أبي مالك الأشجعيّ، أن النبي ﷺ قال: «هبط عليّ جبريل يوم حنين فقال: يا محمد، إن ربك تبارك وتعالى يُقرئك السلام، وقال: ادفع هذه الأترجة إلى ابن عمك ووصيك عليّ بن أبي طالب؛ فدفعتها إليه، فوضعها في كفه، فانفلقت بنصفين، فخرج منها رقّ أبيض مكتوب فيه: «من الطالب الغالب، إلى عليّ بن أبي طالب».

أبو عثمان قاضي الرّي، عن الأعمش، عن سعيد بن جبير، قال: كان عبد الله بن عباس بمكة يحدث على شفير زمزم ونحن عنده، فلما قضى حديثه قام إليه رجل فقال: يا بن عباس، إني امرؤ من أهل الشام؛ من أهل حمص، إنهم يتبرءون من عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه ويعلنونه! فقال: بل لعنهم الله في الدنيا والآخرة، وأعدّ لهم عذاباً مهيناً! أليعدّ قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنه لم يكن أول ذكران العالمين إيماناً بالله ورسوله، وأول من صلى وركع وعمل بأعمال البر! قال الشامي: إنهم والله ما ينكرون قرابته وسابقتها؛ غير أنهم يزعمون أنه قتل الناس. فقال ابن عباس: نكلتهم أمهاتهم! أن عليّاً أعرف بالله عز وجل ورسوله وبحكمهما منهم؛ فلم يقتل إلا من استحقّ القتل. قال: يا بن عباس، إن قومي جمعوا لي نفقة، وأنا رسولهم إليك وأمينهم، ولا يسعك أن تردني بغير حاجتي، فإن القوم هالكون في أمره، ففرج عنهم فرج الله عنك! فقال ابن عباس: يا أخا أهل الشام، إنما مثل عليّ في هذه الأمة في فضله وعلمه، كمثّل العبد الصالح الذي لقيه موسى عليه السلام؛ لما انتهى إلى ساحل البحر فقال له: ﴿هَلْ أَتَيْكَ عَلِيٌّ أَنْ تَعَلَّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾؟ قال العالم: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَيَّ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا﴾! قال موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾. قال له العالم: ﴿فَإِنْ أَتَيْتَنِي فَلَا

(١) في ل أقحم بعدها كلمة: «بحديث».

(٢) في ك، ل: «أو».

(٢) ك: «تسأل».

(٤) سورة آل عمران ٦١.

(٥) الغضائري؛ ضبطه ابن الأثير في اللباب: بفتح العين والضاد المعجمين والياء تحتها نقطتان، وفي آخرها راء. وقال هذه

النسبة إلى الغضار، وهو الإناء الذي يؤكل فيه؛ نسب جماعة إلى عمله، أو واحد من آبائهم.

تَسْأَلُنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أَحَدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا. فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكَبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴿١﴾ - وكان خرقها لله جل وعزّ رضا، ولأهلها صلاحًا، وكان عند موسى عليه السلام سُخْطًا وفسادًا - فلم يصبر موسى عليه السلام، وترك ما ضمن له، فقال: ﴿أَخْرَقْتُهَا لِتَغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتُ شَيْئًا إِمْرًا﴾! قال له العالم: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾! قال موسى: ﴿لَا تَوَاضَعُنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تَرْهَقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾. فكفّ عنه العالم، ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ - وكان قتله لله جل وعزّ رضا، ولأبويه صلاحًا، وكان عند موسى عليه السلام ذَنْبًا عَظِيمًا - قال موسى ولم يصبر: ﴿أَقْتَلْتُ نَفْسًا زَاكِيَةً﴾^(١) بغير نفسٍ لَقَدْ جِئْتُ شَيْئًا نَكْرًا﴾! قال العالم: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾. قال إن سألتك عن شيءٍ بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرًا فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيّفوهما فوجدنا فيها جدارًا يريد أن يَنْقِضَ فَاقَامَهُمْ - وكانت إقامة لله عز وجل رضا، وللعالمين صلاحًا فقال: ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾. قال هذا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ^(٢).

وكان العالم أعلم بما يأتي موسى عليه السلام، وكبر على موسى الحقّ وعظّم، إذ لم يكن يعرف هذا، وهو نبي مرسل من أولى العزم، ممن قد أخذ الله جل وعزّ ميثاقه على النبوة، فكيف أنت يا أبا أهل الشام وأصحابك! إن عليًّا رضي الله عنه لم يقتل إلا من كان يستحلّ قتله؛ وإني أخبرك أنّ رسول الله ﷺ كان عند أم سلمة بنت أبي أمية إذ أقبل علىّ عليه السلام يريد الدخول على النبي ﷺ، فنقر نقرًا خفيًا، فعرف رسول الله ﷺ نقره، فقال: «يا أم سلمة، قومي فافتحي الباب»، فقالت: يا رسول الله، من هذا الذي يبلغ خطره أن أستقبله بمحاسني ومعاصمي! فقال: «يا أم سلمة، إن طاعتني طاعة الله جل وعزّ، قال: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾^(٣)، قومي يا أم سلمة، فإن بالباب رجلًا ليس بالخرق ولا النزق، ولا بالعجل في أمره، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يا أم سلمة، إنه إن تفتحي الباب له فلن يدخل حتى يخفي عليه الوطء»، فلم يدخل حتى غابت عنه وخفي عليه الوطء، فلما لم يحس لها حركة دفع الباب ودخل، فسلم على النبي ﷺ، فردّ عليه السلام وقال: «يا أم سلمة، هل تعرفين هذا؟» قالت: نعم، هذا علي بن أبي طالب، فقال رسول الله ﷺ: «نعم هذا علي، سيط^(٤) لحمه بلحمي، ودمه بدمي، وهو مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي. يا أم سلمة، هذا عليّ سيّد مبجل، مؤمّل المسلمين، وأمير المؤمنين، وموضع سرّي وعليّ، وباب الذي أوى إليه، وهو الوصي على أهل بيتي، وعلى الأخيار من امتي. وهو أخي في الدنيا والآخرة، وهو معي في السناء الأعلى، اشهدني يا أم سلمة أنّ عليًّا يقاتل الناكثين والقاسطين والممارقين».

(١) زاكية، بألف بعد الزاي وتخفيف الباء؛ هي قرامة نافع وابن كثير وأبي عمرو وأبي جعفر ورويس، أي طاهرة من الذنوب.

وقرأ الباقون «زكية»: بتشديد الباء من غير ألف. اتحاف فضلاء البشر ٢٩٣.

(٢) سورة الكهف ٦٦ - ٧٨.

(٣) سورة النساء ٨٠.

(٤) سيط: اختلط.

قال ابن عباس: وَقَتْلَهُمْ اللهُ رِضًا، وللأمة صلاح، ولأهل الضلالة سُخْط. قال الشامي: يا بنِ عَبَّاسٍ: من الناكثون؟ قال: الذين بايعوا عليًا بالمدينة ثم نكثوا، فَقَاتَلَهُمْ بِالْبَصْرَةِ؛ أصحاب الحمل؛ والقاسطون معاوية وأصحابه، والمارقون أهل النهروان ومن معهم؛ فقال الشامي: يا بنِ عَبَّاسٍ، مَلَأَتْ صَدْرِي نُورًا وَحِكْمَةً، وَفَرَّجَتْ عَنِّي فَرْجَ اللهِ عَنكَ! أَشْهَدُ أَنْ عَلِيًّا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَوْلَايَ وَمَوْلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ.

وَيُرْوَى أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ رَحِمَهُ اللهُ، قَالَ: عَقِمَ النِّسَاءُ أَنْ يَجْتَنِبْنَ بِمَثَلِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ مَا رَأَيْتُ مُحْرَبًا يُزَنُّ بِهِ ^(١)، رَأَيْتُهُ يَوْمَ صَفِينٍ وَعَلَى رَأْسِهِ عِمَامَةٌ بِيضَاءُ، وَكَأَنَّ عَيْنَيْهِ سِرَاجًا سَلِيطَ ^(٢)، وَهُوَ يَقِفُ عَلَى ^(٣) شِرْذِمَةٍ بَعْدَ شِرْذِمَةٍ مِنَ النَّاسِ، يَعْظُمُهُمْ وَيَحْضُهُمْ وَيَحْرُضُهُمْ، حَتَّى انْتَهَى إِلَيَّ وَأَنَا فِي كَنَفٍ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَ: مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ، اسْتَشْعِرُوا الْخَشْيَةَ ^(٤)، وَأَكْمَلُوا الْأُمَّةَ ^(٥)، وَتَجَلَّبَبُوا ^(٦) السَّكِينَةَ، وَغَضُوا الْأَصْوَاتَ، وَالْحَطَّوَا الشَّرَّزَ ^(٧)، وَاطْعَنُوا الْوَجْرَ ^(٨)، وَصَلُّوا السِّيُوفَ بِالْخَطَا، وَالرَّمَاحَ بِالنَّبِيلِ ^(٩)، وَامشُوا إِلَى الْمَوْتِ مَشْيَةَ سَجْحَا ^(١٠)، فَإِنَّكُمْ بِعَيْنِ اللهِ، وَمَعَ ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَقَاتِلُونَ عَدُوَّ اللهِ. عَلَيْكُمْ بِهَذَا السُّوَادِ الْأَعْظَمِ، وَالرَّوَاقِ الْمُنْتَبِ ^(١١)، فَاضْرَبُوا نَبْجَهُ ^(١٢)، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ رَاكِسٌ فِي كِسْرِهِ ^(١٣)، [نَافِعٌ حِضْنِيهِ] ^(١٤)، مَفْتَرَشُ ذِرَاعَيْهِ، قَدْ قَدَّمَ لِلْوَيْبَةِ يَدًا ^(١٥)، وَأَخَّرَ لِلنَّكَوْصِ رِجْلًا، فَصَمْدًا صَمْدًا ^(١٦)! حَتَّى يَنْجِلِيَ الْحَقُّ؛ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرُكَكُمْ ^(١٧) أَعْمَالَكُمْ ^(١٨).

- (١) في الفائق: «يزن به، أى يتهم لمشاكلته».
- (٢) السليط: الزيت.
- (٣) الفائق: «وهو يحمش أصحابه»، ويحشهم، يحضهم.
- (٤) استشعر: أى ليس الشعار؛ وهو ما يلى البدن من الثياب.
- (٥) الأمة: الدرع؛ وإكمالها: أن يزداد عليها البيضة.
- (٦) تجلبب: لبس الجلباب.
- (٧) لحظ الشرز: النظر بمؤخر العين؛ وهو نظر الميفض؛ وذلك أهيب.
- (٨) الوجز: الطعن؛ قال ابن الأثير: «من المعروف في الطين: أوجرته الرمح، ولعله لفة فيه. وفي الفائق: «واطعنوا الشرز».
- وقال في شرحه: «الطنن الشرز عن اليمين والشمال». وفي ل: الوجز.
- (٩) قال الهمذشري: «صلوا السيوف بالخطأ؛ أى إذا قصرت عن الضرائب تقدمتهم حتى تلحقوا الرماح بالنبل، أى إذا قصرت الرماح عن المطونين لبعدهم فاروهم».
- (١٠) المشية السجج: السهلة، والسججاء، تأنيث الأسجج، وهو السهل.
- (١١) الرواق: الفسطاط، المنطب: المشدود بالأطناب، جمع طناب، وهو حبل يشد به سرائق البيت.
- (١٢) التيج: الوسط.
- (١٣) الكسر: الجانب.
- (١٤) من الفائق، والنافع: المفرج، والحضنان: الجنبان.
- (١٥) يريد بقوله: «قد قدم للوئبة يدا»، أنه إن أصاب فرصته وثب.
- (١٦) الصمد: القصد.
- (١٧) لن يترككم: لن يتقصمكم.
- (١٨) من خطبه له في نهج البلاغة ١: ١١٤ - ١١٥، ومنها فقر في الفائق ١: ٥٤٣.

وعن ابن عباس، أنه قال: لقد سبق لعليّ رضي الله عنه سوابق؛ لو أنّ سابقةً منها قُسمت على الناس لوسعتهم خيراً.

وعنه قال: كان لعليّ رضي الله عنه خصال ضوّارس قواطع: سطة^(١) في العشرة. وصهر^(٢) بالرسول، وعلم بالتنزيل، وفقه في التأويل، وصبر عند النزال، ومقاومة الأبطال، وكان ألدّ إذا أعضل، ذا رأي إذا أشكل.

قيل: ودخل ابن عباس على معاوية فقال: يا بن عباس، صف لي عليّاً؛ قال: كأنك لم تره! قال: بلى، ولكنّي أحبُّ أن أسمع منك فيه مقالاً. قال: كان أمير المؤمنين - رضوان الله عليه - غزير الدّمعة، طويل الفكر، يعجبه من اللباس ما خشن، ومن الطعام ما جشِب^(٢)، يُدنيننا إذا أتيناّه ويجيينا إذا دعوناّه. وكان مع تقريبه إيانا وقرّبه منا؛ لا نبدؤه بالكلام حتى يتيسم، فإذا هو تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم. أما والله يا معاوية، لقد رأيت في بعض موافقة، وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه؛ وهو قابض على لحيتيه، يبكي ويتململ تلمل السليم^(٣)، وهو يقول: يا دنيا إياي تغرين! أمثلي تشوقين! لا حان حينك؛ بل زال زوالك! قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها، فعيشك حقير، وعمرُك قصير، وخطرك يسير، آه آه من بعد السفر، ووحشة الطريق، وقلة الزاد!

قال: فأجهش معاوية ومن معه بالبكاء.

وقال خزيمه بن ثابت ذو الشهادتين^(٤)، يصف محاسن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، ومن حَضَره كرم الله وجهه في قصيدة له:

رأوا نعمةً لله ليست عليهم
فعضوا من الغيظ الطويل أكفهم
عليك، وفضلاً بارعاً لا تنازعهُ
من الدين والدنيا جميعاً لك المنى
عليك، ومن لم يرض فالله خادعهُ
وفوق المنى أخلاقه وطبائعه
[الطويل]

وروي أن عدى بن حاتم دخل على معاوية بن أبي سفيان فقال: يا عدى، أين الطرقات؟ يعني بنيه: طريفاً وطارقاً وطرفة - قال: قُتلوا يوم صفين بين يدي عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: ما أنصفك ابن أبي طالب إذ قدّم بئيك وأخر بنيه! قال: بل ما أنصفت أنا عليّاً إذ قُتل وبقيت. صف لي عليّاً، فقال: إن رأيت أن تعفيني! قال: لا أعفيك. قال: كان والله بعيد المدى،

(١) السطة: المتوسط. (٢) جشِب الطعام: غلظ، أو كان بلا إدام. (٣) السليم: اللدغيخ. (٤) لقبه رسول الله صلى الله عليه وسلم بذى الشهادتين وجعل شهادته بشهادة رجلين، وقال فيه: «من شهد له خزيمه فحسبه».

شديدَ القُوَى؛ يقول عدلاً، ويحكم فضلاً، تتفجر الحكمة من جوانبه، والعلم من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل ووحشيتها. وكان والله غزير الدمعة، طويل الفكرة، يحاسب نفسه إذا خلا، ويقلب كفيه على ما مضى، يعجبه من اللباس القصير، ومن المعاش الحشِن. وكان فينا كأحدنا؛ يُبيننا إذا سألناه، ويُدِيننا إذا أتينا، ونحن مع تقريبه لنا^(١)؛ وقربه منا: لا نكلمه لهيبته، ولا نرفع أعيننا إليه لعظمته، فإن تبسم فعن اللؤلؤ المنظوم، يعظم [أهل]^(٢) الدين، [و]^(٣) يتحبب إلى المساكين، لا يخاف القوي ظلمه، ولا يئس الضعيف من عدله، فأقسم لقد رأيتُه ليلةً وقد مثل في محرابه، وأرعى الليل سر باله، وغارت نجومه، ودموعه تتحادر على لحيته، وهو يتململ تملُّم السليم، ويبكى بكاء الحزين، فكأنى الآن أسمعه وهو يقول: يا دنيا إلى تعرضت؛ أم إلى أقبلت! غرى غيري؛ لا حان حينك، قد طَلقتك ثلاثاً لا رجعة لى فيك، فعيشك حقير، وخطرك يسير، آه من قلة الزاد وبعد السفر، وقلة الأُنيس!

قال: فوكفت عينا معاوية، [وجعل]^(٣) ينسُفها بكمه، ثم قال: يرحم الله أبا الحسن! كان كذا، فكيف صبرك عنه؟ قال: كصبر من ذبح ولدها في حجرها، فهي لا ترقأ^(٤) دمعها، ولا تسكن عبرتها. قال: فكيف ذكرك له؟ قال: وهل يتركى الدهر أن أنساه! وهذا الخبر أتم من خبر ابن عباس رحمه الله^(٥).

(١) المسعودى: «إيانا».

(٢) تكملة من المسعودى.

(٣) من ل.

(٤) رقا الدمع: سكن.

(٥) والخبر أيضا في الرياض النضرة ٢: ٢١٢، والمسعودى ٢: ٤٣٣.

محاسن من أمسك عن الوقوع في أصحاب النبي ﷺ

قال: قدم عبد الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان، فقال له يحيى بن الحكم، عم عبد الملك بن مروان: ما تقول في علي وعثمان؟ قال: أقول ما قال من هو خير مني فيمن هو شر منها: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(١).

عصام بن يزيد؛ قال: كنتُ عند حمزة؛ حتى أتاه رجل فسأله عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢).

وروى أنه كتب إسماعيل بن علي إلى الأعمش: أن اكتب لنا بما نقاب علي، ووجوه الطعن على عثمان رضي الله عنها، فكتب: لو أن علياً لقي الله جل وعز بحسنات أهل الدنيا لم ير ذلك في حسناتك، ولو لقيه عثمان رضي الله عنه، بسيئات أهل الأرض لم ينقص ذلك من سيئاتك.

وعن عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر، قال: كان إياس بن معاوية لي صديقاً، فدخلنا على عبد الرحمن بن القاسم بن أبي بكر الصديق رضي الله عنها، وعنده جماعة من قريش يتذاكرون السلف، ففضل قومٌ أبا بكر وقوم عمر، وآخرون علياً رضي الله عنهم أجمعين، فقال إياس: إن علياً رحمه الله كان يرى أنه أحق الناس بالأمر، فلما بايع الناس أبا بكر، ورأى أنهم قد اجتمعوا عليه، وأن ذلك قد أصلح العامة، اشترى صلاح العامة بنقض رأى الخاصة - يعني بني هاشم - ثم ولي عمر رحمه الله ففعل مثل ذلك به وبعثمان رضي الله عنه، فلما قتل عثمان رحمه الله واختلفت الناس، وفسدت الخاصة والعامة، وجد أعواناً، فقام بالحق ودعا إليه.

وقيل إنه حضر مجلس عمر بن عبد العزيز رحمه الله جماعة من أهل العلم، فذكروا علياً وعثمان وطلحة والزبير رضي الله عنهم أجمعين وما كان بينهم، فأكثروا وعمر ساكت، قال القوم: ألا تتكلم يا أمير المؤمنين! فقال: لا أقول شيئاً؛ تلك دماء طهر الله منها كفى فلا أعيس فيها لساني!

(١) سورة المائدة ١١٨.

(٢) سورة البقرة ١٤١.

مساوىء تلك الحروب ومن تنقص على بن أبي طالب رضوان الله ورحمته وبركاته عليه

أبو نعيم، قال: حدثنا عبد الجبار بن العباس الهمداني، عن عمّار الدهني^(١)، عن سالم بن أبي الجعد، قال: ذكر النبي صلى الله عليه وسلم بعض أمهات المؤمنين، فضحكت عائشة رضی الله عنها، فقال: انظري يا حُميراء، ألا تكوئي أنت هي! ثم التفت إلى عليّ رضوان الله عليه، فقال: انظر يا أبا الحسن، إن وليت من أمرها شيئاً فافرق بها.

وقال الزُّهري: لما سارت عائشة ومعها طلحة والزبير رضی الله عنهم، في سبعمائه من قريش، كانت تنزل كل منزل فتسأل عنه حتى نبحتها كلاب الحوَّاب، فقالت: ردوني، لا حاجة لي في مسيرى هذا، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهاني، فقال: «كيف أنت يا حُميراء، لو نبحت عليك كلاب الحوَّاب^(٢) - أو أهل الحوَّاب - في مسيرك، تطلين أمراً أنت عنه بمجزل!». فقال عبد الله بن الزبير: ليس هذا بذلك المكان الذي ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودار على تلك المياه حتى جمع خمسين شيخاً قساماً^(٣)، فشهدوا أنه ليس بالماء الذي تزعم أنه نهيته عنه، فلما شهدوا قبِلت وسارت حتى وافت البصرة، فلما كان حربُ الجمل، أقبلت في هودج من حديد، وهو تنظر من منظر قد صير لها في هودجها، فقالت لرجلٍ من ضبّة، وهو أخذ بخطام جملها أوبعيرها: أين ترى عليّ بن أبي طالب «رضى الله عنه»؟ قال: ها هو ذا واقف رافع يده إلى السماء، فنظرت فقالت: ما أشبهه بأخيه! قال الضبّي: ومن أخوه؟ قالت: رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فلا أراي أقاتل رجلاً هو أخو رسول الله صلى الله عليه وسلم! فنبد خطام راجلتها من يده، ومال إليه.

وعن الحسن البصري رحمه الله، أن الأحنف بن قيس، قال لعائشة رحمها الله يوم الجمل: يا أم المؤمنين، هل عهد إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المسير؟ قالت: اللهم لا، قال: فهل وجدته في شيء من كتاب الله جلّ ذكره؟ قالت: ما نقرأ إلا ما تقرأون، قال: فهل رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استعان بأحد^(٤) من نسائه إذا كان في قلة والمشركون في كثرة؟

(١) كذا في ل، وهو يوافق ما في تهذيب ٧: ٣٠٦، وفي ك: «الذهبي» تصحيف.

(٢) الحوَّاب: موضع في طريق البصرة.

(٣) القسامة، بالفتح: الجماعة يقسمون على الشيء، ويحلفون.

(٤) كذا في ل، وفي ك «بشيء».

قالت: اللهم لا. قال الأحنف: فإذا ما هو ذنبنا!

قال: وقال الحسن البصرى: تقلدتُ سيفي وذهبتُ لأنصرُ أم المؤمنين، فلقيني الأحنف، فقال: إلى أين تريد؟ فقلت^(١) أنصرُ أم المؤمنين. فقال: ما قاتلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المشركين، فكيف تقايل معها المؤمنين! قال: فرجعتُ إلى منزلي، ووضعتُ سيفي.

(١) ل: «فقال» تصحيف.

مساويء من عادى على بن أبى طالب

رضى الله عنه

قال: ولما فرغ أمير المؤمنين عليه السلام من قتال أهل الجمل، دخل عليه عبد الله بن الكواء، وقيس بن عبادة اليشكري، فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرنا عن مسيرك هذا الذى سرت، يضرب الناس بعضهم رقاب بعض! أ رأيا رأيته حين تفرقت الأمة، واختلفت الدعوة؟ فإن كان رأيا رأيته أجبتك فى رأيك، وإن كان عهدا عهدته إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنت الموثوق به، المأمون فيما حدثت عنه. فقال: والله لئن كنت أول من صدق به لا أكون أول من كذب عليه؛ أما أن يكون عندى عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه فلا، والله لو كان عندى ما تركت أختام تيمم وعدى على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن نبينا صلى الله عليه وسلم لم يقتل قتلا، ولم يميت فجأة، ولكنه مرض ليالى وأياما، فأتاه بلال ليؤذنه بالصلاة، فيقول: إيت أبا بكر، وهو يروى مكافى، فلما قبض صلى الله عليه وسلم نظرنا فى الأمر، فإذا الصلاة علم الإسلام، وقوام الدين، فرضينا لدينانا من رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا، فولينا أمورنا أبا بكر، فأقام بين أظهرنا؛ الكلمة واحدة، والدين جامع - أو قال: الأمر جامع - لا يختلف عليه منا اثنان، ولا يشهد منا أحد على أحد بالشرك، وكنت أخذ إذا أعطاني، وأغزو إذا أغزاني^(١)، وأضرب الحدود بين يديه بسيفى وسوطى على كراهة منه لها، وود أبو بكر لو أن واحدا منا يكفيه، فلما حضرت أبا بكر رحمه الله الوفاة، ظننت أنه يعدل عنى لقرايى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وسابقتى وفضلى، فظن أبو بكر أن عمر أقوى منى عليها، ولو كانت أثره لآثر^(٢) بها ولده، فولى عمر على كراهة كثير من أصحابه، فكنت فيمن رضى، لا فيمن كرهه. فوالله ما خرج عمر من الدنيا حتى رضى به من كان كرهه، فأقام عمر رحمه الله بين أظهرنا؛ الكلمة واحدة، والأمر واحد؛ لا يختلف عليه منا اثنان، فكنت أخذ إذا أعطاني وأغزو إذا أغزاني، وأضرب الحدود بين يديه بسوطى وسيفى، أتبع أثره اتباع القصيل أنه، لا يعدل عن سبيل صاحبيه، ولا يجحد عن سنتها، فلما حضرت عمر رضى الله عنه الوفاة، ظننت أنه لا يعدل عنى لقرايى وسابقتى وفضلى، فظن عمر أنه إن استخلف خليفة فعيل بخطيئة لحقته فى قبره، فأخرج منها ولده وأهل بيته، وجعلها شورى فى ستة رهط، منهم عبد الرحمن بن عوف، فقال: هل لكم أن أدع لكم نصيبى على أن أختار الله ورسوله! قلنا: نعم؛ فأخذ ميثاقنا على أن نسمع ونطيع لمن ولاه؛ وأخذنا ميثاقها على أن يختار الله ورسوله فوق اختياره

(١) أغزاني، أى بعثنى للغزو.

(٢) ك: «لكان آثر».

على عثمان رضى الله عنه، فنظرت فإذا طاعنى قد سَبَّتَ بِيَعْنِي، وإذا ميثاقى قد أخذ لغيرى، فأتبعت عثمان، وأديت إليه حقه على أثره منه، وتقصير عن سبِّه صاحبه، فلما قُتل عثمان رضى الله عنه، نظرت فكننت أحق بها من جميع الناس.

فقالا: صدقت وبررت، فأخبرنا عن طلحة والزبير بم استحلتت قتاها، وقد شرَكَكَ في الهجرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشورى من عمر رحمه الله؟ فقال: قد شرَكَكَ في الهجرة وفي الشورى، ولكنهما بايعاني بالحجاز، وخَلَعاني بالعراق؛ ولو فعلا ذلك بأبي بكر وعمر لقاتلها. فقالا: صدقت وبررت، وأنت أمير المؤمنين.

قال: ولما كان حربُ صَفِينِ كتب أمير المؤمنين رضوان الله عليه إلى معاوية بن أبي سفيان: مالك يُقتل الناس بيننا! أبرز^(١) لى فإن قتلتنى استرحت منى، وإن قتلتك استرحت منك. فقال له عمرو بن العاص: أنصفك^(٢) الرجل فابرز إليه، قال: كلاً يا عمرو، أردت أن أبرز له فيقتلنى وتثب على الخلافة بعدى! فد علمت قريش أن ابن أبي طالب سيدها وأسدُها، ثم أنشأ يقول:

يا عمرو قد أسررت تهمة غادر
ما لِلْمَلُوكِ وَلِلْبِرَارِ وَإِنَّمَا
إن الذى مَنَّتْكَ نَفْسُكَ خَالِيًا^(٥)
فلقد كَشَفَتْ قِنَاعَهَا مَذْمُومَةً
فأجابه عمرو بن العاص:

مُعَاوِيَ إِنِّى لَمْ أَجْنِ ذَنْبًا
فَمَا ذَنْبِى بَأَن نَادَى عَلَى
فَلَوْ بَارَزْتَهُ لَلِقَيْتِ قِرْنًا
أَجْبُنًا فِي الْعَشِيرَةِ يَا بَنِ هِنْدِ
وما أنا بالذى يُدْعَى بِخَازِي^(٦)
وكبش القوم يُدْعَى لِلْبِرَارِ
حَدِيدُ النَّابِ شَهْمًا ذَا اعْتِرَازِ^(٧)
وعند الباهِ كَالْتَيْسِ الْحِجَازِي

(١) ك: «أبرز لقتال».

(٢) ك: «أنصفك الرجل من نفسه».

(٣) وقعة صفين ٣١٢، ورواية الشطر في هذا البيت هناك:

• يا عمرو إنك قد قشرت لى العاص •

(٤) صفين: «للهازي».

(٥) صفين: «فإذا الذى منك نفسك».

(٦) صفين ٣١٤، وقيله:

معاوى إن نكلت عن البراز لك الويلات فانظر في المخازي

[الوافر]

(٧) رواية البيت في صفين:

فلو بارزته بارزت ليثا حديد الناب يحطف كل بازي

[الوافر]

ثم كتب معاويةً إلى عليّ رحمه الله أما بعد؛ فإننا لو علمنا أنّ الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت، لم يجئنا بعضنا على بعض، وإن كنا قد غلبنا على عقولنا؛ فقد بقي لنا ما نرّم به ما مضى، ونصلح ما بقي. وقد كنت سألتك الشام على أن تلزمني لك طاعة، فأبيت ذلك عليّ. وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس، وإنك لا ترجو من البقاء إلا ما أرجو، ولا تخاف من الفناء إلا ما أخاف، وقد والله رقت الأجناد، وذهبت الرجال، ونحن بنو عبد مناف؛ وليس لأحد منا على أحد فضل نستدل به عبداً، أو نسترق به حراً.

فأجابه عليّ:

من عليّ بن أبي طالب إلى معاوية بن أبي سفيان. أما بعد، فقد جاءني كتابك تذكر أنك لو علمت أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت، لم يجئنا بعضنا على بعض. وأنا وإياك لم نلتمس غاية لم نبليها بعد. فأما طلبك الشام فإني لم أكن لأعطيك اليوم ما منعتك عنه أمس؛ وأما استوائنا في الخوف والرجاء، فلست بأمضى على الشك مني على اليقين، وليس أهل الشام بأحرص على الدنيا من أهل العراق على الآخرة.

وأما قولك: «إنا بنو عبد مناف»، فكذلك نحن، وليس أمة كهاشم، ولا حرب كعبد المطلب، ولا أبو سفيان كأبي طالب، ولا الطليق كالمهاجر، ولا المحق كالمبطل. في أيدينا فضل النبوة التي قبلنا بها العز، ونفينا بها الخزي.

عن الشعبي، أن عمرو بن العاص دخل على معاوية وعنده ناس، فلما رآه مقبلاً استضحك، فقال: يا أمير المؤمنين، أضحك الله سنك، وأدام سرورك، وأقر عينك؛ ما كل ما أرى يوجب الضحك! فقال معاوية: خطر ببالي يوم صفين، يوم بارزت أهل العراق، فحمل عليك عليّ بن أبي طالب، فلما غشيك طرحت نفسك عن دابتك، وأبديت عورتك^(١). كيف حضرك ذهنك في تلك الحال! أما والله لقد واقفته هاشمياً منافياً، ولو شاء أن يقتلك لقتلك.

فقال عمرو: يا معاوية، إن كان أضحكك شأني فمن نفسك فاضحك، أما والله لو بدا له من صفحتك مثل الذي بدا له من صفحتي لأوجع قذالك^(٢) وأيتم عيالك، وأنهب مالك، وعزل سلطانك، غير أنك تحررت منه بالرجال في أيديها العوالي^(٣). أما إني قد رأيتك يوم دعاك إلى البراز؛ فاحولت عينك، وأزبد شدقك، وتشر منخراك، وعرق جبينك، وبدا من أسفلك ما أكره ذكره.

فقال معاوية: حسبك حيث بلغت! لم نرد كل هذا.

(١) ك: «سوءتك».

(٢) القذال: جماع مؤخر الرأس.

(٣) العوالي: الرماح.

قال: وذكر أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنه، قال: زعم ابن النابغة^(١) أني تلعباة تمزاحة^(٢)؛ ذودعابة، أعافس وأمارس^(٣)، لا رأى لى فى الحزوب، هيهات! يمنعنى من العفاس والمراس ذكر الموت والبعث؛ فمن كان له قلب ففى هذا عن هذا واعظ. أما وشر القول الكذب، إنه ليحدث فيكذب، ويعد فيخلف، فإذا كان البأس فأعظم مكيدته أن يمنح القوم أسته!..

قال: وقال عمرو بن العاص لابنه عبد الله يوم صفين: تبين لى هل ترى على بن أبى طالب! قال عبد الله: فنظرتُ فرأيتُه، فقلت: يا أبت، ها هو ذاك على بغلة شهباء، عليه قباء أبيض، وقلنسوة بيضاء. قال: فاسترجع وقال: والله ما هذا بيوم ذات السلاسل، ولا بيوم اليرموك، ولا يوم أجنادين! وددت أن بينى وبين موقفى بعد المشرقين. فنزل سعد بن أبى وقاص وعبدالله بن عمر، وقالوا: والله لئن كان صواباً إنه لعظيم مشكور، ولئن كان خطأ إنه لصغير مغفور. فقلت له: يا أبت، فمن يمنعك من الذى فعلا! فوالله ما يحول بينك وبين ذلك أحد. فقال:

إن يرجع الشيخ ولم يعدر إذ نزل القوم بضنك فانظر
* ثم تأمل بعد هذا أو ذر *

[الرجز]

وقال بعض الشعراء فى معاوية ومحاربتة أمير المؤمنين علي بن أبى طالب:

قد سرت سير كليب فى عشيرته لو كان فيهم غلام مثل جساس!
الطاعن الطعنة النجلاء عاندها كطرة البرد أعيأ فتقها الآسى^(٤)

[البسيط]

عبدالله بن السائب، قال: جمع زياد أهل الكوفة يحرضهم على البراءة من على كرم الله وجهه، فملا منهم المسجد والرحبة، قال: فقوت عفوة، فإذا بشيء له عنق مثل عنق البعير، أهدل أهدب^(٥) فقلت له: من أنت؟ فقال: أنا النقاد ذو الرقبة، بعثت إلى صاحب القصر. فانتبهت فرعأ؛ فما كان بأسرع من أن خرج علينا خارج من القصر، فقال: انصرفوا، فإن الأمير فى شغل عنكم اليوم، فإذا هو قد فليج، فقال عبدالله فى ذلك:

(١) النابغة: المرأة المشهورة بما لا يليق بالنساء، يريد بها أم عمرو بن العاص.

(٢) التلعباة والتمزاحة: الكثير اللعب والمزاج.

(٣) المعافسة: معالجة النساء بالمعازلة، ومثلها الممارسة.

(٤) النجلاء: الواسعة، والعاند هنا: الدم السائل.

(٥) البعير الأهدب: الذى طال هذب عينه، والأهدل: المسترخى المشفر.

ما كان منتهياً عما أراد بنا حتى تأتى له النقاد ذو الرقبة
فأسقط الشق منه ضربة ثبتت لما تناول ظلماً صاحب الرحبة
أراد علياً؛ لأنه قُتل في رحبة المسجد.

الأصمعي، قال: سمع عامر بن عبد الله بن الزبير ابنه ينال من علي رضي الله عنه، فقال:
يا بُني، إياك وذكر علي؛ فإن بني أمية تنقصه ستين عاماً؛ فما زاده الله بذلك إلا رفعة!
قال: وقال عبد الملك بن مروان للحجاج بن يوسف: جنبني دماء آل أبي طالب، فإني رأيت
بني حرب. لما قتلوا الحسين نزع الله ملكهم.

مَحَاسِنُ الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ ابْنَيْ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ

رضى الله عنهم

رَوَى عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ: لَمْ يَكُنْ فِي أَهْلِ بَيْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَدٌ أَشْبَهَ بِهِ مِنَ الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَانَ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، لَعَلَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ أَنْ يُصَلِّحَ بِهِ بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»، وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ طَهْرٌ وَاحِدٌ، وَكَانَ أَسْخَى أَهْلِ زَمَانِهِ.

وَذَكَرُوا أَنَّهُ أَنَاهُ رَجُلٌ فِي حَاجَةٍ فَقَالَ: أَذْهَبُ فَارْتَقِبْ حَاجَتَكَ فِي رُقْعَةٍ، وَارْقَعَهَا إِلَيْنَا نَقْضِهَا لَكَ. قَالَ: فَرَفَعَ إِلَيْهِ حَاجَتَهُ فَأَضْعَفَهَا لَهُ! فَقَالَ بَعْضُ جُلَسَائِهِ: مَا كَانَ أَعْظَمَ بَرَكَةَ الرُّقْعَةِ عَلَيْهِ يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ! فَقَالَ: بَرَكَتُهَا عَلَيْنَا أَعْظَمَ حِينَ جَعَلْنَا لِمَعْرُوفٍ أَهْلًا. أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْمَعْرُوفَ مَا كَانَ ابْتِدَاءً مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ، فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَتهَ بَعْدَ مَسْأَلَةٍ؛ فَإِنَّمَا أُعْطِيَتهَ بِمَا بَدَّلَ لَكَ مِنْ وَجْهِهِ، وَعَسَى أَنْ يَكُونَ بَاتَ لَيْلَتِهِ مَتَمَلِّمًا أَرْقًا، يَمِيلُ بَيْنَ الْيَأْسِ وَالرَّجَاءِ، لَا يَعْلَمُ بِمَنْ يَتَوَجَّهُ مِنْ حَاجَتِهِ! أَبْكَابَةُ الرَّدِّ، أَمْ بِسُرُورِ النَّجْحِ؟ فَيَأْتِيكَ وَفَرَاثُصُهُ تُرْعِدُ، وَقَلْبُهُ خَائِفٌ يَخْفِقُ، فَإِنِ قَضَيْتَ لَهُ حَاجَتَهُ فَبِمَا بَدَّلَ لَكَ مِنْ وَجْهِهِ؛ فَإِنِ ذَلِكَ أَعْظَمَ مِمَّا نَالَ مِنْ مَعْرُوفِكَ.

قِيلَ: وَكَانَ لِرَجُلٍ عَلِيٌّ ابْنُ أَبِي عَتِيقٍ مَالٌ، فَتَقَاضَاهُ، فَقَالَ لَهُ: ائْتِنِي الْعَشِيَّةَ فِي مَجْلِسِ الْوَلَايَةِ، فَسَلْنِي عَنْ بَيْتِ قَرِيشٍ، فَوَافَاهُ الْغَرِيمُ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ، فَقَالَ لَهُ: إِنَّا تَلَاخِينَا فِي بَيْنِ قَرِيشٍ، وَرَضِينَا بِكَ حَكْمًا، فَقَالَ: آلُ حَرْبٍ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: آلُ أَبِي الْعَاصِ - وَالْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حَاضِرٌ - فَسَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: فَأَيْنَ بَنُو عَبْدِ الْمَطْلُبِ! فَقَالَ: لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنْ تَسْأَلَنِي عَنْ غَيْرِ بَيْتِ الْأَدَمِيِّينَ، فَأَمَّا إِذَا صَرْتَ تَسْأَلَنِي عَنْ بَيْتِ الْمَلَانِكَةِ، وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَسَيِّدِ كُلِّ شَهِيدٍ، وَالطَّيَّارِ مَعَ الْمَلَانِكَةِ، فَمَنْ يَسَاوِي هَؤُلَاءِ فَخْرًا إِلَّا وَهُوَ مُنْقَطِعٌ دُونَهُمْ! قَالَ: فَانجَلَى عَنِ الْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ قَالَ: إِنِّي لِأَحْسِبُ أَنَّ لَكَ حَاجَةً! قَالَ: نَعَمْ يَا بَنَ رَسُولِ اللَّهِ، لِهَذَا عَلَيٌّ كَذَا وَكَذَا.

فاحتملها عنه، ووصله بمثلها.

قال: وأتاه رجل آخر فقال: يا بن رسول الله، إني عصيت رسول الله صلى الله عليه وسلم،

فقال: بئس ما صنعت! فيماذا عصيته؟ قال: قال صلى الله عليه وسلم: «شاوروهن وخالفوهن»، وإنى أطعت صاحبتي، فاشتريت غلاماً فأبقي. قال له: اختر واحدة من ثلاث: إن شئت نمن الغلام... قال: بأبي أنت وأمي! قف على هذه ولا تجاوزها! قال: أعرض عليك الثلاث، فقال: حسبي هذه، فأمر له بئمن الغلام.

وذكروا أن رجلين: أحدهما من بنى هاشم، والآخر من بنى أمية، قال هذا: قومي أسمع، وقال هذا: قومي أسمع، وقال: فسل أنت عشرة من قومك، وأنا أسأل عشرة من قومي، فانطلق صاحب بنى أمية، فسأل عشرة، فأعطاه كل واحد منهم عشرة آلاف درهم، وانطلق صاحب بنى هاشم إلى الحسن بن علي رضي الله عنه، فأمر له بمائة وخمسين ألف درهم، ثم أتى الحسين عليه السلام، فقال: هل بدأت بأحد قبلي؟ قال: بدأت بالحسن، قال: ما كنت أستطيع أن أزيد على سيدي شيئاً، فأعطاه مائة وخمسين ألفاً من الدراهم، فجاء صاحب بنى أمية فحمل مائة ألف درهم من عشرة أنفس، وجاء صاحب بنى هاشم فحمل ثلاثمائة ألف درهم من نفسين، فغضب صاحب بنى أمية، فردّها عليهم، فقبلوها، وجاء صاحب بنى هاشم فردّها عليها فأبيا أن يقبلها، وقالوا: ما كنا نبالي أخذتها أم ألقيتها في الطريق!

وكان الحسن بن علي رضي الله عنهما أشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم من صدره إلى قدمه.

وكان أيضاً أحد الأجواد، دخل على أسامة بن زيد وهو يجود بنفسه ويقول: واكرّباه! واحزنه! فقال: وما الذي أحزنك يا عم؟ قال: يا بن رسول الله، ستون ألف درهم دين على لا أجد لها قضاءً. قال: هي على، قال: فك الله رهائتك يا بن النبي صلى الله عليه وسلم. ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

مساوي قتلته الحسين بن علي رضوان الله عليهما

حدَّثنا عبد الله بن أحمد بن إبراهيم، عن يحيى بن معين، عن الحجاج، عن أبي معشر، قال: لما مات معاوية بن أبي سفيان، وذلك في النصف من رجب سنة ستين، وردَّ خبره على أهل المدينة في أول شعبان، وكان على المدينة يومئذ الوليد بن عتبة بن أبي سفيان - وكان غلاماً حدَّثنا يتحرَّج^(١) - فلما جاءه ما جاءه ضاق به صدره، فأرسل إلى مروان بن الحكم - وهو الذي صُرف به مروان عن المدينة - وكان في مروان جدَّة، فقال له الوليد: يا أبا عبد الملك، إنه قد جاءنا اليوم شيء لم نكن نستغنى معه^(٢) عن استشارتك. قال: وما هو؟ قال: موت أمير المؤمنين، قال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(٣)! مات رحمه الله! قال: نعم. قال: أتطيع أمري؟ قال: نعم. قال: أرسل إلى الحسين بن علي وإلى عبد الله بن الزبير، فإن بايعاً فخلَّ سبيلهما، وإن أبياً فاضرب أعناقهما. فأرسل إلى الحسين رضوان الله عليه، وإلى عبد الله بن الزبير رحمه الله، وبدأ بالحسين. فمرَّ الحسين في المسجد، فأشار إليه ابن الزبير وهو قائم يصلِّي، فأتاه، فقال للحرسى: تأخر أيها العبد، فتأخر الحرسى، فقال له: يا أبا عبد الله، أتدرى لأتى شيء دعيت؟ قال: لا، قال: مات طاغيتهم، فدعوك للبيعة، فلا تباع، وقل له: بالغداة على رموس الملاء.

قال: فدخل الحسين عليه السلام، فقال له الوليد: يا أبا عبد الله، دعوناك لخير، قال: أى شيء هو؟ قال: مات أمير المؤمنين، وقد عرفتم ولىَّ عهدكم ومفزعكم، وقد بايع أهل الشام والناس، فادخل فيما دخل فيه الناس. قال: نعم بالغداة إن شاء الله؛ لا بل الساعة، قال: ومثلى يبايع في جوف البيت! بالغداة على رموس الناس، قال: لا بل الساعة، قال: ما أنا بفاعل، وخرج من عنده.

فأرسل إلى ابن الزبير فقال: يا أبا بكر، دعوناك لخير، قال: وما هو؟ قال: مات أمير المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾! رحمه الله عليه قال: فجعل يردد الترحم عليه، وقد نظر ابن الزبير قبل ذلك إلى مروان وهو يناجى الوليد، فتلا هذه الآية: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٤). فقال: يا أبا بكر، قد عرفتم ولىَّ عهدكم ومفزعكم، وقد بايع أهل الشام والناس، فادخل فيما دخل فيه الناس، قال: نعم، بالغداة إن شاء الله، قال: لا بل

(١) يقال: تخرج من الأمر؛ أى تأتم، وحقيقته: جانب المخرج؛ أى الإثم.

(٢) كذا في ل، وفي ك: «فيه».

(٣) سورة البقرة: ١٥٦. (٤) سورة الأنفال: ١.

الساعة، قال: ومثلي يبائع في جوف البيت! أبايعك على رهوس الملاء. قال: لا بل الساعة، قال: ما أنا بفاعل.

فقال مروان للوليد: ما تصنع! أطعني واضرب أعناقها، لئن خرجا من البيت لا تراها أبداً إلا في شرٍّ - وكان الوليد متحرّجاً - فقال: ما كنت لأقتلها؛ فقال ابن الزبير لمروان: يا بن الزرقاء، أو تقدر على قتلنا؟ فقال مروان: إنه والله لو أطاعني ما خرجت ولا صاحبك من البيت حتى تضرب أعناقكما.

قال: فدعا الحسين عليه السلام برواحله، فركب يتوجّه نحو مكة على المنهج الأكبر، وركب ابن الزبير رحمه الله دواباً له، وأخذ طريق الفرع^(١)، فأتى الحسين عليه السلام عبد الله بن مطيع وهو على بثره، فنزل إليه، وقال: يا أبا عبد الله، أين تريد؟ قال: العراق؛ مات معاوية، وجاءني أكثر من جملٍ صُحِف. قال: لا تفعل، فوالله ما حفظوا أباك وكان خيراً منك! ووالله لئن قتلوك لا تبقى حرمةً بعدك إلا استُجِلَّت. فمرَّ الحسين عليه السلام حتى نزل مكة، فأقام بها هو وابن الزبير رحمه الله. وقدم عمرو بن سعيد بن العاص في رمضان أميراً على المدينة وعلى الموسم، وعزل الوليد بن عُثْبَةَ، فلما استوى على المنبر رَعِف، فقال أعرابيٌّ: مه! جاء والله بالدم. قال: فقتله رجلٌ بالعمامة، فقال: مه! عمّ الناس والله، ثم قام^(٢) وبيده عصاً لها شُعْبَتَانِ [فقال]^(٣): قد شُعب^(٤) الناس والله، ثم خرج إلى مكة فقدمها قبل التروية^(٥) بيوم، وخرج الحسين عليه السلام، فقيل له: خرج الحسين، فقال: اركبوا كلَّ بعير وفرس بين السماء والأرض في طلبه فاطلبوه. قال: فكان الناس يتعجبون من قوله هذا، فطلبوه فلم يدركوه، فأرسل عبد الله بن جعفر ابنه: عوناً ومحمداً ليردا الحسين، فأبى الحسين أن يرجع، وخرج بابن عبد الله معه، ورجع عمرو بن سعيد إلى المدينة، وبعث بجيش يقاتلون ابن الزبير، وقدم الحسين عليه السلام مسلماً بن عقيل إلى الكوفة ليأخذ عليهم البيعة، وكان على الكوفة حين مات معاوية، النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري، فلما بلغه خبر الحسين عليه السلام قال: لابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبُّ إلينا من ابن بنت يحدل^(٦). فبلغ ذلك يزيد، فأراد أن يعزله، فقال لأهل الشام: أشيروا على من أستعمل على الكوفة؟ فقالوا: أترضى برأى معاوية؟ قال: نعم. قالوا: فإن العهد بإمارة عبيد الله بن زياد على العراقيين قد كُتب في الديوان، فاستعمله على الكوفة. فقدم الكوفة قبل أن يقدم الحسين عليه السلام، وقد بايع مسلماً بن عقيل أكثر من ثلاثين ألفاً من الرجال من أهل الكوفة، فخرجوا معه يريدون عبيد الله بن زياد، فجمعوا كلها انتهوا إلى زقاق أنسل ناسٌ منهم حتى بقي في شردمةٍ قليلة.

(١) الفرع، بالضم: قرية من نواحي الربذة، على طريق مكة.

(٢) ط: «قال» والصواب ما أتتبه من العقد.

(٣) تكلمة من العقد.

(٤) شعب القوم: تفرقوا. وفي العقدة: «لشعب».

(٥) يوم التروية: الثامن من ذي الحجة.

(٦) هي ميسون بنت يحدل بن أبيك، من بني حارثة بن جناب الكلبي، أم يزيد بن معاوية. تاج العروس ٧: ٢٢٢.

وجعل الناس يرثونه بالآجر من فوق البيوت، فلما رأى ذلك دخل دار هاني بن عروة المرادي - وكان له فيهم رأى - فقال له هاني: إن لي من زياد مكاناً، وسوف أقارض، فإذا جاء يعودني فاضرب عنقه، فقبل لابن زياد: هاني بن عروة شاك يقي الدم - وكان شرب المغرة (١) - فجعل يقينها، فجاء ابن زياد يعوده، وقال هاني، لمسلم: إذا قلت اسقوني ولو كانت نفسى فيه فاضرب عنقه، فقال: اسقوني، فأبطثوا عليه، فقال: ويحكم اسقوني ولو كانت فيه نفسى!

قال: فخرج ابن زياد ولم يصنع الآخر شيئاً - وكان أشجع الناس، ولكن أخذته كيوه - فقبل لابن زياد: والله إن في البيت رجلاً متسلحاً، فأرسل ابن زياد إلى هاني فدعاه فقال: إني شاك (٢)، فقال: أنتوني به وإن كان شاكياً، قال: فأسرجت له دابه فركب، وكانت معه عصا، وكان أعرج، فجعل يسير قليلاً قليلاً، ثم يقف ويقول: مالى ولا ابن زياد! فما زال حتى دخل عليه، فقال: يا هاني، أما كانت يد زياد عندك بيضاء؟ قال: بلى، قال: فيدى؟ قال: بلى، فتناول العصا التي كانت في يد هاني فضرب بها وجهه حتى كسر جبهته، ثم قدمه فضرب عنقه، ثم أرسل إلى مسلم بن عقيل فخرج عليهم بسيفه، فما زال يناوشهم، ويقاتلهم حتى جرح وأسر، فعضش وقال: اسقوني ماء، ومعه رجل من آل أبي معيط ورجل من بني سليم، فقال شير بن ذى جوشن: والله لا نسقيك إلا من البئر؛ وقال المعيطي: والله لا نسقيه إلا من الفرات؛ فأتاه غلام له بإبريق من ماء، وقدح قوارير ومنديل، فسقاه، فتمضمض، فخرج الدم، فما زال يمجج الدم ولا يسبغ شيئاً حتى قال: أخره عنى، فلما أصبح دعاه عبيد الله ليضرب عنقه فقال له: دعنى أوص، فقال: أوص، فنظر في وجوه الناس، فقال لعمر بن سعد: ما أرى هاهنا أحداً من قريش غيرك، فادن منى حتى أكلمك؛ قال: فدنا منه فقال له: هل لك أن تكون سيد قريش؟ قال: نعم؛ قال: قال: إن حسيناً ومن معه وهم تسعون إنساناً بين رجل وامرأة في الطريق، فارددهم، واكتب إليه بما أصابني. ثم أمر عبيد الله فضرب عنقه، فقال عمر: أتدرى ما قال؟ قال: اكتب على ابن عمك، قال: هو أعظم من ذلك، قال: اكتب على ابن عمك! قال: هو أعظم من ذلك؛ قال: أى شيء هو؟ قال: أخبرني أن حسيناً قد أقبل ومعه تسعون إنساناً بين رجل وامرأة، فقال: أما والله لو إلى أسر لرددتهم، لا والله لا يقاتلهم أحد غيرك، فبعث معه جيشاً.

وجاء الحسين عليه السلام الخبر وهو بشراف فهم أن يرجع، ومعه خمسة من بنى عقيل، فلقيه الجيش على خيولهم بوادى السباع، فقال بنو عقيل: أترجع وقد قتل أخونا! فقال الحسين عليه السلام: مالى عن هؤلاء من صبر - يعنى بنى عقيل، فأصاب أصحابه العطش، فقالوا: يا بن رسول الله، أسقنا؛ فأخرج لكل فارس صحيفة من ماء، فسقاهاهم بقدر ما يسبك رمق أحدهم، ثم قالوا: سير بنا، وأخذوا به على الجرف حتى نزلوا كربلاء، فقال: هذا كرب وبلاء، فنزلوا وبينهم وبين الماء يسير، قال: فأراد الحسين عليه السلام وأصحابه الماء، فحاولوا بينهم وبينه، فقال له شير بن ذى جوشن: لا تشربوا أبداً حتى تشربوا من الحميم، فقال العباسى بن على للحسين عليه السلام:

(١) المغرة: الطين الأحمر.

(٢) الشاكى هنا: المريض.

يا أبا عبد الله، ألسنا على الحق؟ قال: نعم، فحمل عليهم، فكشفهم عن الماء حتى شربوا وأسقوا. ثم بعث عبيد الله بن زياد إلى عمر بن سعد أن قاتلهم. فقال الحسين عليه السلام: يا عمر، اختر مني إحدى ثلاث: تتركني أرحج كما جئت، وإن أبيت هذه فسيرني إلى الترك أقاتلهم حتى أموت، وإن أبيت هذه فأبعث بي إلى يزيد لأضع يدي في يده. وأرسل إلى ابن زياد بذلك، فهم أن يسيره إلى يزيد، فقال له شمر بن ذى جوشن: قد أمكنك الله منه - أو قال: من عدوك - وتسير إلى الأمان! لا، إلا أن ينزل على حكمك. فأرسل إليه بذلك، فقال: لا حياء ولا كرامة! أنزل على حكم ابن سمية!

وكان مع عمر بن سعد قريب من ثلاثين رجلاً من أهل الكوفة، فقالوا: يعرض عليكم ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث خصال: فلا تقبلون منها شيئاً فتحوّلوا مع الحسين عليه السلام، فقاتلوا حتى قتلوا، وقتل الحسين رضى الله عنه وجميع من معه رحمهم الله، وحمل رأسه إلى عبيد الله بن زياد، فوضع بين يديه على ترس، فبعث به إلى يزيد، فأمر بغسله، وجعله في حريرة، وضرب عليه خيمة ووكل به خمسين رجلاً. فقال واحد منهم: تمت وأنا مفكر في يزيد وقتله الحسين عليه السلام، فبينما أنا كذلك إذ رأيت سحابة خضراء فيها نور قد أضاءت ما بين الخافقين، وسمعت صهيل الخيل ومنادياً ينادى: يا أحمد، اهبط، فهبط رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه جماعة من الأنبياء والملائكة، فدخل الخيمة وأخذ الرأس، فجعل يقبله ويبكي ويضمه إلى صدره، ثم التفت إلى من معه فقال: انظروا إلى ما كان من أمي في ولدي! ما بالهم لم يحفظوا فيه وصيتي، ولم يعرفوا حقى إلا أنالهم الله شفاعتى. قال: وإذا بعدة من الملائكة يقولون: يا محمد، الله تبارك وتعالى يقرئك السلام، وقد أمرنا بأن نسمع لك ونطيع. فمرنا أن نقب البلاد عليهم، فقال صلى الله عليه وسلم: «خلوا عن أمي فإن لهم بلعة وأمدًا». قالوا: يا محمد، إن الله جل ذكره أمرنا أن نقتل هؤلاء النفر، فقال: «دونكم وما أمرتم به». قال: فرأيت كل واحد منهم قد رمى كل واحد منا بحربة، فقتل القوم في مضاجعهم غيرى، فإني صحت: يا محمد، فقال: «وأنت مستيقظ؟»، قلت: نعم، قال: «خلوا عنه، يعيش فقيراً ويموت مذموماً» فلما أصبحت دخلت على يزيد وهو منكسر مهموم، فحدثته بما رأيت، فقال: امض على وجهك وتب إلى ربك^(١).

أبو عبد الله غلام الخليل رحمه الله، قال: حدثنا يعقوب بن سليمان، قال: كنت في ضيقتي، فصلينا العتمة، وجعلنا نتذكر قتل الحسين عليه السلام، فقال رجل من القوم: ما أحد أعان عليه إلا أصابه بلاء قبل أن يموت؛ فقال شيخ كبير من القوم: أنا ممن شهدها، وما أصابني أمر كرهته إلى ساعتى هذه. وخبا السراج، فقام يصلحه، فأخذته النار، وخرج مبادراً إلى الفرات وألقى نفسه فيه، فأشتعل وصار فحمة.

(١) الخبر في العقد ٤: ٣٧١ - ٣٨٠ مع اختلاف في الرواية.

قيل: ودخل سنان بن أنس على الحجّاج بن يوسف فقال: أنت قتلت الحسين بن عليّ؟ فقال: نعم، قال: أما إنكما لن تجتمعا في الجنة، فذكروا أنهم رأوه موسوساً يلعب ببوله كما يلعب الصبيان. قال: وقال محمد بن سيرين: ما رثيت هذه الحُمرة في الساء إلا بعد ما قُتِل الحسين عليه السلام، ولم تُطمّث امرأة بالروم أربعة أشهر إلا أصابها وضح. فكتب ملك الروم إلى ملك العرب: قتلتم نبياً، أو ابن نبى.

وروى أنه لما قُتل رضى الله عنه احمرت آفاق السماء، واقتسموا ورساً كان معه فصار رماًداً، وكانت معه إبلٌ فجزروها فصارت جَمرةً في منازلهم.

مساوى الحرة

قال: ولما كان من أمر الحسين عليه السلام ما كان، قديم عمرو بن حفص بن المغيرة - وكان تزوج يزيد بن معاوية ابنته، وأعطاه مالا كثيرا - فلما قديم المدينة، جاءه محمد بن عمرو بن حزم، وعبيد الله بن حنظلة، وعبد الله بن مطيع بن الأسود، وناس من وجوه أهل المدينة، قالوا: ننشدك الله رب هذا البيت، ورب صاحب هذا القبر، إلا أخبرتنا عن يزيد! فقال: إنه ليشرب الخمر، ويُنادم القرد، ويفعل كذا ويصنع كذا. فقالوا: والله ما لنا بأهل الشام من طاقة، ولكن ما يحل لنا أن نباع رجلا على هذه الحال، فقال محمد بن عمرو لأهله: هاتوا درعِي. ثم خرج.

فخرج أهل المدينة وخلصوا يزيد، وأخرجوا عثمان بن محمد بن أبي سفيان وبنى أمية من المدينة - وكان عثمان إلى المدينة - ثم قال محمد بن أبي جهم لأهل المدينة: أطيعوا أمرى اليوم، واعضوني الدهر. اقتلوا سبعة عشر رجلا من بنى أمية لا تروا شرا أبدا. فأبى أهل المدينة أن يقتلوه، وأخذوا عليهم الموائيق ألا يرجعوا إلى المدينة مع جيش أبدا. فبعث عثمان بن محمد بن أبي سفيان قميصه مشقوقا إلى يزيد، وكتب إليه: واغوثاه! إن أهل المدينة أخرجوا قومنا من المدينة، وشقوا ثوبي، وارتكبوا مني^(١).

قال أبو معشر: حدثنا رجل قال: خرج علينا يزيد بعد العتمة ومعه شمعتان: شمعة عن يمينه، وشمعة عن يساره، وعليه معصرتان كأنها قطرتا دم، وإزار ورداء، وقد نفش جثته كأنها برس^(٢). فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، يا أهل الشام، فإنه كتب إلى عثمان بن محمد بن أبي سفيان: إن أهل المدينة أخرجوا قومنا من المدينة، والله لأن تقع الخضراء على الغبراء أحب إلى من هذا! قال: وكان معاوية أوصى يزيد: إن رابك من قومك ريب، أو انتقص عليك منهم أحد، فعليك بأعور بني مرة فاستشره - يعنى مسلم بن عقبة. فلما كان تلك الليلة قال: أين مسلم بن عقبة؟ فقام وقال: هأنذا، قال: كن معي، فجعل يزيد يعيب الجيوش - وكان ابن سنان نازلا على مسلم - فقال له: إن أمير المؤمنين قد بعثنى إلى المدينة ومكة، قال: استعفه، قال: لا، قال: فاركب فيلا أو فيلة وتكن أبا يكسوم، فمرض مسلم قبل خروجه من الشام، فدخل عليه يزيد ابن معاوية، فقال: قد كنت وجهتك لهذا البعث، وأراك مُدَنِّقا! فقال: يا أمير المؤمنين، أنشدك الله ألا تحرمنى أجرا ساقه الله إلى، إنما هو أمر خفيف، وليس على من بأس. قال: فلم يطعن من الوجع أن يركب بعيرا ولا دابة. قال: فوضع على سرير، وحمله الرجال على أعناقهم حتى جاءوا به مكانا

(١) كذا في الأصول. وفي العقد «كتب عثمان بن محمد إلى يزيد بما أجمع عليه أهل المدينة من خلاف».

(٢) في الأصول: «ترس»، والبرس: القطن المندوف.

يقال له البِثْرَاءُ^(١)، فأراد النزول به، فقال: ما اسم هذا المكان؟ قيل البِثْرَاءُ، قال: لا تنزلوا به، فنزلوا بقهر^(٢)، ثم ارتحلوا حتى نزلوا الحرّة.

فأرسل إلى أهل المدينة: إن أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام ويقول: أنتم الأصل والعشيرة، فاتقوا الله واسمعوا وأطيعوا، فإن لكم في عهد الله وميثاقه عطاءً في كل سنة: عطاءً في الشتاء، وعطاءً في الصيف، ولكن عندي في عهد الله أن أجعل يسرَ الحنطة عندكم سعر الحنيط - والحنيط يومئذ سبعة^(٣) أصوع بدرهم - فقالوا: نخلعه كما نخلع عمامتنا ونعالنا، فقاتلهم فهزّمهم، وقتل عبد الله بن حنظلة، وابن حزم، وبضعة عشر رجلاً من الوجوه، وتسعون رجلاً من قريش، وبضعة وسبعون رجلاً من الأنصار، وقتل من سائر الناس نحو أربعة آلاف رجل، وقتل ابنان لعبد الله بن جعفر، وقتل أربعة من ولد زيد بن ثابت. وقال مسلم لعبد الله بن جعفر: اخرج عن المدينة لا يقع بصرى عليك. وانهب المدينة ثلاثاً، فقتل الناس^(٤)، وضجت النساء وذهبت الأموال، فلما فرغ مسلم من القتال، انتقل إلى قصر ابن عامر، فدعا أهل^(٥) المدينة لليابعوه، وكان ناس منهم قد تحصنوا في عرصة سعيد؛ منهم محمد بن أبي جهّم ونفر معه، فدعاهم للبيعة، فقال: تبايعون لعبد الله يزيد أمير المؤمنين علي أنكم خوؤه؛ مما أفاء الله عليه بأسياف المسلمين، إن شاء وهب، وإن شاء أعتق، وإن شاء استرق. فبايعه ناس منهم على ذلك، وجاء عمرو بن عثمان بيزيد بن عبد الله بن زمة - وجدته أم سلمة زوج النبي ﷺ، وكان عمرو بن عثمان قال لأم سلمة: أرسلى معي ابن ابنتك ولك مني عهد الله وميثاقه أن أردّه إليك كما أخذته منك. فجاء به إلى مسلم، فجلس عمرو بن عثمان على طرف سريره، فلما تقدّم يزيد بن عبد الله، قال: تبايع ليزيد أمير المؤمنين علي أنك من خوؤه، مما أفاء الله عليه بأسياف المسلمين، إن شاء وهب وإن شاء استرق. فقال: لا، أنا أقرب إلى أمير المؤمنين منك، فقال: والله لا أستقبلها منك أبداً. فقال عمرو بن عثمان: أنشدك الله فإني أخذته من أم سلمة بعهد الله وميثاقه أن أردّه إليها.

قال: فركّله ورّمى به من فوق السرير، فقال: لو قتلتها ما أقلتك، فقتل يزيد بن عبد الله، ثم أتى بمحمد بن أبي جهّم، فقال له: أنت القاتل: أقتلوا سبعة عشر رجلاً من بني أمية لا تروا شراً أبداً! قال: قد قتلتها، ولكن لا يطاع لقصير أمر، أرسل يدي من غلي، وقد برئت مني الذمة، قال: لا، حتى أقدمك إلى النار، فضرب عنقه، ثم جاءوه بمعقل بن سنان وكان جالساً في بيته، فأتاه مائة رجل من قومه، فقالوا: اذهب بنا إلى الأمير حتى نبايعه، فقال: إني قد قلت له كلمة، وإني أتخوفه، قالوا: لا والله لا يصل إليك أبداً. فلما بلغوا الباب أدخلوا معقلاً وغلّقوا الباب، فلما نظر إليه مسلم قال: إني أرى الشيخ قد لعب، اسقوه من الثلج الذي زودنيه أمير المؤمنين. قال: فخاضوا^(٦) له ثلجاً بغسل، فشربه، فقال: أشربت؟ قال: نعم. قال: والله لا تبولّه من مثانتك أبداً، أنت القاتل:

(٤) ل، ك: «النساء».

(٥) ك: «بأهل».

(٦) خاضوا له، أي خلطوا.

(١) البِثْرَاءُ؛ ذكره صاحب مراصد الاطلاع وقال: اسم جبل.

(٢) القهر: أسافل الحجاز مما يلي نجد.

(٣) ك: «تسعة».

اركب فيلاً أو فيلة، وتكنّ أبا يكسوم! قال: أما والله لقد تخوّفتُ ذلك منك، ولكن غلبتني عشيرتي، قال: فجعل يفزّر جُبّةً عليه من بُرود ويقول: أما والله يا أعداء الله ما شقققتها جزعاً من الموت، ولكنني أخشي أن تُسلّبوا منها. فضربت عنقه. ثم سار إلى مكة حتى إذا بلغ قفاً المشلل^(١) دَنَف، فدعا بحصين بن نمير الكِنديّ، فقال: يا بردعة الحمار، والله ما خلق الله أحداً هو أبغضُ إليّ منك، ولولا أن أمير المؤمنين أمرني أن استخلفك ما استخلفتك، أسمع؟ قال: نعم. قال: لا يكون إلا الوَقاف ثم الثقاف ثم الانصراف^(٢)، لا تمكّن أذنك من قريش.

ثم مات مسلم لا رحمه الله، فدفن بقفاً المشلل وكانت أم يزيد بن عبد الله بن زمعة بأسناده، فخرجت إليه فنبشته وأحرقته بالنار، وأخذت أكفانه فشقققتها وعلقتها بالشجرة^(٣).

قال أبو معشر: أقبلتُ من مكة حتى إذا كنت بقفا المشلل عند قبر مسلم، إذا رجلٌ من أهل الشام ممن حضر وقعة الحرة يسايرني، فقلت له: هذا قبر مسلم بن عُبّة؟ فقال: أحدثك بالعجيب، كان مع مسلم رجلٌ من أهل الشام يقال له: أبو الغراء، فإذا نصف شعره أسود، ونصفه أبيض، فقلت له: ما شأنك؟ قال: لما كانت ليلة الحرة جئت قِباء، فدخلتُ بيتاً، فإذا فيه امرأة جالسة معها صبي لها، وليس عليها شيء إلا دِرْع، وقد ذهب بكل شيء لها، فقلت لها: هل من مال؟ قالت: لا والله! لقد بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على أنني لا أزني ولا أسرق ولا أقتل ولدي. قال: فأخذت برجل الصبي فضربتُ به الحائط، فنثر دماغه، فخرجتُ فإذا نصف رأسي أبيض ونصفه أسود كما ترى.

(١) المشلل: جبل يهبط منه إلى قديد، من ناحية البحر.

(٢) الوقاف: أن يقف كل واحد للأخر مقام خصومة أو حرب، والثقاف: الجلاذ.

(٣) الخبر في العقد ٤: ٣٨٧-٣٨٨.

محاسن ما قيل فيهم من الأشعار

قال كعب بن زهير في الحسين بن عليّ رحمة الله عليهما:

مَسَحَ النَّبِيُّ جَبِينَهُ فَلَهُ بِيَاضٌ فِي الْخُدُودِ^(١)
وَبُوجْهِهِ دِيْبَاجَةٌ كَرُمُ النُّبُوَّةِ وَالْجُدُودِ

[مجزوء الكامل]

قال: وأنشد الحميريّ في الحسن والحسين^(٢):

أَتَى حَسَنًا وَالْحُسَيْنَ الرَّسُولُ^(٣) وَقَدْ بَرَزَا حَجْرَةً يَلْعَابِنِ^(٤)
فَضَمَّهَا وَتَفَدَّاهَا^(٥) وَكَانَا لَدَيْهِ بِذَلِكَ الْمَكَانِ
وَمَرَّ وَتَحْتَهَا عَاتِقَاهُ^(٦) فَنَعَمُ الْمَطِيَّةِ وَالرَّكَّابَانِ

[المتقارب]

قال: وقال المأمون: أنصف شاعر الشيعة حيث يقول:

إِنَّا وَإِبَاكُمْ نَمُوتُ فَلَا أَفْلَحَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَنْ نَدِمَا

[الكامل]

وقال المأمون:

وَمِنْ غَاوٍ يَعْضُ عَلَيَّ غِيظًا إِذَا أَدْنَيْتُ أَوْلَادَ الْوَصِيِّ
يُحَاوِلُ أَنْ نُوِّرَ اللَّهُ يُطْفِئُ وَنُورُ اللَّهِ فِي حِصْنِ أَبِي
فَقُلْتُ أَلَيْسَ قَدْ أُوتِيتُ عِلْمًا وَبَانَ لَكَ الرَّشِيدُ مِنَ الْغَوِيِّ
وَعُرِفَتْ احْتِجَاجِي بِالْمَثَانِي وَبِالْمَعْقُولِ وَالْأَنْثَرِ الْقَوِيِّ
بِآيَةِ خَلَّةٍ وَبِأَيِّ مَعْنَى تَفَضَّلُ مُلْحِدِينَ عَلَيَّ عَلِيًّا
عَلِيٌّ أَعْظَمُ الثَّقَلَيْنِ حَقًّا وَأَفْضَلُهُمْ سِوَى حَقِّ النَّبِيِّ

[الوافر]

وقال غيره وأجاد:

إِنَّ الْيَهُودَ بِحُبِّهَا لِنَبِيِّهَا^(٧) أَمَنْتُ مَعْرَةَ دَهْرَهَا الْخَوَّانِ

(١) ملحق ديوانه ٢٥٩.

(٢) الأغاني ٧: ٢٥٩ (طبعة الدار) مع اختلاف في الرواية.

(٣) الأغاني: «النبي».

(٤) ل: «لحباها».

(٥) الأغاني: «تفداهما ثم حياتها».

(٦) حجرة: ناحية.

يَمْشُونَ زَهْوًا فِي قَرَى نَجْرَانٍ
يُرْمُونَ فِي الْأَفَاقِ بِاللَّيْرَانِ

[الكامل]

بَيْنَ شَيَاطِينٍ عَتَّتْ مَارِدَهُ
تَنَافَرُوا كَالْإِبِلِ الشَّارِدَهُ
خَانَتَكَ فِي مَوْلِدِكَ الْوَالِدَهُ

[السريع]

وَابْنِ الْجَوَادَةِ وَالْبِخِيلِ
هِيَ الْمَذْمَةُ لِلرَّسُولِ
وَأَنْتَ مِنْ وَلَدِ النُّعُولِ^(١)

[مجزوءه الكامل]

وَذُوو الصَّلِيبِ بِحَبِّ عَيْسَى أَصْحَوَا
وَالْمُؤْمِنُونَ بِحَبِّ آلِ مُحَمَّدٍ

وقال آخر سماحه الله:

يَا لَكَ مِنْ مَتَجَرَّةٍ كَاسِدَةٍ
إِذَا تَذَكَّرْتَ بِنَى أَحْمَدٍ
فَقُلْ لِمَنْ يُلْحَاكَ فِي حُبِّهِمْ

وقال دعبيل رحمه الله تعالى:

قُلْ لَابِنِ خَائِنَةِ الْبُعُولِ
إِنَّ الْمَذْمَةَ لِلْوَصِيِّ
أَنْتُمْ أَوْلَادُ النَّبِيِّ

الموصل النصراني:

عَدِيٌّ وَنُعَيْمٌ لَا أَحَاوِلَ ذَكَرَهُمْ
وَهَلْ تَأْخُذْنِي فِي عَلِيٍّ وَحُبِّهِ
يَقُولُونَ مَا بِالِ النَّصَارَى تُحِبُّهُ
فَقُلْتُ لَهُمْ إِنِّي لِأَحْسِبُ حُبَّهُ

[الطويل]

وفي بني أمية، قيل: دخل خالد بن خليفة الأقطع على أبي العباس، وعنده علي بن هشام بن عبد الملك، فأشار إلى أبي العباس وهو يقول شعراً:

إِنَّ تَعَابِيَهُمْ عَلَى رِقَّةِ الدِّينِ
كَانَ فَحْلًا زَمَانُهُمْ يَرْمَحُ النَّاسَ
فَقَدْ كَانَ دِينُهُمْ سَامِرِيًّا
سَ، فَأَضْحَى الزَّمَانُ مِنْهُمْ خَصِيًّا

[الخفيف]

(١) نفل المولود، أي فسد نسبه.

محاسن السَّبِقِ إِلَى الْإِسْلَامِ

رُوي عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرج أبو بكر رضي الله عنه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الإسلام، وكان له صديقًا في الجاهلية، فلقبه، فقال: يا أبا القاسم، قعدت في مجالس قومك، واتهموك بالعيب لأبائنا وأدياننا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إني رسول الله، أدعوك إلى الله»؛ فما كان إلا أن سمع أبو بكر كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فشرح الله صدره، فأسلم، فانصرف عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وما بين الأخشين^(٢) أحد أكثر سرورًا بإسلام أبي بكر رضي الله عنه منه. ومضى أبو بكر حتى أتى طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، فدعاهم إلى الإسلام. فأسلموا. ثم [مضى] عثمان بن مظعون وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف وأبو سلمة بن عبد الأسد والأرقم بن أبي الأرقم مع أبي بكر، فأسلموا.

وأما إسلام عمر رضي الله عنه، فإن قريشًا بعثت بعمر رضي الله عنه ليقتل النبي صلى الله عليه وسلم، فخرج عمر متقلدًا سيفه في أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يومئذ في دار في أصل الصنّاء، فلقبه نعيم بن عبد الله بن أسيد - وقد أسلم - فقال: يا عمر، أين أراك تريد؟ قال: أريد محمدًا؛ هذا الذي سفّه عقولنا، وشمم أهتنا، وخالف جماعتنا، لأقتلنه! قال نعيم: لبس المشى والله مشيت يا عمر، ولقد أفرطت وأردت هلكة عدى بن كعب بمعادتك بنى هاشم! أو ترى أنك آمن من أعمامه وبني زهرة وقد قتلت محمدًا! فتحاوَرَا، حتى ارتفعت أصواتهما، فقال له عمر: والله لأظنك قد صبأت، ولو أعلم ذلك منك لبدأت بك. فلما رأى نعيم أنه غير منته قال: أما إن أهلك قد أسلموا وتركوك وما أنت عليه. فلما سمع ذلك نفر وقال: أيهم؟ قال: خنتك وابن عمك وأختك، فانطلق إلى أخته، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتمع عليه طائفة من ذوى الفاقة من أصحابه، فقال لأولى السعة: يا فلان، فليكن عندك فلان. فوافق ابن عم وختته سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، قد دفع إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خباب بن الأرت مولى أم أُمّار حليف بني زهرة، وقد أنزلت سورة «طه». فأقبل عمر حتى انتهى إلى باب دار أخته ليتعرف ما بلغه، فإذا خباب عند أخته يدرس عليه سورة «طه»، و«إذا الشمس كورت»، فلما دخل عمر حذرت أخته، وعرفت

(١) ل: «من».

(٢) الأخشبان: جيلان يضافان إلى مكة تارة، وإلى منى تارة، أحدهما أبو قبيس، والآخر قبيعان.

الشرُّ في وجهه، وَخَبَاتِ الصَّحِيفَةِ، وَرَاغِ خَبَابٍ فَدَخَلَ الْبَيْتَ، فَقَالَ عَمْرٌ لِأَخْتِهِ: مَا هَذِهِ الْهَيْئَةُ^(١)؟ قَالَتْ: حَدِيثٌ تَتَحَدَّثُ بِهِ بَيْنَنَا، فَحَلَفَ أَلَّا يَبْرَحَ حَتَّى يَتَبَيَّنَ شَأْنُهَا. فَقَالَ لَهُ زَوْجُهَا: إِنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَجْمَعَ النَّاسَ عَلَى هَوَاكَ يَا عَمِّي، وَإِنْ كَانَ الْحَقُّ سِوَاهُ. فَطَبَّشَ بِهِ عَمْرٌ، وَوَطَنَهُ وَطَنًا شَدِيدًا، فَقَامَتِ أَخْتُ عَمْرٍ تَحْجُزُ بَيْنَهُمَا، فَفَنَحَّهَا بِيَدَيْهِ فَشَجَّهَا، فَلَمَّا رَأَتْ الدَّمَ قَالَتْ: هَلْ تَسْمَعُ يَا عَمْرُ! أَرَأَيْتَ كُلُّ شَيْءٍ بَلَغَكَ عَنِّي مِمَّا يَذْكَرُ مِنْ تَرْكِي أَهْلِكَ وَكُفْرِي بِاللَّاتِ وَالْعَزَى فَهُوَ حَقٌّ! وَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَتَمَّ أَمْرَكَ، وَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ. فَلَمَّا رَأَى عَمْرٌ ذَلِكَ سَقَطَ فِي يَدِهِ^(٢)، فَقَالَ لِأَخْتِهِ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَدْرُسِينَ أَنْفَا؟ أَعْطَيْكَ مَوْتًا لَا أَمْحُوهُ حَتَّى أُرَدَّهُ إِلَيْكَ، وَلَا أَخُونِكَ فِيهِ. فَلَمَّا رَأَتْ أختَهُ جِرْصَهُ عَلَى الْكِتَابِ رَجَّتْ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لِدَعْوَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ لَهُ: إِنَّكَ نَجَسٌ، وَلَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ. فَقَامَ وَاغْتَسَلَ مِنَ الْحَنَابَةِ وَأَعْطَاهَا مَوْتًا، فَطَامَأَنَتْ بِهِ وَدَفَعَتْ إِلَيْهِ الصَّحِيفَةَ، فَقَرَأَ «طه» حَتَّى بَلَغَ: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْمَى * فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾^(٣). وَقَرَأَ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ﴾^(٤). فَاسْلَمَ عِنْدَ ذَلِكَ، وَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ. وَخَلَعَ الْأَنْدَادَ وَكَفَرَ بِاللَّاتِ وَالْعَزَى. فَخَرَجَ خَبَابٌ وَكَانَ دَاخِلًا فِي الْبَيْتِ - مَكْبَرًا، وَقَالَ: أُبَشِّرُ بِكَرَامَةِ اللَّهِ يَا عَمْرُ! فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَا أَنْ يُعَزَّ اللَّهُ بِكَ الْإِسْلَامَ، فَقَالَ عَمْرٌ: دَلُونِي عَلَى الْمَنْزِلِ الَّذِي فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُ خَبَابٌ: هُوَ فِي الدَّارِ الَّتِي فِي أَصْلِ الصُّفَا، فَأَقْبَلَ عَمْرٌ وَقَدْ بَلَغَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ عَمْرٌ يَطْلِبُهُ لِيَقْتُلَهُ، وَلَمْ يَبْلُغْهُ إِسْلَامُهُ. فَلَمَّا انْتَهَى عَمْرٌ إِلَى الْبَابِ لِيَسْتَفْتِحَ، رَأَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَقَلِّدًا سَيْفَهُ، فَاشْفَقُوا مِنْهُ، فَلَمَّا رَأَى حِمزَةً وَحَدَّهُ، قَالَ: افْتَحُوا، فَإِنَّ كَانَ اللَّهُ يَرِيدُ بِعَمْرٍ خَيْرًا اتَّبِعْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَدِّقْهُ؛ وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ قَتَلْنَاهُ بِسَيْفِهِ، وَيَكُونُ قَتْلُهُ عَلَيْنَا هَيْئًا. فَابْتَدَرَهُ رِجَالٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُوحِي إِلَيْهِ، فَسَمِعَ صَوْتَ عَمْرٍ، فَخَرَجَ لَيْسَ عَلَيْهِ رِداءٌ حَتَّى أَخَذَ بِمَجْمَعِ رِداءِ عَمْرٍ وَقَمِيصِهِ، وَقَالَ لَهُ: أَمَا وَاللَّهِ مَا أَرَاكَ تَنْتَهَى يَا عَمْرُ حَتَّى يُنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِكَ مِنَ الرَّجْرِ مَا أَنْزَلَهُ بِالْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةَ! ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ اهْدِ عَمْرًا» فَضَحِكَ عَمْرٌ وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّكَ مُحَمَّدٌ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فَكَبَّرَ أَهْلُ الدَّارِ تَكْبِيرًا سَمِعَهَا مِنْ وَرَاءِ الدَّارِ، وَالْمُسْلِمُونَ يَوْمئِذٍ بِضِعْمَةِ وَأَرْبَعُونَ رَجُلًا وَإِحْدَى عَشْرَةَ امْرَأَةً، ثُمَّ قَالَ عَمْرٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَحْنُ بِالْإِسْلَامِ أَحَقُّ أَنْ يُنَادَى مِنَّا بِالْكَفْرِ، فَلْيُظْهِرْ دِينَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِمَكَّةَ، فَخَرَجَ عَمْرٌ وَجَلَسَ فِي الْمَسْجِدِ وَصَلَّى عِلَانِيَةً وَأَظْهَرَ الْإِسْلَامَ، فَلَمَّا نَزَلَ الدِّينَ عَزِيزًا مِنْذُ أُسْلِمَ عَمْرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) سورة طه ١٥، ١٦.
(٤) سورة التكويد ١-١٤.

(١) الهينة: الصوت الخفى.
(٢) أسقط في يده: ندم.

وأما إسلام عثمان، فإنه روى أن عثمان بن عفان رحمه الله قال: دخلت على جدتي^(١) بنت عبد المطلب أعودها، فإني لعندها إذا جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودها، فجعلت أنظر إليه وقد نَشَرَ من شأنه حينئذ شيئاً، فأقبل عليّ فقال: ما شأنك يا عثمان؟ فجعل لي إلى الكلام سيلاً، فقلت: أعجبُ منك ومن مكانك فينا وفي قومك، وما يقال عليك! فقال: لا إله إلا الله. فإله يعلم أني اقشعرت. ثم قال: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ * فَوَرَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ^(٢)، فقام، فقامت في أثره، فأسلمت.

(١) هي البيضاء بنت عبد المطلب، عمّة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٢) سورة الذاريات ٢٢، ٢٣.

مساوىء من ارتد عن الإسلام

منهم جبلة بن الأيهم الغساني. لما افتتحت الشام، ونظر جبلة إلى هدى المسلمين وقارهم، أحب الدخول في الإسلام، فسار نحو المدينة إلى عمر بن الخطاب رحمه الله، فلما بلغ عمر قدمه قال للمهاجرين: استقبلوه، وأظهروا تعظيمه وتبجيله، فإنه قريب العهد بالملك، فاستقبله الناس، وأظهروا بره، وأقبل جبلة حتى دخل على عمر رضى الله عنه.

فقرَّب مجلسه وأذناه ووعده من نفسه خيراً، فأسلم، وأقام بالمدينة. حتى إذا حضر أو أن الموسم حجَّ عمرُ رحمه الله، وخرج معه جبلة، فبينما هو يطوفُ بالبيتِ مُحرِّماً، وعليه إزاران، قد تردى بواحد^(١)، وأتزر بالآخر، إذ وطئ رجلُ طرف إزاره، فانحلَّ عنه حتى بدت عورته فغضب ووثب على الرجل فلطمه. فتعلق به الرجل وجماعة معه وانطلقوا به إلى عمر رضى الله عنه، وشهدوا عليه، فقال عمر: أقيد الرجل أو استوهب [نفسك]^(٢) منه، فقال جبلة: وكذلك هذا الدين لا يُفصل فيه شريفٌ على وضع، ولا ملكٌ على سُوقةٍ قال عمر: قال الله تعالى، وقوله الحق: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(٣). إن الناس شريفهم ووضعهم في الحق سواء. فانصرف جبلة، فلما جنَّ عليه الليل، خرج في حشمه وعياله؛ حتى لحقوا بأرض الشام مرتدًا عن الإسلام.

فكتب عمر إلى أبي عبيدة بن الجراح، فأمره أن يستتیب جبلة، فإن تاب وإلا ضرب عنقه. وبلغ ذلك جبلة، فخرج من أرض الشام حتى دخل أرض الروم؛ وأتى الملك فأخبره بأمره، ورجوعه إلى النصرانية، فسُرَّ الملكُ بقدومه، واستخلفه على ملكه، وجعله جازئ الأمر في سلطانه، أو أقطعه حيث شاء، وأجرى عليه من التزل ما شاء وجعله من محدثيه وسماؤه^(٤): فأقام عنده، فلما ولى معاوية بن أبي سفيان بعث رجلاً من الأنصار - يقال له تميم بن بشر^(٥) - إلى قيصر ملك الروم في بعض أموره.

قال تميم: فلما دخلت على قيصر أبلغته الرسالة، وجلست عنده، فحدثني^(٦) ملياً ثم قال: هل لك في لقاء رجل من العرب من أهل بيت الملك؟ فقلت: ومن هو؟ قال: جبلة بن الأيهم؛ قلت: إن لي في ذلك أملاً^(٧)، وإني لرجلٌ من قومه. فبعث معي رجلاً حتى أدخلني عليه وهو في مجلس له يغشى

(١) ك: «بأحدهما».

(٢) تكملة يقتضيها السياق، وفي الأغاني: «فلما أن ترضى الرجل أو أقيده منك».

(٣) سورة الحجرات ١٣.

(٤) من ل.

(٥) في خزنة الأدب: «جثامة بن مساحق الكنانى».

(٦) ل: «فجذبني».

(٧) ك، ل: «أهلاً».

العيون حُسْنُهُ وكثرةُ تصاويره^(١)، مطليّة حيطانُهُ بماء الذهب والفضّة، يتلألأ تَلَألُؤًا، وحوّله نفرٌ من بطارقة الروم، فسألني: مَنْ أنا؟ فانتسبتُ له، فقال: حيّاك الله، فإننا بنو عمّ، ثم أمر جُلساءهُ فخرجوا من عنده، وخلا بي يسألني عن العرب وأماكنها، فخيرتُهُ بجميع ما سألتني عنه، فبكى حتى خضلت لحيتهُ الدموعُ، ثم أنشأ يقول:

تَنَصَّرْتُ بَعْدَ الدِّينِ مِنْ عَارِ لَطْمَةٍ^(٢) وَمَا كَانَ مِنْهَا لَوْ صَبَرْتُ لَهَا ضَرَرٌ
تَكَنَّفَنِي مِنْهَا لِمَجَاجٍ وَنَخْوَةٍ وَبَعَثَ بِهَا الْعَيْنَ الصَّحِيحَةَ بِالْعَوْرِ^(٣)
فِيَالَيْتِ أُمِّي لَمْ تَلِدْنِي وَلَيْتَنِي تَوَيَّتْ أَسِيرًا فِي رَيْبَةٍ أَوْ مُضْرًا
وَبَالَيْتَنِي أَرَعَى الْمَخَاضَ بِقَفْرَةٍ وَلَمْ أَنْكِرِ الْقَوْلَ الَّذِي قَالَهُ عُمَرُ
وَبَالَيْتَ لِي بِالشَّامِ أَدْفَى مَعِيشَةٍ أَجَالِسُ قَوْمِي فِي الْعَشِيَّاتِ وَالْبُكْرِ^(٤)
أَدِينُ بِمَادَانُوا بِهِ مِنْ شَرِيعَةٍ وَقَدْ يَجْلِسُ الْعَيْرُ الضُّجُورَ عَلَى الدُّبْرِ
[الطويل]

قال: ثم دعا بغدادته، فلما فرغنا خرجت علينا جاريتان في يد إحداها يربط^(٥) وفي يد الأخرى مزمارٌ، فجلستنا، ثم خرجت علينا جاريتان في يد إحداها جامٌ^(٦) فيه مسكٌ مسحوق، وفي يد الأخرى جامٌ مملوءٌ ماء ورد، ثم أقبل طائران كانا شبيهين بطاوسين أو تدرجين^(٧)، فسقطا في الحمام، واحتملا المسك بجناحيهما، فرشاه علينا.

وقال جَبَلَةٌ للمغنيين. غنيا، فغنتاه.

لَمَنْ الدَّارُ أَقْفَرَتْ بِمَعَانٍ بَيْنَ أَعْلَى الْيَرْمُوكِ فَالصَّمَانِ^(٨)
ذَاكَ مَغْنًى لَأَلِّ جَفْنَةً فِي الدَّهْرِ رَوحٌ تَصْرُفُ الأَزْمَانَ
قَدْ أَرَانِي هُنَاكَ حَقًّا مَكِينًا عِنْدَ ذِي التَّاجِ مَقْعَدِي وَمَكَانِي
[الخفيف]

(١) ك: «وكثرة التصاوير فيه».

(٢) الأغاني والخزائن: «تنصرت الأشراف من عار لطمه».

(٣) الخزائن: «وكتت كمن باع الصحيحة بالعور».

(٤) الأغاني: «أجالس قومي ذاهب السمع والبصر».

(٥) الربيط: العود (مغرب).

(٦) الحمام: إناء من الفضة.

(٧) التدرج: طائر.

(٨) لحسان، ديوانه ٤١٤: ومعان، بالفتح، والمحدثون يقولون بالضم: مدينة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء. والصمان - وهي رواية ياقوت والأغاني والخزائن - من نواحي الشام بظاهر البلقاء، وفي ديوانه «الحمان»: وهي من نواحي البتينة من أرض الشام، وفي الأصلين: «المسريات» تحريف.

قال: ثم بكى حتى خضلت دموعه لحيته، ثم قال: غنياني، فغنتا:

الله تَرَّ غَصَابَةٌ نَادِمْتُهُمْ يوماً يَجَلِّقُ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ (١)
 أَوْلَادٌ جَفَنَةٌ قَبْرُ أَبِيهِمْ قَبْرُ ابْنِ مَارِيَةَ الْكَرِيمِ الْمُفْضِلِ
 يَسْقُونَ مِنْ هِبَطِ الْبَرِيضِ عَلَيْهِمْ (٢) بَرْدَى يَصْفَقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ (٣)
 يَغُشُونَ حَتَّى مَا تَهَرُّ كَلَاهِمُ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ
 بِيضُ الْوَجْوهِ كَرِيمَةٌ أَحْسَابُهُمْ شُمُّ الْأَنْوْفِ مِنَ الطَّرَازِ الْأَوَّلِ

[الكامل]

ثم قال لى: ما فعل ابنُ الفريعة (٤)؛ يعني حسان بن ثابت. قلت: حى إلا أنه كُفَّ بصره، فوجد من ذلك وجداً شديداً وبكى، وقال لخادم له: انطلق فأتني بأربعمائة دينار، فأتاه بها فناولينها، وقال: أوصِلها إلى حسان. ثم ودَّعته وخرجت حتى أتيت معاوية فأخبرته بجواب رسالة قيصر، ثم سرت من الشام حتى أتيت المدينة ولقيت حساناً، ودفعت إليه الدنانير، فقال:

إِنَّ ابْنَ جَفَنَةَ مِنْ بَقِيَّةِ مَعْشَرٍ لَمْ يَغْذِهِمْ آبَاؤُهُمْ بِاللُّؤْمِ
 لَمْ يَنْسَى بِالشَّامِ إِذْ هُوَ رَهْأً يَوْمًا وَلَا مَتَّصِرًا بِالرُّومِ
 يُعْطَى الْجَزِيلَ فَمَا يَرَاهُ عِنْدَهُ إِلَّا كَبْعُضِ عَطِيَّةِ الْمُبْمُومِ
 مَا جِئْتُهُ إِلَّا وَقَرَّبَ مَجْلِسِي وَدَعَا بِأَفْضَلِ زَادِهِ الطَّعْمُومِ (٥)

[الكامل]

(١) ديوانه ٣٠٨.

(٢) البريص: نهر بدمشق.

(٣) أى ماء بردى، وهو نهر بدمشق أيضاً.

(٤) هى الفريعة، بالتصغير، بنت خالد بن خبيش، خزرجية، أدركت الإسلام وأسلمت وبايعت. الإصابة ١: ٣٢٥.

(٥) رواية الأغاني:

وَأَتَيْتُهُ يَوْمًا فَقَرَّبَ مَجْلِسِي وَسَقَى فَرَوَانِي مِنَ الْخَرْطُومِ

والخبر هناك مفصلاً في ٢-٧ (ساسى)، وفي الحزارة ٢: ٢٤٢-٢٤٥.

مَحَاسِنُ الْمَفَاخِرَةِ

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر».
وقال يوسف عليه السلام: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ﴾^(١)
قيل: وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً ينشد:
إِنِّي امرؤٌ حميرٌ حين تنسبني لا من ربيعة أبائي ولا مضر
[البسيط]

فقال: ذلك الأمُّ لك وأبعدُ من الله ورسوله!
وقال صلى الله عليه وسلم: «إذا اختلف الناس فالحقُّ مع مضر».
وقال:

إذا مضرُ الحمراءُ كانت أرومتي وقام بنصرى خازمٌ وابنُ خازمٍ^(٢)
عطستُ بأنفى شامخاً وتناولتُ^(٣) يدائى الثريا قاعداً غير قائم
[الطويل]

شعيب بن إبراهيم، قال: حدثني سيف بن عمر، عن علي بن يزيد، عن عبد الله بن الحارث، عن المطلب بن ربيعة، قال: مرَّ العباسُ بنفر من قريش وهم يقولون: إنما مثل محمد صلى الله عليه وسلم في أهله، كمثل نخلة نبتت في كبا^(٤). فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد منه، وخرج حتى قام فيهم خطيباً فقال: «أيها الناس، من أنا؟» قالوا: أنت رسول الله، قال: «فأنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إن الله عزَّ وجلَّ خلق خلقه، فجعلني من خير خلقه، ثم جعل الخلق الذين أنا منهم فرقتين، فجعلني من خير الفرقتين، ثم جعلهم شعوباً، فجعلني من خيرهم شعباً، ثم جعلهم بيوتاً فجعلني من خيرهم بيتاً، فأنا خيركم بيتاً وخيركم والداً، وإني مباحٍ! قم يا عباس». فقام عن يمينه، ثم قال: «قم يا سعد^(٥)»، فقام عن يساره، ثم قال: «ليقرَّب امرؤ من الناس عماٍ مثل هذا، أو خالاً مثل هذا»!

(١) سورة يوسف ٥٥.

(٢) لحزمية بن خازم، الأغاني ٥: ٥٣ (ساسى); ورواية البيت الأول فيه:

إذا كانت الأحرارُ أصلٌ ومنصبى ودافع ضيمى خازمٌ وابن خازن

(٣) الأغاني «بأنف شامخ».

(٤) الكبا: الكناسة.

(٥) هو سعد بن مالك بن وهب بن عبد مناف بن زهرة.

حدثنا سنانُ بنُ الحسنِ التُّستَرِيِّ قال: حدثنا إسماعيل بن مهران اليشكري، قال: حدثنا أحمد بن محمد، عن أبان بن عثمان، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن علي بن أبي طالب، قال: لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعرض نفسه على القبائل خرج وأنا معه ومعه أبو بكر - وكان أبو بكر عالمًا بأنساب العرب - فدفعتنا^(١) إلى مجلس من مجالس العرب، عليهم الوقار والسكينة، فتقدم أبو بكر وسلم عليهم، فردوا عليه [السلام]^(٢)، فقال: يَمَن القوم؟ قالوا: من ربيعة، فقال: أمن هامتها، أم من هازمها^(٣)؟ قالوا بل من هامتها العظمية، قال: وأتى هاماتها؟ قالوا: ذهل، قال: أذهل الأكبر أم ذهل الأصغر؟ قالوا: بل ذهل الأكبر، قال: أمنكم عوف الذي كان يقول:^(٤) «لا حُرَّ بوأدى عوف»؟ قالوا: لا. قال: أمنكم بسطام بن قيس صاحب اللواء ومنتهى الأحياء؟ قالوا: لا. قال: أمنكم جساس بن مرة حامي الذمار ومائع الجار؟ قالوا: لا. قال: أمنكم المزدلف صاحب العمامة الفردة؟ قالوا: لا. قال: فأنتم أخوال الملوك من كندة؟ قالوا: لا. قال: فأصهار الملوك من لحم؟ قالوا: لا. قال: فلستم من ذهل الأكبر إذن، أنتم ذهل الأصغر!

فقام إليه غلام أعرابي حين بقل وجهه^(٥)، فأخذ بزمام ناقته ورسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقته يسمع مخاطبته، فقال:

لنا على من سألنا أن نسأله^(٦) والعبء لن تعرفه أو تحمله

[الرجز]

يا هذا، إنك سألتنا أي مسألة شئت فلم نكتك شيئا، فأخبرنا بمن أنت؟ فقال: أبو بكر: من قريش؟ قال: بئح بئح! أهل الشرف والرياسة! فأخبرني من أي قريش أنت؟ قال: من تميم بن مرة، قال: أمنكم قضي بن كلاب الذي جمع القبائل من فهر، فكان يقال له: مجمعا؟ قال أبو بكر: لا. قال: أمنكم هاشم الذي قال فيه الشاعر:

عمرو الملا هشم الثريد لقومه ورجال مكة مستنون عجاف^(٧)

[الكامل]

قال أبو بكر: لا؛ قال: أمنكم شيبه الحمد؛ الذي كان وجهه كالقمر يضيء ليلة الظلمة الداجنة، مطعم طير الساء؟ قال: لا. قال: أفين المفيضين^(٨) بالناس أنت؟ قال: لا. قال: أفين

(١) ك: «فوقنا على مجلس».

(٢) من ك.

(٣) الهامة: الرأس، واللهزمة: عظم نأق في اللحي تحت الأذن؛ والكلام على التمثيل.

(٤) ل: «يقال».

(٥) بقل وجه الغلام؛ إذا ظهر شعره وفي مجمع الأمثال: «يقال له دغفل».

(٦) مجمع الأمثال للميداني: «إن على سائلنا».

(٧) أمال المرتضى ٢: ٢٦٩، ونسبه إلى ابن الزبيرى.

(٨) أفاض: اندفع؛ وكانوا يفيضون من عرفات إلى مكة بالتلبية.

أهل الرِّفَادَةِ^(١) أنت؟ قال: لا. قال: أفين أهل السُّقَايَةِ أنت؟ قال: لا. قال: أفمن أهل الحِجَابَةِ أنت؟ قال: لا. قال: أما والله لو شئت لأخبرتُكَ أنَّكَ لست من أشرف قريش! فاجتذب أبو بكر زمام ناقته منه كهينة المُغْضِبِ، فقال الأعْرَابِيُّ:

صَادَفَ دَرَّ السَّيْلِ دَرَّ يَدْفَعُهُ فِي هَضْبَةٍ تَرْفَعُهُ وَتَضَعُهُ

[الرجز]

فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قَالَ عَلِيٌّ: فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ، إِنَّكَ لَقَدْ وَقَعْتَ مِنْ هَذَا الْأَعْرَابِيِّ عَلَى بَاقِعَةٍ! فَقَالَ: أَجَلٌ يَا أَبَا الْحَسَنِ، مَا مِنْ طَامَةِ إِلَّا فَوْقَهَا طَامَةٌ وَإِنَّ الْبَلَاءَ مُوَكَّلٌ بِالْمَنْطِقِ^(٢).

(١) الرِّفَادَةُ: شيء كانت قريش تتراقد به في الجاهلية، فيخرج كل إنسان مالا بقدر طاقته، فيجمعون من ذلك مالا عظيماً أيام الموسم فيشترون به للحجاج الطعام؛ فلا يزالون يطعمون الناس حتى تنقضي أيام الحج، وكانت الرِّفَادَةُ والسُّقَايَةُ لبني هاشم، وأول من قام بها هاشم بن عبد مناف، وكانت السَّدَانَةُ واللَّوَاءُ لبني عبد الدار.

(٢) المثل والخبر في مجمع الأمثال ٤: ١٧، ١٦.

محاسن كلام الحسن بن علي رضى الله عنه

قيل: وأتى الحسن بن علي رضي الله عنها معاوية بن أبي سفيان، وقد سبقه ابن عباس، فأمر معاوية فأنزل، فبينما معاوية مع عمرو بن العاص ومروان بن الحكم، وزباد بن أبي سفيان يتحاورون في قديمهم وحديثهم ومجدهم، فقال معاوية: أكثرتم الفخر، فلو حَضَرَكُم الحسن بن علي وعبد الله بن عباس لقصراً من أعتبكما ما طال. فقال زياد: وكيف ذلك يا أمير المؤمنين؟ ما يقومان لمروان بن الحكم في غرب^(١) منطقتي، ولا لنا في بوايخنا، فابعت إليهما في غد حتى تسمع كلامهما. فقال معاوية لعمرو: ما تقول؟ قال: هكذا، فابعت إليهما في غد.

فبعث إليهما معاوية ابنه يزيد، فأتياه ودخلا عليه، وبدأ معاوية فقال: إني أُجَلِّكُم وأرفع قدركما عن المسامرة بالليل، ولا سيِّياً أنت يا أبا محمد، فإنك ابن رسول الله وسيّد شباب أهل الجنة. فتشكراً له^(٢).

فلما استويا في مجلسها، وعلم عمرو أن الهدية ستقع به، قال: والله لا يهد أن أقول، فإن قهرت فسيب ذلك، وإن قهرت أكون قد ابتدأت. فقال: يا حسن، إنا تفاوضنا فقلنا: إن رجال بني أمية أصبر عند اللقاء وأمضى في الوعى، وأوفى عهداً، وأكرم خيماً، وأمنع لما وراء ظهورهم من بني عبد المطلب!

ثم تكلم مروان فقال: وكيف لا نكون كذلك، وقد قارعناكم فغلبناكم، وحاربناكم فملكناكم فإن شئنا عَفَوْنَا، وإن شئنا بَطَّشْنَا!

ثم تكلم زياد فقال: ما ينبغي لهم أن ينكروا الفضل لأهلِهِ، ويحجدوا الخير في مظانه، نحن أهل الحَمَلَة في الحروب، ولنا الفضل على سائر الناس قديماً وحديثاً.

فتكلم الحسن رضي الله عنه فقال: ليس من العجز أن يصمت الرجل عند إيراد الحجّة، ولكن من الإفك أن ينطق الرجل بالحنا^(٣)، ويصور الباطل بصورة الحق. يا عمرو افتخاراً بالكذب وجراءة على الإفك! ما زلت أعرّف مثاليك الحبيثة، أهدبها مرةً وأمسك عنها أخرى، فتأبى إلا أنهماكاً في الضلالة. أتذكر مصابيح الدجى، وأعلام الهدى، وفرسان الطراد، وحُتوف الأقران، وأبناء الطعان وربيع الضيفان، ومعدن النبوة ومهبط العلم! وزعمتم أنكم أحمى لما وراء ظهوركم، وقد تبين ذلك

(١) الغرب هنا: حدة اللسان، وقوة العارضة.

(٢) التشكر والشكر بمعنى: وفي المحاسن والأضداد: «فتشكراً له».

(٣) الحنا: القبيح من الكلام.

يوم بدر حين نكّصت الأبطال وتساوَّرت الأقران، واقتحمت اللبوث، واعتركت المنية، وقامت رحاها على قطبها، وافترت، عن نأبها، وطار شرار الحرب، فقتلنا رجالكم، ومن النبي ﷺ على ذراريكم؛ فكنتم لعمري في هذا اليوم غير مانعين لما وراء ظهوركم من بني عبد المطلب!

ثم قال: وأما أنت يا مروان، فما أنت والإكثار في قريش! وأنت طليق، وأبوك طريد، يتقلب من خزاية إلى سوءة، ولقد جىء بك إلى أمير المؤمنين [يوم الجمل] (١) فلما رأيت الضرغام قد دميت برائته واشتبتك أنيابه؛ كنت كما قال:

ليثٌ إذا سمع اللبوث زئيره بضبضن ثم قذفن بالأبعار (٢)

[الكامل]

- ويروى: «رَمِينٌ بالأبعار» (٣).

فلما منَّ عليك بالعفو، وأرخى خناقك بعد ما ضاق عليك، وغصصت بريقك؛ لم تقعد منا مقعد أهل الشكر، ولكن تساوتنا وتجارينا، ونحن ممن لا يدركنا عارٌ، ولا يلحقنا خزاية. ثم التفت إلى زياد فقال: وما أنت يا زياد وقريشاً! لا أعرف لك فيها أديماً صحيحاً، ولا فرعاً نابئاً (٤)، ولا قديماً نابئاً، ولا منبئاً كريماً، بل كانت أمك بغيّاً، تداوها رجال قريش، وفجار العرب، فلما ولدت لم تعرف لك العرب والداً، فادعاك هذا - يعني معاوية - بعد موات أبيه، مالك افتخار (٥)! تكفيك سمية، ويكفينا رسول الله ﷺ. وأبي علي بن أبي طالب سيد المؤمنين الذي لم يرتد على عقبيه، وعمى حمزة سيد الشهداء وجعفر الطيار، وأنا وأخي سيِّدا شباب أهل الجنة. ثم التفت إلى ابن عباس فقال: يا بن العم، إنما هي بُغاة الطير انقضَّ عليها أجدل (٦). فأراد ابن عباس أن لا يتكلم، فأقسم عليه معاوية أن يكفَّ فكفَّ، ثم خرجا.

فقال معاوية: أجاد عمرو الكلام لولا أن حجته (٧) دحضت، وتكلم مروان لولا أنه نكص، ثم التفت إلى زياد، وقال: ما دعاك إلى محاورته! ما كنت إلا كالحجل في كفِّ البازي. فقال عمرو: ألا رَميت من ورائنا! قال معاوية: إذن كنت شريككم في الجهل! أفاخر رجلاً رسول الله جده، وهو سيِّد من مضى ومن بقي، وأمه فاطمة الزهراء سيِّدة نساء العالمين! ثم قال لعمرو: والله لئن سمع به أهل الشام هي السوءة السوءة، فقال عمرو: لقد أبقى عليك، ولكنه طحن مروان وزياداً طحن الرُّحاً بثفالها (٨)، ووطئها وطء البازل القراد بمنسمة (٩)، فقال زياد: قد والله فعل، ولكن معاوية يأبي

(١) المعاسن والأضداد: «فمالك والافتخار».

(٢) الأجدل: الصقر.

(٣) دحضت الحججة: بطلت.

(٤) تكلمة من المعاسن والأضداد.

(٥) أى تحرك ذنبيه خوفاً.

(٦) وهى رواية المعاسن والأضداد.

(٧) ك: «نابئاً».

(٨) فى اللسان «الثفال، بالكسر: الجلد الذى يبسط تحت الرحا باليد ليقى الطحين من التراب، وفى حديث على: وتدقهم الفتن دق الرحا بثفالها؛ هو من ذلك؛ والمعنى أنها تقدم دق الرحا للحب، إذا كانت مثقلة، ولا تنفل، إلا عند الطحن».

(٩) البازل: البعير إذا دخل فى التاسعة، والتنسم: الخف؛ وهو للبعير بمنزلة الظفر للإنسان.

إِلَّا الإِغْرَاءَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ. لَا جَرَمَ وَاللَّهِ! لَا شَهَدْتُ مَجْلِسًا يَكُونَانِ فِيهِ إِلَّا كُنْتُ مَعَهُمَا عَلَى مَنْ فَآخِرَهَا.

فَخَلَا ابْنُ عَبَّاسٍ بِالْحَسَنِ، فَقَبَّلَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَقَالَ: أَفَدِيكَ يَا بَنَ عَمِّ! وَاللَّهِ مَا زَالَ بَحْرُكَ يَزْخَرُ وَأَنْتَ تَصُولُ؛ حَتَّى شَفِيتَنِي مِنْ أَوْلَادِ الْبَغَايَا.

ثُمَّ إِنَّ الْحَسَنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غَابَ أَيَّامًا؛ ثُمَّ رَجَعَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى مَعَاوِيَةَ وَعِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ. فَقَالَ مَعَاوِيَةُ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، إِنَّي أَظُنُّكَ تَعَبًا نَصَبًا، فَأَتَيْتُ الْمَنْزَلَ فَأَرَحَ نَفْسَكَ، فِيهِ. فَقَامَ الْحَسَنُ، فَلَمَّا خَرَجَ قَالَ مَعَاوِيَةَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ: لَوْ افْتَخَرْتَ عَلَى الْحَسَنِ فَإِنَّكَ ابْنُ حَوَارِيٍّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَابْنُ عَمَّتِهِ، وَلَأَبِيكَ فِي الْإِسْلَامِ نَصِيبٌ وَافِرٌ. فَقَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: أَنَا لَهُ، فَرَجَعَ وَهُوَ يَطْلُبُ لَيْلَتَهُ الْحَجِجِ.

فَلَمَّا أَصْبَحَ دَخَلَ عَلَى مَعَاوِيَةَ، وَجَاءَ الْحَسَنُ فَحَيَّاهُ مَعَاوِيَةَ وَسَأَلَهُ عَنْ مَبِيتِهِ، فَقَالَ: خَيْرٌ مَبِيتٍ، وَأَكْرَمٌ مُسْتَفَاضٍ فَلَمَّا اسْتَوَى فِي مَجْلِسِهِ، قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: لَوْلَا أَنَّكَ خَوَّارٌ فِي الْحَرْبِ، غَيْرُ مُقَدَّمٍ مَا سَلِمْتَ لِمَعَاوِيَةَ الْأَمْرِ، وَكُنْتَ لَا تَحْتَاجُ إِلَى اخْتِرَاقِ السُّهُودِ، وَقَطْعِ الْمَفَاوِزِ تَطْلُبُ مَعْرُوفَهُ، وَتَقُومُ بِبَابِهِ، وَكُنْتَ حَرِيًّا أَلَّا تَفْعَلَ ذَلِكَ، وَأَنْتَ ابْنُ عَلِيٍّ فِي بَأْسِهِ وَنَجْدَتِهِ، فَمَا أَدْرَى مَا الَّذِي حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ! أَضَعُفُ رَأْيِي، أَمْ وَهْنُ نَجِيزَةٌ! فَمَا أَظُنُّ لَكَ مَخْرَجًا مِنْ هَاتَيْنِ الْخَلْتَيْنِ. مَا وَاللَّهِ لَوْ اسْتَجْمَعَ لِي مَا اسْتَجْمَعَ لَكَ لَعَلِمْتُ أَنِّي ابْنُ الزُّبَيْرِ، وَأَنِّي لَا أَنْكُصُ عَنِ الْأَبْطَالِ، وَكَيْفَ لَا أَكُونُ كَذَلِكَ، وَجَدْتُكَ صَفِيَّةً بِنْتُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ، وَأَبِي الزُّبَيْرِ حَوَارِيٍّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَأَشَدُّ النَّاسِ بَأْسًا، وَأَكْرَمُهُمْ حَسَبًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَأَطْوَعُهُمْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ!

فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ الْحَسَنُ وَقَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْلَا أَنَّ بَنِي أُمِّيَّةٍ تَسْبُونِي إِلَى الْعَجْزِ عَنِ الْمَقَالِ لَكَفَفْتُ عَنْكَ تَهَاوُنًا، وَلَكِنْ سَأَبِينَ ذَلِكَ لِيَتَعَلَّمَ أَنِّي لَسْتُ بِالْعَمِيِّ وَلَا الْكَلِيلِ اللَّسَانِ. إِنِّي أَيْتَى تَعِيرٌ، وَعَلَى تَفْتَخِرٍ، وَلَمْ يَكُنْ لِمَدِّكَ بَيْتٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَلَا مَكْرَمَةٌ، فَرُؤِجَتُهُ^(١) جَدَّتْكَ صَفِيَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ، فَبَذَخَ عَلَى جَمِيعِ الْعَرَبِ بِهَا، وَشَرَّفَ بِمَكَانِهَا! فَكَيْفَ تَفَاخَرُ مَنْ هُوَ مِنَ الْقِلَادَةِ وَاسْطِنْتَهَا، وَمِنَ الْأَشْرَافِ سَادَتَهَا! نَحْنُ أَكْرَمُ أَهْلِ الْأَرْضِ زَنْدًا؛ لَنَا الشَّرْفُ النَّاقِبِ، وَالكَرَمُ الْغَالِبِ. ثُمَّ تَزَعَّمُ أَنِّي سَلِمْتُ الْأَمْرِ، فَكَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ - وَبِحُكِّ - كَذَلِكَ، وَأَنَا ابْنُ أَشْجَعِ الْعَرَبِ، وَقَدْ وَلَدْتَنِي فَاطِمَةُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ وَخَيْرِ الْإِمَاءِ! لَمْ أَفْعَلْ لَكَ - وَبِحُكِّ - جُبْنًا وَلَا ضَعْفًا! وَلَكِنَّهُ بَايَعَنِي مِثْلَكَ وَهُوَ يَطْلُبُنِي بِبِرَّةٍ، وَيَدَاجِنِي الْمَوَدَّةَ، وَلَمْ أَتَقِ بِنَصْرَتِهِ، لِأَنَّكُمْ أَهْلُ بَيْتِ غَدْرٍ، وَكَيْفَ لَا تَكُونُ كَمَا أَقُولُ، وَقَدْ بَايَعَ أَبُوكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ نَكَتَ بَيْعَتَهُ، وَنَكَصَ عَلَى عَقْبِيهِ، وَاخْتَدَعَ حَشِيئَةً مِنْ حَشَايَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيُضِلَّ بِهَا النَّاسَ، فَلَمَّا دَلَّفَ نَحْوَ الْأَعْتَةِ؛ وَرَأَى بَرِيقَ الْأَسْتَةِ، قَتَلَ مَضِيعَةً^(٢) لَا نَاصِرَ لَهُ، وَأَتَى بِكَ أُسِيرًا قَدْ وَطَنْتَكَ الْكُفْمَاءَ بِأُظْلَافِهَا، وَالخَيْلَ بَسَنَابِكِهَا، وَاعْتَلَاكَ الْأَشْتَرُ، فَغَصَصْتُ بِرَيْقِكَ، وَأَقْعَيْتُ عَلَى عَقْبِكَ

(١) ك: ل: «فزوجته». وفي المحاسن والأضداد: «ولم يك لمجذك في الجاهلية مكرمة إلا تزوجه جدتي صفة».

(٢) المحاسن والأضداد: «مضيفة».

كالكلب إذا احتوشته اللبوث ! فنحن - ويحك - نور البلاد وأملاكها، وبنا تفخر الأمة، وإلينا تلقى مقاليد الأزمة؛ أبصول وأنت تختدع النساء، ثم تفتخر على بنى الأنبياء لم تزل الأقاويل منا مقبولة، وعليك وعلى أبيك مردودة. دخل الناس في دين جدى طائعين وكارهين، ثم بايعوا أمير المؤمنين رضى الله عنه، فسار إلى أبيك وطلحة حين نكنا البيعة، وخذعا عرس رسول الله ﷺ، فقتل أبوك وطلحة، وأق بك أسيراً، فبصبت بذنك، وناشدته الرحم ألا يقتلك، فعفا عنك، فأنت عتاقة أبى، وأنا سيدك وسيد أبيك، فذق وبال أمرِك.

فقال ابن الزبير: اعنر يا أبا محمد؛ فإنما حملنى على محاورتك هذا، وأحب الإغراء بيننا، فهلاً إذا جهلت أمسكت عنى، فإنكم أهل بيت سجيتمكم الحلم والعفو. فقال الحسن: يا معاوية، انظر هل أكيح^(١) عن محاوره أحد؟ ويحك! أتدرى من إى شجرة أنا؟ وإلى من أنتمى؟ انتبه قبل أن أسمك بميسر، تتحدث به الركب، في الآفاق والبلدان.

فقال ابن الزبير: هو لذلك أهل.

فقال معاوية: أما إنه قد شفا بلابل صدرى منك، ورمت مقتلك، فصرت كالحجل في كف البازى يتلاعب بك كيف أراد! فلا أراك تفتخر على أحد بعدها^(٢)

وذكروا أن الحسن بن على دخل على معاوية، فقال متملاً:

[الكامل]

فيم الكلام وقد سبقت مبرراً سبق الجواد من المدى والمقوس^(٣)

فقال معاوية: إياى تعنى؟ أما والله لأنبتك بما يعرفه قلبك، ولا ينكره جلساؤك. أنا ابن بطحاء مكة، أنا ابن أجودها جوداً، وأكرمها جوداً، وأوقاها عهداً، أنا ابن من ساد قريشاً ناشئاً وكهلاً. فقال الحسن: أجل، إياك أعنى؟ أفعلى تفتخر يا معاوية؟ أنا ابن ماء السماء، وعروق الثرى، وابن من ساد أهل الدنيا، بالحسب الثابت^(٤)، والشرف الفائق، والقديم السابق. أنا ابن من رضى رضا الرحمن، وسخطه سخط الرحمن. فهل لك أب كأبى، وقديم كقديمى؟ فإن قلت: لا، تغلب، وإن قلت: نعم، تكذب. فقال معاوية: أقول: لا، تصديقاً لقولك؛ فقال الحسن:

الحق أبلج ما نخون سبيله والصدق يعرفه ذوو الألباب^(٥)

[الكامل]

ما نخون؛ أى ما نخون من ملكها.

(١) أكيح: أجين وأخاف.

(٢) الخبر فى المحاسن والأضداد ١٣٨-١٤٤.

(٣) كذا فى المحاسن والأضداد، وفى ط: «المقيس» والمقوس: الحبل الذى تصف عليه الخيل عند السباق.

(٤) ك: «الثاقب».

(٥) (٥) المحاسن والأضداد: «والحق».

قال: وقال معاوية ذات يوم وعنده أشرف الناس من قريش وغيرهم: أخبروني بخير الناس أباً وأماً، وعمّاً وعمّة، وخالاً وخالّة، وجدّاً وجدّة.

فقام مالك بن العجلان، فأومأ إلى الحسن، فقال: هاهو ذا: أبوه علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، وأمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وعمّه جعفر الطيار في الجنان، وعمّته أم هانئ بنت أبي طالب، وخاله القاسم بن رسول الله ﷺ، وخالته بنت رسول الله ﷺ زينب، وجدّه رسول الله ﷺ، وجدّته خديجة بنت خويلد رضی الله عنها. فسكت القوم، ونهض الحسن، فأقبل عمرو بن العاص على مالك، فقال: أحبّ بني هاشم حمك على أن تكلمت بالباطل؟ فقال ابن العجلان: ما قلت إلا حقاً، وما أحد من الناس يطلب مرضاة مخلوق بعصية الخالق، إلا لم يعط أمنيته في دنياه، وختم له بالشقاء في آخرته. بنو هاشم أنصرتهم عوداً^(١)، وأوراهاهم زناداً، كذلك يا معاوية؟ قال: اللهم نعم^(٢).

* * *

قيل: واستأذن الحسن بن علي رضي الله عنه على معاوية، وعنده عبد الله بن جعفر وعمرو بن العاص، فأذن له، فلما أقبل قال عمرو: قد جاءكم الفه^(٣) العبي الذي كان بين لحييه عقلة^(٤). فقال عبد الله بن جعفر: مه؟ فوالله لقد رمت صخرة مللمة^(٥) تحطّ عنها السيول، وتقصر دونها الوعول، ولا تبلغها السهام، فإياك والحسن إياك؟ فإنك لا تزال راتعاً في لحم رجل من قريش؛ ولقد رميت فما برح سهمك، وقدحت فما أورى زندق.

فسمع الحسن الكلام، فلما أخذ الناس مجالسهم، قال: يا معاوية، لا يزال عندك عبد راتعاً في لحوم الناس؟ أما واقه لو شئت ليكون بيننا ما تتفاقم فيه الأمور، وتخرج منه الصدور، ثم أنشأ يقول:

أتأمر يا معاوية عبد سهم
إذا أخذت مجالسها قريش
فصدت إلى تشيتي سفاهاً
فها لك من أب كأي تسامي
ولا جد كجدي يا بن هندی
ولا أم كأمي من قريش
فها مثل تهكم يابن هندی
ولا مثل تجاربه العبيد^(٨)

(٣) ك: «أفمي»، المحاسن والأضداد: «الفه».

(٤) العقلة: ما يعقل به كالقيد وفي ط: «عبل».

(١) ساقطة من ك.

(٢) الخبر في المحاسن والأضداد ١: ١٤٥، ١٤٦.

(٥) مللمة، أي مستديرة.

(٦) المحاسن والأضداد: «فهل لك من أب».

(٧) المحاسن والأضداد: «إذا ما حصل».

(٨) كذا في ل، وفي ك: «تجاربه»، وفي المحاسن والأضداد: «ينهه».

فهلاً لا تهج منا أموراً يشيب لها الطفل الوليد^(١)
[الوافر]

وذكروا أنَّ عمرو بن العاص قال لمعاوية ذات يوم: ابعث إلى الحسن بن علي؛ فمره أن يخطب على المنبر، فلعله يحصر^(٢) فيكون ذلك مما نُعيرَه به. فبعث إليه معاوية، فأصعده المنبر وقد جمع الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا أيها الناس؛ من عرفني فأنا الذي يُعرف، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن علي بن أبي طالب، ابن عم النبي ﷺ، أنا ابن البشير النذير، السراج المنير، أنا ابن من بُعث رحمة للعالمين، وسخطاً على الكافرين، أنا ابن من بُعث إلى الجحيم والإنس، أنا ابن المُستجاب الدعوة، أنا ابن الشفيع المطاع، أنا ابن أول من ينفُض رأسه من التراب، أنا ابن أول من يقرع باب الجنة، أنا ابن من قاتلت معه الملائكة، ونصر بالربع من مسيرة شهر.

فافتن^(٣) في هذا الكلام، ولم يزل حتى أظلمت الدنيا على معاوية، فقال: يا حسن، قد كنت ترجو أن تكون خليفة، ولست هناك؟ فقال الحسن: إنما الخليفة من سار بسيرة رسول الله ﷺ، وعمل بطاعة الله، وليس الخليفة من دان بالمجور وعطل السنن، واتخذ الدنيا أباً وأماً، ولكن ذاك ملك أصاب ملكاً يمتع به قليلاً، وكان قد انقطع عنه واستعجل لذته وبقيت عليه تبعته، فكان كما قال الله جل وعز: ﴿وإن أدري لعله فتنه لكم ومَتَاعٌ إلى حين﴾^(٤) ثم انصرف، فقال معاوية لعمرو: والله ما أردت إلا هتكى، ما كان أهل الشام يرون أن إنجداً مثلي حتى سمعوا من الحسن ما سمعوا^(٥).

قيل: وقَدِمَ الحسنُ بنُ عليٍّ رضوان الله عليه على معاوية، فلما دخل عليه، وجدَّ عنده عمرو بن العاص، ومروان بن الحكم، والمغيرة بن شعبة، وصناديد قومه، ووجوه اليمن وأهل الشام، فلما نظر إليه معاوية أقعده على سريره، وأقبل عليه بوجهه يريه السرور بمقدمه، فلما نظر مروان إلى ذلك حسده، وكان معاوية قال لهما: لا تحاورا هذين الرجلين فلقد قلداكم العار، وفضحاكم عند أهل الشام - يعني الحسن بن عليٍّ وعبد الله بن عباس رضی الله عنهما - فقال مروان: يا حسن لولا حلم أمير المؤمنين؛ وما قد بنى له أبأوه الكرام من المجد والعلل؛ ما أقعدك هذا المقعد، ولقتلك وأنت لهذا مستوجب، بقودك الجماهير، فلما أحسست بنا^(٦)، وعلمت^(٧) أن لا طاقة لك بفرسان أهل

(١) كذا في المحاسن والأضداد، وفي ك، ل: «يشيب لها معاوية الوليد» والخبر في المحاسن والأضداد ١٤٦، ١٤٧.

(٢) يحصر: يعيا عن الكلام.

(٣) المحاسن والأضداد: «فامعن».

(٤) سورة الأنبياء ١١١.

(٥) الخبر في المحاسن والأضداد: ١٤٧، ١٤٩.

(٦) المحاسن والأضداد: «فلما قاومتنا».

(٧) ك، ل: «علمت» بدون واو، وما أتيت من المحاسن والأضداد.

الشام وصناديد بني أمية، أذعنّت بالطاعة، واحتجرت البيعة، وبعثت تطلب الأمان. أما والله لولا تلك لأريق دمك، وعلمت أنا تُعطي السيف حَقَّها عند الوَعَى. فاحمد الله إذ ابتلاك بعاوية فعفا عنك بحلمه، ثم صنع بك ما ترى. فنظر إليه الحسن فقال: وبحك يا مروان؟ لقد تقلدت مقاليد العار في الحروب عند مشاهدتها، والمخاذلة عند مخالطتها. نحن - هبَلتكَ الهوابل^(١) - لنا الحَجِجُ البوالغ؟ ولنا - إن شكرتم - عليكم النعم السوابغ، ندعوكم إلى النجاة وتدعوننا إلى النار؛ فشتان ما بين المنزلتين! تفخر ببني أمية، وتزعم أنهم صَبْرٌ في الحروب، أَسَدٌ عند اللقاء، ثكلتكَ أَمَك! أولئك البهاليل السادة، والحماة الذادة، والكرام القادة، بنو عبد المطلب! أما والله لقد رأيتهم وجميع من في هذا البيت ما هالتهُم الأهوال، ولم يجيدوا عن الأبطال، كالليوث الضارية الباسلة الحنقة، فعندها وُلِّيت هارِباً وأخِذت أسيراً، فقلدت قومك العار، لأنك في الحروب حَوَارٍ أيراق دمي^(٢) زعمت! أفلا أرقت دم من وثب على عثمان في الدار، فدبَّحه كما يدبُّحُ الجمل، وأنت تتغو ثغاء العجعة، وتنادى بالويل والثبور كالأمّة اللكماء! ألا دفعت عنه بيد^(٣)، أو ناضلت عنه بسهم! لقد ارتعدت فرائصك وغشى بصرك، فاستغنت بي كما يستغيث العبدُ برَبِّه، فأنجيتك من القتل، ومنعتك منه، ثم تحت معاوية على قتلى، وكو رام^(٤) ذلك معك لذبح كما ذبح ابن عفان. أنت معه أقصر يدًا، وأضيق بأعًا، وأجبن قلبًا من أن تجسر على ذلك. ثم تزعم أني ابتليت بحلم معاوية؛ أما والله هو أعرِفُ بشأنه، وأشكرُ لما ولىناه هذا الأمر، فمتى بداله فلا يَغْضِبُن جفنه على القذى معك، فوالله لأعقبن أهل الشام بجيش يضيق عنه فضاؤها، وتُستأصل فرسانها، ثم لا ينفعلك عند ذلك الهرب والرَّوْغان، ولا يردّ عنك الطلب تدرُّعك بالكلام^(٥). فنحن ممن لا يجهل؛ آباؤنا القدماء الأكابر، وفروعنا السادة الأخيار، انطق إن كنت صادقًا. فقال عمرو: ينطق بالحنا وتنطق بالصدق. ثم أنشأ يقول:

قد يَضْرُطُّ العَيْرُ والمكواةُ تأخذُهُ لا يَضْرُطُّ العَيْرُ والمكواةُ في النارِ^(٦)

ذق وبال امرِك يا مروان!

وأقبل عليه معاوية فقال: قد كنت نهيبتك عن هذا الرجل، وأنت تأتي إلا انهماكًا فيما لا يعينك. اربّع على نفسك^(٧)؛ فليس أبوك كأبيه، ولا أنت مثله، أنت ابن الطريد الشريد، وهو ابن رسول الله ﷺ، الكريم؛ ولكن رُبَّ باحثٍ عن حَتْفه، وحافرٍ عن مُدْبِته.

فقال مروان: ارم من دون بيصتِكَ، وقم بحجةٍ عسيرتك. ثم قال لعمرو: طعنك أبوه، فوقيت نفسك بخصيبيك، فلذلك تحذره. وقام مغضبًا.

(١) ك والمحاسن والأضداد: «أمك».

(٢) المحاسن والأضداد: «اتريق».

(٣) المحاسن والأضداد: «بحرب».

(٤) كذا في المحاسن والأضداد وفي ط: «ألورام».

(٥) ط: «الكلام» وفي المحاسن والأضداد: ولا تنتفع بتدريجك الكلام».

(٦) مثل، وأول من قاله عرفظة بن عرفجة المذلي، وانظر مجمع الأمثال ٢: ٩٥.

(٧) يقال اربّع عليك أو على نفسك أو على ظلمك، أي توقف.

فقال معاوية: لا تجاور البحور فتفتمرك، ولا الجبال فتبهرك^(١) واستخ من الاعتذار^(٢).

قيل: ولقي عمرو بن العاص الحسن بن عليّ رحمه الله في الطواف، فقال: يا حسن، أزعمت أن الدين لا يقوم إلا بك وبأبيك! فقد رأيت الله جلّ وعزّ أقامه بمعاوية فعله راسياً بعد ميله، وبيننا بعد خفائه. أفرضي الله قتل عثمان! أم من الحق أن تدور بالبيت كما يدور الجمل بالطحين، عليك نياح كغرقىء البيض^(٣)، وأنت قاتل عثمان! والله إنه لألمّ للشعث، وأسهل للوعث، أن يوردك معاوية حياض أبيك. فقال الحسن عليه السلام: أن لأهل النار علامات يعرفون بها، وهي الإلحاد لأولياء الله، والموالاة لأعداء الله؛ والله إنك لتعلم أن علياً رضى الله عنه لم يترتب في الأمر، ولم يشك في الله طرفه عين، وأيم الله لتنتهين يابن أم عمرو أو لأقرعن جبينك بكلام تبقى سمته عليك ما حيت! فأياك والإبراز عليّ، فأني من قد عرفت. لست بضعيف الغمزة، ولا بهش المشاشة^(٤)، ولا بجرىء المأكلة، وإني من قريش كأوسط القلادة، يعرف حسبي^(٥)، ولا أدعى لغير أبي، وقد تحاكت فيك رجال قريش، فقلب عليك الأهم نسباً، وأظهرهم لعنة، فأياك عنى؛ فإنك رجس، وإنما نحن بيت الطهارة، أذهب الله عنا الرجس وطهرنا تطهيراً^(٦)!

قيل: واجتمع الحسن بن عليّ وعمرو بن العاص، فقال الحسن: قد علمت قريش بأسرها أني منها في عزّ أرومتها، لم أطع على ضعف، ولم أعكس على خسف، أعرف بشيبي^(٧)، وأدعى لأبي. فقال عمرو: قد علمت قريش أنك من أقلها عقلاً، وأكثرها جهلاً وإن فيك خصالاً لو لم يكن فيك إلا واحدة منهنّ لسملك خزئها كما شمل البياض المالك. لعمر الله لتنتهين عما أراك تصنع، أو لأكيسن لك حافة كجلد العائط^(٨)، أرميك من خللها بأحرّ من وقع الأثافي^(٩)، أعرك منها أديمك عرك السلعة^(١٠)، فإنك طالما ركبت صعب المنحدر، ونزلت في أعراض الوعر، التماساً للفرقة، وإرساداً للفتنة، ولن يزيدك الله فيه إلا فظاعة.

(١) المحاسن والأضداد: «فتفتمرك».

(٢) الخبر في المحاسن والأضداد: ١٥٠، ١٥١.

(٣) الغرقىء: القشرة الملتزقة ببياض البيض.

(٤) المشاشة: رأى العظم اللين الذي يمكن مضغه، يقال: هو هش المشاش؛ أى رخو، وهو كلام على النم.

(٥) كذا في المحاسن والأضداد، وفي ك، ل: «حسيهم».

(٦) الخبر في المحاسن والأضداد: ١٥١.

(٧) المحاسن والأضداد: «بشيبي».

(٨) العائط: الناقة التي لا تحمل، وفي المحاسن والأضداد: كجلد العائط إذا اعطاطت رحماً.

(٩) الأثافي: المنقب، وجمعه الأثافي، وفي ك: «الأثافي».

(١٠) السلعة: غدة تظهر بين الجلد واللحم إذا غمزت باليد تحركت.

فقال الحسن عليه السلام: أما والله لو كنت تسمو بحسبك وتعمل برأيك ما سلكت فجع قصيد،
 ولا حللت رابية مجهد، وأيم الله لو أطاعني معاوية لجعلك بمنزلة العدو الكاشح، فإنه طالما طويت على
 هذا كشحك، وأخفيتته في صدرك، وطمخ بك الرجاء إلى الغاية القصوى التي لا يورق لها غصنك،
 ولا يخضر لها مرعاك، أما والله ليوشكن يا بن العاص أن تقع بين لحيني ضرغام من قريش قوي
 متمتع فرؤس^(١) ذي ليد، يضغطك ضغط الرحا للحب، لا ينجيك منه الروغان، إذا التقت حلقتنا
 البطان^(٢).

(١) الفروس: الأسد.

(٢) الخبر في المحاسن والأضداد: ١٥٦ - ١٥٣.

محاسن كلام عبد الله بن العباس

رضى الله عنه

أبو المنذر، عن أبيه، عن الشعبي، عن ابن عباس، أنه دخل المسجد وقد سار الحسين بن علي رضي الله عنه إلى العراق، فإذا هو بابن الزبير في جماعة من قريش، قد استعلاهم بالكلام، فجاء ابن عباس حتى ضرب بيده بين عضدي ابن الزبير، وقال: أصبحت والله كما قال الأول: (١)
يالك من حُمرةٍ بعميرٍ (٢) خلا لك الجوُّ فيبضى واصفري (٣)
ونقري ما شئت أن تنقري قد رُفِعَ الفخُّ فماذا تحذري!

[الرجز]

خَلَّتْ الحجازُ من الحسين بن علي، وأقبلت تهدير في جوانبها! فغضب ابن الزبير، وقال: والله إنك لترى أنك أحقُّ بهذا الأمر من غيرك! فقال ابن عباس: إنما يرى [ذلك] (٤) مَنْ كان في حال شك، وأنا من ذلك على يقين. فقال: وبأى شيء تحقق عندك أنك أحقُّ بهذا الأمر مني؟ فقال ابن عباس: لأننا أحقُّ بمن يُدَلُّ بحقه، وبأى شيء تحقق عندك أنك أحقُّ بها من سائر العرب إلا بنا! فقال ابن الزبير: تحقق عندي أني أحقُّ بها منكم لشرفي عليكم قديماً وحديثاً، فقال: أنت أشرف أم مَنْ قد شرفت به؟ فقال: إن من شرفت به زادني شرفاً إلى شرف قد كان لي قديماً وحديثاً. قال: أفينى الزيادة أم منك؟ قال: بل منك، فتبسّم ابن عباس. فقال: يابن عباس، دعني من لسانك هذا الذي تقلبه كيف شئت، والله لا تُحبوننا يا بني هاشم أبداً. قال ابن عباس: صدقت، نحن أهل بيت مع الله عز وجل، لا نحب من أبغضه الله تعالى. فقال: يابن عباس، ما ينبغي لك أن تصفح عن كلمة واحدة! قال: إنما أصفح عن أقر، وأما عن هر (٥) فلا؛ والفضل لأهل الفضل!
قال ابن الزبير: فأين الفضل؟ قال: عندنا أهل البيت، لا تصرفه عن أهله فتظلم، ولا تضعه في غير أهله فتندم.

قال ابن الزبير: أفلسْتُ من أهله؟ قال: بلى؛ إن نَبَذتَ الحسد، ولزمتَ الجَدَد.

وانقضى حديثهما، وقام القوم ففترقوا (٦).

(١) جمع الأمتال ١: ٢٣٩، ونسبه إلى طرفة بن العبد.

(٢) الحمرة: ضرب من الطير كالصافير؛ وفي مجمع الأمتال والمحاسن والأضداد: «من قبرة».

(٣) الشطر الثاني هو موضع المثل في هذه الأبيات.

(٤) من المحاسن والأضداد.

(٥) هر: صوت، وفي إحدى نسخ المحاسن والأضداد: «هد» وهما بمعنى.

(٦) الخبر في المحاسن والأضداد ١٥٢ - ١٥٥.

وربوى عن ابن عباس أنه قال: قدمت على معاوية، وقد قعد على سريره، وجمع أصحابه ووفود العرب عنده، فدخلت فسلمت وقعدت فقال: من الناس يا بن عباس؟ فقلت: نحن، قال: فإذا غبتم! قلت: فلا أحد. قال: [فكأنك] ^(١) ترى أتي قعدت هذا المقعد بكم! قلت: نعم، فيمن قعدت؟ قال: من ^(٢) كان مثل حرب بن أمية؟ قلت: من أكفا عليه إناؤه، وأجاره بردائه. قال: فغضب، وقال: وإز ^(٣) شخصك مني شهراً، فقد أمرت لك بصلتك وأضعفتها لك.

فلما خرج ابن عباس قال لخاصته: ألا تسألونني ما الذي أغضب معاوية؟ [قالوا: بلى، فقل بفضلك، قال: ^(١)] إن ^(٤) أباه حرباً لم يلتق أحد ^(٥) من رؤساء قريش في عقبة ولا مضيق مع قوم إلا لم يتقدمه أحد حتى يجوزه. فالتقى حرب بن أمية مع رجل من بني تميم في عقبة، فتقدمه التميمي، فقال حرب: أنا حرب بن أمية. فلم يلتفت إليه وجازه، فقال: موعذك مكة. فبقى التميمي ^(٥) دهرًا ثم أراد دخول مكة، فقال: من يجيرني من حرب بن أمية؟ فقالوا: عبد المطلب، قال: عبد المطلب أجل قدرًا من أن يجير على حرب، فأق ليلاً دار الزبير بن عبد المطلب فدق عليه، فقال الزبير للغيداق ^(٦): قد جاءنا رجل؛ إما طالب حاجة، وإما طالب قرى، وإما مستجير، وقد أعطيناه ما أراد، قال: فخرج إليه الزبير، فقال:

لاقيت حرباً في الثنية مقبلاً
فدعا بصوتٍ واكتنى ليروعني
فتركته كالكلب ينبح وحده
ليثاً هزبراً يستجار بقربه
ولقد حلفت بزمزم وبمكة
أن الزبير لماني من خوفه
والصبح أبلج صوهه للساوي ^(٧)
ودعا بدعوتيه يريد فخاري
وأنت أهل معالم وفخار
رحب المياة مكرماً للجار
والبيت ذى الأحجاز والأستار
ما كبر الحجاج في الأمصار!

[الكامل]

فقال: تقدم، فإننا لا نتقدم من نجيره، فتقدم التميمي فدخل المسجد، فراه حرب، فقام إليه فلطمه، فحمل عليه الزبير بالسيف، فعدا حتى دخل دار عبد المطلب، فقال: أجرني من الزبير، فأكفا عليه جفنه كان هاشم يطعم فيها الناس، فبقى هناك ^(٨) ساعة ثم قال له: أخرج. فقال: كيف

(١) من المحاسن والأضداد.

(٢) كذا في ل، وفي ل: «بن».

(٣) المحاسن والأضداد: «ارحنى من شخصك».

(٤-٤) كذا في المحاسن والأضداد: وفي ط: «إنه لم يلتق أحد».

(٥) المحاسن والأضداد: «فخافه التميمي».

(٦) هو الغيداق بن عبد المطلب، أخو الزبير بن عبد المطلب واسمه المصعب، وفي المحاسن والأضداد: «لعبده»، وانظر نسب قريش ١٨.

(٧) بلج الصبح: ظهر وأشرق، ومثله أبلج.

(٨) المحاسن والأضداد: «تحتها».

أَخْرَجَ وَتَسَعَةً^(١) مِنْ وَوَدَكَ قَدِ احْتَبَوْا بِسَيُوفِهِمْ عَلَيِ الْبَابِ! فَالْقَى عَلَيْهِ رِدَاءً كَانَ كِبَاهُ إِيَّاهُ سَيْفُ بِنِ ذِي يَزْنَ، لَهُ طُرَّتَانِ خَضِرَاوَانِ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ، فَعَلَمُوا أَنَّهُ قَدِ أَجَارَهُ، فَتَفَرَّقُوا عَنْهُ^(٢).

قال: وحضر مجلس معاويةَ عبدُ الله بن عباسَ وابنُ العاصِ، فأقبلَ لعهدُ الله بن جعفرِ، فلما نظر إليه ابنُ العاصِ قال: قد جاءكم رجلٌ كثيرُ الخَلَوَاتِ بالتمني، والطُّرَبَاتِ بالتغني، محبٌ للقيانِ، كثيرٌ مِرَاحُهُ، شديدٌ طَمَاحُهُ، صدوفٌ عن السُّنَانِ^(٣)، ظاهرُ الطُّيُوشِ، لِينُ العَيْشِ، أَخَاذٌ بالسُّلْفِ، مِنفَاقٌ بالسُّرْفِ.

فقال ابنُ عباسٍ: كذبتَ والله أنت! وليس كما ذكرتِ، ولكنه لله ذكورٌ، ولتعمانه شكورٌ، وعن الخنَازِجُورِ. جوادٌ كريمٌ، سيدٌ حلِيمٌ، ماجدٌ لهِيمٌ^(٤)، إن ابتداءً^(٥) أصاب، وإن سُئِلَ أجاب، غيرُ حَضرٍ ولا هَيَّابِ، ولا فَحَّاشٍ عَيَّابِ، حَلٌّ من قريشٍ في كريمِ النَّصَابِ، كالهَزْبِ الضُّرْغَامِ، الجِرىءِ المِقْدَامِ، في الحَسَبِ القَمَقَامِ^(٦)، ليس يُدْعَى لدعى، ولا يُدْنَى لدنى [لا]^(٧) كمن اختصم فيه من قريشٍ شرارها، فغلب عليه جزارها، فأصبحَ أَلَمَها حَسَبًا، وأدناها مَنصِبًا، ينوءُ منها بالذليلِ، ويأوى منها إلى القليلِ، يتذبذبُ بين الحَيِّينِ كالساقطِ بين الفِراشِينِ، لا المضطرَّ إليهم عَرَفُوهُ، ولا الظاعنُ عنهم فقدوه. وليت شعري بأى قدم تعرَّضَ للرجالِ، وبأى حَسَبٍ تبارزَ عند النضالِ! أُنَبِّسُكَ؟ فأنت الوغدُ الزَّئِيمِ، أم من تنتمي إليه؟ فأهلُ السُّفهِ والطُّيُوشِ، والدناءةِ في قريشِ، لا بشرفٍ في الجاهليةِ شُهِروا، ولا بقديمٍ في الإسلامِ ذُكروا، غيرَ أنك تتكلمُ بغيرِ لسانك، وتنطقُ بالزورِ في غيرِ أقرانك^(٨)، والله لكانَ أَيْبَنَ للفضْلِ، وأظهرَ للعدلِ أن يُنزِلَكَ معاويةَ منزلةَ البعيدِ السَّحيقِ، فإنه ظالما ما سَلَسَ داؤك، وطَمَحَ بك رجاؤك؛ إلى الغايةِ القِصوى، التي لم يخضُرْ بها رِغْيُك، ولم يورقْ بها عُصْنُك.

فقال عبد الله بن جعفر: أقسمتُ عليك لما أمسكتِ، فإنك عني ناضلتِ، ولي فاوضتِ. قال ابن عباس: دعني والعبدِ، فإنه قد كان يهديرُ خاليًا، إذ لا يجدُ مراميًا، وقد أتيحُ له صَيِّغُ شرسِ، للأقرانِ مفترِسِ، وللأرواحِ محتلسِ. فقال عمرو بنُ العاصِ: دَعْنِي يا أميرَ المؤمنينِ أنتِصِفُ منه، فوالله ما تركَ شيئًا.

(١) ك، ل: «سبعة» وما أثبتته من المحاسن والأضداد.

(٢) الخبر في المحاسن والأضداد ١٥٤ - ١٥٥.

(٣) المحاسن والأضداد: «الشبان».

(٤) اللهميم: السيد الجواد، وفي المحاسن والأضداد: «حليم».

(٥) المحاسن والأضداد: «إن رمي».

(٦) القمقام: السيد الكبير العطاء.

(٧) من المحاسن والأضداد.

(٨) كذا في المحاسن والأضداد: و«في وط: «بغير إزكانك».

قال ابن عباس: دعه فلا يُبقى المبقى إلا على نفسه، فوالله إن قلبي لشديد، وإن جوابي لعتيد،
وبالله الثقة، فإني كما قال نابغة بنى دُبيان^(١):

وقبلك ما قذعتُ وقاذعوني فما نَزَرَ الكلامُ ولا شجاني^(٢)
يصدُّ الشاعر العراف عني صدودَ البكر عن قرمِ هجاني^(٣)

[الوافر]

(١) ديوانه ٧٧.

(٢) المفازة: المهاجة والمشامة. ونزر: قل، وشجاني: أحزني.

(٣) القرم: الفحل الكريم من الإبل، والهجان الأبيض، والكلام على الاستمارة، وفي ديوانه: «الشمر التنيان» والخبر في
المحاسن والأضداد ١٥٥ - ١٥٧.

محاسن كلام غانمة بنت غانم في شرف بني هاشم وفخرهم

قيل: ولما بلغ غانمة بنت غانم سب معاوية وعمرو بن العاص بن هاشم، قالت لأهل مكة: أيها الناس، إن قريشا لم تلد من رقم ولا رقم؛ سادت وجادت، ومُلكت فملكت، وفُضلت ففُضلت، واصطفيت فاصطفت، ليس فيها كدر عيب، ولا أفن^(١) ريب، ولا حُسروا طاغين، ولا جادوا ناديين، ولا المغضوب عليهم ولا الضالين.

إن بني هاشم أطولُ الناس باعًا، وأمجَدُ الناس أصلًا، وأحلمُ الناس جِلْمًا، وأكثرُ الناس عطاءً، منَّا عَبدُ مناف الذي يقول فيه الشاعر^(٢):

كَانَتْ قَرِيشٌ بِيضَةً فَتَفَلَّقَتْ فَالْمَحُ خَالِصُهَا لِعَبْدِ مَنْافٍ^(٣)

[الكامل]

وولده هاشم الذي هَشَمَ الثريد لقومه، وفيه يقول الشاعر^(٤):

هَشَمَ الثَرِيدَ لِقَوْمِهِ، وَأَجَارَهُمْ وَرَجَالَ مَكَّةَ مُسْتِنْتُونَ عَجَافٌ^(٥)

[الكامل]

ثم منَّا عبدُ المطلب الذي سَقِينَا به الغيث، وفيه يقول الشاعر:

وَنَحْنُ سِنَى المَحَلِّ قَامَ شَفِيعِنَا بِمَكَّةَ يَدْعُو والمِيَاهُ تَغْزُورُ

[الطويل]

وابنه أبو طالب عظيم قريش، وفيه يقول الشاعر:

أَتَيْتُهُ مَلِكًا فقام بِحَاجَتِي وَتَرَى العُلَيْجَ خَائِبًا مَذْمُومًا

[الكامل]

ومنَّا العباس بنُ عبد المطلب، أَرَدَفَهُ رسولُ الله ﷺ فأعطاه ماله وفيه يقول الشاعر:

رَدِيفُ رسولِ الله لم أَرِ مِثْلَهُ ولا مِثْلُهُ حتى القِيَامَةِ يُوجَدُ

[الطويل]

(١) المحاسن والأضداد: «ولا إفك ريب».

(٢) هو مطرود بن كعب الخزاعي. أمالي المرتضى ٢: ٢٦٨.

(٣) المح: صفة البيض.

(٤) هو عبد الله بن الزبير، أمالي المرتضى ٢: ٢٦٩.

(٥) المستنون: الذين أصابتهم السنة المجدية.

ومنا حمزة سيّد الشهداء، وفيه يقول الشاعر:

أبا يعلى لك الأركان هُدتُ وأنت الماجد البرّ الوصولُ

[الوافر]

ومنا جعفر ذو الجناحين، أحسنُ الناسُ حسناً، وأكملهمُ كمالاً، ليس بغدار ولا ختار، بدّله الله
جلّ وعزّ بكلّ يد له، جناحاً يطير به في الجنة، وفيه يقول الشاعر:

هأتوا كجعفرنا ومثل علينا^(١) كانا أعزّ الناس عند الخالق^(٢)

[الكامل]

ومنا أبو الحسن عليّ بن أبي طالب رضی الله عنه، أفرس بنى هاشم، وأكرم من احتفى وتعلّ^(٣)
بعد رسول الله ﷺ. ومن فضائله ما قصّر عنكم أنباؤها، وفيه يقول الشاعر:

وهذا عليّ سيّد الناس فاتقوا عليّاً بإسلام تقدّم من قبلُ

[الطويل]

ومنا الحسن بن علي رضی الله عنه، سبّطُ رسول الله ﷺ، وسيّد شباب أهل الجنة، وفيه يقول
الشاعر:

ومن يك جدّه حقاً نبياً فإن له الفضيلة في الأنام

[الوافر]

ومنا الحسين بن عليّ رضوان الله عليه، حمّله جبريلُ عليه السلام على عاتقه، وكفى بذلك فخراً،
وفيه يقول الشاعر:

نفى عنه عيب الآدميين ربُّهُ ومن مجدهُ مجدُّ الحسين المطهرِ

[الطويل]

ثم قالت: يا معشر قريش، والله ما معاوية بأمرير المؤمنين، ولا هو كما يزعم، هو والله شاقّ رسول
الله ﷺ! إني آتية معاوية وقائلة له ما^(٤) يقرق منه جبينه ويكثر منه عويله.
فكتب عامل معاوية إليه بذلك، فلما بلغه أن غانمة قد قرّبت منه، أمر بدار ضيافته فنظّفت،
وألقي فيها قرش، فلما قرّبت^(٥) من المدينة استقبلها يزيد في حشمه وماليكه، فلما دخلت المدينة
أتت دار أخيها عمرو بن غانم، فقال لها يزيد: إن أبا عبد الرحمن يأمرك أن تصيري إلى دار ضيافته
- وكانت لا تعرفه فقالت: من أنت كلاك الله؟ قال: يزيد بن معاوية، قالت: فلا رعاك الله

(١) كذا في المحاسن والأضداد، وفي ط: «كجعفرنا الطيار».

(٢) كذا في المحاسن والأضداد، وفي ط: «ألنا أعز الناس عند الخالق».

(٣) ك: «انتعل».

(٤) كذا في المحاسن والأضداد، وفي ط «بما».

(٥) المحاسن والأضداد: «فلما بلغها أنها قرّبت منه».

يا ناقص، لست بزائدا فتمعّر^(١) لونُ يزيد وأتى أباه فأخبره، فقال: هي أسنُّ قريش وأعظمهم. قال يزيد: كم تعدّها يا أمير المؤمنين؟ قال: كانت تعدّ على عهد رسول الله ﷺ أربعمائة عام، وهي من بقیة الكرام.

فلما كان من الغد أتاها معاوية، فسلم عليها، فقالت: على المؤمنين السلام، وعلى الكافرين الهوان. ثم قالت: من منكم ابن العاص؟ قال عمرو؛ هانذا. فقالت؛ وأنت تسبُّ قريشاً وبنى هاشم، وأنت أهل السبِّ، وفيك السبُّ وإليك يعود السبُّ يا عمرو! وإني والله لعارفة بعبوك وعبوب أمك، وإني أذكر لك ذلك عيباً عيباً؛ ولدت من أمة سوداء، مجنونة حمقاء، تبول من قيام، ويعلوها اللثام، إذا لا مسها الفحل كانت نطفتها أنفد من نطفته. ركبها في يوم واحد أربعون رجلاً وأما أنت فقد رأيتك غاويًا غير راشد، ومفسدًا غير صالح، ولقد رأيت فحل زوجتك على فراشك فما غرت ولا أنكرت!

وأما أنت يا معاوية، فما كنت في خير، ولا ربيت في خير؛ فما لك ولبنى هاشم! أنساء بنى أمة كنسانهم! أم أعطى أمة ما أعطى هاشم في الجاهلية والإسلام! وكفى فخراً برسول الله ﷺ. فقال معاوية: أيتها الكبيرة، أنا كاف عن بنى هاشم، قالت فإني أكتب عليك عهداً؛ كان رسول الله ﷺ دعا ربه أن يستجيب لي خمس دعوات، أفاجعل^(٢) تلك الدعوات كلها فيك! فخاف معاوية وحلف لها ألا يسب بنى هاشم أبداً.

فهذا آخر ما كان بين معاوية وبنى هاشم من المفاخرة، والله أعلم^(٣).

(١) تمعّر وجهه: تغير غيظاً، وفي المحاسن والأضداد: «تغير».

(٢) كذا في المحاسن والأضداد، وفي ط: «فاجعل».

(٣) الخبر في المحاسن والأضداد ١٥٧ - ١٥١.

محاسن مجالس أبي العباس السفاح في المفاخرة

قيل: كان أبو العباس يُطيل السهر، وتعجبه الفصاحة، ومُنَازَعَةَ الرجال، فسهر ذات ليلة وعنده أناس من مُضَرٍّ وفَهْرٍ، وفيهم خالدُ بنُ صَفْوَانَ بنِ الأَهمِّ التَّمِيمِيِّ، ونَاسٌ من اليَمَنِ، فيهم إبراهيم بن مخرمة الكِنْدِيُّ، فقال أبو العباس: هاتوا واقطعوا ليلتنا بمحادثتكم.

فبدأ إبراهيم بن مخرمة، وقال: يا أمير المؤمنين، إن أحوالكم هم الناس، وهم العرب الأول الذين دانت لهم الدنيا، وكانت^(١) لهم اليد العليا، مازالوا ملوكاً وأرباباً، توارثوا الرياسة كابراً عن كابر، وأخيراً عن أول، يليس آخرهم سراييل أولهم، يعرفون بيت المجد ومآثر الحمد، منهم النعمانات والمنيرات والقابوسات^(٢). ومنهم غسيل الملائكة، ومنهم من اهتز لموته العرش، ومنهم مكلم الذئب، ومنهم من كان يأخذ كل سفينة غصياً، ويحوى في كل نائبة نبياً. ومنهم أصحاب التيجان، وكماة الفرسان، ليس من شيء^(٣) وإن عظم خطرُه، وعرف أثره من فرس رانع، وسيف قاطع، أو بحن واطق، أو ذرع حصين، أو ثرة مكنونة، إلا وهم أربابها وأصحابها؛ إن حل ضيف قرؤه، وإن سألهم سائل أعطوه، لا يبلغهم مكاتر، ولا يُطاولهم مطاول ولا مفاخر، فمن مثلهم يا أمير المؤمنين! البيت يمان، والحجر يمان، والركن يمان، والسيف يمان.

فقال أبو العباس: ما أرى مضر تقول بقولك هذا، وما أظن خالدًا يرضى بذلك.

فقال خالد: إن أذن أمير المؤمنين وأمنت الموجدة، تكلمت.

فقال أبو العباس: تكلم ولا ترهب أحدًا.

فقال خالد: يا أمير المؤمنين، خاب المتكلم وأخطأ المتقحم^(٤)، إذ قال بغير علم، ونطق بغير صواب. أو يفخر على مضر، ومنها النبي ﷺ، والخلفاء من أهل بيته! وهل أهل اليمن يا أمير المؤمنين إلا دايع جلدًا، أو قائد قردًا، أو حائك بردًا! دل عليهم الهدد، وخرقهم الجرذ، وملكتهم أم ولد.

وكيف يكون ذلك لقوم^(٥) يا أمير المؤمنين، ما لهم ألسنة فصيحة، ولا لغة صحيحة، ولا حجة تدل على كتاب، ولا يعرف بها صواب! وإنهم منا لإحدى الخلتين^(٦)؛ إن حازوا ما قصدوا أكلوا، وإن حادوا عن حُكْمِنَا قتلوا.

ثم التفت إلى الكِنْدِيِّ فقال: أتفخر بأكرم الأنام وخيرها، محمد صلى الله عليه وسلم، وبه افتخر

(١) كذا في المستطرف، وفي ك: «كانت». (٤) المستطرف: «المتقحم».

(٢) المستطرف: «منهم النعمان بن المنذر». (٥) كذا في المستطرف، وفي ط: «من قوم والله يا أمير المؤمنين».

(٣) كذا في المستطرف، وفي ك: «نسل». (٦) الحلة، بالفتح: الحصلة.

مَنْ ذَكَرْتَ! فالمنُّ من الله عزَّ وجلَّ عليكم؛ أن كنتم أتباعه وأشياعه. منَّا نبيُّ الله المصطفى، وخليفة الله المرتضى، ولنا السُّؤدد والعلل، وفينا الحِلْم والحِجَا، ولنا الشرف المقدم، والركن المكرَّم، والبيت المعظم، والجناب الأخضر، والعدد الأكثر، والعزُّ الأكبر ولنا البيت المعمور، والمشعر المشهور، والسَّقْف المرفوع، ورَمَزَم وبطحاؤها، وجبالها وصحراؤها؛ وجياضها وغياضها، وأحجارها وأعلامها ومنابرها، وسقايتها وحجايتها؛ وسدانة بيتها. فهل يعدلنا عادل ويبلغ فخرنا قائل! ومنَّا أعلم الناس ابن عباس، أعلم البشر، الطيبة أخباره، الحسنة آثاره. ومنَّا الوصيُّ وذو النورين^(١)، ومنَّا الصِّديق والفاروق^(٢). ومنَّا أسد الله، وسيفُ الله^(٣)، ومنَّا سيّد الشهداء وذو الجناحين^(٤)؛ ومنَّا الكماة والفرسان، ومنَّا الفقهاء والعلماء، بنا عُرف الدين ومن عندنا أتاكم اليقين فمن زاحمنا زاحمناه، ومن عادانا اصطلمناه، ومن فاخرنا فاخرناه، ومن بدل سنتنا قتلناه.

ثم التفت إلى الكندي، وقال: كيف علمك بلغات قومك؟ قال: أنا بها عالم، قال: ما الجحمة^(٥) في لغتك؟ قال: العين، قال: فما الميزم^(٦)؟ قال: السن، قال: فالشناتر^(٧)؟ قال: الإصبع، فالصناتر^(٨)؟ قال: الأذان. قال: فما القلوب^(٩)؟ قال: الذنب، قال: فما الزب^(١٠)؟ قال: اللحية، قال: أفقرأ كتاب الله عزَّ وجلَّ؟ قال: نعم، قال: فإن الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾^(١١)، وقال: ﴿يَلْسَانَ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾^(١٢)، وقال جلَّ ذكره: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾^(١٣)، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾^(١٤)، ولم يقل: «الجحمة بالجحمة»، وقال: ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾^(١٥)، ولم يقل: «شناترهم في صناتيرهم»، وقال: ﴿وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ﴾^(١٦)، ولم يقل: «الميزم بالميزم»، وقال: ﴿فَأَكَلَهُ الذَّنْبُ﴾^(١٧)، ولم يقل: «القلوب»، وقال: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي﴾^(١٨)، ولم يقل: «بُرِّي».

وأنا سائلك يا بن محرمة عن ثلاث^(١٩) خصال، فإن أنت أقررت بها قُهرت، وإن جحدتها كُفرت، وإن أنكرت قُتلت، قال: وما هي؟ قال: أتعلم^(٢٠) أن فينا نبي الله المصطفى ﷺ؟ قال: اللهم نعم، قال: أتعلم، قال: أتعلم أن فينا كتاب الله تعالى؟ قال: اللهم نعم! قال: أتعلم أن فينا خليفة الله المرتضى؟ قال: اللهم نعم! قال: فأئني شيء يعدل هذه الخصال!

(١) الوصي: علي، وذو النورين: عثمان.

(٢) الصديق: أبو بكر، والفاروق: عمر.

(٣) أسد الله: حمزة، وسيف الله: خالد.

(٤) سيد الشهداء: الحسين، وذو الجناحين: جعفر.

(٥) اللسان ٢: ١٨٢، وفي المستطرف: «الكنع» وهي يمانية بمنها أيضا.

(٦) اللسان ١: ٤٢٩.

(٧) سورة يوسف ٢.

(٨) سورة الشعراء ١٩٥.

(٩) سورة إبراهيم ٤.

(١٠) سورة المائدة ٤٥.

(١١) (٢٠-٢٠) المستطرف: «الرسول منا أو منكم؟ قال: منكم، قال: فالقرآن أنزل علينا، أو عليكم؟ قال: عليكم، قال: فالنبي

فينا أو فيكم؟ قال: فيكم. قال: فالبيت لنا أو لكم؟ قال: لكم، فقال: فاذهب فما كان بعد هؤلاء فهو لكم».

قال أبو العباس: أكف عن فؤادك ما رأيت غلبةً أنكرَ منها! والله ما فرغت من كلامك يا أخا مُضَر حتى ظننتُ أنه سيُخرج بسريري إلى السماء. ثم أمر لخالد بمائة ألف درهم^(١).

* * *

وعن أبي بكر ادنلي: اجتمعنا عند أبي العباس: أهل البصرة وأهل الكوفة، ولم يكن من أهل البصرة غيري، وكان من أهل الكوفة الحجاج بن أرتاة، والحسن بن زيد، وابن أبي ليلى، فتذاكروا أهل الكوفة وأهل البصرة، فقال ابن أبي ليلى: نحن والله يا أمير المؤمنين [خير منهم]^(٢)، فقلت: وكيف يكون ذلك لنا! السند والهند، وكرمان ومكران، والفرص^(٣) والعرص، والديار وسعة الأنهار! فقال: ابن أبي ليلى: نحن أعلم منهم علمًا، وأكثر منهم فهمًا، يُقرّ بذلك أهل البصرة لأهل الكوفة.

قلت: هم أكثر أنبياء، وأقلّ أتقياء، وأعظم كبرياء. منهم المغيرة، الخبيث السريرة، وبيّان وأبو بيّان: تنسب فيهم من الأنبياء، والله ما أتانا إلاّ نبي واحد.

قال الحسن بن زيد: أنتم أصحاب عليّ يوم سرنا إليه لنقتله، فكفّ الله أيدينا عنه، وسار إلى الكوفة فقتلوه، فأينا أعظم ذنبًا!

فقال الحجاج: والله يا أمير المؤمنين، لقد بلغني أن أهل البصرة كانوا يومئذ عشرين ألفًا، وكان أهل الكوفة خمسة آلاف. فلما التقت حلقتا البطان، وأخذت الرجال أقرانها، شدت خيلهم في صعيد واحد.

فقلت: وكيف يكون ذلك؛ وخرجت ربيعة سامعة مطيعة، تعين عليًا، وخرج الأحنف بن قيس في سعد والرباب وهم السنام الأعظم، والجمهور الأكبر يعين عليًا! ولكن سل هؤلاء يا أمير المؤمنين، كم كانت عدتهم^(٤) يوم استغاثوا بنا، فلما التقينا كانوا كرماد اشتدّت به الرّيح في يوم عاصف! فقال ابن أبي ليلى: والله يا أمير المؤمنين، إننا لأشرف منهم أشرفًا، وأكثر منهم أسلافًا. قلت: معاذ الله يا أمير المؤمنين! هل كان في تميم الكوفة مثل الأحنف بن قيس في تميم البصرة، الذي فيه يقول الشاعر:

إذا الأبصار أبصرت ابن قيسٍ ظللن مهابةً منه خشوعًا

[الوافر]

(١) الخبر في المستطرف: ١: ١٣٦: ١٣٢.

(٢) تكملة يقتضيهما السياق.

(٣) الفرض: جمع فرضة، وهي من البحر محط السفن.

(٤) ل: «كم عدتهم يا أمير المؤمنين؟».

وهل كان في قيس الكوفة مثل قتيبة بن مسلم في قيس البصرة، الذي يقول فيه الشاعر:

كَلَّ عَامٍ يَحْوِي قُتَيْبَةً نَهَبًا وَيَزِيدُ الْأَمْوَالَ مَالًا جَدِيدًا
دَوَّخَ الصُّغَدَ بِالْقَبَائِلِ حَتَّى تَرَكَ الصُّغَدَ بِالْعِرَاءِ قُعُودًا
بَاهِلِيًّا تَعْصَبُ التَّجَاحُ حَتَّى يَشِينُ مِنْهُ مَفَارِقُ كُنَّ سُودًا

[الخفيف]

وهل كان في أزد الكوفة مثل المهلب بن أبي صفرة في أزد البصرة؛ الذي يقول فيه الشاعر:

إِذَا كَانَ الْمَهْلَبُ مِنْ وِرَائِي هَذَا لَيْلِي وَقَرَّرَ لَهُ فَوَادِي
وَلَمْ أَخْشَ الدُّنْيَةَ مِنْ أَنَاسٍ وَلَوْ صَالُوا بِقُوَّةِ قَوْمٍ عَادِي

[الوافر]

وهل كان في بكر الكوفة مثل مالك بن مسعم في بكر البصرة الذي يقول فيه الشاعر:

إِذَا مَا خَشِينَا مِنْ أَمِيرٍ ظَلَامَةً أَمَرْنَا أَبَا غَسَّانَ يَوْمًا فَمَسَكْرًا

[الطويل]

وهل كان في عبد قيس الكوفة مثل الحكم بن المنذر بن الجارود في عبد قيس البصرة، الذي

يقول فيه الشاعر:

يَا حَكَمَ بْنَ الْمَنْذِرِ بْنِ الْجَارُودِ أَنْتَ الْجَوَادُ ابْنُ الْجَوَادِ الْمُحَمَّودِ

فَضَحَكَ أَبُو الْعَبَّاسِ حَتَّى ضَرَبَ بِرِجْلِهِ، وَقَالَ: وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ مِثْلَ هَذِهِ الْعَلْبَةِ قَطًّا!

محاسن الافتخار بالنبي صلى الله عليه وسلم

قيل: كان علي بن عبد الله بن العباس رضى الله عنه عند عبد الملك بن مروان، إذ فاخره عبد الملك، فجعل يذكر أيام بنى أمية، فبينما هو كذلك إذ نادى المنادى للأذان، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ﷺ، فقال علي لعبد الملك:

تلك المكارم لا قعبان من لبنٍ شيبًا بماءٍ فعادا بعدُ أبوالا^(١)

[البسيط]

فقال عبد الملك: الحق في هذا أئين من أن يكابر^(٢).

علي بن محمد النديم، قال: دخلت على المتوكل وعنده الرضى، فقال: يا علي، من أشعر الناس في زماننا؟ قلت: البُحترى، قال: ويعدده؟ قلت^(٣): مروان بنى أبي حفصة عبدك^(٣)، فالتفت إلى الرضى، وقال: يا بن عم، من أشعر زماننا؟ قال: علي بن محمد العلوى، قال: وما تحفظ من شعره؟ قال: قوله:

لقد فاخرتنا من قريش عصابةً ببطّ خدودٍ وامتداد الأصابع
فلما تنازعنا القضاء قضى لنا عليهم بما تهوى نداء الصوامع

[الطويل]

يعنى المساجد.

قال المتوكل: وما معنى نداء الصوامع؟ قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله. قال: وأبيك إنه لأشعر الناس^(٤).

(١) لأبي الصلت بن أبي ربيعة الثقفى، طبقات الشعراء لابن سلام ٤٨.

(٢) الخبر في المحاسن والأضداد ١٦١.

(٣ - ٣) كذا في المحاسن والأضداد، وفي ط: «ولد مروان بن أبي حفصة خدمك وعبيدك».

(٤) الخبر في المحاسن والأضداد ١٦١.

محاسن ما قيل في ذلك من الشعر

قال علي بن محمد العلوي:

عَصَيْتُ الهوى وَهَجَرْتُ النساءِ
وما أَنَسَ لا أَنَسَ حَتَّى المَمَاتِ
دَعَيْتِي وَصَبْرِي على نائباتِ
وإن يَكُ دهرى لَوَى رَأْسَهُ
ليالى أروى صَدُورَ الفَناءِ
ونحنُ إذا كان شَرِبُ المَدَامِ
بلغنا السَّاءَ بِأَنسانِنا
فحسبُكَ من سَوْدِدِ أَننا
يَطيبُ الثناءَ لِأَبائِنا
إذا ذُكِرَ الناسَ كُنّا ملوكًا
هَجَانِي قومٌ ولم أَهْجُهُمُ

وكنْتُ دواءً فأصبحتُ داءً
نَزيبَ الطِّباءِ تَجيبُ الطِّباءِ^(١)
فبالصبرِ نلتُ الثرى والثَّواءَ
فقد لقيَ الدهرُ مِنِّي التَّيَواءَ
وأروى مِن الصدورِ الظَّماءَ
شَرِبْنَا على الصافناتِ اللَّماءَ
ولولا السَّاءُ لَجُرْنَا السَّاءَ
بِحسَنِ البلاءِ كَشَفْنَا البَلَاءَ
وذكرُ عليٍّ يَزينُ الثَّناءَ^(٢)
وكانوا عبيدًا وكانوا إماءَ
أبي الله لي أن أقولَ الهجاءَ

[المقارب]

وقال غيره:

وإني من القومِ الَّذِينَ عَرَفْتَهُمُ
نجومٌ ساءَ كلِّما انقَضَ كوكبٌ
أضاءت لهمُ أحسابُهُمُ ووجوهُهُمُ
فلا تُوعِدني يا شَرِيحُ فإنتي
بِمَشَى بأوصالِ الرجالِ إذا شتا

إذ مات منهم سيِّدٌ قامَ صاحِبُهُ^(٣)
بدا كوكبٌ تأوى إليه كواكبُهُ
دَجَى الليلِ حتى نَظَّمَ الجَزَعُ ناقبَهُ
كَلَيْتَ عَرِينِ فَرُّ عنه نعالِبُهُ
قد احمرُّ من نَضْحِ الدِّماءِ مَخالِبُهُ

[الطويل]

وقال آخر:

حُلَماءُ حينَ يَقولُ قائلُهُمُ
بيضُ الوجوهِ مَقاولُ لَسُنِّ^(٤)

(١) النزيب: صوت الطيب.

(٢) المحاسن والأضداد: «يطيب الثناء».

(٣) لأبي الطمحان القيني، والأبيات في الأغاني ١٣: ٩ (طبعة الدار)، ومع اختلاف في الرواية.

(٤) المحاسن والأضداد ١٦٢.

لَا يَقْطُنُونَ لَعِيبِ جَارِهِمْ وَهُمْ لِحَفْظِ جَوَارِهِ فُطُنُ
[الكامل]

وأحسن من ذلك كله قولُ رسول الله ﷺ وقد أتاه أعرابي، فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! مَنْ أكرم الناس حَسَبًا؟ فقال: «أحسنهم خُلُقًا، وأفضلهم تقوى»، فانصرف الأعرابي فقال: «ردّوه»، ثم قال: يا أعرابي، لعلك أردت نسبًا! قال: نعم، قال: يوسف صدّيق الله، بنُ يعقوب إسرائيل الله، بن إسحاق ذبيح الله، بن إبراهيم خليل الله، فأين مثل هؤلاء الآباء في جميع الدنيا! ما كان فيها مثلهم أبدًا.

وقال الشاعر:

ولم أرَ كالأسباطِ أبناءَ والدٍ ولا كأبيهم والدًا حين ينسبُ

[الطويل]

ودخل عيينة بنُ حِصن الفزاريّ على النبي ﷺ، فانتسبَ إليه، ثم قال: أنا ابنُ الأشياخ الأكارم، فقال ﷺ: «أنت إذاً يوسف صدّيق الله، بن يعقوب إسرائيل الله، بن إسحاق ذبيح الله، بن إبراهيم خليل الله!».

وقال ﷺ: «خير البشر آدم، وخير العرب محمد، وخير الفُرس سلمان، وخير الروم صُهيب، وخير الحبشة بلال»، رحمهم الله أجمعين.

مساوى الافتخار

روى عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تفخروا^(١) بأبائكم في الجاهلية، فوالذى نفسى بيده لما يُدحرجُ الجعلُ بأنفه خيراً من أبائكم الذين ماتوا في الجاهلية».

قيل: وكان الحسن البصرى يقول: ابن آدم لم تفتخر، وإنما خرجت من مسيل^(٢) بولن، نطفةً مُشجّت بأقدار.

قال بعضهم لرجل يتبختر^(٣): يا هذا، إن أولك نطفة قذرة، وأخرك جيفة مُنتنة، وأنت فيما بينها وعاءٌ عذرة؛ فما هذه المشية!

قال: وقيل لعامر بن قيس: ما تقول في الإنسان؟ قال: ما أقول فيمن إن جاع صرع^(٤)، وإن شبع طقى.

وروى عن ابن عباس أنه قال: يتفاضلون في الدنيا بالشرف والبيوتات والإمارات والعتاق^(٥) والجمال والهيئة والمنطق، ويتفاضلون في الآخرة بالتقوى واليقين، فاتقاهم أحسنهم يقيناً، وأزكاهم عملاً، وأرفعهم درجة.

وقيل في ذلك:

يزينُ الفتى في الناس صحّةً عقله وإن كان محظوراً عليه مكاسبه
يشين الفتى في الناس قلةً عقله وإن كرمّت أبائوه ومناسبه

[الطويل]

وقال بعض الحكماء: لا يكون الشرف بالحسب والنسب؛ ألا ترى أن أخوين لأب وأم؛ يكون أحدهما أشرف من الآخر؛ ولو كان ذلك من قبيل النسب؛ لما كان لأحدٍ منها على الآخر فضل؛ لأن نسبها واحد، ولكن ذلك من قبيل الأفعال؛ لأن الشرف إنما هو فيه لا في النسب. وقال الشاعر في ذلك:

أبوك أبى والجُدُّ لاشكُّ واحدٌ ولكننا عودان : أسٌ وخِرْوَعٌ

[الطويل]

(٤) ضرع، أى ذل.
(٥) العتاق من الخيل: كرائمها.

(١) المحاسن والأضداد: «لا تفتخروا».
(٢) المحاسن والأضداد: «مسيل».
(٣) المحاسن والأضداد: «أتفتخر».

وَبَلَّغْنَا عَنِ الْمَدَائِنِيِّ أَنَّهُ قَالَ: لَيْسَ السُّوْدُودُ بِالشَّرْفِ، وَإِنَّمَا سَادَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ بِجِلْمِهِ، وَحُضَيْنُ بْنُ الْمَنْذَرِ بِرَأْيِهِ، وَمَالِكُ بْنُ مِسْمَعٍ بِمُحِبَّتِهِ فِي الْعَامَةِ، وَسُوَيْدُ بْنُ مَنَجُوفٍ بِعَطْفِهِ عَلَى أَرْامِلِ قَوْمِهِ، وَسَادَ الْمَهْلَبُ بْنُ أَبِي صُفْرَةَ بِجَمِيعِ هَذِهِ الْخِصَالِ.

قِيلَ: وَسَمِعَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ خَلِيفَةُ صَوْتًا وَلَغَطًا^(١) بِالْبَابِ، فَقَالَ لِبَعْضِ مَنْ عِنْدَهُ: اخْرُجْ فَانظُرْ مَنْ كَانَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ فَأَدْخِلْهُ، فَخَرَجَ الرَّسُولُ فَأَدْخَلَ بِلَالَ، وَصُهَيْبًا، وَسَلْمَانَ - وَكَانَ أَبُو سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَسَهِيلُ بْنُ عَمْرٍو فِي عَصَابَةِ مَنْ قَرِيشٌ جُلُوسًا بِالْبَابِ - فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ: يَا مَعْشَرَ قَرِيشَ، أَنْتُمْ صَنَادِيدُ الْعَرَبِ وَأَشْرَافُهَا وَفَرَسَاتُهَا بِالْبَابِ، وَيَدْخُلُ حَيْشِي وَفَارِسِي وَرُومِي! فَقَالَ سَهِيلُ: يَا أَبَا سَفْيَانَ، أَنْفُسَكُمْ فَلُومُوا^(٢) وَلَا تَلُومُوا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. دَعَا الْقَوْمَ فَأَجَابُوا، وَدَعَيْتَهُمْ، فَأَبَيْتُمْ، وَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْظَمُ دَرَجَاتٍ، وَأَكْثَرُ تَفْضِيلًا.

فَقَالَ أَبُو سَفْيَانَ: لَا خَيْرَ فِي مَكَانٍ يَكُونُ فِيهِ بِلَالٌ شَرِيفًا^(٣)!

(١) ط: ولقطا.

(٢) ك: «فالزمو أنفسكم».

(٣) المحاسن والأخلاق ١٦٤، ١٦٥.

مساوئ أصحاب الصناعات

قال نالمون، وذكر أصحاب الصناعات: السوقة سُفل، والصناع أنذال، والتجار بُخلاء، والكتّاب ملوك على الناس.

وقال المأمون: الناس أربعة: ذو سيادة، أو صناعة، أو تجارة، أو زراعة؛ فمن لم يكن منهم كان عيالاً عليهم.

وذكروا أن أبا طالب كان يعالج العطر والبرّ، وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه بزّاراً، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه بزّاراً، وكان عبد الرحمن بن عوف بزّاراً، وكان سعد بن أبي وقاص رحمه الله يأبر^(١) النخل، وكان أخوه عتبة رحمه الله نجّاراً، وكان العاص بن هشام، أخو أبي جهل بن هشام جزاراً، وكان الوليد بن المغيرة حدّاداً، وكان عقبة بن أبي معيط خماراً، وكان عثمان بن طلحة، صاحبُ مفتاح البيت خياطاً، وكان أبو سفيان بن حرب يبيع الزّيت والأدم، وكان أمية بن خلف يبيع البرم^(٢)، وكان عبدالله بن جدعان نخّاساً، وكان العاص بن وائل، أبو عمرو بن العاص يعالج الخيل والإبل، وكان جرير بن عمرو، وقيس، أبو الضحّاك بن قيس، ومعمّر بن عثمان، وسيرين، أبو محمد بن سيرين؛ كلّهم حدّادين، وكان المسيّب، أبو سعيد زياتاً، وكان نيمون بن مهران بزّاراً، وكان مالك بن دينار وراقاً، وكان أبو حنيفة صاحب الرأى خزّاراً، وكان جمّع الزاهد حائكاً.

قيل: وتخذ يزيد بن المهلب بستاناً في داره بخراسان، فلما ولي الأمر قتيبة بن مسلم جعله لإبله، فقال له مرزبان^(٣) مرو: هذا كان بستاناً، وقد اتخذته لإبلك؛ فقال قتيبة: كان أبي «أشتربان»^(٤)، وكان أبو يزيد «بستانبان»^(٥)، فمنها صار ذلك كذلك^(٦).

(١) يأبر النخل: يصلحه.

(٢) البرم، كعرف: القدور، واحدة برمة كعرة.

(٣) المرزبان: الرئيس من الفرس.

(٤) الأشتربان: سائق الجمل؛ فارسى.

(٥) بستانبان، هو البستاني، فارسى.

(٦) المحاسن والأضداد ١٦٥، ١٦٦.

محاسن التناج

ذكروا أن جرهم من نتاج ما بين الملائكة وبنات آدم، وأن الملاك من الملائكة كان إذا عصى ربه في الساء أهبطه إلى الأرض في صورة رجل في طبيعته ما في طبيعة بنى آدم، كما صنع بهاروت وملروت في خبرهما مع الزهرة، حتى كان من شأنها ما كان، فعصى بعض الملائكة ربنا جل ذكره، فأهبطه إلى الأرض في صورة رجل، فتزوج أم جرهم، فولدت منه جرهما، فقال شاعرهم:

لا هم إن جرهما عبادكا الناس طرّف وهم تِلَادُكا^(١)
وكان ذو القرنين أمه قبرى آدمية، وكان عبرى من الملائكة^(٢).

وسمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلاً ينادى: يا ذا القرنين فقال: فرغتم من أساء الأنبياء، فارتقيتم إلى أساء الملائكة!

وزعموا أن التناكح والتلاطح قد يقع بين الجن والإنس، لقوله جل وعز: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾^(٣)، ولأن الجنيات إنما يعرضن لصرعى رجال الإنس على جهة العشق وطلب السفاد، وكذلك رجال الجن لنساء بنى آدم، ومن زعم أن الصرع من المرة، فقد رد قول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾^(٤)، وقال جل ذكره: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾^(٥)، وقال عز وتعالى: ﴿لَمْ يَطْمِئِنُّنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ﴾^(٦)، وكان عبد الله بن هلال سبيط إبليس من قبل أمهاته.

وروى أبو زيد النحوى أن سعلأة أقامت في بنى تميم حتى ولدت فيهم، ورأت ذات يوم برقاً من شق بلاد السعالى فحنت إلى وطنها وطارت إليهم.

وقد قيل: إن الواق واق، من نتاج ما بين بعض النبات وبعض الحيوان.
وقد قيل: إن الثعلب يسفد الهرة الوحشية، فيخرج من بينها ولد فيه مشابة منها.
قال حسان:

(١) الحيوان ١: ١٨٧ وفيه: «النارس طارف».
(٢) انظر الحيوان ١: ١٨٧، ١٨٨.
(٣) سورة الإسراء ٦٤.
(٤) سورة البقرة ٢٧٥.
(٥) سورة الإسراء ٦٤.
(٦) سورة الرحمن: ٥٦.

أبوك أبوك وأنت ابنة
وأمك سوداء نوبية
بيت أبوك بها مغدفا
كبسا ساور الهرة الثعلب
وبس البني وبس الأب (١)
كان أناملها الخنط (٢)

[المتقارب]

وقد يولد من بين الكلاب والثعالب هذه الكلاب السلوقية الماهرة بالصيد.
وقيل: إنه يخرج من بين الذئب والكلبة ولد يسمى الذئسم.
وقال بشار:

أديسم يابن الذئب من نجل زارع
أتروى هجائي سايرا غير مقصرا

[الطويل]

وزارع: اسم الكلب يعرف بزراع

وزعموا أنه يخرج من بين الذئب والضبع ولد يسمى السمع (٣) كالحية لا يعرف العليل، ولا يموت
إلا بعرض يعرض له، وأنه أشد عدواً، وأسرع من الريح؛ قال الشاعر:

مُشِبِلٌ فِي الْحَيِّ أَحْوَى رِفْلُ
فَإِذَا يَعْدُو فَسَمْعٌ أزلُّ

[الرجز]

ومن عجائب التركيب فوالج (٤) البخت؛ إذا ضربت في إناث البخت لم يخرج الحوار (٥) إلا
قصير العنق، لا ينال كلاً ولا ماءً، وإذا ضربت الفوالج في العراب، جاءت هذه الجوامز (٦) والبخت
الكريمة، ومتى ضربت فحول العراب في إناث البخت جاءت هذه الإبل القبيحة المنظر.

وقد قيل في الإبل: إن فيها عرقاً من سفاذ الجن، وإن فيها إبلاً وحشية هي من بقايا إبل وبار،
لما أهلكهم الله جل وعز بقيت إبلهم وإن الجمل منها ربما صار إلى أعطان الإبل فضرب في ناقه،
فتجىء منه هذه المهريّة والعسجدية التي تسمى الذهبيّة (٧).

(١) ديوانه ٦١، وفيه: ومر حسان رضى الله عنه يجلس مزينة بعد ما كف بصره، فضحك به بعضهم فقال: «... وذكر الأبيات،
مع اختلاف في الرواية.

(٢) الخنط: دابة مثل الخنفساء.

(٣) السمع: سبع مركب، وهو ولد الذئب من الضبع، وهو حديد السمع جداً. وفي المثل يقال: هو أسمع من سمع.

(٤) الفوالج: جمع فالج، وهو الجمل الضخم ذو السنامين يحمل من الهند للفحلة.

(٥) الحوار: ولد الناقة.

(٦) الجوامز: السراع العدو.

(٧) العسجدية: ركاب الملوك، وهي إبل كانت تزين للنعمان، منسوبة إلى سوق يكون فيها العسجد والذهب (اللسان).

وزعموا أن ببلاد الحيشة ذَكَر الضَّبَاع يَعْرِضُ للناقة من الوحش، فيسفدها فتلقح بولد على خلقة الناقة وَالضَّبُعُ، فإن كان أنثى يَعْرِضُ لها الثور الوحشِيَّ فَيَضْرِبُها فيصير الولد زرافة، ويسمى بالفارسية «أشتر كاوبلنك»، أى خرج من بين الجمل والثور والضبع، وقد جَدَّ الناس أن تكون الزرافة الأنثى تَلْقَحُ من الزرافة الذكر.

وأما النعامة فإنها لا تقع إلا من ذكر النعام وإناؤها.

ومن نتاج الطير ما رواه بعضهم أنه رأى طائراً له صوت حسن، زعموا أنه من نتاج ما بين القمرى والفاخته.

وقناص الطير يزعمون أن أجناساً من الطير تلتقى على المياه فتسافد، وإنهم لا يزالون يرَوْنُ أشكالاً لم يرَوها قط، فيقدرون أنها من تلاقيح تلك المختلفة.

مَسَاوِي النَّتَاجِ

فأما من يخرج من بين بني آدم، فإنه إذا تزوج خُرساني هندية، خرج من بينها الذهب الإبريز؛ غير أنه يحتاج أن يحرس ولدهما إذا كان أنثى من زناء الهند، وإذا كان ذكراً من لواط رجال خراسان.

ومن خبث النتاج ابن المذكرة من النساء، والمؤنث من الرجال، يكون أخبث تاجاً من البغل، وأفسد أعراقاً من السَّمْع، وأكثر عيوباً من كل خلق، وأن يأخذ بأسوأ خصال أبيه، وأردأ خصال أمه، فتجتمع فيه خصال الدواهي، وأعيان المساوي، وأنه إذا خرج كذلك لم ينجع فيه أدب، ولم يطمع في علاجه طبيب، وقد رأينا في دُورِ تقيفٍ فتى اجتمعت فيه هذه الخصال، فما كان في الأرض يوم إلا وهم يتحدّثون عنه بشيء يصغر في جنبه أكبر ذنب كان ينسب إليه.

والخلاسى من الناس الذى يخرج من بين الحبشى والبيضاء، والبیسرى من الناس الذى من بين البيض والهند، ويكون من أحسن الناس وأجملهم.

محاسن الوفاء

قيل في المثل: هو أوفى من فكَّيهة^(١)، وهي امرأة من قيس بن ثعلبة، كان من وفائها أن السُّليكَ بن السُّلَكة عزا بكر بن وائل، فخرج جماعة من بكر، فوجدوا أثر قدم على الماء، فقالوا: والله إن هذا لأثر قدم ترد الماء، ففقدوا له، فلما وافي حملوا عليه، فعدا حتى ولج قبة فكَّيهة، فاستجار بها فأدخلته تحت درعها، فانتزعوا حمارها، ونادت إخوتها، فجاءوا عشرة، فمنعوه منهم، قال: فكان سُّليكَ يقول: كَأني أجدُ خشونة أسْتها على ظهري حين أدخلتني درعها، وقال:

لعمري أبيتك وأنباء تنمي لنعيم الجار أخت بني عوارا
من الحفريات لم تفضح أخاها ولم ترفع لوالدها شنارا
عنيتُ بها فكَّيهة حين قامت كتصل السيف وانتزعوا الحمارا^(٢)

[الوافر]

وقيل أيضاً: هو أوفى من أم جميل، وهي من رَهط أبي هريرة، من دوس، وكان من وفائها أن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي قتل أبا أزهري^(٣)؛ رجلاً من الأزد، فبلغ ذلك قومه بالسراة، فوثبوا على ضرار ابن الخطاب ليقتلوه، فعدا حتى دخل بيت أم جميل، وعاد بها، فقامت في وجوههم، ونادت قومها، فمنعوه لها، فلما قام عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالأمر، ظنت أنه أخوه، فأنته بالمدينة، فلما انتسبت عرف القصة، وقال: إني لست بأخيه إلا في الإسلام، وهو غاز، وقد عرفنا منتك عليه، فأعطاها على أنها بنت سبيل^(٤).

ويقال: هو أوفى من السموءل بن عدياء، وكان من وفائه أن امرأ القيس بن حجر الكندي لما أراد الخروج إلى قيصر ملك الروم استودع السموءل، دروعاً له، فلما مات امرؤ القيس غزاه ملك من ملوك الشام، فتحرز منه السموءل فأخذ الملك ابناً له، ذكروا أنه كان متصيِّداً، فصاح به: يا سموءل! هذا ابنك في يدي؛ وقد علمت أن امرؤ القيس ابن عمي، وأنا أحقُّ ببيرائه، فإن دفعت إلى الدروع وإلا ذبحت ابنك، فقال: أجلني، فأجله. فجمع أهل بيته وشاورهم فكل أشار عليه أن

(١) في مجمع الأمثال عن حمزة: «هي فكَّيهة بنت قتادة بن شنوءة، خالة طرفه؛ لأن أم طرفة بنت قتادة».

(٢) الخبر في مجمع الأمثال للبيداني ٢: ٣٧٨، والمحاسن والأضداد: ٧٠، ٧١.

(٣) في مجمع الأمثال: «أبا زهير الزهراني». وانظر الاشتقاق ٥٠٤.

(٤) الخبر في مجمع الأمثال ٢: ٣٧٧، والمحاسن والأضداد ٧١.

يُدْفَعُ الدَّرُوعَ، وَأَنْ يَسْتَنْقِذَ ابْنَهُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَشْرَفَ فَقَالَ: لَيْسَ إِلَى دَفْعِ الدَّرُوعِ سَبِيلٌ، فَاصْنَعِ مَا أَنْتَ صَانِعٌ! فَذَبَحَ الْمَلِكُ ابْنَهُ، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ - وَكَانَ يَهُودِيًّا - فَانصَرَفَ الْمَلِكُ، وَوَأْفَى السَّمَوَةَ بِاللُّرُوعِ الْمَوْسِمِ، فَدَفَعَهَا إِلَى وَرَثَةِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ، وَقَالَ فِي ذَلِكَ:

وَقَيْتُ بِأَتْرَعِ الْكِنْدِيِّ إِنِّي إِذَا مَاخَانَ أَقْوَامٌ وَفَيْتُ
وَقَالُوا عِنْدَهُ كَنْزٌ رَغِيبٌ فَلَا وَآيِيكَ أُغْدِرُ مَا مَشَيْتُ
بَنَى لِي عَادِيَا حِصْنًا حَصِينًا وَبَشْرًا كُلَّمَا شَتَّتْ اسْتَقَيْتُ^(١)

[الوافر]

وقال الأعشى في ذلك:

كُنْ كَالسَّمَوَةِ إِذْ سَارَ الْهَمَامُ لَهُ فِي جَحْفَلِ كَسَوَادِ اللَّيْلِ جِرَارٌ^(٢)
خَيْرُهُ خَطَّتِي خَسْفِي، فَقَالَ لَهُ اذْبَحْ أَسِيرَكَ، إِنِّي مَانِعٌ جَارِي^(٣)

[البسيط]

وقيل: هو أوفى من الحارث بن عباد، وكان من وفائه أنه أسر عدي بن ربيعة، ولم يعرفه، فقال:
دَلَّنِي عَلَى عَدِيٍّ فَقَالَ: إِنْ أَنَا دَلَّلْتُكَ عَلَى عَدِيٍّ أَتَوَّمُنِي؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَأَنَا عَدِيٌّ، فَخَلَاهُ.
وقال في ذلك:

لَهَفَ نَفْسِي عَلَى عَدِيٍّ وَقَدْ أَسْقَبَ لِلْمَوْتِ وَاحْتَوَتْهُ الْيَدَانُ^(٤)

[الخفيف]

ويقال: هو أوفى من عوف بن محلم، وكان من وفائه أن مروان القرظ^(٥) غزا بكر بن وائل، ففَضُوا جَيْشَهُ، وَأَسْرَهُ رَجُلًا مِنْهُمْ وَهُوَ لَا يَعْرِفُهُ، فَأَتَى بِهِ أُمَّهُ فَقَالَتْ: إِنَّكَ لَتَخْتَالُ بِأَسِيرِكَ كَأَنَّكَ جِئْتَ بِمِرْوَانَ الْقَرْظَ! فَقَالَ لَهَا مِرْوَانُ: وَمَا تُرْجِيْنِ مِنْ مِرْوَانَ؟ قَالَتْ: عِظْمُ فِدَائِهِ، قَالَ: وَكَمْ تَرْتَجِيْنِ مِنْ فِدَائِهِ؟ قَالَتْ: مِائَةٌ بِعَيْرٍ. فَقَالَ مِرْوَانُ: ذَلِكَ لِي عَلَى أَنْ تَرُدِّيْنِي إِلَى خَمَاعَةِ بِنْتِ عَوْفِ بْنِ مَحْلَمٍ^(٦)

(١) بعده في جمع الأمثال:

طَمِيرًا تَزَلِقُ الْيَقْبَانَ عَنْهُ إِذَا مَا نَابِقِي ظَلِمَ أَبِيْتُ

(٢) من قصيدة طويلة في ديوانه ١٢٦، ١٢٧، مطلعها:

شَرِيحٌ لَا تَسْرِكُنِي بَعْدَ مَا عَلَّقْتُ حَبَالَكَ الْيَوْمَ بَعْدَ الْيَدِ أَظْفَارِي

(٣) الديوان: «إذ سامه خطتي خسفي» والخبر في جمع الأمثال ٢: ٣٧٤، والمعاسن والأضداد ٧١، ٧٢.

(٤) الخبر في المعاسن والأضداد ٧٣، ورواية البيت فيه:

لَهَفَ نَفْسِي عَلَى عَدِيٍّ وَقَدَّشَا رَفَهُ الْمَوْتُ وَاحْتَوَتْهُ الْمَنُونُ

وانظر جمع الأمثال ٢: ٣٧٨.

(٥) في جمع الأمثال: «مروان القرظ بن زنباع» وفيه أيضًا: «وإنما سمي مروان القرظ، لأنه كان يعزو اليمن وهي منابت القرظ».

(٦) في جمع الأمثال: «وكان السبب في ذلك أن ليث بن مالك المسمى بالمنزوف ضربًا لا مات، أخذت يوعيس=

قالت: وَمَنْ لِي بِمَآئَةٍ مِنَ الْإِبِلِ! فَأَخَذَ عَوْدًا مِنَ الْأَرْضِ، فَقَالَ: هَذَا لَكَ بِهَا، فَمَضَتْ بِهِ إِلَى عَوْفٍ، فَاسْتَجَارَ بِخِمَاةِ ابْنَتِهِ، فَبِعَتْ عَمْرُو بْنُ هِنْدٍ أَنْ يَأْتِيَهُ بِهِ^(١)، فَقَالَ: قَدْ أَجَارْتَهُ ابْنَتِي، وَلَيْسَ إِلَيْهِ سَبِيلٌ، فَقَالَ عَمْرُو: قَدْ آلَيْتُ إِلَّا أَعْفُو عَنْهُ أَوْ يَضَعُ يَدَهُ فِي يَدِي. فَقَالَ: عَوْفٌ يَضَعُ يَدَهُ فِي يَدِكَ عَلَى أَنْ تَكُونَ يَدِي بَيْنَهَا فَأَجَابَهُ عَمْرُو إِلَى ذَلِكَ، فَجَاءَ عَوْفٌ بِمِرْوَانَ فَأَدْخَلَهُ عَلَيْهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي يَدِهِ، وَوَضَعَ عَوْفٌ يَدَهُ فِي أَيْدِيهَا، فَعَفَا عَنْهُ^(٢).

ويقال: إِنْ قُبِذَ أَمْرٌ بِقَتْلِ رَجُلٍ مِنَ الطَّاعِنِينَ عَلَى الْمَمْلَكَةِ، فَقُتِلَ، فَوَقَفَ عَلَى رَأْسِهِ رَجُلٌ مِنْ جِيرَانِهِ وَصَنَائِعِهِ، فَقَالَ: رَحِمَكَ اللَّهُ! إِنْ كُنْتَ لَتَكْرِمِ^(٣) الْجَارَ، وَتَصْبِرَ عَلَى أَذَاهِ، وَتَوَاسَى أَهْلَ الْحَلَّةِ^(٤)، وَتَقَوْمَ بِالنَّائِبَةِ، وَالْعَجَبُ كَيْفَ وَجَدَ الشَّيْطَانُ فِيكَ مَسَاغًا حَتَّى حَمَلَكَ عَلَى عَصِيانِ مَلِكِكَ! فَخَرَجْتَ مِنْ طَاعَتِهِ الْمَفْرُوضَةِ إِلَى مَعْصِيَتِهِ، وَقَدِيمًا مَا تَمَكَّنَ مِنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْكَ قُوَّةً، وَأَثْبَتُ عَزْمًا. فَأَخَذَ صَاحِبُ الشَّرْطَةِ الرَّجُلَ فَحَبَسَهُ وَأَنْهَى كَلَامَهُ إِلَى قُبَاذٍ، فَوَقَعَ: «يُحَسِّنُ إِلَى هَذَا الَّذِي شَكَرَ إِحْسَانًا يُفَضِّلُ بِهِ، وَتَرْفَعُ مَرْتَبَتُهُ، وَيَزَادُ فِي عَطَانِهِ».

قيل: ولما قتل كسرى النعمان بن المنذر، كتب إلى إياس بن قبيصة يأمره أن يبعث إليه بولد النعمان بن المنذر وتركته؛ من المال والإبل والخيل والسلاح، وكان النعمان أودع ذلك هاني بن مسعود، فبعث إليه إياس يعلمه بما كتب به كسرى، فأبى أن يسلم شيئاً من تركة النعمان، فكتب

= فرسه وسليبه، ثم مالوا إلى خباته فأخذوا أهله، وسلبوا امرأته خماعة بنت عوف بن محلم، وكان الذي أصابها عمرو بن قارب ونؤاب بن أساء، فسألها مروان القرظ: من أنت؟ فقالت: أنا خماعة بنت عوف بن محلم، فانتزعتها من عمرو بن نؤاب لأنه كان رئيس القوم، وقال لها: غطي وجهك؛ واه لا ينظر إليه هزلي حتى أردك إلى أبيك، ووقع بينه وبين بني عيس شر سببها. ويقال: إن مروان قال لعمر بن نؤاب: حكمان في خماعة، قالا: قد حكمتك يا أبا صهبان، قال: فإن اشتريتها منك بمائة من الإبل، وضعتها إلى أهله حتى إذا دخل الشهر الحرام أحسن كسوتها وأخدمها وأكرمها، وحملها إلى عكاظ، فلما انتهى بها إلى منازل بني شيبان، قال لها: هل تعرفين منازل قومك ومنازل أبيك؟ قالت: هذه منازل قومي، وهذه قبة أبي؛ قال: فانطلقى إلى أبيك، فانطلقت فخيرت بضيع مروان، فقال مروان فيما كان بينه وبين قومه، في أمر خماعة وردها إلى أبيها:

رَدَدْتُ عَلَى عَوْفٍ خِمَاةً بَعْدَمَا
وَلَوْ غَيْرَهَا كَانَتْ سَبِيَّةً رُحِمِي
لِوَكْنِهِ الْقَمِي عَلَيْهَا حِجَابُهُ
فَدَافَعْتُ عَنْهَا نَاشِئًا وَقَبِيلُهُ
فَدَايِبَتَهَا لِمَاتِبِينَ نَصْفَهَا
سُهَابِيَّةً تَمُرُ الْعَنَانِينَ وَالنَّزْرَا
خَلَاهَا نؤَابٌ غَيْرَ خَلْوَةٍ خَاطِبِ
لَجَاءَ بِهَا مَقْرُونَةٌ بِالنَّوَابِ
رَجَاءَ الثَّوَابِ أَوْ جِنْدَارَ السَّوَابِ
وَفَارِسَ يَحْبُوبٍ وَعَمْرُو بْنُ قَارِبِ
بِكُومِ الْمَتَالِ وَالْمَشُورِ الْخَوَارِبِ
مَهَارِسَ أَشْأَلِ الْفُخُورِ مِصَاعِبِ

قال: فكانت هذه يدا مروان عند خماعة، فلماذا قال: «ذلك لك على أن تؤدبني إلى خماعة بنت عوف»

(١) في مجمع الأمثال: «وكان عمرو وجد على مروان في أمر، فألى ألا يعفو عنه حتى يضع يده في يده».

(٢) في مجمع الأمثال: «وقال عمرو: لآخر بوادي عوف»، فأرسلها مثلاً بمجمع الأمثال ٢: ٣٧٥، ٣٧٦، المحاسن والأضداد

٧٣، ٧٤.

(٣) ك: «إنك لكنت».

(٤) الحلة هنا: الحاجة.

إياس إلى كسرى يعلمه ذلك، فألى على نفسه ليستأصلن بكر بن وائل. فكتب إلى إياس يأمره بالسير إليهم لمحاربتهم فيمن معه من طيء وإياد وغيرهم، وكتب إلى قيس بن مسعود الشيباني المعروف بذي الجدين - وكان عاملاً على سفوان - يمنع العرب من دخول أطراف السواد؛ ويأمره أن يسير بن معه من قومه، فيعين إياساً على محاربة بكر بن وائل.

ثم عقد كسرى لقائده من قواده يسمى الهامرز^(١) في اثني عشر ألف رجل من أبطال أساورته^(٢)، ووجهه إلى إياس لمعاوته، ثم عقد أيضاً لهرمز جرابزين، وكان أعظم مرازبته في مثل ذلك، وأمره أن يقف أثر الهامرز؛ حتى يوافي إياس بن قبيصة.

فسارت الجيوش إلى بكر بن وائل - وكانوا بمكان يسمى ذاقار، منه إلى مدينة الرسول خمس مراحل، مما يلي طريق البصرة - فأقبلت الجيوش حتى أناخت على بكر فأحدثت بهم.

ثم إن عطاء بكر بن وائل اجتمعوا إلى هاني بن مسعود المزدلف، وقالوا: إن هذه الجيوش قد أهدقت بنا من كل ناحية، فما ترى؟ قال: أرى أن تجعلوا حصونكم سيوفكم ورماحكم، وتوطنوا أنفسكم على الموت، فقالوا: نعم. والله لنفعلن. ثم إن قيس بن مسعود أقبل في سواد الليل من عسكر إياس حتى أتى هاني بن مسعود، فقال: يا بن عم، إنه قد حل بكم من الأمر ما قد ترون ففرق خيل النعمان وسلاحه في أشداء قومك ليقووا بذلك على القتال، فهي مأخوذة لا محالة إن قتلوا، وإن سلموا أمرتهم فردوها عليك. وعليك بالجد والصبر، وإياك ثم إياك أن تخفر ذمتك في تركة النعمان حتى تقتل وعيك وبقتل معك جميع قومك.

قال له هاني: أوصيت يا بن عم محافظاً، فوصلتك رجم؛ وأرجو ألا ترى منا تقصيراً ولا فثوراً. فانصرف قيس ذو الجدين من عند هاني كئيباً حزيناً باكياً خائفاً من هلاك قومه، حتى أتى عسكر إياس، وكان يريه أنه مجامع له على حرب قومه، خوفاً أن يجده عليه كسرى فيقتله.

فلما أصبح هاني بن مسعود دعا بخيل النعمان وسلاحه ففرقه في أبطال قومه وأشدائهم، فركبوا تلك الخيول، وكانت ستمائة فرس وستمائة درع، واستلموا^(٣) تلك الدروع، وكان ذلك في العام الذي هاجر فيه رسول الله ﷺ إلى المدينة، وانفتحت بكر بن وائل أن تجعل شعارها باسم رسول الله ﷺ: «محمد يا منصور»، وذلك قبل أن يسلموا، وبذلك الاسم نصروا وقهروا عدوهم.

وعمد رجل من أشراف بني عجل يقال له حنظلة بن سيار، إلى حزم رحلات النساء فقطعها كلها؛ أراد بذلك أن يمنع قومه من الحرب إن وقعت الهزيمة فسمى بذلك مقطع الوضين^(٤).

وإن إياس بن قبيصة أرسل إلى بكر بن وائل يخبرهم خصلة من ثلاث: إما أن يسلموا تركة

(١) كذا في ك وتاريخ الطبري، وفي ل: «هامون».

(٢) الأسوار، بالضم والكسر: القائد من الفرس، وجمعه أساوره.

(٣) ك، ل: «واستلموا».

(٤) الوضين: بطن عريض منسوج من سيور أو شعر.

النعمان، وإما أن يسيروا ليلاً في البراري، فيعتل على كسرى أنهم هربوا، فإن أبوا هاتين الخلتين خرجوا إلى الحرب.

فتأمروا بينهم، فقالوا: أما أن نسلّم خفارتنا فلا يكون ذلك، وإن نحن لحقنا بالفلاة أفضينا إلى بلاد تميم فيقطعون علينا، ويأخذون ما معنا ويأسروننا، وليس لنا حيلة إلا القتال، فاختراروا القتال، ووجها خمسمائة فارس من أباطهم، عليهم يزيد بن حارثة اليشكري، وأمرهم أن يكمنوا للعجم.

ثم زحف الفريقان بعضهم إلى بعض، وتقدّم الهامرز ووقف بين الصّفين، ونادى بالفارسية «مردى آمردي»، فقال يزيد بن حارثة: ما يقول؟ قال: يدعوا إلى البراز رجلاً لرجل، فقال: وأبيكم لقد أنصف، ثم خرج إليه؛ فاختلف بينها ضربتان، فضربه يزيد ضرباً بالسيف على منكبه فقد ذرعه حتى أفضى السيف إلى منكبه فأبانته فخر ميتاً، الهامرز، أول قتيل بين الصّفين.

وألقى الله عز وجلّ الرّعب في قلوب العجم، فوّلوا منهزمين، ولحق حنظلة بن سيّار العجليّ بهرمز جرابزين، قائد العجم فطعنه طعنة خرّ منها ميتاً. ودفع هاني بن مسعود فرسه في طلب إياس بن قبيصة حتى لحقه، ومعه قيس بن مسعود ذو الجدين، فأراد هاني قتل إياس فمنعه قيس، وحال بينه وبين قتله، وأتبع العجم خمسمائة فارس من بني شيبان لا يلوون على شيء، يقتلون يومهم ذلك من أدركوا منهم، حتى جنهم الليل، وبلغت هزيمة الأعاجم كسرى بالمدائن.

قال دغفل: فذكر هذا الحديث لرسول الله ﷺ فقال: «هذا أول يوم انتصف فيه العرب من العجم وبني نصر»، يعني باسمه ﷺ. فقال: وسقط في يدي كسرى واغتاط من ذلك غيظاً شديداً، ووقعت الولولة والوعيل بالمدائن، فندب كسرى الجنود، وفرّق فيهم السلاح والمال لمعاودة حرب بكر بن وائل.

ثم إن بطارقة الروم خرجوا على ملكهم قيصر فقتلوه، فاشتغل به عن معاودة حرب بكر بن وائل، فكان هاني بن مسعود المزدلف أحد الأوفياء^(١).

ومنهم الطائفتي صاحب النعمان بن المنذر، وكان من حديثه أن النعمان بن المنذر ركب في يوم بؤسه، وكان له يومان: يوم بؤس، ويوم سعد، لم يلقه في يوم بؤسه أحد إلا قتله، وفي يوم سعد أحد إلا حياه وأعطاه. فاستقبله في يوم بؤسه أعرابي من طيئ فقال: حيّا الله الملك! إن لي صبيّة صغاراً لم أوص بهم أحدًا، فإن يأذن لي الملك في إتيانهم، أعطيه عهد الله أني أرجع إليه إذا أوصيت بهم حتى أضع يدي في يده. فرق له النعمان، فقال: لا، إلا أن يضمنك رجل ممن معنا، فإن لم تأت قتلناه، وشريك بن عمرو بن شراحيل نديم النعمان معه، فقال الطائفتي:

(١) أيام العرب في الجاهلية ٦، ابن الأثير ١: ٢٨٩، الأغاني: ٢٠ ١٣٢ (سأسي)، معجم البلدان ٣: ٣٥٢.

يا شريك يا بن عمرو^(١) هل من الموت محاله؟
يا أبا كلِّ مُضَافٍ يا أبا من لا أخا له^(٢)
يا أبا النعمانِ فكُ الـ يوم عن شيخ غلاله
إن شيبان قبيلٌ أحسنُ الناسِ فعالة^(٣)

[مجزوء الرمل]

فقال شريك: هو عليُّ أصلح الله الملك! فمرَّ الطائيُّ والنعمانُ يقول لشريك: إن صدر هذا اليوم قد ولى، ولا يرجع، وشريك يقول: ليس لك عليُّ سبيل حتى نمسي، فلما أمسوا أقبل شخص والنعمان ينظر إلى شريك، فقال: ليس عليُّ سبيل حتى يدنو الشخص. فبينما هم كذلك إذ أقبل الطائيُّ، فقال النعمان: والله ما رأيت أكرم منكما، وما أدري أيكما أكرم، لا أكون والله الأمُّ الثلاثة؛ ألا أتى قد رفعت يوم يؤسى. وخطى سبيل الطائيُّ، فأنشأ يقول:

ولقد دعنتي للخلاف عشيرتي فأيبتُ عند تجهُّر الأقوال
إني امرؤٌ مني الوفاء خليقةً وفعل كلُّ مُهَذَّبٍ بذال

[الكامل]

فقال النعمان: ما حملك على الوفاء؟ قال: ديني؛ قال: وما دينك؟ قال: النصرانية، قال: اعرضها عليّ، فعرضها عليه، فتنصَّر النعمان^(٤).

ومنهم وزير ملك الصين، وكان حديثه أن شمر بن أفریقیس بن أبرهة، خرج في خمسمائة ألف مقاتل إلى أرض الصين، فلما قارب بلادهم بلغ ذلك ملك الصين، فجمع وزراءه، فاستشارهم، فقال رئيسهم: أيها الملك، أثر في أثرنا، وخطى ورأى! فأمر به فجدع أنفه، فقام هارباً مستقبلاً لشمر، فوافاه على أربعة منازل بعد خروجه من مفاوز الصين، فدخل عليه وقال: إني أتيتك مستجيراً، قال شمر: ممن؟ قال: من ملك الصين؛ لأنني كنت رجلاً من خاصة وزراءه؛ وإنه جمعنا لما بلغه مسيرك إليه، فاستشارنا، فأشار القوم جميعاً بحاربتك، وخالفتهم في رأيهم وأشرت عليه أن يعطيك الطاعة ويحمل إليك الخراج، فاتممتي وقال: قد مالأت ملك العرب؛ وكان منه إلى ما ترى، ولم آمنه مع ذلك أن يقتلني، فخرجت هارباً إليك.

ففرح به شمر، وأنزله معه في رحله، ووعدته من نفسه خيراً، فلما أصبح وأزاد أن يرحل، قال لذلك الرجل: كيف علمك بالطريق؟ قال: أنا من أعلم الناس به، قال: فكم بيننا وبين الماء؟ قال: مسيرة ثلاثة أيام، وأنا مؤردك اليوم الرابع على الماء فأمر جنوده بالرحيل، ونادى فيهم

(١) جمع الأمثال: «يا شريكاً يا بن عمر». وكذلك في المحاسن والأضداد.

(٢) جمع الأمثال: «ضيفاً قد أتى له».

(٣) كذا في ط، عن الأغاني، وفي ك ل، والمحاسن والأضداد: «ابن شيبان».

(٤) الخبر في المحاسن والأضداد ٧٤، ٧٥ وهو برواية أوسع في جمع الأمثال ١: ٧٠، ٧٢ والأغاني ١٩: ٨٦ - ٨٨ (ساسى).

ألا تحملوا من الماء إلا لثلاثة أيام. ثم سار في جنوده والرجل بين يديه، فلما كان في يوم الرابع انقطع بهم الماء واشتد الحر، فقال: لا ماء، وإنما كان ذلك مكرًا مني لأدفعك بنفسى عن ملكى. فأمر به فضربت عنقه، فعطش القوم، وقد كان المنجمون قالوا لشمر عند مولده: إنه يموت بين جبل حديد، فوضع يزرعه تحت قدميه من شدة الرمضاء، ووضع ترسًا من حديد على رأسه من حر الرمضاء، فذكر ما كان قيل له في ولادته، وقال للقوم: تفرقوا حيث أحببتهم، فقد أورطتكم. فهلك وجميع من كان معه.

وحكى أنه لما حمل رأس مروان بن محمد الجعدى إلى أبي العباس وهو بالكوفة قعد له مجلسًا عامًا، وجاءوا بالرأس، فوضع بين يديه، فقال لمن حضره: أمنكم أحد يعرف هذا الرأس؟ فقام سعيد بن عمرو بن جعدة بن هبيرة، فأكب عليه، وتأمله طويلًا، ثم قال: هذا رأس أبي عبد الملك، خليفتنا بالأمس رحمه الله! وعاد إلى مجلسه.

فوثب أبو العباس حتى خرج من المجلس وانصرف ابن جعدة، وتحدث الناس بكلامه، فلامه بنوه وأهله، وقالوا: عرضتنا ونفسك للبوراء فقال: استكنوا قبحكم الله، أستم أشرتم على بالأمس بحرآن بالتخلف عن مروان! ففعلت ذلك غير فعل ذى الوفاء والشكر، وما كان ليغيب عارتك الفعلة إلا هذه، وإنما أنا شيخ هامة^(١)، فإن نجوت يومى هذا من القتل مت غدا، قال: وجعل بنوه يتوقعون رسل أبي العباس أن تطرقه في جوف الليل، فأصبحوا ولم يأتهم أحد، وغدا الشيخ، فإذا هو سليمان بن مجالد، فلما أبصره قال: يا بن جعدة، ألا أبشرك بحسن رأى أمير المؤمنين فيك! إنه ذكر في هذه الليلة ما كان منك، فقال: أما ما أخرج هذا الكلام من الشيخ إلا الوفاء، وهو أقرب بنا قرابة، وأمس بنا رجما منه مروان إن أحسننا إليه، قال: أجل.

وذكر أن المنصور أرسل إلى شيخ من أهل الشام، وكان من بطانة هشام بن عبد الملك بن مروان، فسأله عن تدبير هشام في حروبه مع الخوارج، فوصف الشيخ له ما دبر، فقال: فعل رحمه الله كذا، وصنع رحمه الله كذا! فقال المنصور، قم عليك لعنة الله! تطأ بساطى، وتترحم على عدوى! فقام الرجل، فقال وهو مول: إن نعمة عدوك لقلادة في عنقى لا ينزعها إلا غاسيل.

فقال له المنصور: ارجع يا شيخ، فرجع فقال: أشهد أنك نهض حرة وغراس شريف، ارجع إلى حديثك. فعاد الشيخ في حديثه حتى إذا فرغ دعا له بال، فأخذه وقال: والله يا أمير المؤمنين مالى إليه حاجة، ولقد مات عنى من كنت في ذكره، فما أحوجنى إلى وقوف على باب أحد بعده، ولولا جلالة أمير المؤمنين، وإيثارى طاعته ما لبست نعمة أحدٍ بعده.

(١) يقال: هامة اليوم أو غد، أى يموت اليوم أو غدا.

فقال المنصور: إذا شئت، لله أنت! فلو لم يكن لقومك غيرك لكنت قد أقيت لهم مجداً مخلداً، وعزاً باقياً.

عن أبي دُفافة العبسي، قال: حَدَّثْتُ المنصورَ بحديثِ العجلانِ بنِ سهْلٍ، وكانَ دَخَلَ على عبد العزيز بن القعقاع؛ فبينما هو جالسٌ إذ دخل رجلٌ متلَطِّحُ الثوبِ بالطينِ، فقال عبد العزيز: مالك؟ قال: ركبَ هذا الأحوالُ - يعنى هشام بن عبد الملك - فنَفَرْتُ ناقتي فسقطتُ. فانتزع العجلان سيفه، فنَفَحَه به، ووثب الرجل، فأخطأه السيف، ووقع في وسادة ففقطعها، وقال: يا لكع! أعياك أن تسميَ بأمر المؤمنين وباسمه الذي سماه به أبواه أو بكنيته، ونظرت إلى الذي يعاب به فسميته به! أما والله لو ددت أن السيف أخذ منك مأخذه!

قال: فكان المنصور يستعبدني هذا الخبر كثيراً ويقول: كيف صنع العجلان بن سهل! مع مثله يطيب الملك.

قال: وأخبرنا عطاف، قال: بينا عبد الله بن طاهر مقبل من منزل عبيد الله بن السري بمصر، حتى إذا دنا من بابه، إذا بشيخ قد قام إليه، فناوله رقعة كانت معه، وقال: أصلح الله الأمير! نصيحة واجبة، فأخذ الرقعة ودخل فها هو إلا أن دخل وخرج الحاجب، فقال: أين صاحب الرقعة؟ فقام إليه الشيخ، فأخذ بيده، فأدخله إلى عبدالله فقال: قد فهمت رقعتك هذه، وما تنصحت به إلينا، فأنصفتني في مناظرتك، فقال الرجل: ليقُل الأمير ما أحب، قال: أخبرني، هل يجب شكر الناس بعضهم لبعض؟ قال: نعم. قال: وبم يجب؟ قال: بإحسان المحسن، وبفضل المنعم. قال: صدقت، جئت إلى وأنا على هذه الحال التي ترى، خاتمي بفرغانة^(١)، وآخر ببرقة، وحكمي ونهبي وأمرى جائز فيما بين هذين الطرفين، وقد جمع لي من العمل ما لم يجمع لأحد قط من ولاية المشرق والمغرب والشرطة، وما خرج من هذه الطبقة، ولست ألتفت إلا إلى نعمة^(٢) هؤلاء القوم ومينتهم، لا استفتي إلا بظلمها، ولا أعرف غيرهم سادة ولا كبراء، ولا أئمة ولا خلفاء فأردت أن أكفر هذه النعمة، وأجحد هذا المعروف وأبايع رجلاً ما امتحن للتقوى^(٣)، ولا أفاد علمًا للهدى، ولا جرت له على ملي ولا ذمى يد سالفة، ولا نعمة سائرة، افتري على الله جل ذكره. ولو فعلت هذا الذي دعوتني إليه كنت ترضى به في مكارم الأخلاق وشكر المنعمين!

قال: فسكت الرجل ولم يُجِر جواباً. وكان دعاه إلى بيعة ابن طباطبا. وقال بعضهم: إنه كان دسيس المأمون.

(١) فرغانة: كورة واسعة بما وراء النهر.

(٢) ك «لنعمة».

(٣) ك: «بالتقوى».

برون الكبير، قال : وجّه إلى المأمون، وقد مضى من الليل الثالث، فقال لي : يا برون، قد أكثر علينا أصحابُ الأخبار في أن شيخاً يرد خرابات البرامكة فيبيحهم ويندبهم، وينشد أبياتاً من الشعر، فأركب أنتَ وعلى بن محمد، ودينار بن عبد الله، حتى تردوا هذه الخرابات، فتصيروا من وراء جدرانها فإذا رأيتم الشيخ وقد ورد وبكى وأنشد، فأتوني به. قال برون : فركبت مع القوم حتى وردنا الخرابات، وإذا الخادم قد أتى معه ^(١) رومية وكرسى جديد، وإذا شيخٌ وسيمٌ جميلٌ له صلعة وهامة، فجلس يبكي، ويقول :

ولما رأيتُ السيفَ قد قدَّ جعفرًا
بكيتُ على الدنيا وأبقتُ أنه
أجعفُ إن تهلكَ فرُبُّ عَظيمةِ
فقل للذي أبدى ليحيى وجعفر
لئن زال غصنُ الملكِ عن آلِ برمكٍ
وما الدهرُ إلا دولةٌ بعد دولةٍ
على أنها ليست تدوم لأهلها
بني برمكٍ كنتم نجومًا مضيئةً
لأيكم أبكى؟ أالفضل ذى الندى
أم الملك المصلوب من بعد عزة
لكلُّكم أبكى بعين غزيرةٍ

ونادى مُنادٍ للخليفة في يحيى
قُصارى الفتى يومًا مفارقةً الدنيا
كشفتُ ، ونعمي قد وصلت بها نعي
شمائتُه: أبشر لتأتيهم العقبى
فما زال حتى أتمرَّ الغصنُ واستعلى
تبدلُ ذا مُلكنا، وتُعبُ ذا بلوى
ولو أنها دامت لكنتم بها أولى
بها يهتدى في ظلمة الليل من أسرى
أم الشيخ يحيى، أم لمحبوسه موسى!
أم أبكى بكاء العولات أم التكللى!
وقلبٍ جريح لا يموت ولا يجيأ

قال : فترأينا له، ثم قبضنا عليه فجزع وفزع وقال : من القوم؟ فقال برون : أنا حاجب أمير المؤمنين، وهذا فلان وفلان، قال : وما الذى تريدون؟ قال برون : فأعلمته ما أمر به أمير المؤمنين؛ من أخذه إلى مجلسه، قال : ذرني أوص فأنى لا آمنه، ثم تقدّم إلى بعض العلافين في فُرْضة الفيل، فأخذ بياضاً، وأوصى فيه وصيةً خفيفة، ودفعها إلى الغلام، وسرنا به.

فلما مثل بين يدي المأمون زبّره وقال : من أنت؟ وبماذا استوجب البرامكة ما فعله في دورهم؟ قال : يا أمير المؤمنين، للبرامكة عندي أيادٍ خضرة أفتأذن لي أن أحدثك؟ فقال : سديداً ^(٢).

قال : أنا يا أمير المؤمنين المنذر بن المغيرة، من أهل دمشق، كنت بها من أولاد الملوك، فزالت عنى نعمتى كما تزول عن الرجال، فلما ركبتى الديون، واحتجت إلى بيع مسقط رأسى ورءوس آبائى، أشاروا على بالخروج إلى البرامكة، فخرجت من دمشق ومعى نيف وثلاثون امرأةً وصبيًا وصبيّة، وليس معنا ما يباع ولا ما يُرهن، حتى دخلت بغداد، ونزلنا بباب الشام في بعض المساجد، ودعوت بثوبيات لي قد كنت أعددتها لا ستميح بها الناس، وتركتهن جياعاً، وركبت شوارع بغداد، فإذا أنا

(١) الزلية: تعريب؛ «ذيل» وهو البساط.

(٢) ك: «سديداً».

بمسجد مُزخرفٍ؛ وفيه مائة شيخٍ قد طَبَّقوا طيَّالستهم بأحسن زِيٍّ وزينةٍ وِبِرَّةٍ، وإذا خادمان على باب المسجد، فطَمَّتْ في القوم، وَوَلَّجَتْ المسجد وجلست بين أيديهم؛ وأنا أَقْدَمُ وَأَوْخَرُ، وَالعَرَقُ يسيل مني، لِأَنَّهُمْ لم تكن صناعتِي، فإِنِّي لكذلك، وإذا أنا بخادمٍ قد أَقْبَلَ وقال للخادمين: ازرعوا القوم، فأزرعوا القوم وأنا منهم فأدخلونا دار يحيى ابن خالد، ودخلتُ معهم، فإذا بيحى جالسٌ على دَكَّةٍ له وَسَطٌ بُسْتَانٌ، فسَلَمْنَا وهو يعدُّنا، مائة رجلٍ وولجداً، وبين يدي يحيى عشرة من ولده. وإذا غلامٌ أَمْرُدٌ حين عَدَّرُ^(١) خِذَاهُ، قد أَقْبَلَ من بعض المقاصير، بين يديه مائة خادمٍ من ذهب، ورجلٌ من ذهبٍ في كلِّ بجمرةٍ متنطِّقون، في وَسَطِ كلِّ خادمٍ من منطقة ألف مثقال، مع كلِّ خادمٍ بجمرةٍ قطعة من العود كهيئة الفَهْرِ^(٢)، قد ضَمَّ إليه مثله من العنبر السلطاني، فوضعه بين يدي الغلام، وجلس الغلام إلى جنب يحيى، ثم قال يحيى للزبيرقي القاضي: تكلم، فقد زوجت ابنتي عائشة من ابن عمي هذا من بيت نار التوبهار^(٣)، فخطب القاضي، وشهد القاضي والنفر، وأقبلوا علينا بالنثار بينادق المسك والعنبر، فالتقطتُ والله يا أمير المؤمنين مِلءَ كُمِّي، ونظرتُ وإذا يحيى في الدَكَّةِ ما بين المشايخ، ويحيى وولده والغلام، ونحن مائة رجلٍ واثنا عشر رجلاً، فخرج إلينا مائة خادمٍ واثنا عشر خادماً، مع كلِّ خادمٍ صينيةٌ فضةٌ عليها ألف دينار شاميةٍ فوضع بين يدي كلِّ رجلٍ من صينية، فرأيتُ القاضي والمشايخ يصبون الدنانير في أكمامهم، ويجعلون الصواني تحت أباطهم، ويقوم الأول فالأول، حتى بقيت وحدي بين يدي يحيى، لا أجسر على الصينية فغمز لي الخادم، فجسرتُ عليها، وجعلتها في كُمِّي، وأخذت الصينية وقمتُ وأنا أمرٌ طويل الصحن والتفت ورائي، هل يتبعني أحد؟ فإِنِّي لكذلك أطاول الإلتفات ويحيى يلحظني، فقال للخادم: اتنى بالرجل، فرددت إليه، فأمر فسلبتُ الدنانير والصينية، ثم أمرني بالجلوس، فجلستُ، فقال: بمن الرجل؟ فقصصتُ عليه قصتي، فقال: على بجوسي، فأتى به، فقال: يا بني، هذا رجلٌ غريب، فخذهُ إليك، اخلطهُ بنفسك ونعمتك.

فقبض على موسى، وأخذني إلى بعض دُورِهِ، فقصف عليّ يومي وليلتي، فلما أصبح دعا بأخيه العباس وقال له: إنَّ الوزير أمرني بالقصف على هذا الفتى، وقد علمتُ تشاغلي في دار أمير المؤمنين، فاقبض عليه وقاصفه. فلما كان من غد تسلمتني أحمد، ثم لم أزل وأيدي القوم تتداولني عشرة أيام، لا أعرف خبر عيالي وصبياني، في الأموات هم أم في الأحياء!

فلما كان في اليوم العاشر دُفِعَتْ في يدي الفضل، فقصف عليّ، فلما كان في الحادي عشر جاءني خادمٌ مع عشرة من الخدم، فقالوا: قم عافاك الله فأخرج إلى عيالك بسلام فقلت: وأويلاه! سلبتُ الدنانير والصينية، وقد تَمَرَّقَتْ ثيابي واتسخت، وأخرج علي هذه الحالة! إنا لله وإنا إليه راجعون! فرفع لي الستر الأول والثاني والثالث والرابع والخامس والسادس، فقبل أن رُفِعَ السابع قال لي الخادم: تمَّن ما شئت. ورفع لي سترٌ عن حُجْرَةِ كالشمس استقبلني منها رائحة العود والتدُّ ونفحات

(١) عذر خذاه؛ أي نبت الشعر في عذاريه والعداز: الشعر الذي يجاذى الأذن.

(٢) الفهر: الحجر يملأ الكف.

(٣) التوبهار: معبد النار.

المسك، وإذا أنا بصيباني يتقلبون في الحرير والدُّبَّاج وأنا قد حمل لي ألف ألف درهم مبدرة^(١) وعشرة آلاف دينار، وقيالتين^(٢) بضيعتين، وتلك الصنيئة مع الدنانير والبنادق.

فبقيت يا أمير المؤمنين مع البرامكة في دورهم ثلاث عشرة سنة، لا يعلم الناس: أمين البرامكة أنا، أم من بيت نار التُّوبهار، أم رجل غريب اصطنعوني!

فلما جاء القوم البلية، ونزلت بهم من الرشيد النازلة، قَصَدني عمرو بن مَسْعَدَة، وألزمني من الخراج في هاتين الضيعتين مالا يفي دخلها به، فلما تحامل على الدهر، كنت أنظر إلى خرابات القوم فأندبهم.

فقال المأمون: على بعمر بن مَسْعَدَة، فلما أتى به قال له: يا عمرو، أتعرف الرجل؟ قال: نعم؛ هو من بعض صنائع البرامكة. قال كم ألزمته في ضيعته: كذا وكذا قال: رُدُّ عليه كل ما استأديته إياه في سنيته، وأوغر^(٣) ضيعتيه تكونان له ولعقبه من بعده.

فَعَلَا نحيبُ الرجل بالبكاء يرثي البرامكة، فلما طال بكأوه، قال له المأمون: فَمَمَّ بكأوك وقد أحسنًا إليك؟ قال: يا أمير المؤمنين، هذا أيضًا من صنائع البرامكة! أرايتك يا أمير المؤمنين، لو لم آت خرابات القوم، فأبكيهم وأندبهم حتى اتصل خبري بأمر المؤمنين ففعل بي ما فعل؛ من أين كنت أصل إلى ما وصلت إليه!

قال إبراهيم بن ميمون: فلقد رأيت المأمون وقد دمت عينه، واشتدَّ حزنه على القوم وقال: صدقت لعمرى! هذه أيضًا من صنائعهم، فعليهم فأبك، وإياهم فاشكر.

(١) مبدرة، أى مجعولة بدماء، والبدره عشرة آلاف درهم.

(٢) في الأساس: كل من تقبل بشيء مقاطعة، وكتب عليه بذلك الكتاب، فعمله القبالة (بالكسر)، وكتابه المكتوب عليه هو

القبالة (بالفتح).

(٣) يقال: أوغر الملك فلاناً أرضاً، أى جعلها له من غير خراج.

مساوي قلة الوفاء والسعاية

يقال: إن رجلاً رَفَعَ رقعة إلى عمر بن الخطاب رحمه الله يسعى فيها ببعض أصحابه، فوقع فيها: «تقربت إلينا بما باعدك من الرحمن، ولا ثواب لمن آثر عليه».

قيل: وَرَفَعَ منتصب رقعة إلى عبد الملك بن مروان، فَوَقَعَ فيها: «إن كنت كاذباً عاقبناك، وإن كنت صادقاً مَقْتَنَّاك، وإن استقلتنا أفلناك». فاستقاله الرجل.

قيل: وكتب صاحبُ بريد همدان إلى المأمون بخراسان يُعلمه أن كاتبَ البريد المعزول، أخبره أن صاحبه وصاحب الخراج كانا تواطئا على إخراج مائتي ألف درهم من بيت المال، واقتسماها بينهما، فوقع المأمون: «إنا نرى قبول السعاية شراً من السعاية، فإن السعاية دلالة، والقبول إجازة، وليس من دل على شيء كمن قبله وأجازه، فأنف الساعي عنك، فلو كان في سعائته صادقاً، لقد كان في صدقه لثيماً، إذ لم يحفظ الحرمة، ولم يستر على أخيه»^(١).

قال: وقال المأمون لولده: يا بني، نزهوا أقداركم، وطهروا أحسابكم عن دنس الوشاة وتقوية سعائتهم، فكل جان يده في فيه، وليس يشي إليكم إلا أحد رجلين: ثقة وطين^(٢)؛ أما الثقة فقد قيل: إنه لا يبلغ ولا يشين بالوشاة قدره؛ وأما الظنين: فأهل أن يتهم صدقه، ويكذب ظنه، ويرد باطله. وما سعى رجل برجل إلى قط إلا انحط من قدره عندي مالا يتلافاه أبداً، فلا تعطوا الوشاة أمانيتهم فيمن يشون بهم؛ فقد قال بعض الملوك لرجل سعى بأخر: لو كنت أنت أنا؛ ما كنت صانعاً به؟ قال: كنت أقتله، فقال: أما إذ لم تكن أنت أنا؛ فإني غير قاتله، ومع ذلك فلا تدعوا الفحص عما يلقي إليكم مما تحذرون رجوع ضرره عليكم.

عوانة قال: قام رجل إلى سليمان بن عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين، عندي نصيحة، قال: وما نصيحتك هذه؟ قال: كان فلان عاملاً ليزيد والوليد وعبد الملك، فخاتهم فيها تولاه، واقتطع أموالاً جليلة، فمر باستخراجها منه، فقال: أنت شر منه وأخون؛ حيث اطلعت على أمره وأظهرته.

(١) المحاسن والأضداد ٧٥.

(٢) الظنين: المتهم.

ولولا أنّي [أخاف أن] أنفر أصحاب النّصائح لعاقبتكم، ولكن اختر مني خصلةً من ثلاث، قال: أعرضهنّ يا أمير المؤمنين، قال: إن شئت فتشّت عماً ذكرت، فإن كنت صادقاً ممّنتاًك، وإن كنت كاذباً عاقبتناك، وإن شئت^(١) أقلناك، قال: تقيّلني يا أمير المؤمنين قال: قد فعلت، فلا تعودن بعدها إلى أن تظهر من ذي مروءة ما كتبه الله وستره^(٢).

(١) المحاسن والأخداد: «وإن استقلت».

(٢) المحاسن والأخداد: ٧٦.

محاسن الشكر

قال بعض الحكماء: صُنْ شَكَرَكَ عَمَّنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ، وَاسْتَرِّ مَاءَ وَجْهِكَ بِالْقَنَاعَةِ.
وقال الفضلُ بْنُ سَهْلٍ: مَنْ أَحَبَّ الْإِزْدِيَادَ مِنَ النَّعْمِ فَلْيَشْكُرْ، وَمَنْ أَحَبَّ الْمَنْزَلَةَ عِنْدَ سُلْطَانِهِ
فَلْيَكْفُ^(١)، وَمَنْ أَحَبَّ بَقَاءَ عِزِّهِ فَلْيَسْقِطْ دَأْتَهُ وَمَكْرَهُ.

ومن ذلك قولُ رجلٍ لرجلٍ شَكَرَهُ فِي مَعْرُوفٍ:

لَقَدْ ثَبَّتَتْ فِي الْقَلْبِ مِنْكَ مَحَبَّةٌ كَمَا ثَبَّتَتْ فِي الرَّاحَتَيْنِ الْأَصَابِعُ^(٢)

[الكامل]

قال: واصطنع رجلٌ رجلاً، فسأله يوماً، أَتُحِبُّنِي يَا فُلَانُ؟ قال: نعم؛ أَحْبَبْتُكَ لَوْ كَانَ فَوْقَكَ
لَأَظْلَمْتُكَ، وَلَوْ كَانَ تَحْتَكَ لَأَقْلَمْتُكَ.

وقال كِسْرَى أَنْوِشِرْوَانُ: الْمَنْعَمُ أَفْضَلُ مِنَ الشَّاكِرِ، لِأَنَّهُ جَعَلَ لَهُ السَّبِيلَ إِلَى الشُّكْرِ.
وَاخْتَصَرَ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ مِنْ هَذَا شَيْئاً فِي مِصْرَاعٍ وَاحِدٍ، فَقَالَ^(٣):

* لَهَانَ عَلَيْنَا أَنْ نَقُولَ وَتَفْعَلَا *

[الطويل]

وقال بشار:

أَنْتَى عَلِيكَ وَلى حَالٍ تُكْذِبُنِي فِيهَا أَقُولُ وَأَسْتَحْيِي مِنَ النَّاسِ
قَدْ قَلَّتْ إِنْ أَبَا حَفْصٍ لِأَكْرَمٍ مَنْ يَمِشِي، فَمَا صَمْنِي فِي ذَاكَ إِفْلَاسِي^(٤)

[البسيط]

ولأبي الهول في مثله:

فإني إذا مدحتك يا ابن مَعْنٍ رَأَى النَّاسُ فِي رَمَضَانَ أَزْفِي^(٥)
فإن أك أبتُ عنك بغير شيءٍ فبلا تفرحُ كذلك كأن ظنِّي

[الوافر]

(١) كذا في المحاسن والأضداد ٣٧، ك، وفي ل: «فليكنه».

(٢) في المحاسن والأضداد: «منك المودة» والبيت لقيس بن زريح، ديوانه ١٠٧.

(٣) مطلع قصيدة يمدح فيها محمد بن عبد الملك الزيات، وبقية:

* وَتَذَكُرُ بَعْضَ الْفَضْلِ عِنْدَكَ وَتَفْضَلَا *

(٤) المحاسن والأضداد ٤١، وبعده هناك:

حَقٌّ إِذَا قِيلَ: مَا أَعْطَاكَ مِنْ صَفْدٍ؟ • طَأَطَأْتُ مِنْ سُوءِ حَالِي عِنْدَهَا رَأَيْتِي

(٥) المحاسن والأضداد ٤٢.

ولآخر في مثله:

فقالوا خِفَاتًا فِي مَلَامٍ وَفِي عَنَتِ
هَبُونِي أَمْرًا جَرَّبْتُ سَيْفِي عَلَى كَلْبِ
[الطويل]

لِحَى اللَّهِ قَوْمًا أَعْجَبْتَهُمْ مَدَائِحِي
أَبَا حَازِمٍ تَمَدَحْ! فَقُلْتُ مُعَدَّرًا:

ولبعض المُحدِّثين:

لَكِنَّهُ يَشْتَهِي حَمْدًا بِمَجَانٍ^(١)
حَتَّى يَرَوْا قَبْلَهُ آثَارَ إِحْسَانٍ
[البسيط]

عُثْمَانُ يَعْلَمُ أَنَّ الْحَمْدَ ذُو ثَمَنِ
وَالنَّاسُ أَكْبَسُ مَنْ أَنْ يَحْمَدُوا أَحَدًا

وقال آخر:

لِعِزَّةِ مُلْكٍ أَوْ عُلُوِّ مَكَانٍ^(٢)
فَقَالَ اشْكُرُونِي أَيُّهَا الثَّقَلَانِ
[الطويل]

فَلَوْ كَانَ يَسْتَفْعَى عَنِ الشُّكْرِ سَيِّدٍ
لَمَا أَمَرَ اللَّهُ الْعِبَادَ بِشُكْرِهِ

الباهل، عن أبي قُرُوء، قال: أَخْبَرَنِي الْخَلْبِيُّ، قَالَ: مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَةِ: اشْكُرْ لِمَنْ أَنْعَمَ عَلَيْكَ،
وَأَنْعِمْ عَلَى مَنْ شَكَرَكَ، فَإِنَّهُ لَا زَوَالَ لِلنُّعْمِ إِذَا شَكَرْتَ، وَلَا إِقَامَةَ لَهَا إِذَا كُفِّرْتَ. وَالشُّكْرُ زِيَادَةٌ فِي
النُّعْمِ وَأَمَانٌ مِنَ الْغَيْرِ.

قيل: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَمْسٌ يَجَاجِلُ صَاحِبُهُنَّ بِالْعُقُوبَةِ: الْبَغْيُ وَالْفُتْرُ وَالْعُقُوقُ الْوَالِدِينَ،
وَقَطِيعَةُ الرَّجْمِ، وَمَعْرُوفٌ لَا يُشْكُرُ».

وَفِي حَدِيثٍ مَرْفُوعٍ: «دَعَاءُ الْمُنْعَمِ عَلَى الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ مُسْتَجَابٌ».

وقيل: أَنشَدَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْحُطَيْبَةَ هَذَا الْبَيْتَ؛ وَعِنْدَهُ كَعْبُ الْأَخْبَارِ:
مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يُعْذَمُ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ الْعَرَفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ^(٣)
[البسيط]

فَقَالَ كَعْبٌ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، هَذَا الْبَيْتُ الَّذِي قَالَ^(٤)، مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَةِ. قَالَ عُمَرُ: وَكَيْفَ
ذَاكَ؟ قَالَ: فِي التَّوْرَةِ مَكْتُوبٌ: «مَنْ يَضَعُ الْمَعْرُوفَ لَا يَضِيعُ عِنْدِي، لَا يَذْهَبُ الْعَرَفُ بَيْنِي وَبَيْنَ
عِبْدِي».

قيل: وَدَخَلَ أَبُو مُسْلِمٍ صَاحِبُ الدَّوْلَةِ عَلَى أَبِي الْعَبَّاسِ - وَأَبُو جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ عِنْدَهُ - فَقَالَ
أَبُو الْعَبَّاسِ لِأَبِي مُسْلِمٍ: يَا عَيْدُ الرَّحْمَنِ، هَذَا أَبُو جَعْفَرٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ مَوْلَاكَ، قَالَ: قَدْ رَأَيْتُ
مَجْلِسَهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَكِنَّ هَذَا الْمَجْلِسَ لَا يَقْضَى فِيهِ حَقُّ غَيْرِكَ.

(٣) ديوانه ٥٤

(٤) ل: «يقال».

(١) المحاسن والأضداد ٤٢.

(٢) المحاسن والأضداد ٤٢.

فصل لكاتب^(١) في مثله: ولست أقابل أياديك، ولا أستديم إحسانك إلا بالشكر، الذي جعله الله عز وجل للنعم حارساً، وللحق مؤدياً، وللمزيد سبباً.
وقيل لرسول الله ﷺ: أليس^(٢) قد غفّر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً شكوراً».

وفي الحديث، أن رجلاً قال في الصلاة خلف رسول الله ﷺ: اللهم ربنا لك الحمد حمداً زاكياً طيباً مباركاً فيه. فلما انصرف، قال رسول الله ﷺ: «أيكم صاحب الكلمة؟» قال أحدهم: أنا يا رسول الله فقال: «لقد رأيت بضعة وثلاثين ملكاً يبتديرون أيهم يكتبها أولاً».
وقيل: نسيان النعمة أول درجات الكفر.
ولابن المقفع:

منتت على قومي فأبدوا عداوةً فقلت لهم كفاء العداوة والشكر
[الطويل]

وقال آخر:

ألا في سبيل الله وُدٌ بذلته لمن لم يكن عندي لمعشاره أهلاً
ولكن إذا فكرت فيه وجدتنى بحسنى إليه قد أفدت به عقلاً
[الطويل]

وقال أمير المؤمنين على بن أبي طالب: لا تدع المعروف لكفر من كفره فإنه يشكرك عليه أشكر الشاكرين.

وقد قيل في ذلك:

يدُ المعروفِ غنمٌ حيث كانت تحملها شكورٌ أم كفور^(٣)
ف عند الشاكرين لها جزاءٌ وعند الله ما كفر الكفور
[الوافر]

قال بعضهم: ما أنعم الله على عبد نعمةً فشكر ذلك إلا لم يجاسبه على تلك النعمة.
وقال بعض الحكماء: عند التراخي^(٤) عن شكر المنعم تحل عظام النعم.

قيل: وكان رسول الله ﷺ كثيراً ما يقول لعائشة رضى الله عنها: ما فعل بيتك أو بيت اليهودى؟ فتقول:

يجزيك أو يُثني عليك وإن من أثنى عليك بما فعلت كمن جزي
[البسيط]

(١) كذا في ل، وفي ك: «لكاتبه».

(٢) ك: «أليس».

(٣) المحاسن والأضداد ٣٩.

(٤) ك: «التراخي».

فيقول عليه وعلى آله السلام: «قد صدق يا عائشة، إن الله جلّ وعزّ إذا أجرى لرجل على يدي رجلٍ خيراً فلم يشكره، فليس لله بشارك».

قيل: وقيل لذي الرمة: لم خصصت بلال بن أبي بردة بمدحك؟ فقال: لأنه وطأ مضجعي، وأكرم مجلسي، فحقّ لكثير معروفه عندي أن يستولي على شكري.

ومنهم من يقدم ترك مطالبة الشكر، وينسبه إلى مكارم الأخلاق، من ذلك ما قاله بزرجهمر: من انتظر بمعروفه شكراً فقد استدعى^(١) عاجل المكافأة.

وقال بعض الحكماء: كما أنّ الكفر يقطع مادة الإنعام، فكذلك الاستطالة بالصنعة تمحق الأجر.

وقال علي بن عبّيدة: من المكارم الظاهرة، وسنن النفس الشريفة^(٢) ترك طلب الشكر على الإحسان، ورّفح الهمة عن^(٣) طلب المكافأة، واستقلال الكثير من الشكر، واستقلال الكثير مما يبذل من نفسه.

(١) كذا في ك، وفي ل: «استدعاء».

(٢) ك: «الكريمة».

(٣) ك: «بمن».

مساوئ الشكر

قال بعض الحكماء: المعروف إلى الكرام يُعقب خيراً، والمعروف إلى اللئام يُعقب شراً؛ ومثل ذلك مثل المطر، يشرب منه الصدف فيُعقب لؤلؤاً، وتشرب منه الأفاعى فتُعقب سماً.

وقال سفيان: وجدنا أصل كلِّ عداوة اصطناع المعروف إلى اللئام.

قيل: وأثار جماعة^(١) من الأعراب ضيغاً، فدخلت خيابة شيخٍ منهم، فقالوا: أخرجها، فقال: ما كنت لأفعل، وقد استجارت بي، فانصرفوا وكانت هزيبلاً، فأحضر لها لقوحاً^(٢) فجعل يسقيها حتى عاشت، فنام الشيخ ذات يوم، فوثبت عليه فقتلته، فقال شاعرهم في ذلك:

| | |
|-----------------------------------|---|
| ومن يصنع المعروف في غير أهله | يلاقى الذي لاقى مُجيراً أم عامرٍ |
| أعدُّ لها لما استجارت بقربه | غذاءً من البان اللقاح الغزائيرِ |
| وأسمَّنها حتى إذا ماتمَّلات | فرتُّه بأنياب لها وأظافرِ |
| فقلِّ لدوى المعروف: هذا جزاء مَنْ | يُجوِّد بمعروف إلى غير شاكرِ ^(٣) |

[الطويل]

قيل: وأصاب أعرابيُّ جرَّو ذئب، فاحتمله إلى خيائه، وقرَّب له شاةً، فلم يزل يمتصُّ من لبنها حتى سَمِن وكَبِرَ، ثم شدَّ على الشاة فقتلها، فقال الأعرابيُّ:

| | |
|---------------------------|-------------------------------------|
| غذتْكَ شوَّيتي ونشأت عندي | فما أدراك أن أباك ذيبُ |
| فجمعت نسيَّةً وصغار قومٍ | بشائهم وأنت لهم ربيب ^(٤) |
| إذا غلبت طباع الشرِّ فيه | فليس لغيرها فيه نصيب ^(٥) |

[الوافر]

ويروى:

* نشأت مع السُّخال وأنت جرَّو *

ويضرب المثل بسنِّمار، وكان بَنَى للنعمان بن المنذر الحوَزَرق، فأعجبه فكره أن يبني لغيره مثله، فأمرَ به فرمى من أعلاه حتى مات، فقيل فيه:

(٣) المحاسن والأضداد ٤٠.

(٤) ك: «بنية».

(١) ك: «رجل».

(٢) اللقوح: الناقة الحلوب.

(٥) رواية البيت في المحاسن والأضداد:

فليس بنافع أدب الأديب

إذا كان الطباع طباع سوء

جَزَّتْنَا بَنُو سَعْدٍ بِحُسْنِ بِلَاتِنَا
 جَزَاءَ سِنْمَارٍ وَلَمْ يَكُ ذَا ذَنْبٍ^(١)
 [الطويل]

ويروى: «وما كان ذا ذنب».

وفي المثل: سَمَّنَ كَلْبِكَ يَا كَلْبُكَ.

وقال بعضهم:

وَأِنِّي وَقَيْسًا كَالْمَسْمَنِ كَلْبِهِ
 فَخَدَّشَهُ أَنْبَاءُهُ وَأَظْفَارُهُ
 [الطويل]

(١) المحاسن والأخلاق ٤٦.

محاسن الدهاء والحيل

ذكروا أنه لم يكن في ملوك العجم أدهى من كسرى أنوشروان، وأن الخزر كانت تُغير في سلطان فارس حتى تبلغ همدان والموصل، فلما ملك أنوشروان، كتب إلى ملكهم، فخطب ابنته على أن يزوجه أيضا ابنته، ويتوآدعا ويتفرغا إلى سائر أعدائهما، فأجابه إلى ذلك، وعمد أنوشروان إلى جارية من جواريه نفيسة، فزفها إلى صاحب الخزر، وأهدى معها ما يشبه أن يهدى مع بنات الملوك.

وزف صاحب^(١) الخزر إلى أنوشروان ابنته، فلما وصلت إليه قال لوزرائه: اكتبوا إلى صاحب الخزر: لو التقينا^(٢) وأكدنا المودة بيننا! فأجابه إلى ذلك ووعدته موضع الدرب^(٣) فالتقيا فكانا يتخلوان في لذتهما. ثم إن أنوشروان أمر قائداً من قواده أن يختار ثلاثمائة رجل من أشد أصحابه، فإذا هدأت العيون أغار في ناحية من عسكر الخزر.

ففعل ذلك، فلما أصبح بعث إليه صاحب الخزر: ما هذا! ينهب عسكرى البارحة! فأنكر ذلك، وقال: لم توت من قبلي. فأمهله أياماً، ثم عاد إلى مثلها، ففعل ذلك ثلاث مرات، في كل ذلك يعتذر إليه أنوشروان، ويسأله البحث، فيبحث فلا يقف على شيء، فلما طال ذلك، دعا صاحب الخزر بقائد من قواده، وأمره بمثل ذلك، فلما أصبح بعث إليه أنوشروان: ما هذا! أتستبيح عسكرى البارحة! فأرسل إليه: ما أسرع ما ضجرت! قد فعل هذا بعسكرى ثلاث مرات، وإنما فعل بك مرة واحدة!

فبعث إليه أنوشروان: إن هذا عمل قوم يريدون أن يفسدوا بيننا وعندى رأى إن قبيلته! فقال: وما هو؟ قال: تدعنى أبني حائطاً بيني وبينك، وأجعل عليه باباً فلا يدخل عليك إلا من تحب، ولا يدخل على إلا من أحب. فأجابه إلى ذلك، وتحمل ومضى.

وأقام أنوشروان، فأمر فبني بالصخر والرصاص حائطاً عرضة ثلاثمائة ذراع؛ حتى ألقه براءوس^(٤) الجبال! وجعل عليه أبواب حديد^(٥)، فكان يجرسه مائة رجل، بعد أن كان يحتاج إلى خمسة آلاف رجل، فلما فرغ من السد وقيد الفئد^(٦) في البحر، وأحكى الأمر، سر سروراً شديداً،

(١) ك: «ملك».

(٢) ك: «ألو».

(٣) الدرب: طريق يسلك: ويطلق على موضع بناوند.

(٤) ك: «برأس الجبل».

(٥) ك: «أبواباً من حديد».

(٦) كذا وردت الكلمة في الأصول، وفي المسعودي ٢: ١٩٧ (طبع أوربا): ويسمى هذا الموضع من السور في البحر القيد

مانعاً للمراكب في البحر إن وردت من بعض الأعداء. وانظر أيضاً ابن الفقيه ٢٨٩.

فَأَمْرٌ أَنْ يُنْصَبَ عَلَى الْفَنْدِ سَرِيرُهُ وَيُفْرَشَ لَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَامَ فَرَقَى إِلَيْهِ، وَأَغْفَى عَلَيْهِ، فَطَلَعَ طَالِعٌ مِنَ الْبَحْرِ، سَدُّ الْأَفُقِ بَطُولُهُ، وَأَهْوَى نَحْوَ الْفَنْدِ، فَتَارَ الْأَسَاوِرَةَ إِلَى قِسِيِّهِمْ. فَاتَّبَعَهُ الْمَلِكُ فَقَالَ: مَا شَأْنُكُمْ؟ أَمْسَكُوا، لَمْ يَكُنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِيْلَهْمَنِي الشَّخْصَ عَنْ وَطْنِي اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً، فَأَسَدُّ نَعْرًا يَكُونُ عَزًّا رَعِيَّتِنَا وَرَدَاءَ وَمُرْتَقَى لِعِبَادِهِ، ثُمَّ يَسْلُطُ عَلَى^(١) دَابَّةً مِنَ دَوَابِّ الْبَحْرِ.

فَتَنَحَّى الْأَسَاوِرَةَ، وَأَقْبَلَ الطَّالِعَ نَحْوَ الْفَنْدِ، فَذَكَرَ الْمَوْبِدَّ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ أَنْتَقَطَ ذَلِكَ الْحَيَوَانَ، فَقَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، أَنَا سَاكِنٌ مِنْ سَكَّانِ هَذَا الْبَحْرِ، وَقَدْ رَأَيْتَ هَذَا الْفَنْدَ مُشْدُودًا سَبْعَ مَرَّاتٍ، وَخَرَابًا سَبْعَ مَرَّاتٍ وَأَوْحَى إِلَيَّ جَلُّ وَعَزُّ إِلَيْنَا مَعْشَرَ سَكَّانِ هَذَا الْبَحْرِ، أَنَّ مَلَكًا عَصْرُهُ عَصْرُكَ، وَصُورَتُهُ صُورَتُكَ، يَبْعَثُ اللَّهُ جَلُّ وَعَزُّ يَسُدُّ هَذَا الثَّغْرَ إِلَى الْأَبَدِ^(٢)، وَأَنْتَ ذَلِكَ الْمَلِكُ، فَأَحْسِنِ اللَّهُ عَلَى الْبَرِّ مَعُونَتَكَ.

ثُمَّ غَابَ عَنْ بَصَرِهِ كَأَنَّمَا غَابَ فِي الْبَحْرِ، أَوْ طَارَ فِي الْجَوِّ، وَسَأَلَ أَنْوَشْرَوَانَ عِنْدَ فِرَاغِهِ مِنْ ذَلِكَ السَّدِّ عَنْ ذَلِكَ الْبَحْرِ فَقِيلَ: هُوَ ثَلَاثُمِائَةَ فَرَسَخٍ فِي مِثْلِهَا، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ بَيْضَاءِ الْخَزَّرِ مَسِيرَةُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ عَلَى هَذَا السَّاحِلِ، وَمِنْ بَيْضَاءِ الْخَزَّرِ إِلَى الْفَنْدِ الَّذِي بَنَاهُ إِسْفَنْدِيَارٌ مَسِيرَةَ شَهْرَيْنِ.

فَقَالَ: أَنْوَشْرَوَانَ: لَا يَدُّ مِنَ الْوُقُوفِ عَلَيْهِ وَالنَّظَرِ إِلَيْهِ، قَالُوا: أَيُّهَا الْمَلِكُ، إِنَّهُ طَرِيقٌ لَا يُطْمَعُ فِي سَلُوكِهِ لِمَوْضِعٍ فِيهِ يَقَالُ لَهُ دَهَانٌ شَيْرٌ، يَرِيدُ فَمَ الْأَسَدِّ، وَفِيهِ دُرُدُورٌ^(٣) لَا يَكَادُ تَسْلَمُ فِيهِ سَفِينَةٌ، قَالَ أَنْوَشْرَوَانَ: لَا يَدُّ مِنْ رُكُوبِ هَذَا الْبَحْرِ، وَالنَّظَرِ إِلَى هَذَا السَّدِّ، فَقَالُوا: أَيُّهَا الْمَلِكُ، اتَّقِ اللَّهَ فِي نَفْسِكَ وَفِيمَنْ مَعَكَ، فَقَالَ: أَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ الَّذِي خَلَقَ هَذَا الْبَحْرَ، وَهُوَ جَلُّ وَعَزُّ يُنَجِّنُنَا مِنْ دُرُورِهِ، وَلَا أَحْسَبُ أَنِّي أَمْسَحُ إِيرَانَ شَهْرَ شَرْقِهِ وَغَرْبِهِ، وَأَعْرِفُ عَدَدَ جِبَالِهِ وَأَوْدِيَّتِهِ إِلَّا بَعْدَ رُكُوبِ هَذَا الْبَحْرِ وَسَلُوكِهِ إِلَى الْبَرِّ.

فَهَيَّئْتُ لَهُ السُّفْنَ، وَرَكِبَ مَعَهُ عِدَّةً مِنَ النَّسَاكِ حَتَّى لَجَّجُوا^(٤) فِي الْبَحْرِ، وَوَاوَأَ ذَلِكَ الَّذِي يَعْرِفُ بَدَهَانَ شَيْرٌ، فَدَفَعُوا إِلَى دَرْدُورِ هَاتِلٍ، فَبَقُوا فِيهِ مَتَحِيرِينَ لَا يَرَوْنَ مَنَارًا يَجْعَلُونَهُ عَلَمًا لَهُمْ، وَلَا جَبَلًا يَقِيمُونَهُ أَمَارَةً لِمُنْصَرَفِهِمْ.

فَرَجَعُوا عَلَى الْمَلِكِ بِاللُّومِ وَالْعَيْبِ، فَقَالَ: أَخْلَصُوا نِيَّاتِكُمْ لِلَّهِ جَلُّ وَعَزُّ، وَتَضَرَّعُوا إِلَيْهِ. فَفَعَلُوا، وَنَزَلَ أَنْوَشْرَوَانَ: إِنْ نَجَّاهُ اللَّهُ جَلُّ وَعَزُّ، لِيَصْدَقَنَّ بِخِرَاجِ سَبْعِ سَنِينَ.

قَالَ: فَرُفِعَتْ لَهُ جَزِيرَةٌ تَعْلُوهَا الْأَمْوَاجُ، وَفَوْقَ الْجَزِيرَةِ أَسَدٌ فِي عَظْمِ جَبَلٍ يَتَشَرَّبُ الْمَاءَ مُؤَخَّرَهُ، وَيَنْحَطُّ مِنْ فِيهِ إِلَى ذَلِكَ الدَّرْدُورِ. فَبَيْنَاهُمْ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ جَلُّ جَلَالَهُ سَمَكَةً عَظِيمَةً فَظَفَرَتْ^(٥)

(١) كَذَا فِي ك، وَفِي ل: «عَلَيْهِ».

(٢) ك: «لِلْأَبَدِ».

(٣) فِي الْقَامُوسِ: «الدَّرْدُورُ مَوْضِعٌ وَسَطٌ: الْبَحْرُ يَجِيئُ مَاءُهُ».

(٤) ك: «وَلَجَّجُوا».

(٥) ك: «ظَفَرَتْ».

حتى صارت في فم الأسد، فسكن الذردور، ونفذت السفينة حتى وصل إلى ما أراد، ثم انصرف إلى دار مملكته.

حماد قال: حدثني أبي قال: قال الأعشى في مدحه إياس بن قبيصة، وذكره مسيره^(١) إلى الروم حيث لقيه كسرى أبرويز بساتيدما - وهو جبل يزعم أهل العلم أنه دون الجبال، وأنه لا بد من أن يراق عليه دم كل يوم. قال الواقدي: بل هو محيط بالدنيا، وزعموا أنه ليس في الأرض يوم إلا ويسفك عليه دم، وإنما سمى «ساتيدما» معناه «سيأتي دما» فكان من خبر إياس بن قبيصة، أن كسرى أبرويز كان رجلاً سئ الظن، وأنه بعث شهر براز إلى الروم في جيش عظيم، فأعطى من الظفر ما لم يعط أحد كان قبله، وهو الذي أصاب خزائن الملك التي كانت تسمى «كنج باد آورد»، أي الكنز الذي جاءت به الرياح، وكانوا حملوها ليحرزوها، ففرضتها الرياح في الجزر؛ من خليج البحر.

فأخذها وبعث بها إلى كسرى، فحسده كسرى وحزبه، وبعث إليه برجل تقدم إليه في قتله، وكان الذي أتاه رجل من أهل أذربيجان، فلما رأى جماله وهيبته، قال: لا يصلح قتل هذا في غير جرم ولا حق. فأخبره بما أمره به، فأرسل شهر براز إلى قيصر: إني أريد أن ألقاك، فالتقياً، فقال له: إن هذا الخبيث قد أراد قتلي، وإني والله لأريدن منه مثل الذي أراد مني، فأجعل لي ما أطمئن إليه، أعطيك مثل ذلك، ولئن قتلته لتجعلن لي ما أغلب عليه من الكور، وأجعل لك ألا أغزوك أبداً، ولا أتناول شيئاً من أرضك، وأن أعطيك من بيوت أموال كسرى مثل ما تنفق في مسيرك هذا.

فأعطاه قيصر ما سأل، وسار قيصر في أربعين ألف مقاتل، وخلف شهر براز في أرض الروم، وقد أخذ منه اليهود والمواثيق. ولم يعلم كسرى [بذلك]^(٢) حتى دنا منه قيصر، فلما بلغه ذلك علم أن شهر براز علم بما كان دبره من قتله، وكانت جنوده قد تفرقت في السواد وغيرها، وكان كسرى قد أبغضه أهل مملكته وملوه وعرف حاله عند الناس فاحتال بحيل الرجال، واستعمل المكر والدهاء، فبعث إلى قسب عظيم من النصارى يثق ملك الروم بقوله، فقال: إني أكتب معك كتاباً لطيفاً في حرير، وأجعله في قنابة إلى شهر براز، وجائزتك على ألف دينار.

وقد عرف كسرى أن القسب يذهب بالكتاب إلى ملك الروم. فكتب إلى شهر براز: إني كتبت إليك، وقد دنا قيصر مني، وقد أحسن الله جل وعز إلي بصنيعك^(٣) ونفوذ تدبيرك، وقد فرقت لهم الجيوش وأنا تاركه حتى يدنو مني، وأتب عليه وثبة أستأصل شأفته بها، وإذا كان ذلك اليوم، وهو يوم كذا وكذا، فأغر أنت على من قبلك منهم، فإنك تبيدهم وتهلكهم، وأرجو أن تكون لملك قيصر مصطلاً.

(١) ك: «سيره».

(٢) ك: «سيره».

(٣) من ك.

فخرج القسّ بالكتاب حتى لقي قيصر، وقد كانت صُورَت^(١) لقيصر أرض العرب والعراق، وصورَت له التَّهْرَوَانُ بغير حين المدّ.

فلما انتهى إليه في المدّ وليس عليه جسْر، وقرأ الكتاب من يد القسّ^(٢)، قال: هذا هو الحقّ، ورجع منهزماً مفلولاً^(٣)، وأتبعه كسرى بإياس بن قبيصة الطائى، فأدركهم بساتيدما مرعوبين مفلولين^(٤) من غير لقاء ولا قتال، فقتلوا قتل الكلاب، ونجا قيصر في خواصّ من أصحابه، فمدح الأعشى إياس بن قبيصة، وكان قد أصابه مرض فقال^(٥):

ما تعيفُ اليومَ في الطَّيْرِ الرَّوْحُ من غُرَابِ البين أوتيسِ بَرَحٍ^(٦)
جالِسًا في نَقْرٍ قد أيسوا^(٧) في محيلِ القِدِّ من صَحْبِ قُرَحٍ^(٨)

قال ابن الأعرابي: وسأله حماد عن قوله:

* ما تعيف اليوم في الطير الروح *

فقال: تطير الأعشى من مرض إياس إلى الزجر والفأل، فقال لنفسه: «ما تعيف منه»، أى ما تكره منه وهو آخر أمره إلى السلامة.

فرجع قيصر وقد أتهم شهر بران، فلم يزل به حتى أمكنته الفرصة منه، فقتله وعامة رجاله وأفتاهم^(٩).

* * *

قيل: ولما تشاغل عبد الملك بن مروان بمقاتلة مُصَعب بن الزبير، اجتمع وجوه الروم إلى ملكهم وقالوا له: قد أمكنتك الفرصة من العرب، فقد تشاغل بعضهم ببعض، ووقع بأسهم بينهم، فالرأى أن تغزوهم في بلادهم، فإنك تذلهم وتنال حاجتك منهم. فنهاهم عن ذلك، فأبوا عليه إلا أن يفعل، فلما رأى ذلك دعا بكلين فأرّس بينهما، فاقتتلا قتالاً شديداً، ثم دعا بتعلب فخلد بينهما، فلما رأى الكلبيان التعلب تركا ما كانا فيه، وأقبلوا على التعلب حتى قتلاه. فقال ملك الروم: هكذا العرب تقتتل بينهما، فإذا رأونا وهم مجتمعون تركوا ذلك، وأقبلوا علينا، فعرفوا صدق^(١٠) قوله، ورجعوا عما كانوا عليه.

(١) ك: «وصور».

(٢) ك: «فأخذ الكتاب من يد القس وقرأه».

(٣) ك: «مفلولاً».

(٤) ك: «مفلولين».

(٥) ديوانه ١٥٩، من قصيدة طويلة عدتها أحد وستون بيتاً.

(٦) الطير البارح: ما أتاك عن مينك يريد شمالك، والسائح خلاف ذلك.

(٧) ل: «أنسوا»، وما أثبتته من ك والديوان.

(٨) ط: «في مقيل» وما أثبتته من الديوان. والمحيل: ما أتى عليه حول. وقزح: اسم ملك.

(٩) الخبر في شرح ديوان الأعشى ١٦٨.

(١٠) ل: «صدقة». وما أثبتته من ك.

وعن بكّار بن ما هويه، قال: قال كسرى إبرويز لمنجمه: كيف يكون أجلى؟ فقال له: تُقتل؛ فقال: والله لأقتلن قاتلي، فأمر بسم فخلط في أدوية؛ وكتب عليه: هذا دواء الجماع، من أخذ منه ورن كذا جامع كذا مرة، وصيره في خزانة الطب، فلما قتله ابنه شيرويه فتش خزانة أبيه، فمرّ بذلك السّم، فقال في نفسه: بهذا كان يقوى أبى على الجماع وعلى شيرين وغيرها، فأخذ منه، فمات من ساعته.

وعن الهيثم، عن ابن عيَّاش^(١) قال: كان الحجاج حسودًا لا تتم له صنعة حتى يُفسدها، فوجّه عمارة بن تميم اللخمي إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث فظفر به، وصنع به ما صنع، ورجع إلى الحجاج بالفتح، فلم ير منه ما أحب، وكرة - منافرته وكان عاقلاً رقيقاً - فجعل يترقق به ويداره ويقول: أنت أيها الأمير أشرف العرب، فمن شرفته شرف، ومن وضعته أتضع؛ وما ينكر لك ذلك، مع رفقك ومشورئك ورأيك، وما كان هذا كله إلا بصنع الله عز وجل وتدبيرك، وليس أحد أشكر لصنيعك مني، ومن ابن الأشعث! وما خطرأ!

حتى عزم الحجاج على المضي إلى عبد الملك. فأخرج عمارة معه، فوفد عليه وعمارة يومئذ على أهل فلسطين أمير، فلم يزل يلطف^(٢) بالحجاج في مسيره ويعظمه حتى قدموا على عبد الملك، فلما قامت الخطباء بين يديه وأنتت على الحجاج، قام عمارة فقال: يا أمير المؤمنين، سل الحجاج عن طاعتي ومناصحتي وبلاتي؛ فقال الحجاج: يا أمير المؤمنين، صنع وصنع، ومن بأسه ونجدته وعفاهه ومكيدته [كذا وكذا]^(٣). وهو أئمن الناس نقيبة، وأعلمهم بتدبير وسياسة؛ ولم يبق غاية في الثناء عليه. فقال عمارة: أرضيت يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، فرضى الله عنك. حتى قالها ثلاثاً؛ في كلها يقول: قد رضيت:

فقال عمارة: فلا رضى الله عن الحجاج يا أمير المؤمنين، ولا حظه ولا عافاه، فهو الله السيء التدبير، الذي قد أفسد عليك أهل العراق، وألب عليك الناس، وما أتيت إلا من قلة عقله، وضعف رأيه، وقلة بصره بالسياسة، ولك والله أمثالها إن لم تعزله.

فقال الحجاج: مه يا عمارة! فقال: لا «مه» ولا كرامة يا أمير المؤمنين! كل امرأة له طالق، وكل ملوك له حر؛ أن سار تحت راية الحجاج أبداً. فقال عبد الملك: ما عندنا أوسع لك! فلما انصرف عمارة إلى منزله بعث إليه الحجاج وقال: أنا أعلم أنه ما خرج هذا عنك^(٤)

(١) في ك. ل: «ابن عباس» والصواب ما أتتبه، انظر لسان الميزان ٣: ٣٢٢.

(٢) كذا في ل والمحاسن والأضداد، وفي ل: «يتلطف».

(٣) من المحاسن والأضداد.

(٤) ك والمحاسن والأضداد: «منك».

إلا معتبة، ولك عندى العتبي^(١)، ولك ولك.. فأرسل إليه: وما كنت أظن أن عقلك على هذا، أرجع إليك بعد الذى كان من طعنى وقولى عند أمير المؤمنين! لا ولا كرامة لك^(٢)!

وعن الهيثم بن الحسن بن عمارة قال: قدم شيخ من خُزاعة أيام المختار، فنزل على عبدالرحمن ابن أبزى الخُزاعى، فلما رأى ما تصنع شيعة^(٣) المختار به من الإِعظام له جعل يقول: يا عبادالله، أباالمختار يصنع^(٤) هذا! والله لقد رأيتُه تبيع^(٥) الإمام بالحجاز، فبلغ ذلك المختار فدعا به، فقال: ما هذا الذى يبلغنى عنك؟ قال: الباطل، فأمر بضرب عنقه، فقال: لا والله، لا تقدر على ذلك، قال: ولم؟ قال: أما دون أن أنظر إليك وقد فتحت مدينة دمشق ونقضتها حجراً حجراً، وقتلت المقاتلة، وسبيت الذرية، ثم تصلبنى على شجرة على نهر! والله إنى لأعرف الشجرة الساعة، وأعرف شاطئه ذلك النهر. قال: فالتفت المختار إلى أصحابه فقال لهم: أما إن الرجل قد عرف الشجرة^(٦)، فحسب حتى إذا كان الليل بعث إليه فقال: يا أبا خُزاعة، أو مزاح عند القتال! فقال: أنشدك الله أن أقتل ضياعاً! قال: وما تطلبها هنا؟ قال: أربعة آلاف درهم أقتضى بها دينى. قال: ادفعوها إليه، وإياك أن تصيح بالكوفة، فقبضها وخرج^(٧).

وعنه قال: كان سُرّاقه البارقى من طُرفاء أهل المدينة، فأسره رجل من أصحاب المختار، فأتى به المختار، وقال أسرت هذا! فقال: كذبت والله ما أسرنى هذا، إنما أسرنى رجل عليه ثياب بيض على فرس أبلق. فقال المختار: أما إن الرجل قد عاين - يعنى الملائكة - خلوا سبيله، فلما أفلت أنشأ يقول:

ألا أبلغ أبا إسحاق أنى رأيتُ الدُهْمَ بُلُقًا مُصَمَّاتٍ^(٨)
أرى عَيْنِي مالم تبصراه كِلَانًا مُوَلَّعٌ بِالْتَرَهَاتِ^(٩)
كَفَرْتُ بِدِينِكُمْ وجعلتُ نذرًا عَلِيٌّ قَتَالِكُمْ حَقِي الْمَاتِ^(١٠)

(١) ك: ل: «الغنى»، وما أثبتته من المحاسن والأضداد، والعتبي: الرضا.

(٢) الخبر فى المحاسن والأضداد ١٣٢-١٣٤.

(٣) المحاسن والأضداد: «سوقة المختار».

(٤) كذا فى المحاسن والأضداد وفى ك: ل: تصنع.

(٥) المحاسن والأضداد: «يتبع».

(٦) ك: «السجن».

(٧) الخبر فى المحاسن والأضداد ١٢٧، ١٢٨.

(٨) ديوانه ٧٨، والمصمت: الذى لا يخالط لوجه لونه لونه آخر.

(٩) بعده فى الديوان:

إذا قالوا أقول لهم كذبتهم وإن خرجوا ليست لهم أداق

(١٠) الخبر فى ديوان سُرّاقه ٧٥ - ٧٩، مع تصرف: وهو أيضاً فى المحاسن والأضداد ١٢٧، ١٢٨.

وعنه قال: خرج الأحوص بن جعفر المخزومي يتغذى في دير اللّج، وذلك في يوم شديد البرد، ومعه حمزة بن بيض وسراقة البارقي فلما كانا على ظهر الكوفة وعليه الوبر والخزّ وعليهما أطمار، قال حمزة لسراقة: أين يذهب بنا في هذا البرد، ونحن في أطمارنا! قال سراقة: أنا أكفيك، فبينما هو يسير إذ لقيهم راكب مقبل؛ فحرك سراقة دابته نحوه، وواقفه ساعة، ولحق بالأحوص، فقال: ما خبرك به الراكب؟ قال: زعم أن خوارج خرجت بالقطقطانة. قال: بعيد! قال: إن الخوارج تسير في ليلة ثلاثين فرسخاً وأكثر - وكان الأحوص أحد الجبناء - فثنى رأس دابته، وقال: ردوا طعامنا؛ نتغذى في المنزل، فلما حاذى منزله قال لأصحابه: ادخلوا، ومضى إلى خالد بن عبد الله القسري، فقال: قد خرجت خارجة بالقطقطانة، فنادى خالد في العسكر فجمعهم، ووجه خيلاً تركض نحو دير اللّج لتعرف الخبر، فانصرفوا وأعلموه أنه لا أصل للخبر، فقال للأحوص: من أعلمك هذا؟ قال: سراقة، قال: وأين هو؟ قال: في منزلي، فأرسل إليه من أتاه به، فقال: أنت أخبرته عن الخارجة؟ قال: ما فعلت أصلح الله الأمير؟ فقال الأحوص: أو تكذبني بين يدي الأمير؟ قال خالد: ويحك! أصدقني، قال: نعم أخرجنا في هذا البرد، وقد ظاهر الخز والوبر، ونحن في أطمارنا هذه، فأحببت أن أردّه، فقال له خالد: ويحك! وهذا مما يتلاعب به! وكان سراقة ظريفاً شاعراً، وهو الذي يقول:

قالوا سراقة عني فقلت لهم الله يعلم أني غير عني
فإن ظننتم بي الشيء الذي زعموا فقرّبوني من بيت ابن يامين^(١)

وذكروا أن شبيب بن يزيد الخارجي؛ مرّ بفلام مستنقع في ماء الفرات، فقال له: يا غلام، اخرج إلى أسألك، فعرقه الفلام، فقال: إني أخاف، فأمن أنا إن خرجت حتى أليس ثيابي؟ قال: نعم؛ فخرج وقال والله لا ألبسها اليوم! فضحك شبيب وقال: خدعني ورب الكعبة! ووكل به رجلاً من أصحابه يحفظه ألا يصيبه أحد من أصحابه بمكروه^(٢).

* * *

قال: وكان رجل من الخوارج قال في قصيدة له:
ومنا يزيدُ والبطين وقعنُبُ ومنا أميرُ المؤمنين شبيبُ
[الطويل]

فسار البيت حتى سمعه عبد الملك بن مروان، فأمر بطلب قائله، فأتي به، فلما وقف بين يديه قال: أنت القائل.

* * * ومنا أميرُ المؤمنين شبيب * *

قال: لم أقل هكذا يا أمير المؤمنين، قال: فكيف قلت؟ قال: قلت:

* * * ومنا أميرُ المؤمنين شبيب * *

(١) الخبر في المحاسن والأضداد ١٢٩، ١٣٠.

(٢) الخبر في المحاسن والأضداد ١٣٠.

فضحك عبدالمملك وأمر بتخلية سبيله، فتخلص بحيلته، وفطنته لإزالة الإعراب عن الرفع إلى النصب^(١).

* * *

وزعموا أن عمرو بن معدى كرب الزبيدي، هجم في بعض غاراته على شابة جميلة منفردة، فأخذها، فلما أمعن بها بكت، فقال: ما يبكيك؟ قالت: أبكى لفراق بنات عمى؛ كلهن مثلى في الجمال؛ وأفضل منى. خرجت معهن فانقطعنا عن الحمى، قال: وأين هن؟ قالت: خلف ذلك الجبل، وددت إذ أخذتني أخذتهن [معى]^(٢). فأخذ^(٣) إلى الموضع الذى وصفته^(٤) فما شعر بشيء حتى هجم على فارس شاك^(٥) في السلاح، فعرض عليه المصارعة، فصرعه الفارس، ثم عرض عليه ضرباً من المناوشة^(٥)، فغلبه الفارس في كلها، فسأله عمرو عن اسمه فإذا هو ربيعة ابن مكرم^(٦)، فاستنقذ الجارية [منه]^(٧).

* * *

وعن عطاء: أن^(٨) مخارق بن عفان، وممن بن زائدة، لقياً رجلاً ببلاد الشرك، ومعه جارية لم يريا مثلها شباباً وجمالاً، فصاحا به؛ ليخلى عنها. ومعه قوس فرمى بها، وهابا الإقدام عليه، ثم عاد ليرمى؛ فانقطع وتره وسلم الجارية، وأسند^(٩) في جبل كان قريباً منه، فابتدرا الجارية وفي أذنها قرط فيه ذرة، فانتزعه^(١٠) بعضها من أذنها. فقالت: ما قدر هذا! لو رأيتا درتين معه في قلنسوته، وفي القلنسوة وتر قد أعدّه؛ فنتسبه من الدهش.

فلما سمع قول المرأة ذكر الوتر، فأخرجه وعقده في قوسه، فولىا؛ ليست لها همة إلا النجاة، وخلياً عن الجارية^(١١).

* * *

قيل: واستودع رجل رجلاً مالا ثم طالبه به؛ فنجده، فخاصمه إلى إياس بن معاوية القاضى، وقال: دفعت إليه مالا في مكان كذا وكذا، قال: فأى شيء كان في ذلك الموضع؟ قال: شجرة، قال: فانطلق إلى ذلك الموضع وانظر إلى تلك الشجرة؛ فلعل الله أن يوضح لك هناك ما تبين به حقك.

(١) الخبر في المحاسن والأضداد: ١٣.

(٢) من المحاسن والأضداد.

(٣-٣) المحاسن والأضداد: «فامض إلى الموضع الذى وصفته لك؛ فمضى إل هنالك».

(٤) يقال رجل شاكى السلاح؛ إذا كان ذا شوكة، وفي ط بتشديد الكاف؛ وهو خطأ.

(٥) المناوشة: المناولة في القتال.

(٦) زاد في المحاسن والأضداد: «الكنانى».

(٧) تكملة من ك؛ والخبر في المحاسن والأضداد ١٣٠ - ١٣١.

(٨) ك، ل؛ «بن» تصحيف.

(٩) كذا في المحاسن والأضداد، وفي ل: «واستد» تصحيف. وأسند في الجبل: رقى.

(١٠) المحاسن والأضداد: «فانتزعه من أذنها».

(١١) الخبر في المحاسن والأضداد ١٣١.

أو لعلك دفنت مالك عند الشجرة فنسيت فتذكر إذا رأيت الشجرة.

فمضى، وقال إياس للمطلوب منه: اجلس حتى يرجع صاحبك، فجلس وإياس يقضى وينظر إليه بين كل ساعة، ثم قال: ترى صاحبك بلغ موضع الشجرة؟ قال: لا، فقال: يا عدو الله، أنت الخائن!

قال: ألقني أقالك الله، فأمر بحفظه حتى جاء خصمه^(١)، فقال له: خذ [منه]^(٢) بحقك فقد أقر.

قال: واستودع رجل رجلاً كيساً فيه دنانير، فغاب، وطالت غيبته، فشق المستودع الكيس من أسفله، وأخذ الدنانير، وجعل مكانها دراهم وخيطه والخاتم على حاله، فجاء الرجل بعد ست عشرة سنة فقال: مالي! وطالب به، فأعطاه الكيس بخاتمه، فنظر إليه وإذا ماله دراهم، فأحضره مجلس إياس، فقال إياس للطالب: ماذا تقول؟ قال: أعطيته كيساً فيه دنانير، فقال: منذ كم؟ قال: منذ ست عشرة سنة، قال: فضا الخاتم ففضاه، فقال: انثرا ما فيه، فإذا هي دراهم بعضها من ضرب عشر سنين وأكثر، وأقل، فأقر بالدنانير، وألزمه إياها حتى خرج منها.

قال: وأودع^(٣) رجل رجلاً من أمراء إياس مالا، وحبج، فلما رجع طالبه فجحده، فأتى إياساً فأخبره، فقال: أتعلم أنك أخبرت غيري بذلك؟ قال: لا. قال: فهل علم أنك أعلمتني^(٤)؟ قال: لا؛ قال: أفنازعته^(٥) بحضرة أحد؟ قال: لا؛ قال: فانصرف واكتب أمرك ثم عد إلى. ودعا إياس أمينه ذلك فقال: قد حضر مال كثير، وقد رأيت أن أودعك إياه عندك، فأرتد له موضعاً وأتيت بمن يحمله، معك. فمضى الأمين، وعاد الرجل إلى إياس؛ فقال له: انطلق إلى صاحبك فطالبه بمالك، فإن أعطاك، وإلا فقل إنك تعلمني، فأتاه فقال له: أعطني مالي وإلا أتيت القاضي فأعلمته، فدفع إليه ماله، وصار إلى إياس، فقال: قد رد مالي علي، وجاء الأمين إلى إياس لموعده، فانتهره وقال: اخرج عنى يا خائن.

وأراد معاوية أن يوجه ابنه يزيد إلى غزو الصائفة^(٦)، وكره يزيد ذلك، وأنشأ يقول:

تجنى لا تزال تعد ذنباً لتقطع وصل حيلك عن خيالي
فيوشك أن يريحك من أذاتي^(٧) نزولي في المهالك وارتحالي

وخرج، وخرج الناس معه، وفيمن خرج أبو أيوب الأنصاري. فلما قرب من قسطنطينية اشتكى أبو أيوب، فأتاه يزيد عائداً، فقال له: ما حاجتك؟ قال: أما دنياكم فلا حاجة لي فيها، ولكن

(١) ك: «واستودع».

(٢) ك: «عرفتني».

(٣) ساقط من ك.

(٤) تكلمة من ك.

(٥) ل: «فنازعته».

(٦) الصائفة: الغزوة في الصيف؛ وبها سميت غزوة الروم؛ لأنهم كانوا يغزون صيفاً لمكان البرد والثلج.

(٧) ط: «أذاتي» تصحيف.

سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يُدفن بجنب قسطنطينية رجلٌ صالح»، وقد رجوتُ أن أكونه، فقد منى ما قدرت عليه، فمات. فلما فرغ من جهازه ووضَع على سريره قدّم الكتاب بين يديه، فنظر قيصر، ورأى أمرًا عجيبا، وشيئا يُحْمَل، والناس بالسلاح تحته، فأرسل إليه: ما هذا الذي أرى^(١)؟ قال يزيد: هذا صاحب نبينا صلى الله عليه وسلم، أوصى أن تدفنه إلى جنب مدينتكم، ونحن ننفذ وصيته أو نموت دونه. فأرسل إليه: العجبُ من الناس وما يذكرونه من دهاء أبيك، وهو يبعثك في هذا البعث! تدفن صاحب نبيك بجنب مدينتي، فإذا وليت عنه نبشته فطرحتهُ للكلاب! فأرسل إليه يزيد: إني ما أردت أن أجته حتى أودع مسامعك كلامي؛ وكفرت بالذي أكرمتُ له هذا الميت، لئن تعرّضت له لا تركتُ في أرض العرب نصرا نيا إلا سفكتُ دمه واستصفيت ماله، وسيبت حُرْمه.

فأرسل إليه قيصر: كان أبوك أعرف بك مني، وإني أحلف بحق المسيح عليه السلام: ألا يجرسه سنةً أحدٌ غيري.

* * *

وعن بعض مشايخ المدينة؛ قال: كانت عند عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضوان الله عليها جارية مغنية، يقال لها عمارة، فلما وفد عبدُ الله على معاوية خرج بها معه، فزاره يزيد ذات يوم وأقام عنده، فأخرجها إليه، فلما نظر إليها وسمع غناها وقعت في نفسه، فأخذها عليها ما لم يملك نفسه، وجعل يمنعه من أن يبوَحَ به مكان أبيه؛ مع يأسه من الظفر بها. فلم يزل يُكاتبه إلى أن مات معاوية، وأفضى إليه الأمر، وتقلد الخلافة يزيد، فاستشار بعض من يثق به في أمرها، فقال: إن أمر عبد الله لا يُرام، وأنت لا تستجيزُ إكراهه، ولا يبيعهما بشيء أبداً، وليس يُغنى في هذا الأمر إلا الحيلة، قال: اطلب لي رجلاً عاقلاً من أهل العراق، ظريفاً أديباً له معرفة ودراية، فطلبوه فأتوه، فلما دخل عليه استنطقه، فرأى بياناً وحلاوةً وفقهاً، فقال له: إني دعوتك لأمر، إن ظفرتُ به فهو حظوتك آخر الدهر، ويدُ أكافئك عليها، ثم أخبره بأمره.

فقال: يا أمير المؤمنين، إن عبد الله بن جعفر ليس يرام^(٢) ما قبَلَهُ إلا بالخدبة، وإن يقدر على ما سألتَ رجلٌ فأرجو أن أكونه، والقوة بالله، فأعنى يا أمير المؤمنين بالمال، قال: خذ ما أحببت.

فأخذ واشترى من طرف الشام وثياب مصر ومتاعها للتجارة، ومن الرقيق والدواب وغير ذلك حاجته، وشخص إلى المدينة، فأناخ بعرضة عبد الله بن جعفر، واكترى منزلاً إلى جانبه، ثم توسل إليه، وقال: أنا رجلٌ من أهل العراق، وقدمتُ بتجارة، فأحببت أن أكون في جوارك وكنتك إلى أن أبيع ما جئت به.

فبعث عبد الله إلى قهارته وقال: أكرموا جارنا، وأوسعوا عليه المنزل، فلما اطمانَ العراقي

(١) ل: «نرى».

(٢) كذا في ك، وفي ل: «لا يرام».

وسلم عليه أياماً، وعرفه نفسه، هيأ له بغلةً فارهة، وثياباً من ثياب العراق والطاقا، وبعث بها إليه، وكتب رقعة يقول فيها: يا سيدي، أنا رجل تاجر، ونعمة الله عليّ سابقة، وعندى أعمال^(١)، وقد بعثت إليك بشيء من اللطف وهو كذا، ومن الثياب والعطر، وبعثت إليك^(٢) ببغلة خفيفة العنان، وطبيخة الظهر، فاتخذها لرحلك، وأنا أسألك بقرابتك من رسول الله ﷺ إلا قبِلت هديتي، ولم توحشني بردّها، فإني أدين الله عزّ وجلّ بحبك وحبّ أهل بيتك، وإنّ أفضل ما في سفري هذا أن أستفيد الأتس بك، والشرف^(٣) بمواصلتك.

فأمر عبد الله بقبض هديته، وخرج إلى الصلاة، فلما رجع مرّ بالعراقيّ في منزله، فقام إليه، وقبل يده، وسلم عليه، واستكثر منه، فرأى أدباً وظرفاً وحلاوةً وفصاحةً، فأعجب به وسرّ بنزوله عليه. فجعل العراقيّ يبعث كلّ يوم^(٤) بلطف إلى عبد الله ويطرف. فقال عبد الله: جزي الله ضيفنا هذا خيراً، فقد ملأنا شكرًا، وأعيانا عن مجازاته^(٥).

فإنها كذلك، إذ دعاه عبد الله ودعا بعمارة وجواريه، فلما تعشياً وطاب لها^(٦)، وسمع غناء عمارة تعجّب وجعل يزيد في عجبه، إذ رأى ذلك يسرّ عبد الله إلى أن قال له: رأيت مثل عمارة؟ قال: لا والله يا سيدي، ما رأيت مثلها، وما تصلح^(٧) إلا لك، وما ظننت أنه يكون في الدنيا مثل هذه: حسن وجهه وحذق عمله! قال: كم تساوى عندك؟ قال: ما لها ثمن إلا الخلافة. قال: تقول هذا لما ترى من رأيي فيها، ولتجلب سروري! قال: والله يا سيدي إني لأحبّ سرورك، وما قلت لك إلا الجّد. وبعد، فإني رجل تاجر، أجمع الدرهم إلى الدرهم طلباً للريح، ولو أعطيتها بعشرة آلاف دينار لأخذتها. قال عبد الله: بعشرة آلاف دينار! قال: نعم - ولم يكن في ذلك الزمان جارية بعشرة آلاف دينار - فقال عبد الله كالمزاح: أنا أبيعكها بعشرة آلاف دينار، قال: قد أخذتها، قال: هي لك، قال: قد وجب البيع، وانصرف العراقيّ. فلما أصبح لم يشعر عبد الله إلا وبالمال قد وافاه، فقال عبد الله: بعث العراقيّ بالمال؟ قالوا: نعم، بعشرة آلاف دينار وقال: هذه ثمن عمارة. فردّها إليه وقال: إنما كنت أمزح معك، وما أعلمك أن مثلي يبيع مثلها! قال: جعلت فداك! إن الجّد والهزل في البيع سواء، قال له عبد الله: ويحك! لا أعلم موضع جارية تساوى ما بذلت، ولو كنت باتمتها من أحد لآثرتك، ولكنني كنت أمزحك، وما أبيعها بملك الدنيا، لحرمتها بي وموقعها من قلبي. قال له العراقيّ: فإن كنت مازحاً فإني كنت جاداً، وما أطلعت على ما في نفسك، وقد ملكت الجارية، وبعثت بالثمن، وليست تحلّ لك وما من أخذها بّد.

فمنعه إيّاها، فخرج العراقيّ وهو يقول: أستحلفك في مجلس أمير المؤمنين فلما رأى عبد الله الجّد منه، قال بشس الضيف! ما طرقتنا طارق، ولا نزل بنا ضيف أعظم بلية علينا منك! تحلفني فيقول

(٥) ل: «وأعانا على مجازاته».

(١) ل «احتمال». ك: «اجتماع» تصحيف.

(٦) كذا في ك، وفي ل: «طاب لها».

(٢) من ك.

(٧) ك: «ولا تصلح».

(٣) كذا في ل، وفي ك: «وأشرف».

(٤) ك: «في كل يوم».

الناس: اضْطَهَدَهُ وَقَهَرَهُ وَأَجَاهَهُ إِلَى أَنْ اسْتَحْلَفَهُ! أما والله لَتَعْلَمَنَّ أَنِّي سَأَبُلِي فِي هَذَا الْأَمْرِ بِالصَّبْرِ وَحَسَنِ الْعَزَائِمِ وَجَمِيلِ الْعَزَاءِ.

ثم أمر قَهْرَمَانَهُ بقبض المال، وتجهيز الجارية بما يشبهها من الثياب والخدم والطيب والمركب فجهزت بنحو من ثلاث آلاف دينار، ثم سلمها إلى قهرمانه وقال: أوصل الجارية إليه مع ما معها، وقل: هذا لك، ولك عندنا عوض مما أطفقتنا به.

فقبض العراقي الجارية وخرج، فلما برز من المدينة قال لها: يا عمارة، إنى والله ما ملكتك قط ولا أنت لى، ولا بمثل يشتري جارية بعشرة آلاف دينار، وما كنت لأقدم على عبد الله بن جعفر فأسأله أحب الناس إليه لنفسى، ولكنى دسيس من قِبَل أمير المؤمنين يزيد، وأنت له، وفى طلبك بعثنى، فاستترى منى، فإن دخلنى الشيطان فى أمرى، أو تآقت نفسى إليك فامتعى. ثم مضى بها حتى ورد دمشق، فتلقاه الناس يحملون جنازة يزيد، وقد استخلف ابنه معاوية.

فأقام الرجل أياماً ثم تطف للدخول عليه، فشرح له القصة، فقال: هى لك. فارتحل العراقي، وقال للجارية: إنى قلت لك ما قلت حين أخرجتك من المدينة؛ لأنى لم أملكك، وقد صرت الآن لى، وأنا أشهدك أنى قد وهبتك لعبد الله بن جعفر.

فخرج بها حتى قدم المدينة، فنزل قريباً من عبد الله، فدخل عليه بعض خدمه فقال: هذا العراقى ضيفك الصانع بنا ما صنع - لا حياه الله - قد نزل، فقال: مه! أنزلوا الرجل وأكرموا مثواه، فأرسل إلى عبد الله: إن أذنت جعلت فداك لى فى الدخول عليك دخلة خفيفة أشافهك فيها بحاجتى وأخرج! فأذن له، فلما دخل خبره بالقصة، وحلف له بالمخرجات^(١). من الأيمان أنه ما رأى لها وجهاً إلا عنده، وما هى ذه. فأدخلها الدار، فلما رآها أهل الدار والحشم تصايحوا، ونادوا: عمارة! عمارة! فلما رأت عبد الله خرت مغشياً عليها، وجعل عبد الله يمسح وجهها بكفه ويقول: يا حبيبتى، أحلم هذا؟ فقال له العراقى: بل ردها الله إليك بوفائك وكرمه، فقال عبد الله: قد علم الله كيف كان الأمر! فالحمد لله على كل حال، ثم أمر ببيع عير له بثلاثة عشر ألف دينار، وأمر بها للعراقى، فانصرف إلى العراق وأفر العريض^(٢) والمال.

أبو محارب، قال، قال معاوية بن أبى سفيان: إن عمرو بن العاص قد احتججنا عننا خراج مصر. فعزله واستعمل أبى الأعور السلمي، فبلغ عمراً الخبر، فدعا وردان مولاة وقال له: ويحك! عزلى أمير المؤمنين، قال: فمن استعمل؟ قال: أبى الأعور، قال: دعنى وإياه أصنع له طعاماً، ولا تنظر فى كتابه حتى يأكل، قال: نعم؛ فلما قدم عليه أخرج الكتاب بتسليم العمل إليه، فقال عمرو: ما نصنع بالكتاب! لو جئتنا برسالة لقبلنا ذلك منك^(٣). فقال وردان: ضع الكتاب وكل، فقال أبو الأعور لعمرو: انظر فى الكتاب. قال: ما أنا بناظر فيه حتى تأكل، فوضعه إلى جانبه، وجعل يأكل، فاستدار

(١) ل: «بالمخرجات».

(٢) ساقطة من ك.

(٣) ل: «العريض».

وردان فأخذه^(١)، فلما فرغ أبو الأعور من غذائه، طلب الكتاب فلم يجده، فقال: أين كتابي؟ فقال له عمرو: أوليس جئتنا زائراً لنحسن إليك؟ قال: بل استعملني أمير المؤمنين وعزلك، قال: مهلاً، لا يظهرن هذا منك، فإنه قبيح ونحن نصلك ونحسن إليك. فرضى بالصلة، وبلغ معاوية الخبر، فاستضحك وتعجب من فعله، وأقرَّ عمرًا على عمله.

* * *

وعن الشعبي قال: كتب المغيرة بن شعبه إلى معاوية، وكان خاف العزل: قد كبرت سنِّي، ورقَّ عظمي، واقترب أجلي، وسفهني^(٢) سفهاء قريش، وأمير المؤمنين أولى بعمله؛ فكتب إليه معاوية: أما ما ذكرت من كبر سنك فأنت أكلت عمرك. وأما اقتراب أجلك، فلو أستطيع دفع الموت عن أحد دفعته عن نفسي وعن آل أبي سفيان، وما ذكرت من سفهاء قريش، فحلماؤها أنزلتك هذه المنزلة. أما العمل، فاصبر رويداً يدرك الهيجا حمل. فاستأذنه في القدوم عليه، فأذن له، فوافاه، فقال له معاوية: يا مغيرة، كبرت سنك، واقترب أجلك، ولم يبق منك شيء، وسأستبدل بك.

فانصرف فرأى أصحابه الكأبة في وجهه، فقالوا: مالك؟ قال: قال لي: كُتبت وكُتبت، قالوا له: فما تريد أن تصنع؟ قال: ستعلمون، قال: فأتى معاوية فقال له: يا أمير المؤمنين، إن الإنسان يغدو ويرُوح، ولست في زمن^(٣) أبي بكر ولا عمر، فلو أنك نصبت لنا إنساناً نصير إليه بعدك كان الرأي؛ على أني قد كنت دعوت أهل العراق إلى يزيد. قال: يا أبا محمد، انصرف إلى عملك، وأحكِم هذا الأمر لابن أخيك، قال: فأقبل على البريد يركض، وقال: قد والله وضعت رجله في ركاب طويل الركض قال: فذاك هو الذي بعث معاوية على أخذ البيعة ليزيد.

(١) ل: فاتخذه.

(٢) ك: «سفهني».

(٣) ك: «زمان».

مساوي العي وضعف العقل

قال ثُمَامَةُ صاحب الكلام: كان المأمون قد همَّ بَلْعَن معاوية، وأن يكتب بذلك كتاباً في الطعن عليه، قال: فَفَنَاهُ^(١) عن ذلك يحيى بن أكرم وقال: يا أمير المؤمنين، العامَّة لا تحتمل هذا، ولا سبياً أهل خراسان، ولا تأمن أن يكون لهم نَفْرَةٌ ونَبْوَةٌ لا تُستقال، ولا يُدرى ما يكون عاقبتها، والرأى أن تدع الناس على ما هم عليه، ولا تُظهر لهم أنك تميل إلى فِرْقَةٍ من الفرق، فإن ذلك أصلح في السياسة، وآمن في العاقبة، وأجرى في التدبير. فركن إلى قوله.

فلما دخلت عليه قال: يا ثُمَامَةُ، قد علمت ما كنتا دبرناه في أمر معاوية؛ وقد عارضنا رأى هو أصلح في تدبير المملكة، وأبقى ذكراً في العامَّة. ثم أخبرني أن يحيى بن أكرم حذره، وأخبره بنفور العامَّة عن مثل هذا الرأى، فقلت: يا أمير المؤمنين، والعامَّة عندك في هذا الموضوع الذى وضعها فيه يحيى! والله لو بعثت إليها إنساناً على عاتقة سوادٍ ومعه عصاً، لساق إليك منها عشرة آلاف؛ والله يا أمير المؤمنين، ما رضى الله جلَّ وعزَّ أن سواها بالأنعام حت جعلها أضلَّ سبيلاً. فقال تبارك وتعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(٢). والله لقد مررتُ يا أمير المؤمنين منذ أيام في شارع الخلد وأنا أريد الدار، فإذا إنسان قد بسطَ كساءه، وألقى عليه أدوية، وهو قائم ينادى: هذا الدواء للبياض في العين والغشاوة والظلمة وضعف البصر، وإن إحدى عينيه لمطموسة، والأخرى مؤلمة وقد تألبوا عليه، واحتفلوا إليه، فنزلت عن دابتي ودخلت بين تلك الجماعة، فقلت: يا هذا، أرى عينيك أحوَجُ الأعين إلى العلاج، وأنت تصف هذا الدواء وتخبر أنه شفاء، فما بالك يا هذا لا تستعمله! قال: أنا في هذا الموضوع منذ عشرين سنة ما رأيتُ شيئاً قطُّ أجهد منك ولا أحمق! قلت: وكيف ذاك؟ قال: يا جاهل، أتدرى أين اشتكت عيني؟ قلت: لا، قال: بمصر؛ فأقبل على الجماعة فقالت: صدق، والله! أنت جاهل. وهما بي، فقلت: والله ما علمتُ أن عينه اشتكت بمصر. فتخلصت منهم بهذه الحجَّة. قال: فضحك المأمون وقال: ما لقيت من الله جلَّ ذكره من سوء الثناء^(٣)، وقبح الذكر أكثر. قلت: أجل.

وقيل: إنه كان رجلاً من المعتزلة، وكان له جارٌ يرى رأى الخوارج، وكان كثير الصلاة والصيام، حسن العبادة، فقال المعتزلى لرجلين من أصحابه: مرَّا بنا إلى هذا الرجل، فنكلمه^(٤)، لعل الله جلَّ وعزَّ يُنقذه من الهلكة بنا. وهديته من الضلالة. فأتوه وكلموه، فأصغى إلى كلامهم، فلما سكتوا

(٣) يقال: أنى عليه؛ إذ قال خيرا أو شرا.

(٤) ك: «لنكلمه».

(١) فناه: منعه وكفّه، وفي ك: «فناه».

(٢) سورة الفرقان ٤٤.

انتقل^(١) وقام ومعه القوم حتى وقف على باب المسجد، فرقع صوته بالقراءة، واجتمع إليه الناس^(٢)،
وقعد الرجل وصاحبه، فقرأ ساعة حتى بكى الناس، ثم وعظ فأحسن، ثم ذكر الحجاج، فقال:
أحرق المصاحف، وهدم الكعبة، وفعل وفعل، فالعنوه لعنه الله! فلعنه الناس، ورفعوا أصواتهم. ثم
قال: يا قوم، وما علينا من ذنوب الحجاج ومن أن يغفر الله عز وجل له ولنا معه، فإننا كلنا مذبذبون!
لقد كان الحجاج غيورا على حرم المسلمين، تاركا للغدر، ضابطا للسبيل^(٣)، عقيفا عن المال، لم يتخذ
ضيعة، ولم يكن له مال، فما علينا أن نترحم عليه، فإن الله عز وجل رحيم يحب الراحمين! ثم رفع
يده، ودعا بالمغفرة للحجاج، ورفع القوم أيديهم، وارتفعت الأصوات بالاستغفار مليا.

قال الرجل المعتزلي وهو يلاحظني، فلما فرغ وانصرف، ضرب بيده إلى منكبي، وقال: هل
رأيت مثل هؤلاء القوم! لعنوه واستغفروا له في ساعة واحدة! انتهى عن دماء أمثال هؤلاء! والله
لأجاهدتهم مع كل من أعانني عليهم.

(١) ك: «انتقل».

(٢) ك: «خلق كثير».

(٣) ك: «السبيل».

محاسن التيقظ

قيل: كان أردشير من أشد خلق^(١) الله فصحا وبحثا عن سرائر خاصته وعامته، وإذكاء للعيون عليهم وعلى الرعية. وكان يقول: إنما سُمي الملك راعيا ليفحص عن دفائن رعيته، ومتى غفل الملك عن تعرفه ذلك؛ فليس له من رسم الراعي إلا اسمه، ومن الملك إلا ذكره.

ويقال: إنه كان يُصبح فيعلم كل شيء جرى^(٢) في دار مملكته من خير وشر، ويسمى فيعلم كل شيء أصبحوا عليه، فكان متى شاء قال لأرفعهم وأضعهم: كان عندك في هذه الليلة كيت وكيت. ثم يحدثه بكل ما كان فيه إلى أن أصبح، وكان بعضهم يقول: يأتيه ملك من السماء فيخبره، وما كان ذلك إلا لتيقظه وكثرة تعهده لأمر رعيته.

ويقال: إن الأمم كلها: أولها وآخرها، قديمها وحديثها؛ لم تخف ملوكها خوفها أردشير من ملوك العجم وعمر بن الخطاب رضي الله عنه من ملوك العرب والإسلام؛ فإن عمر رضي الله عنه كان علمه بمن نأى من عماله ورعيته كعلمه بمن بات معه على مهاد، فلم يكن له في قطر من الأقطار؛ ولا ناحية من النواحي أمير ولا عامل إلا وله عليه عين لا تفارقه^(٣)، فكانت أخبار النواحي كلها عنده كل صباح ومساء، حتى إن العامل كان يتوهم على أقرب الخلق إليه وأخصهم به، فساس الرعية سياسة أردشير في الفحص عنها وعن أسرارها، ثم اقتفى معاوية فعله، وطلب أثره. فانتظم له أمره، وطالت في الملك مدته.

وكذا كان زياد بن أبي سفيان، يجتدي فعل معاوية كاحتذاء معاوية فعل عمر رحمه الله في تعرف أمور رعيته ومملكته، وفيها يحكى عنه أن رجلا كلمه في حاجة له، فتعرف إليه وهو يظن أنه لا يعرفه، فقال: أصلح الله الأمير! أنا فلان ابن فلان. فتبسم زياد، وقال: أنت تعرف إلي وأنا أعرف منك بنفسك! والله إنني لأعرفك وأعرف إباك وأمك وجدك وجدتك، وأعرف هذا البرد الذي عليك، وهو لفلان. فبهت الرجل وأرعده؛ حتى كاد يغشى عليه.

وعلى هذا كان عبد الملك بن مروان، والحجاج. ولم يكن بعد هؤلاء الثلاثة أحد في مثل هذه السياسة، حتى ملك المنصور، فكان أكبر الأمور عنده معرفة الرجال حتى عرف العدو من الولي، والموادم والمسال من المشاغب، فساس الرعية على ذلك، ثم درست هذه السياسة حتى ملك الرشيد، فكان أشد الملوك بحثا عن أسرار رعيته، وأكثرهم بها عناية، وأحزمهم فيها أمرا.

(٣) ك: «بفارقه».

(١) ك: «الناس».

(٢) ك: «يجري».

وعلى هذا كان المأمون في أيامه^(١)، والدليل على أمر المأمون رسالته إلى إسحاق بن إبراهيم في الفقهاء وأصحاب الحديث وهو بالشام؛ خبر فيها عن عيب واحد، وعن نحلته وعن أموره التي خفيت أو أكثرها على القريب والبعيد، ولم يكن أحد من ذوى السلطان الأعظم أشد فحصاً وبحثاً عن أمور الناس؛ حتى بلغ هذا المبلغ في الاستقصاء، وجعله أكبر شغله، وأكثره في ليله ونهاره، من إسحاق بن إبراهيم. حدثني موسى بن صالح بن شيخ؛ قال: كلمته في امرأة من بعض أهلنا، وسألته النظر لها، فقال: يا أبا محمد، من قصة هذه المرأة ومن فعلها... قال: فوالله: ما زال يحدثني ويخبرني^(٢) عن قصتها، ويصف أحوالها حتى بهت.

وحدث أبو البرق الشاعر، قال: يُجْرَى على أرزاقاً^(٣) فدخلت عليه؛ فقال بعد أن أنشدته: كم عيالك تحتاج في كل شهر^(٤)؟ قلت: من الدقيق إلى كذا، ومن الحطب إلى كذا، فأخبرني بشيء من^(٥) أمر منزلي جهلت بعضه وعلمه كله.

وحدث بعض من كان في ناحيته، قال: رفعت إليه قصة أسأله فيها أجراً وأرزاقاً، فقال: كم عيالك؟ فزدت في العدد. فقال: كذبت؛ فبهت وقلت: يا نفس؛ من أين علم أني كذبت! فأقمت سنة أخرى لا أجسر على كلامه^(٦)، ثم رفعت إليه القصة، فقال: كم عيالك؟ فقلت: كذا، قال: صدقت، ووقع^(٧) في القصة، يُجْرَى على عياله كذا وكذا.

ويقال: إن كسرى أبرويز كان [قد^(٨)] نصب رجلاً يمتحن به من فسدت عليه نيته من رعيته، وطعن في المملكة، فكان الرجل يُظهر التأله^(٩) والدعاء إلى التخلي من الدنيا، والرغبة في الآخرة، وترك أبواب الملوك. وكان يقص على الناس ويبكيهم ويشوب كلامه في خلال ذلك بدم الملك^(١٠)، وتركه^(١١) شرائع ملته، وسنن سيرته ودينه الذي كان عليه، وكان هذا الرجل يمثل ما حده له أبرويز ليمتحن بذلك خاصته، وكان من يسعى يخبر أبرويز بذلك، فيضحك ويقول: فلان في عقله ضعف، وأنا أعلم أنه وإن كان يتكلم لا يقصدني بسوء، ولا المملكة بما يوهنها ويُظهر الاستهانة بأمره والثقة به والطمأنينة إليه، ثم يوجه إليه في خلال ذلك من يدعوه، فيأبى أن يجيبه، ويقول: لا ينبغي لمن خاف الله أن يخاف أحداً سواه، فكان الطاعن على الملك والمملكة يكثر الخلو بهذا الرجل، والزيارة له والأنس به، فإذا خلياً^(١٢) تذاكر أمر الملك فابتدأ الناسك فظعن فيه وأعانه الخائن وطابقة^(١٣) على ذلك وشايعه، فيقول الناسك: إياك وأن يظهر^(١٤) هذا الجبار على كلامك،

(١) ل: «كان المأمون أيامه».

(٨) من ك.

(٢) ل: «ويخبر».

(٩) التأله: التعمد والتنسك.

(٣) ك: «رزقا».

(١٠) ك: «الملك».

(٤) ك: «كم عيالك يحتاجون نفقة في كل شهر؟».

(١١) ك: «وترك».

(٥) ك: «في أمر منزلي».

(١٢) ط: «أخليا»، وأثبت ما في ك، ل.

(٦) ك: «خطابه».

(١٣) ط: «طايحه».

(٧) ك: «ووقع لي».

(١٤) ك: «تظهر».

فإنه لا يحتمل لك ما يحتمله لي، فحِصْنٌ^(١) منه دمك. فيزداد الآخر إليه استئامة وبه ثقة، فإذا علم الناسك أنه قد بلغ من الطعن على الملك ما يستوجب به العقوبة^(٢) في الشريعة، قال لمن بحضرته: إني قاعد غداً مجلساً للناس أقصُّ عليهم فاحضروه، ويقول لمن هو أشدُّ به ثقة: احضر أنت، فإنك رجل رقيق عند الذكر، حسن النية، ساكنُ الريح، بعيدُ الصوت، وإن الناس إذا رأوك قد حضرت زادت نياتهم خيراً؛ وسارعوا إلى استجابتي فيقول الرجل: إني أخاف من هذا الجبار، فلا تذكره إن حضرت، وكانت العلامة بينه وبين أبرويز، أن أبرويز قد كان وضع عيوناً يحضرون متى جلس، فكان الناسك يقصُّ على العامة، ويُزهد في الدنيا، ويرغب في الآخرة، والحائن حاضر، فيأخذ الناس في ذكر الملك، فينهض الحائن، وتجيء عيون أبرويز فتخبه بما كان، فإذا أزال الشك عنه في أمره، وجَّهه إلى بعض البلدان، وكتب إلى عامله: قد وجَّهت إليك برجل، وهو قادم عليك بعد كتابي هذا، فأظهر بره، والأنس به والثقة إليه، والسكون إلى ناحيته، فإذا اطمأنت به الدار^(٣) فاقتله قتلة تحبى بها بيت النار، وتصل بها حرمة النوبهار^(٤)، فإن من فسدت نيته بغير علة في الخاصة والعامة لم يصلح بعله، ومن فسدت نيته بعله صلحت بخلافها.

* * *

قال: وحدثنا الواضح بن محمد بن عبد الله، قال: سمعت أبا بديل بن حبيب يقول: كنا إذا خرجنا من عند أبي جعفر المنصور، صرنا إلى المهدي؛ وهو يومئذ وليُّ عهد، ففعلنا ذلك يوماً، فأبرز لي المنصور يده، فانكببت عليها وقبلتها، فضرب يدي بيده، فعلمت أنه لم يفعل ذلك إلا لشيء في يده، فوضع في يدي كتاباً صغيراً تسترهُ الكف، فلما خرجت قرأت الكتاب فإذا فيه: إذا قرأت كتابي هذا فاستأذن إلى ضياعك^(٥) بالرئى. فرجعت فاستأذنت، فقلت: يا أمير المؤمنين، ضياعي بالرئى قد اختلت، ولي حاجة إلى مطالعتها، فقال: لا، ولا كرامة! فخرجت، ثم عدت إليه اليوم الثاني فكلمته، فرد عليّ مثل الجواب الأول، فقلت: يا أمير المؤمنين، وهل أنا ومالي إلا من نعمتك! حقنت دمي، ورددت عليّ مالي، وأثرتني بصحبتك، فقال: إنه يهجس في نفسي أن المرار بن جهور بهم بخلمي، وليس لي غيرك؛ لما أعرف بينكما، فأظهر إذا صرت إليه الواقعة في، والتنقص لي حتى تعرف ما عنده، فإذا رأيته بهم بخلمي، فاكتب إلي؛ ولا تكنين على بريد ولا مع رسول، ولا يفوتني خبرك في كل يوم، فقد نصبت لك فلاناً القطان في دار القطن، فهو يوصل كُتُبك.

قال: فمضيت حتى أتيت الرئى، فدخلت على مرار، فقال: أفلت! قلت: نعم والحمد لله، ثم أقبلت أوانسه بالواقعة في المنصور؛ حتى أظهر ما كان المنصور ظن به.

فكُتبت إليه بذلك، فلما وصلت منه إلى ما أردت أتيت ضياعي، ثم رجعت إليه بعد أيام، فقال: نجاك الله من الفاجر! قلت: نعم، وأرجو ألا تقع عينه عليّ أبداً، فكنت أعرض به فيزيدي مما

(١) النوبهار: بيت النار.

(٢) ك: «القتل». (٥) ك: «ضياعي»، والصواب ما أثبت.

(١) ط: «فحص».

(٢) ك: «القتل».

(٣) ك: «الديار».

عنده، ثم قال لى: هل لك أن نخرج إلى منتزه طيب؟ قلت: نعم؛ فخرجت أنا وهو تتساير حتى صرنا إلى موضع مُشرف قد بنيت له عليه قبة، فأحُدُّ النظر إلى ما هناك، ثم قال: يا أبا بُدَيْل، أترى الفاجر يظنُّ أنى أعطيه طاعةً أبداً ما عشت! أشهد أنى خلعتُه كما خلعتُ حُفَى هذا من رجلى.

قال: فرجعت إلى منزلى، وأنا فى كلِّ يوم أكتبُ بخبره، قال: وقد كنتُ أعددتُ تسعة فرسان من بنى يربوع، ورجلاً من بنى أسد، فواطتهم أن نبطش^(١) به، وكتبْتُ إلى المصمغان^(٢) أن يأتية فى جنده إلى الموضع الذى اتفقنا عليه.

قال: وأخذ المرار الدواء فى ذلك اليوم وسبق إليه الأسدى بالخبر، وقال: احذر؛ فقد اتَّخذ لك كيت وكيت. قال: فدخلت عليه، فإذا هو على كرسى، فعرفتُ الشرَّ فى وجهه والمنكرَ فى نظره، فقال: هيه يا أبا بُدَيْل! مع إكرامى لك أردتُ أن تقتلنى؟ قال: فتضاحكتُ وقلت: بلغ من مكره أن دَسَّ إليك^(٣) هذا الأسدى! لقد عملتُ فىك حيلته. ثم حرَّكه بطنُه فقام إلى الخلاء، وقال: لا ترم، فلما ولَّى وثبتُ وخرجتُ مسرعاً، فقال الحاجب: أسرعتُ! قلت: نعم فى حاجة للأمر، وركبتُ فرسى، فرأيتُ القوم قد وافوا كلُّهم إلاَّ الأسدى، فعلمتُ أنه صاحبى، فلما خرج سأل عنى فأخبر بخصيتى فوجَّه خيلاً فى طلبى، فمال اليربوعيون فدفعوهم، ومضيتُ حتى صرْتُ إلى المصمغان، وكتبْتُ إلى أبى جعفر المنصور كتاباً مكشوفاً، فكتب: إنى قد عرفتُ ما وصفته، وقد صحَّ الأمر. ثم كتب إلى خازم بن خزيمه، فصار إليه حتى أخذه.

على بن بُرَيْهه الهاشمى، قال: صاحب عذاب أبى جعفر: دعانى أبو جعفر المنصور ذات يوم، وإذا بين يديه جارية صفراء، وقد دعا لها بأنواع العذاب، وهو يقول لها: ويلك! اصدقينى، فوالله ما أريدُ إلاَّ الألفه، ولئن صدقتينى لأصلنَّ الرِّجَم، ولأتابعنَّ البرَّ إليه، وإذا هو يسألها عن محمد بن عبد الله، وهى تقول: ما أعرف مكانه، ودعا بالدِّهق^(٤) وأمر به فوضِعَ عليها، فلما كادت نفسها أن تتلف قال: أمسكوا عنها، وكره ما رأى، وقال لأصحاب العذاب: ما دواء مثلها إذا صار إلى مثل حالها؟ قالوا: الطيب تشمه، والماء البارد يُصبُّ على وجهها، وتُسقى السويق. فأمر لها بذلك، وعالج بعضه بيده، وقال لأصحاب العذاب: ألا أعلمتمونى بما ينالها فأكفَّ عنها؟ قالوا: قد علمنا أنها لا تقوى على هذا، ولكننا هبناك! فما زالوا يردِّدون عليها نفسها حتى أفاقَتْ، وأعاد عليها المسألة، فأبَتْ إلاَّ الجحود، فقال لها: أترفين فلانة الحجامة؟ فأسودَّ وجهها وتغيَّرت، وقال: نعم يا أمير المؤمنين، تلك فى بنى سلِّيم، قال: صدقت! هى والله أمتى ابتعتها بمالى، ورزقى يُجرى عليها فى كلِّ شهر، وكِسوة شتائها وصيفها على، أمرتها أن تدخل منازلكم وتحجِّمكم وتتعرَّف أخباركم. ثم قال:

(١) ك: «بيطش».

(٢) ك: «عليك».

(٣) ل: «المصمغان»، ك: «المصمغان» وما أثبتته من الطبرى. (٤) الدهق: خشبتان يخر بها ساقا المجرمين.

أو تعرفين فلاناً البقال؟ قالت: نعم، هو في بني فلان، قال: هو والله مُضَارِبِي بِخَمْسَةِ دَنَانِيرٍ، أمرته أن يبتاع بها كل ما يحتاج إليه من الببوع، فأخبرني أن أمةً لكم يوم كذا وكذا، من شهر كذا، صلاة المغرب، جاءت تسأله حناء^(١) وورقاً، فقال لها: ما تصنعين بهذا؟ فقالت: كان محمد بن عبد الله في بعض ضياعه بناحية البقيع وهو يدخل الليلة، فأردنا هذا لتتخذ منه النساء ما يحتجن إليه عند دخول أزواجهن من المغيب. فأسقط في يدها، وأذعنت لكل ما أراد.

قيل: وإن أبا جعفر كتب في حمل عبدالله بن الحسن وأهل بيته من المدينة إلى حضرته، فلما أخرجوا كثر عليهم البكاء، فقال عبد الله: أفيقوا من البكاء، وأوغلوا في الدعاء، فإني أشهد الله على ما أردت من إحياء الحق وإماتة الباطل، فجرى القدر بما جرى، فجدأي^(٢) الحسن والحسين قتلاً بسم وسيف، فالحمد لله الذي جعل مناينا جهاداً، ولم يجعلها^(٣) مهاداً.

وأخبرنا إبراهيم بن السندي بن شاهك^(٤) - وكان من العلماء بأمر الدولة - قال: قال لي المأمون: ثبتت أنك عالم بأمر الدولة ورجال الدعوة. قلت: ذلك الذي يلزمي يا أمير المؤمنين بعد الفرض، أن أعرف أيام موالي ومحاسن ساداتي. قال: فهات ما عندك، ثم أنشأ يجادني^(٥) ويسألني عن أمور خفية لم تخطر ببال قط، فكان منها أن قال: ما اسم أم قحطبة بن شبيب؟ قلت: لا أعلم، قال: لُبابة بنت سنان، ثم قال: ما اسم أبي عون؟ قلت: لا أدري، قال: فلان، فوالله ما زال يسألني عن خفي أمر الدولة، ولا يجيد عندي جواباً، ولا يزيدني على أن تبسم^(٦)، فكلما فعل ذلك زاد في عيني، وضعفت عند نفسي. قال: فكان آخر ما قال: أخبرك أن بعض أهلنا ذات يوم رأته وهي حاملٌ مئيمٌ، كأنه أناها آت في منامها، فقال لها: يوئد في هذه الليلة خليفة، ويموت خليفة، ويستخلف خليفة. فمات الهادي في تلك الليلة، واستخلف الرشيد، وولدت أنا.

وعن إبراهيم بن السندي بن شاهك: قال: لما اختار يحيى بن أكثم العشرة من الفقهاء وأحضرهم مجلس المأمون لمذاكرة الفقه، جعل له يوماً في الجمعة يحضرون مجلسه، فقال لي المأمون، يا إبراهيم: احضر، فليست بدون أكبرهم، فكننت أحضراً، وكان قد اختار من أيام^(٧) الجمعة يوم الثلاثاء قال: فحضرت يوماً، فلما أمسك المأمون عن المسائل نهض القوم - وكان ذلك إذنه بانصرافهم - فوثبت معهم، فقال بيده: مكانك يا إبراهيم، فقعدت، وقام يحيى، وساءه تخلفي، فقال لي - ودخل إبراهيم بن المهدي: هات ذكر من في عسكرنا ممن يطلب ما عندنا بالرياء. فقلت

(٥) ل: «يجدني».

(٦) ل: «ابتسم».

(٧) ك: «جعل من أيام».

(١) ك: «عن حناء».

(٢) ط: «فجدأي».

(٣) ك: ل: «يجعلها».

(٤) ك: «الشاهك».

ما عندي؛ وقال إبراهيم ما عنده، فقال: ما أرى عند أحد ما يبلغ إرادتي، ثم أنشأ يحدث عن أهل
عسكره، حتى والله لو كان قد أقام في رَحْل كل رجل حولاً لما زاد على معرفته. وقال: إنه كان ممّاً
حفظت عنه في ثَلْب أصحابه أنه قال: تسبيح مُحمّد الطوسي، وصلاة قحطبة، وصيام التوشجاني،
ووضوء بشر المريسي، وبناء مالك بن شاهك المساجد، وبكاء إبراهيم بن بريهة على المنبر، وجمع
الحسين بن قريش التيامي^(١)، وقصص مرجي، وصدقة عليّ بن هشام، ومهمات إسحاق بن إبراهيم
في سبيل الله، وصلاة أبي رجاء الضحى، فقال لي رجل من عطاء العسكر حين خرجنا من الدار:
هل رأيت أو سمعت قطّ ملكاً أعلم برعيته وأشدّ تنقيراً من هذا؟ قلت: اللهم لا، فحدثت بهذا
الحديث بعض أهل الخطر، فقال: وما تصنع بهذا، وقد كتب إلى إسحاق بن إبراهيم في الفقهاء
بمعايهم رجلاً رجلاً، حتى إنه أعلم بما في منازلهم منهم!

قال: وحدثنا سليمان بن عليّ النوفليّ قال: سمعت عمرو بن مسعدة يقول: قال لنا المأمون
يوماً من الأيام: من أنبل من تعلمون نبلاً، وأعفهم عفة؟ قال: فقلنا وأكثرنا، فبعضنا مدحه وقرظته
وقدّمه على كل خليفة وإمام، وعددنا ما نعرف من مكارم الأخلاق. فقال: ما كمال المناقب إلاّ لبني
هاشم غير أنا لم نردّها ولا أردنا خلفاءها؛ قال عليّ بن صالح: أعرف القصة في عمر بن الخطاب
رحمه الله فأشاح بوجهه وأعرض، وذكر كلاماً ليس من جنس هذا الكتاب فنذكره؛ ثم قال: ذاك
والله أبو العباس عبد الله بن طاهر؛ دخل مصر وهي كالعروس الكاملة؛ فيها خراجها، وبها أموالها
جمّة، ثم خرج عنها، فلو شاء الله أن يخرج عنها بعشرة آلاف دينار لفعل، ولقد كان لي عليه عين
ترعاه، فكتب إلى أنه عرضت عليه أموال لو عرضت عليّ أو بعضها لشهرت إليها نفسي، فما علمته
خرج عن ذلك البلد إلاّ وهو بالصفة التي قدم عليها^(٢) إلاّ مائة ثوب وحمارين وأربعة أفراس^(٣)،
فمن رأى أو سمع بمثل هذا الفتى في الإسلام، فالحمد لله الذي جعله غرس يدي، وخريج نعمتي!

وقال بشر بن الوليد: كان والله المأمون الملك حقاً، ما رأيت خليفة قطّ كان الكذب عليه أشدّ
منه على المأمون؛ وكان يحتمل كل آفة تكون بالإنسان إلاّ الكذب. قال: فقال لي يوماً: صف لي
أبا يوسف القاضي فإني لم أره. فوصفته له فاستحسن صفته وقال: وددت أن مثل هذا بحضرتنا
فنتزير به. ثم أقبل عليّ وقال: ما في الخلافة شيء إلاّ وأنا أحسن أن أدبره وأبلغ منه حيث أريد
وأقوى عليه، إلاّ أمر أصحابك - يعني القضاة - وما ظنك بشيء يتحرّج منه عليّ بن هشام،
ويتوقى سوء عاقبته ويكالب عليه الفقهاء وأهل التصنع! قال: قلت: يا أمير المؤمنين، وما أدري
ما تقصده فأجيب عنه؟ قال: لكني أدريه وأدريك، ولا والله ما تجيبني عنه ولا فيه بجواب مقنع. ثم
قال: ولينا رجلاً أشرت به قضاء الأبله، وأجرينا عليه في الشهر ألف درهم، وماله صناعة ولا تجارة،

(١) كذا في ك وفي ل من غير نقط.

(٢) ك: «أقواس».

(٣) ل: «التي قلتم فيها».

ولا كان له مال قبل ولا يتنا إياه، وولينا رجلاً آخر قضاةً دِمَشْقَ. وأجرينا عليه ألف درهمٍ في الشهر، أشار به إلى محمد بن سماعة. فأقام بها أربعة عشر شهراً فوجهنا من يتبع أمواله في السر والعلانية، ويتعرف حاله، فأخبر أنه وجد ما ظهر من ماله في هذا المقدار من دابة و غلام وجارية وفرش وأثاث، قيمته ثلاثة آلاف دينار، وولينا رجلاً أشار به إلى فلان نهاوند، فأقام بها أربعة وعشرين شهراً، فوجهنا من يتبع أمواله، فأخبرنا أن في منزله خدماً وخصياناً بقيمة ألف وخمسمائة دينار؛ سوى نتاج قد اتخذها. فهات ما عندك من الجواب. فقلت: ما عندي يا أمير المؤمنين جواب. قال: ألم أعلمك! ثم قال: وكبر من هذا وأطم أنى فرزت إلى علي بن هشام في رجل أوليه القضاء، فقال: قد أصبت واحداً، والله يشهد أنه سرتي، ورجوت أن يكون بحيث أحب. قلت: فأغد به علي. قال: أفعل ثم غداً، فقلت: أين الرجل؟ فقال: لم أجده في الفقه بالموضع الذي يجب أن يتصل صاحبه بأمر المؤمنين، قال: فأنكرت عليه. وأظهرت الغضب، فقال: يا أمير المؤمنين. إن الرجل الذي ذكرته لك بالأمس، هو علي بن مقاتل. وكان عندي من أهل العفاف والستر. فانصرفت بالأمس على أن أحضره، فوجهت إليه وأنا لا أشك أنه سيظهر الكراهية فيما أراد له أمير المؤمنين. وإن كان يستبطن غيرها ويستعفى؛ كفعل من يتصنع أو يكره ذلك بالحقيقة، فلما جاءني أقيت إليه الذي أردته له. فما تمالك أن وثب فقبل رأسي. فعلمت أنه لا خير عنده. وأنه لو كان من أهل الفضل والخير لعد الذي دُعِيَ إليه إحدى المصائب. فلم أر لنفسي أن أحضره، ولا أن يستعان بمنله. فقلت: جزاك الله خيراً عن إمامك أحسن ما جرى امرأ عن إمامه. وعن دينك ونفسك.

قال بشر: فبهت وانقطعت ولم أجر كلمة^(١) فقال: لا، ولكن إن أردت العفيف النظيف الزاكي النقي الطاهر، فقاضى الرئي، هو بالحالة التي فارقت عليها، والله ما غير ولا بدل. فأما قولهم في يحيى بن أكرم، فما ندرى ما عيبه، إلا أن ظاهره أنه أصف خلق الله عن الصفراء والبيضاء، حمل إلينا من أموال المشرية^(٢) أربعمائة ألف دينار، فأى نفس تسخو بهذه!

قال بشر: فقلت: يا أمير المؤمنين، مالك في الخلفاء شبيهه إلا عمر بن الخطاب؛ فإنه كان يفحص عن عماله، وعن دفين أسرار حكامه فحصاً شافياً، فكان لا يخفى عليه ما يفيد كل امرئ؛ وما يتفق، وكان من نأى عنه كمن دنا منه في بحثه وتنقيره. فقال المأمون: إن أهم الأمور كلها أمور القضاة والحكام، إذ كنا قد أزمانهم النظر في الدماء والأموال والفروج والأحكام، فوددت أني أجد مائة حاكم، وأنى أجوع يوماً وأشبع يوماً.

حدود بن اسماعيل النديم، قال: حضر العيد، فعبا المعتصم بالله خيله تعبتة لم يُسمع بمنلها، ولم

(١) لم أحر: لم أزد.

(٢) المشرية: الأموال التي تضاف إلى بيت المال من التركات التي لا وارث لها أخذت من كلمة حشر، بمعنى «جمع» دوزي

يُر لأحد من ولد العباسٍ شبيهه^(١) بها، وأمر بالطريق فمَسَح من باب قصره إلى المصلّى، ثم قسم ذلك على القوّاد، وأعطى كل واحد منهم مَصَافه، فلما كان قبل الفطر بيوم، حضر القوّاد وأصحابهم في أجل زى^(٢) وأحسن هيئة، فلزموا مصافهم منذ وقت الظهر إلى أن ركب المعتصم بالله إلى المصلّى، فكان الموضع الذي وقع لإبراهيم بن المهدي من بعد الحريسيّ بحداء مسجد الخوارزمي، وإبراهيم واقف وأصحابه في المصاف، فلما أصبح المعتصم أمر القواد الذين لم يرتبوا في المصاف بالمصير إلى المصلّى على التعبئة التي حدّها، ولبس ثيابه، وجلس على كرسيّ ينتظر مُضَى القوّاد، فلما انقضى أمرهم، تقدّم إلى الرّجاله في السير بين يديه، فتقدّم منهم سبعة آلاف ناشب من الموالى، كلّ ثلاثمائة منهم زىّ مخالف لزيّ الباقيين، وأربعة آلاف من المغاربة، وأمر الشّيعَة فكانوا وراه بالأعمدة، وعدّتهم أربعة آلاف، وركبت لا أدري منزلتي أين هي، ولا أعرف مرتبتي ولم أعلم أين أسير من الموكب! فلما وُضِعَ رجله في الركاب، واستوى على سرّجه التفت إلى وقال: يا حمدون، كن أنت خلفي. فلزمت مؤخر دابّته، فلما خرج من باب القصر تلقاه القوّاد وأصحاب المصاف^(٣)، يخرج الرجل من مصافه، فإذا قرب نزل وسلم عليه بالخلافة، فيأمره بالركوب، ويمضى^(٤)، حتى وصل إلى إبراهيم بن المهدي، فنزل وسلم عليه بالخلافة، فردّ عليه السلام، فقال: كيف أنت يا إبراهيم؟ وكيف حالك؟ وكيف كنت في أيامك؟ أركب. فركب، فلما جاوزه التفت إلى وقال: يا حمدون، قلت: ليّيك يا أمير المؤمنين، قال: تذكر! قلت: إى والله يا سيّدي، وأمسك، فنظرت^(٥) فيما قال، فلم أجدني أذكر شيئاً في ذلك الموضع ممّا يشبه ما كنت فيه، فنغض على يومي، وما رأيت من حسنه وسرورى بالمرتبة التي أهلتني بها، وقلت: الخلفاء لا يعاملون بالكذب، ولا يجوز أن يسألني عند انصرافه عن هذا الأمر. فلا يكون له عندي جواب ولا حقيقة، وتحوّفت أن ينالني منه مكروه، فلم أزل واجماً في طريقي إلى وقت انصرافه، ثم أجمعت على مغالطته إن أمكنني، وأعمل الحيلة في التخلص أن يسألني.

فلما استقرّ في مجلسه وبُسط السّماط، وجلس القوّاد على مراتبهم للطعام؛ أقبلت أخدم وأختلف، ليست لي همة غير ما كان قاله لي، لا أغفل عن ذلك حتى انقضى أمر السّماط ورفّع السّتر، ونهض أمير المؤمنين ودخل الحجرة ومضى إلى المرقد، فلم ألبث أن جاء الخادم وقال لي: أجب أمير المؤمنين.

فمضيت، فلما ضحك إلى وقال: يا حمدون، رأيت! قلت: نعم يا سيّدي، قد رأيت، فالحمد لله الذي بلغ بي هذا اليوم وأرانيه؛ فلما رأيت ولا سمعت لأحد من الخلفاء والملوك بأجل منه ولا أبهى ولا أحسن. قال: ويحك! رأيت إبراهيم بن المهدي! قلت: نعم يا سيّدي؛ قال: رأيت سلامة على وردى عليه ونزوله إلى؟ قلت: نعم، فقال: إنه لما كان من أمره ما كان - يعني الخلافة - قسم

(٤) (ك): «ومضى».

(٥) ك: «ففكرت».

(١) ك: «مثلها».

(٢) ك: «زينة».

(٣) ل، ل: «المصاحف».

الطريق في يوم عيد من منزله إلى المصلى، كقسمتى إِيَّاه في هذا اليوم بين قُوَّاده، فوقع موضعى منه الموضوع الذى كان به هذا اليوم، فلَمَّا حاذانى نزلتُ فسَلَّمْتُ عليه، فردُّ علىِّ مِثْل ما رددته حرفًا حرفًا على ما قال لى.

قال: فدعوتُ له، وانفرج عنى ما كنتُ فيه، وتخلَّى عنيَّ الغمَّ والكرب، ثم قال: يا حمدون، إني لم آكلُ شيئًا، وأنا أنتظر أن تأكلُ معى، فامض إلى حُجْرة الندماء، فإنك تجد إبراهيم هنالك، فاجلس إليه وعابته وضاحكه وأجر له هذا الحديث، وقل له: إنك رأيتَه في ذلك اليوم فعَل بي فِعْلِي به في هذا اليوم، وانظر إلى وجهه وكلامه، وما يكون منه فعرفنيه على حقيقته، واصدُقنى عنه وعَجَل ولا تحتبس.

قلت: نعم يا سيِّدى، فمضيتُ وقد دُفعتُ إلى أغلظِّ مَّا كنتُ فيه؛ لعلمى بأن إبراهيم لو كان من حجر لَأَثَرُ فيه هذا القول، وتغيرَ وظهر منه ما يكره، وخفتُ أن يأتى^(١) بما يُسْفِكُ به دمه، فمضيتُ حتى دخلتُ الحجرة، فجلستُ إلى إبراهيم، وفعلتُ ما أمرنى به، وأنا مبادر خوفًا من خادم يلحقنى^(٢) أو رسول؛ فلا يمكننى معه تحسين الأمر وما يبيظهر لى منه.

فقلتُ لإبراهيم: كيف رأيتَ يا سيِّدى هذا اليوم؟ أما أعجبتُك حسنة، وما كان في تعبئة أمير المؤمنين! إقال: بلى والله، إنه أعجبنى، فالحمد لله الذى بلغنيهِ وأرانيهِ؛ وأطنب في الدعاء للمعتصم، فلما أمسك قلتُ: يا سيِّدى، أذكركُ في أيامك، وقد ركبتُ فعبيتُ شبيهاً بهذه التَّعبية، وقسمتُ الطريقِ مِثْل هذه القسمة، فوقع لأمير المؤمنين الموضوع الذى وقع لك، واجتزتُ به فنزلَ إليك وسلِّم، فرددتُ عليه كردّه عليك في هذا اليوم؟ قال: فو الله إن كان إلا أن قلتُ: حتى اربد لونه، وجف ريقه، واعتقل لسانه، وبقي لا يتكلَّم بحرف ملياً، ثم قال بلسان ثقيل: لكأننى في ذلك الموضوع في ذلك اليوم! فالحمد لله الذى رأيتَه لأمير المؤمنين، فعل الله به وفَعَلَ!

قال: فتغنمتُ ذلك، وقمتُ وأنا ألتفت، ونهضتُ حتى أتيتُ المعتصم، فقال لى: هيه يا حمدون! فقلتُ: يا أمير المؤمنين، أتيتُ إبراهيم وقلتُ له ما أمرتنى به، فأظهر سروراً ودعاءً، وقال كيت وكيت، فقال: والله قال بحياتى! قلتُ: وحياتك يا أمير المؤمنين! قال: فكيف رأيتَ وجهه؟ فلم أدر ما أقول؛ فقلتُ: يا أمير المؤمنين، بالله لَمَّا تركتنى من وجه عمك الذى لا يتبين فيه فرح ولا حزن! فاستضحك، ثم أمسك.

وتخلَّص إبراهيم، ودعا بالطعام فأكلنا، ثم رقد فلما انتبه وجلس، دعا بإبراهيم وسائر الندماء، فشرَب وبرَّ إبراهيم وألطفه.

(١) لى: «أن يكون يأتى».

(٢) لى: «أن يلحقنى».

مساوىء التيقظ وتركه

قيل^(١) لبعض بني أمية: وما كان سبب زوال ملكهم؟ فقال: قلّة التيقظ، وشغلنا بلداتنا عن التفرغ لمهماتنا، ووثقنا بكفّاتنا فأثروا مرافقهم علينا وظلم عمّالنا رعيّتنا ففسدت نيّاتهم لنا. وحمل على أهل خراجنا؛ فقلّ دخلنا، وبطل عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا. واستدعاهم أعداؤنا فأعانوهم^(٢) علينا، وقصدنا بغائنا. فعجزنا عن دفعهم لقلّة أنصارنا^(٣). وكان أول زوال ملكنا استتار الأخبار عنا فزال ملكنا عنا بنا.

(١) ك: «وقيل».

(٢) ل: «فعانوهم» تصحيف.

(٣) ل: «نصارنا» وما أثبتته من ك.

مَحَاسِن الرُّسُل

يقال: إن ملوك العجم كانت إذا احتاجت إلى أن تختار من رعيّتها من يجعله رسولاً تمتحنه أولاً؛ بأن تُوجّهه إلى بعض خاصّتها، ثم تقدّم عيناً على الرسول يحضر ما يؤدّيه من الرسالة، ويكتبُ كلامه، فإذا رجع الرسول بالرسالة، جاء العين بما كتب من ألفاظه وأجوبته، فقابل بها الملك ألفاظ ذلك الرسول، فإن اتفقت معانيها عرّف بها الملك صحّة عقله، وصدق لهجته، ثم جعله رسولاً إلى عدوّه، وجعل عليه عيناً يحفظ ألفاظه ويكتبها، ثم يرفعها إلى الملك، فإن اتفق كلام الرسول وكلام عين الملك وعلم أن رسوله قد صدّقه عن عدوّه ولم يزد عليه، جعله رسولاً إلى ملوك الأمم، ووثق به، ثم بعد ذلك يقيم خبره مقام الحجّة، ويصدّق قوله.

وكان أردشير يقول: كم من دم سفّكه الرسول من غير جِلّه ولا حقّه! وكم من جيوش قد قتلت وعساكر قد انتهكت، ومال قد انتهب، وعهد قد نقض بجناية الرسول وأكاذيبه! وكان يقول: على الملك إذا وجّه رسولاً إلى ملك آخر أن يُردفه بآخر، وإن وجّه رسولين أتبعهما^(١) بآخرين، وإن أمكنه ألا يجتمع بينهما في طريق ولا ملاقة، وألا يتعارفا فيتفقا ويتواطأا في شيء، فعل.

ثم عليه إن أتاه رسول بكتاب أو رسالة من ملك في خير أو شرّ ألا يحدث حدّثاً في ذلك حتى يكتب إليه مع رسول آخر، ويحكى به^(٢) كتابه الأول حرفاً حرفاً، فإن الرسول ربما خرم ما أمل عليه، وافعل الكتب، وحرّص المرسل على المرسل إليه، وأغراه به، وكذب عليه ومنها قال أبو الأسود، وقد سَمِع رجلاً يُنشد:

إذا كنت في حاجة مُرسلاً فأرسل حكياً ولا توصه
[المتقارب]

فقال: قد أساء القول، أيعلم الغيب إذا لم يوصه! كيف يعلم ما في نفسه! ألا قال:

إذا أرسلت في أمر رسولاً فأفهمه وأرسله أديباً
ولا تترك وصيته لشيء وإن هو كان ذا عقل أريباً

(١) ك: «أن يتبعها».

(٢) ك: «له».

وإن ضيّعت ذاك فلا تلمه على أن لم يكن عِلْمَ الغيوب^(١)
[الوافر]

قال يحيى بن خالد البرمكي: ثلاثة أشياء تدلّ على عقول الرجال: الهدية والرسول، والكتاب.

(١) الخبير في الأغاني ١٦: ٨٢، ٨٣ عن حماد الراوية على هذا النحو: أنشدت أبا عطاء السندی في أثناء حديث هذا البيت فقال:

إذا كنت في حاجة مرسلًا فأرسل حكيما ولا توص
فقال أبو عطاء: بشيا قال! فقلت: كيف تقول أنت؟ قال أقول:
إذا أرسلت في أمر رسولاً فأفهمه وأرسله أدبنا
وإن ضيّعت ذاك فلا تلمه على أن لم يكن علم الغيوب

مَسَاوِيءُ الرَّسُولِ

وَحِكْمِي عَنِ الْإِسْكَندَرِ أَنَّهُ وَجَّهَ رَسُولًا إِلَى بَعْضِ مَلُوكِ الْمَشْرِقِ، فَجَاءَهُ رَسُولُهُ بِرِسَالَةٍ فَشَكَ فِي حَرْفٍ مِنْهَا، فَقَالَ لَهُ الْإِسْكَندَرُ: وَيْحَكَ! إِنْ الْمَلُوكَ لَا تَخْلُو مِنْ مَقْرُومٍ وَمَسَدِّدٍ إِذَا مَالَتْ بِطَانَتَهَا؛ وَقَدْ جِئْتَنِي بِرِسَالَةٍ صَحِيحَةِ الْأَلْفَاظِ بَيِّنَةِ الْعِبَارَةِ، غَيْرَ أَنْ فِيهَا حَرْفًا يَنْقُضُهَا^(١)، أَفَعَلَى يَقِينٍ أَنْتَ مِنْ هَذَا الْحَرْفِ أَوْ أَنْتَ شَاكٌ فِيهِ؟ فَقَالَ الرَّسُولُ: بَلْ عَلَيَّ يَقِينٌ. قَالَ: فَأَمَرَ الْإِسْكَندَرُ أَنْ تُكْتُبَ الْأَفَاظُ حَرْفًا حَرْفًا، وَتَعَادَ إِلَى الْمَلِكِ مَعَ رَسُولٍ آخَرَ، فَيَقْرَأُ عَلَيْهِ وَيَتَرْجِمُ لَهُ، فَلَمَّا قَرَأَ الْكِتَابَ عَلَى الْمَلِكِ؛ فَمَرَّ بِذَلِكَ الْحَرْفِ أَنْكَرَهُ، فَقَالَ لِلْمَتْرَجِمِ: ضَعْ يَدِي عَلَى هَذَا الْحَرْفِ، فَوَضَعَهَا، فَأَمَرَ أَنْ يَقْطَعَ ذَلِكَ الْحَرْفَ بِسِكِّينٍ، فَقَطَعَ مِنَ الْكِتَابِ، وَكُتِبَ إِلَى الْإِسْكَندَرِ رَأْسُ الْمَمْلُوكَةِ صَحَّةَ فَطْنَةِ الْمَلِكِ، وَأَسُّ الْمَلِكِ^(٢) صَدَقَ هُجَّةَ رَسُولِهِ؛ إِذْ كَانَ عَنِ لِسَانِهِ يُنْطَقُ، وَإِلَى أُذُنِهِ يُؤَدَّى، وَقَدْ قَطَعْتَ بِسِكِّينِي مَا لَمْ يَكُنْ مِنْ كَلَامِي؛ إِذْ لَمْ أَجِدْ إِلَى قَطْعِ لِسَانِ رَسُولِكَ سَبِيلًا.

فَلَمَّا جَاءَ الرَّسُولُ بِهَذَا إِلَى الْإِسْكَندَرِ، دَعَا الرَّسُولَ^(٣) الْأَوَّلَ، فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى كَلِمَةٍ أُرِدْتَ بِهَا فِسَادَ مَلِكَيْنِ؟ فَأَقْرَأَ الرَّسُولُ أَنْ ذَلِكَ كَانَ لِقِصْرِ رَأْيِهِ مِنَ الْمَوْجِهِ إِلَيْهِ. قَالَ الْإِسْكَندَرُ: فَأَرَاكَ سَعَيْتَ لِنَفْسِكَ لَا لَنَا، فَلَمَّا فَاتَكَ بَعْضُ مَا أَمَلْتَ جَعَلْتَ ذَلِكَ نَارًا فِي الْأَنْفُسِ الْخَطِيرَةِ الرَّفِيعَةِ ثُمَّ أَمَرَ بِلِسَانِهِ فَنَزَعَ مِنْ قَفَاهُ.

(٣) ك: «بالرسول».

(١) ك: «ينقضها».

(٢) ك: «المملكة».

محاسن الحجاب

يقال: إن ملوك العجم كانت تأخذ أبناءها بأن يعاملوها بما تعامل به عبدها، وألا يدخل أحد من الولد عليها إلا عن إذنها؛ وأن يكون الحجاب عليهم أغلظ منهم على من دوتهم من بطانتها وخدمها، لئلا تحملهم الدالة على تعدى ميزان الحق؛ فإنه يقال: إن يزيدجرد، رأى بهرام بوضع لم يكن له، فقال له: مررت بالحاجب؟ قال: نعم، قال: وعلم بدخولك؟ قال: نعم، قال: فاخرج إليه فاضربه ثلاثين سوطاً، ونحّه عن الستر، ووكل بالحجاب أزازمرد. ففعل بهرام ذلك، وهو إذ ذاك ابن ثلاث عشرة سنة، ولم يعلم الحاجب فيم غضب عليه الملك!

فلما جاء بهرام بعد ذلك ليُدخل^(١)، دفع أزازمرد في صدره دفعةً أوقده^(٢) منها، وقال له: إن رأيتك بهذا الموضع ضربتك ستين سوطاً لجنايتك على الحاجب الأول، وثلاثين لئلا تطمع في الجنابة على. فبلغ ذلك يزيدجرد، فدعا بأزازمرد، فخلع عليه ووصله.

ويقال: إن يزيد بن معاوية كان بينه وبين أبيه باب، فكان إذا أراد الدخول عليه قال لبعض جواريه: انظري هل تحرك أمير المؤمنين؟ فجاءت الجارية حتى فتحت الباب، ومعاوية قاعدٌ في حجره مُصْحَفٌ، وبين يديه جاريةٌ تصفح^(٣) عليه، فأخبرت يزيد بذلك، فجاء يزيد حتى دخل على معاوية، فقال: يا بُني، إنما جعلت بيني وبينك باباً كما بيني وبين العامة؛ لتدخل على وقت إذتك، فهل ترى أحداً يدخل على من ذلك الباب؟ قال: لا؛ قال: فكذلك إذتك.

وذكروا أن موسى الهادي دخل على المهدي وهو خليفة، فزبره^(٤) الحاجب، وقال: إياك أن تعود إلى مثلها إلا بإذن أمير المؤمنين لخاصته!

وذكروا أن المأمون لما اشتد به الوجع، سأل بعض بنيه الحاجب أن يُدخِله عليه ليراه، فقال: لا، والله ما إلى ذلك سبيل، ولكن إن شئت أن تراه من حيث لا يراك، فاطلّع عليه من ثقب في ذلك الباب فجاء حتى اطلع عليه، وتأمّله وانصرف.

وحكى عن إيتاخ أنه بصر بالواتق في حياة المعتصم واقفاً في موضع لم يكن له أن يقرب منه،

(٣) ك: «تصلح بذلك».

(٤) ك: «فزجره».

(١) ل: «أن يدخل».

(٢) أوقده: تركه عليلاً.

ولا أن يقف به، فزبره وقال: تنح، فوالله لولا أني لم أتقدم إليك لضربتك مائة سوط.

وكانت الأعاجم تقول: ما شيء بأضيق للمملكة، ولا أضيغ للرعية من صعوبة الحجاب، ولا شيء أهيب للرعية من سهولة الحجاب لأن الرعية إذا وثقت من الوالى بسهولة الحجاب، أحجمت عن الظلم، وإذا وثقت منه بصعوبة الحجاب، هجمت على الظلم، وركب القوى منهم الضعيف، فخيرٌ خلال السلطان سهولة الحجاب.

قال: وقال خالد بن عبد الله القسري: لا يجيب الوالى إلا ثلاث خصال: إمّا رجلٌ عيٌّ فهو يكره أن يعرف الناسُ منه ذلك، وإمّا رجلٌ مشتمل على سوءه^(١) فهو يكره أن يطّلع الناس على ذلك فيه، وإمّا رجلٌ يكره مسألة^(٢) الناس إياه.

قيل: واستأذن أبو سفيان بن حرب على عثمان بن عفان رحمه الله فحجبه، فقيل له: حجبك أمير المؤمنين! فقال: لا عدمت من قومي من إذا شاء حجبتى^(٣).

قال: وقال الرشيد لبشير بن ميمون لما ولّاه الحجية: يا بشر، صنّ طلاقة اسمك بحسن فعلك، واحجّب عني من إذا قعد أطل، وإذا طلب أجال فكره، ولا تستخفن بذوى المروءة والحرمّة، فإنهم إن مدحوا تلبوا، وإن ذموا أزالوا.

وذكروا عن الربيع الحاجب، أن المنصور دعا محمد بن عيسى بن علي إلى الغداء، فقال: يا أمير المؤمنين، قد أكلت. فلما خرج أخذه الربيع، وحمله على ظهر رجل، وضربه كما يضرب الصبيان. فظن أهل بيته أن المنصور أمره بذلك، فخرج يبكي إلى أبيه، فجاء أبوه عيسى بن علي، فخلع سيفه بين يدي المنصور، وصاح، فقال: ما أمرت بذلك، ولم يفعل الربيع ذلك^(٤) إلا لأمر فلما سئل الربيع عن ذلك قال: أمرته أن يتغدى معك، فقال قد أكلت، وإنما دعوته لتشرّفه وترفع منه، ولم تدعه لتشيّعه^(٥)، فأدبته إذ لم يؤدبه أبوه، فقال المنصور أحسنت! قد علمت أنك لا تحطى.

قال: وقال المهدي للفضل بن الربيع حين ولّاه الحجية: إنى موليك ستر وجهي وكشفه، فلا تجعل الستر بيني وبين الناس سبب إراقة دماثهم بعبوس وجهك في وجوههم، فإن لهم دالة الحرمّة وحرمّة الاتصال، وقدم أبناء الدعوة، وثن بالأولياء، واجعل للعامة وقتاً إذا وصلوا أعجلهم ضيقه عن التلبث والتمكث.

(٤) ك: «ما ذكرت».

(٥) ل: «تشيع منه».

(١) ك: «سوء».

(٢) ك: «مسألة».

(٣) الخبر في المقدّم ١: ٧٣.

وكان أول من حَجَّبه الحسنُ بنُ عثمان، ثم الفضلُ بنُ الربيع، وكان الهادي وليَّ حجَّبه الفضل بن الربيع بعد الربيع، وقال له: لا تحجَّب عني الناس، فإنَّ ذلك يُزيل عني التزكية، ولا تُلقني إلى أمرًا إذا كشفتهُ وجدته باطلاً، فإنَّ ذلك يُوهن الملك، ويضُرُّ بالرَّعيَّة.

قيل: وقال الواثق لابن أبي دُواد: مَنْ أولى النَّاس بالحجبة؟ فقال: مولى شقيق يصون بطلاقة وجهه من ولاءه، ويستعبد النَّاس لمولاه، فنظر إلى إيتاخ - وكان واقفاً على رأسه - فقال: قد ولاءك أبو عبد الله الحجبة، فكان إيتاخ يَعرف ذلك له، ويتقدَّم بين يديه إلى أن يبلغ مرتبته.

قال: وقال رجلٌ لزياد: إنَّ حاجبك؛ إنما يبدأ بالإذن لمعارفه، فقال: قد أحسن، المعرفة تنفع عند الكلب العقور والأسد الهصور، وبين الحسي البعير الصئول؛ كُن من معارفه، فقد قيل: التعارف (١) نسب، وقبح الله معرفة لا تنفع!

وكان ليحيى بن خالد حاجبٌ قبل الوزارة، فلما صار إلى الوزارة (٢) رأى كأنه تتأقل عن حجابته فقيل له: لو اتَّخَذتَ حاجباً غيره! قال: كلاً هذا يعرف إخواني القدماء.

وقال الشاعر في مثله:

هَشُّ إِذَا نَزَلَ الْوَفُودُ بِيَابِهِ سَهْلُ الْحِجَابِ مُؤَدَّبُ الْخُدَامِ
وَإِذَا رَأَيْتَ شَقِيقَهُ وَصَدِيقَهُ لَمْ تَدْرِ أَيُّهُمَا أَخُو الْأَرْحَامِ!

[الكامل]

وقال، خيط القنديل في محمد بن عبد الله بن طاهر:

يَأْتِيهَا الْمَلِكُ الْمَحْجُوبُ أَمَلُهُ وَرَاءَ بَابِكَ هُمْ غَيْرُ مُشْتَرِكِ
وَكَمْ أَقُولُ فَلَا يَجِدُنِي فَيَنْجِدُنِي وَلَا أَرَى مُدْنِيًّا مِنْ قِبَةِ الْمَلِكِ
وَقَدْ تَحَصَّنَ مِنِّي فِي مُحَصَّنَةٍ خَلَقَاءُ خَلْفِ وَشِيخِ السُّمْرِ وَالْحَسَكِ
أَصْبَحْتُ كَالشَّمْسِ لَا تَخْفَى عَلَى أَحَدٍ لَكِنْ مَطْلَمُهَا فِي سُرَّةِ الْفَلَكِ
بِالْيَتِ رِيحَ سَلِيمَانَ مَسْخَرَةً إِلَيْهِ تَحْمَلُنِي أَوْ مَنْكِبِي مَلِكِ
فَلَسْتُ دُونَ أَنْبَاسٍ كَانَ سَهْمُهُمْ سَهْمُ النَّجِيحِ فَنَالُوا غَايَةَ الدَّرَكِ
فَإِنْ ظَلِمْتُ وَلَمْ أَنْصَفْ فَقَدْ ظَلِمْتُ بِنْتُ النَّبِيِّ - كَمَا قَدْ قِيلَ - فِي فَدَكِ (٣)

[البيسط]

(٢) ك: «رآه».

(١) ك: «المعارف».

(٣) فدك: قرية بالحجاز؛ بينها وبين المدينة يومان؛ أفامها الله على رسوله ﷺ في سنة سبع صلحاً وفيه عين فوارة ونخيل كثيرة؛ وهي التي قالت فاطمة: إن رسول الله نحلنيها وانظر معجم البلدان ٧: ٣٤٣.

مَسَاوِيءُ الْحِجَبَةِ

قال ثمامة^(١): جَلَسَ المأمونُ يوماً وقد حَضَرَ الناسَ، فأمرَ عليَّ بنَ صالحٍ بإدخالِ إسماعيلِ بنِ موسى فغَلِطَ وأدخلَ إسماعيلَ بنَ جعفرٍ، وكان المأمونُ من أشدِّ الناسِ له^(٢) بغضاً، فرفعَ يده إلى السماء فقال: اللهم أبدلني بعلي بن صالحٍ مطيعاً ناصحاً، فإنه بصداقته لهذا أثرٌ هَوَاهُ على هَوَايَ.

فلَمَّا دنا قَبِلَ يده فقال: هاتِ حوائجَكَ، فقال: صَبِعَتِ بالفتنة قَهْرُتْهَا وَغُصِبَتْ عَلَيْهَا. فأمرَ برَدِّهَا عليه، ثم قال: اذكرِ حاجتَكَ، فقال: دَيْنٌ كثيرٌ قد لحِقَتْنِي في جفوة أمير المؤمنين إِيَّايَ، فأمرَ بقضاءِ دَيْنِهِ. وقال: ما حاجتَكَ؟ قال: يأذنُ لي أميرُ المؤمنين في الحجِّ، قال: قد أذنا لك ما حاجتَكَ؟ قال: يأذنُ لي أميرُ المؤمنين في الحجِّ، قال: قد أذنا لك وحاجتَكَ^(٣) أيضاً؟ قال: وقفَ أبي كان في يدي، فأخْرِجْ عَنِّي قال: يرِدُ^(٤) عليك إن رَضِيَ ورثتُه أبيكَ^(٥).

ثم قال: الذي أمكنا في أمرِك قد جُدنا به، ووقفَ أبيكَ إلى ورثتِهِ. ثم قال لعليَّ بن صالحٍ: يا عبدَ الله، مالي ولك، متى رأيتني أنشطُ لإسماعيلِ بن جعفرٍ، وهو صاحبي بالأمس بالبصرة! قال: يا أمير المؤمنين، ذهبَ عني إسماعيلُ بنُ موسى، قال: ذهبَ عنك ما كان يجبُ عليك حفظُه، وحفظتَ ما كان يجبُ ألا تحفظَه، فأبما إذا أخطأتَ فلا تُعلمِ إسماعيلَ بن جعفرٍ القصةَ. فظنَّ أنه عَنَى إسماعيلَ بن موسى، فأخبرَ إسماعيلَ بن جعفرٍ حَرْفاً حَرْفاً، فأذاعها إسماعيلُ وبلغَ المأمونَ فقال: الحمد لله الذي وهبَ لي هذه الأخلاقَ التي احتملَ عليها عليُّ بن صالحٍ، وأبا عمران الطوسيَّ، ومُحمَّد بن عبد الحميد، ومنصور بن النعمان.

وحدَّثنا مسعودُ بنُ بشرٍ عن ابنِ داحية^(٥) قال: خرجَ إلينا يعقوبُ بن داودَ من عند المهدِي، ونحن على بابِه، فقال: ما صَدُرَ هذا البيتُ:

* ومُحْتَرَسٍ مِنْ مِثْلِهِ وَهُوَ حَارِسٌ *

فإنَّ أمير المؤمنين سألَ عنه. فلم يكن عند أحد منهم جوابٌ. فقلتُ أنا أخبرك، قال البردختُ الشاعرُ - والبردختُ^(٦) الفارغُ، بالفارسية:

(١) هو ثمامة بن أشرس: أحد كبار المعتزلة؛ وكان له اتصال بالرشيدي؛ ثم بالمأمون من بعده؛ وأراد أن يستوزره فاستعفا، وله نوادر وأخبار. تاريخ بغداد ٧: ١٤٥.
(٢) ل: «عليه».
(٣) ل: «عليه».
(٤) ل: «حاجتَكَ»، بدون «ما».
(٥) ط: «داجة» تصحيف.
(٦) واسمُه علي بن خالد، وانظر معجمالشعراء ١٣٦، ١٤٣.

أَقْلَى عَلَيْكَ اللَّوْمَ يَا أُمَّ مَالِكٍ وَدُمَى زَمَانًا سَادَ فِيهِ الْفَلَافِيسُ
كَسَاعٍ إِلَى السُّلْطَانِ لَيْسَ بِنَاصِحٍ وَمُحْتَرَسٍ مِنْ مِثْلِهِ وَهُوَ حَارِسُ
[الطويل]

الفلافيسُ من بني نهشل بن دارم، كوفي، وكان على شرطة الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي.

وقال الأشهب^(١) بن رُمَيْلة النَّهْشَلِيّ:

يَا حَارِ يَا بَنَ أَبِي رَبِيعَةَ إِنَّهُ يَزْنِي^(٢) إِذَا اخْتَلَطَ الظَّلَامُ وَيَشْرَبُ
جَعَلَ الْفَلَافِيسُ حَاجِبِينَ لِبَابِهِ سَبْحَانَ مَنْ جَعَلَ الْفَلَافِيسَ يُحْجِبُ!
[الكامل]

فدعا به الحارث، وقال: قد علمتُ أنه كَذَبٌ عليك، ولكن لا حاجة لي فيك، فاخرج عني.
وقال الشاعر^(٣) في مثله:

سَأْتُرُكَ هَذَا الْبَابَ مَا دَامَ إِذْنُهُ عَلَى مَا أَرَى حَتَّى تَلِينَ قَلِيلًا
إِذَا لَمْ نَجِدْ لِلْإِذْنِ عِنْدَكَ مَوْضِعًا وَجَدْنَا إِلَى تَرْكِ الْمَجِيءِ سَبِيلًا

وقال آخر:

سَأْتُرُكَ بَابًا أَنْتَ تَمْلِكُ إِذْنَهُ وَإِنْ كُنْتُ أَعْمَى عَنْ جَمِيعِ الْمَسَالِكِ^(٤)
فَلَوْ كُنْتُ بَوَابَ الْجَنَانِ تَرْكُهَا وَحَوَّلْتُ رِجْلِي مُسْرَعًا نَحْوَ مَالِكِ
[الطويل]

وكتب أبو العتاهية إلى أحمد بن يوسف:

لَنْ عُدْتُ بَعْدَ الْيَوْمِ إِنْ لَظَلَمْتُ سَأَصْرَفُ وَجْهِي حَيْثُ تُبْعَى الْمَكَارِمُ^(٥)
مَتَى يَنْجَحُ الْغَادِي لَدَيْكَ بِحَاجَةٍ وَنَصْفُكَ مَحْجُوبٌ وَنَصْفُكَ نَائِمٌ!
وكتب رجل إلى عبد الله بن طاهر^(٦):

إِذَا كَانَ الْجَوَادُ لَهُ حِجَابٌ فَمَا فَضَّلُ الْجَوَادِ عَلَى الْبَيْخِيلِ!
[الوافر]

(١) ورد الاسم في الأصول مصحفاً، وانظر اللآل ٣٤.

(٢) ك: «يرنو».

(٣) العقد، ونسبها إلى أبي تمام ونسبها صاحب محاضرات الأدياء ١: ١٠٢ إلى محمد بن عمران.

(٤) المستطرف ١: ٩٣ من غير نسبة.

(٥) العقد ١: ٨٥، ٨٦، وذكر أنه قالها في بعض الهاشميين.

(٦) العقد ١: ٨٦، وفيه: «وقف رجل بباب أبي دلف».

فأجابه (١) :

فحال السّتر دُونَكَ والحجابُ
وإن كَرهوا كما يقع الذُّبابُ
[الوافر]

أنتيك زائراً لقضاء حقِّ
ولست بساقطٍ في قَدْرِ قَوْمٍ

وقال آخر:

بما فيه، وأرْشُو الحاجِبِينَ
وأدخل إن دخلتُ بِدِرْهَمِينَ
[الوافر]

وأحْضُرُ باب إبراهيمَ جَهلاً
فأخرج إن خرجتُ بغير شيءٍ

وقال آخر:

سَوادٌ بأظْفارِهِ رَاتِبُ
فإسْكَافُنَا كَاتِبُ حَاسِبُ
وليس لبابِ استِهِ حاجِبُ
[المتقارب]

يَدُلُّ على أَنه كَاتِبُ
فإن كان هذا دليلاً لَهُ
حِجَابٌ شَدِيدٌ لأبوابِهِ

وقال آخر:

ونزَعُ نفسٍ وردُّ أَمْسِرِ
وفَقَدُ إلفٍ وإلفِ فَلْسِرِ
ودَبِعُ جِلْدٍ بغيرِ شَمْسِ
وكلِ غَمٍّ ويومٍ نَحْسِرِ
ويَبِعُ جارٍ بِرُبعِ فَلْسِرِ
يَلْقَاكَ بُوأيه بَعْسِرِ
[المتقارب]

لَقَعَ ضرسٍ وَضَنكَ حَبْسِرِ
وأكلُ كَفٍ وَضَيْقُ خُفِ
وقَوْدُ قِرْدٍ ونَسَجُ بُرْدِ
وشَرْبُ سُمٍّ وَقَتِيلِ عَمِ
ونَفْخُ نارٍ وَحَمَلِ عَارِ
أيسرُ من قَفَةِ بِبَابِ

وقال أيضاً:

ورأيتني أُجْفَى بِبَابِكَ
وحَجَبْتُ نفسي عن حجابك
[مجزوء الكامل]

لما رأيتك ذاهباً
عديتُ رأسَ مَطِيَّتِي (٢)

وقال آخر:

لقد أصبحتُ في الشرفِ اللَّبابِ
فقلتُ لها: وَقَفْتِ بِأَيِّ بابٍ!
ويَسْتَلِبُ العُراقُ من الكلابِ (٣)
[الوافر]

لئن كان التشرفُ في الحجابِ
لقد عاتبتُ نفسي في وقوفِ
بِبَابِ تُسَلِّبُ الموقِ عَلَيْهِ

(١) في العقد: «فأجابه أبو دلف». (٢) ك: «عدبت». (٣) العراق: ألعظم أكل لحمه.

منصور بن باذان:

أَمَا وَزَمِرِ ابْنِ شَيْبَةَ
كَأَمَّا شَعْرُ قِرْدٍ
وَوَجْهُهُ حِينَ يَبْدُو
لِئِنْ أَطَلَّتْ حِجَابِي
وَكَيْفَ تَبْنِي الْمَعَالِي
وَهَلْ يَكُونُ كَرِيماً
وَقُبْحِ لِحْيَةِ عُقْبَةَ
مُاصِّقُ حَوْلِ ذَنْبِهِ (١)
كَقُبْحِ أَوْلَى شَرِبَهُ
مَا أَنْتَ إِلَّا ابْنُ قَحْبَةَ
يَا نَجِلْ كَلْبَ لِكَلْبِهِ
يَا قَوْمَ حَمَالٍ قَرِبَهُ
[المجتث]

وله أيضاً:

يَا ذَا الَّذِي قَصَرَ فِي مَجْدِهِ
أَقْسَمْتُ لَا أَقْرَبُ بَابَ امْرِئٍ
فَأَدْخَلَ اللَّهُ رُؤْيَى امْرِئٍ
وَزَادَ فِي عِدَّةِ حُجَابِهِ
يَحْجُبُنِي الْبُؤَابَ عَنْ بَابِهِ
يَحْجُبُ مِثْلِي فِي أَسْتِ بُؤَابِهِ
[السريع]

* * *

ولأبي عبد الله مريفة في علي بن أحمد المعروف بابن الحواري، شاعر، وكان حجبه فتمعرض له وقد ركب، فقال:

أَسْأَلُ الَّذِي صَرَفَ الْأَعْيُنَةَ
وَأَرَاكَ نَفْسَكَ دَائِماً
وَأَذَلَّ مَوْقِفِي الْعَزِيزَ
أَلَّا يُطِيلَ تَجَرَّعِي
بِالْمَوَاكِبِ نَحْوَ بَابِكَ
مَا لَمْ يَكُنْ لَكَ فِي حَسَابِكَ
عَلَى فِي أَقْصَى رَجَائِكَ
غُصَصُ الْمَنِيَةِ مِنْ حِجَابِكَ
[مجزوء الكامل]

(١) الذنبة، بالتحريك: الذنب، وسكن للضرورة.

محاسن الولايات

قال إبراهيم بن السندی: بعث إلى المأمون فأتيته، فقال: يا إبراهيم، إنى أريدك لأمر جليل، والله ما شاورت فيه أحداً، ولا أشار بك أحد؛ فاتق الله ولا تفضحنى. فقلت: يا سيدي، لو كنت شرّاً خلق الله ما تركت موضع قادح^(١)، فكيف ونبئت في طاعة أمير المؤمنين نية العبد الذليل لمولاه! قال: قد رأيت أن أولئك خير ما وراء باب دارى، فانظر أن تعمل بما يجب^(٢) عليك الله جلّ وعزّ ولى، ولا تراقب أحداً، فقلت: يا سيدي، فإنى أستعين بالله عزّ وجلّ على مرّضاته ومرّضاتك.

فبعثت أصحاب الأخبار في الأرباع ببغداد، فرفع إلى^(٣) بعضهم أن صاحب ربع الحوض أخذ امرأة مسلمة مع رجل نصراني من تجار الكرخ، فافتدى نفسه بألف دينار، فرفعت إليه ذلك، فدعا عبدالله بن طاهر؛ فقال له: انظر في هذا الذى رفعه^(٤) صاحب الخبر، فقراه، وقال: رفع يا أمير المؤمني الباطل والزور؛ وأغراه بى، ففعل^(٥) قوله فى، وملا قلبه.

فبعث إلى وقال: يا إبراهيم، ترفع إلى الكذب، وتحملنى على عمالى افكبت رقة دفعتها إلى فتح الخادم ليوصلها إليه، قلت فيها: إنما يحضر الأخبار في الأرباع المرأة والطفل، وابن السبيل، وغير ذلك. ولو كانت الأخبار لا ترفع إلا بشهود عدول ما صحّ خير ولا كتب به، ولكن تجرى الأخبار أن يحضرها قوم على غير تواطؤ، فإن أمرنى أمير المؤمنين ألا أكتب إليه بخبر إلا بعدول وبرهان فعلت ذلك، وعلى هذا فلا يرتفع في السنة خبر واحد.

فلما قرأ الرقعة فكر فيها ليلته، وجاءنى رسوله مع طلوع الشمس، فأتيته من باب الحمام، فلما رأتى قال: اطمنن، وقام فصلى ركعتين أطال فيها، ثم سلم والتفت إلى وليس في المجلس غيرى، فقال: يا إبراهيم، إنما قمت للصلاة ليسكن بهرك، ويقوى^(٦) متتك، ويفرخ^(٧) روعك، فتمكن فى قعودك - وكنت قاعداً على ركبتي - فقلت: لا أضع قدر الخلافة يا سيدي، ولا أجلس إلا جلوس العبد بين يدي مولاه! ثم قام فصلى ركعتين دون الأولين ثم قال: هذه رقتك تحت رأسى قد قرأتها أربع مرّات، وقد صدقت فيها كتب به، ولكنى امرؤ أدارى عمالى مداراة الخائف، وبالله ما أجد إلى أن أحملهم على المحجة البيضاء سبيلاً، فاعمل على حسب ذلك ولن لهم تسلّم منهم، وفي حفظ الله إذا شئت.

(٥) ك: «فعل».

(٦) ل: «وتقوى متتك».

(٧) ط: «وفرخ».

(١) ل: «قادح».

(٢) ك: «يجب».

(٣) ك: «رفع لى».

(٤) ك: «رفعها لى».

فانصرفت، فدعوت أصحاب الأخبار، فتقدمت إليهم في مداراة القوم والرفق بهم واللين لهم.

وعن إسحاق بن أيوب بن جعفر بن سليمان، قال: دخل محمد بن واضح دار المأمون، وخلفه أكثر من خمسمائة راكب كلهم راغب إليه، وراهب منه، وهو إذ ذاك يلي أعمالاً من أعمال السواد. فدعا به المأمون فقال: يا أمير المؤمنين، أعفني من عمل كذا وكذا؛ فإنه لا قوة لي عليه. فقال: قد أعفيتك واستعفى من عمل آخر، وهو يظن أنه لا يعفيه، فأعفاه حتى خرج من كل عمل في يده في أقل من ساعة؛ وهو قائم على رجله^(١)، فخرج وما في يده شيء من عمله، فقال المأمون لسالم الحواتجي: إذا خرج فانظر إلى موكبه، وأحص من معه - وكان المأمون قد رآه من مستشرق له حين أقبل - فخرج سالم وقد استفاض الخبر بعزله عن عمله، فنظر فإذا هو لا يتبعه [أحد]^(٢) إلا غلام له بغاشية، فرجع إلى المأمون فأخبره، فقال: ويلهم! لو تجملوا له ريشاً يرجع إلى بيته كما خرج منه! ثم تمثل فيهم:

وَمَنْ يَجْعَلُ الْمَعْرُوفَ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ يُلَاقِي الَّذِي لَاقَى مُجِيرُ أُمِّ عَامِرٍ
ثم قال: صدق رسول الله وكان للصدق أهلاً حين قال: «لا تنفع الصنعة إلا عند ذي حسب أو

دين».

وذكروا أنه كان سبب عزل الحجاج عن الحجاز^(٣)، أنه وفد وفد منهم - فيهم عيسى بن طلحة بن عبيد الله - على عبد الملك بن مروان، فأتوا على الحجاج وعيسى ساكت، فلما قاموا ثبت عيسى حتى خلا له وجه عبد الملك، فقام وجلس بين يديه، فقال: يا أمير المؤمنين، من أنا؟ قال: عيسى بن طلحة بن عبيد الله. قال: فمن أنت؟ قال: عبد الملك بن مروان. قال: أفجهلتنا أو تغيرت بعدنا؟ قال: وما ذاك؟ قال: وليت علينا الحجاج يسير فينا بالباطل، ويحلمنا على أن نثنى عليه بغير الحق^(٤)، والله لئن أعدته علينا لنعصينك، فإن قاتلتنا وغلبتنا وأسأت إلينا قطعت أرحامنا، ولئن قويننا عليك لنفصنك ملكك.

قال: فانصرف وأزرم بيتك، ولا تذكرن من هذا شيئاً.

قال: فقدم إلى منزله، وأصبح الحجاج غادياً على الوفد في منازلهم يميزهم الخير، ثم أتى^(٥) عيسى بن طلحة فقال: جزاك الله عن خلوتك بأمر المؤمنين خيراً! فقد أبدلني^(٦) بكم خيراً لي منكم، وأبدلكم بي غيري، وولاني العراق^(٧).

(١) ك: «واقى».

(٢) ك: «بدلني».

(٣) الخير في المحاسن والأضداد ٦٣، ٦٤.

(٤) المحاسن والأضداد: «المدنية».

(٥) كذا في المحاسن والأضداد، وفي ك ل: «بالحق».

وعن الوضاحي، عن معمر بن وهيب، قال: كان عبد الملك عندما استعفى أهل العراق من الحجاج بن يوسف قال لهم: اختاروا أي هذين شتمتم؟ يعني أخاه محمد بن مروان، أو ابنه عبد الله، مكان الحجاج.

فكتب إليه الحجاج: يا أمير المؤمنين، إن أهل العراق استعفوا من سعيد بن العاص إلى عثمان بن عفان، فأعفاهم منه، فساروا إليه من قابل فقتلوه. فقال عبد الملك: صدق ورب الكعبة! وكتب إلى محمد وعبد الله بالسمع والطاعة له^(١).

(١) الخبر في المحاسن والأضداد ٦٤.

مَسَاوِيءُ الْوَلَايَاتِ

قال: كتب عبد الصمد بن المعدل إلى صديق له وَلِيَّ النَّفَاطَاتِ فَأَظْهَرَ تَيْهًا:

لَعَمْرِي لَقَدْ أَظْهَرْتَ تَيْهًا كَأَنَّمَا
تَوَلَّيْتَ لِلْفَضْلِ بِنَ مَرَّانٍ مَنِيرًا^(١)
وَمَا كُنْتُ أَخْشَى لَوْ وَلَّيْتَ مَكَانَهُ
عَلَى أبا العباس أن تتغيرًا
بِحَفِظِ عَيُونِ النَّفِطِ أَحْدَثَتْ نَخْوَةً
فَكَيْفَ بِهِ لَوْ كَانَ مِسْكًَا وَعَنْبِرًا!
دَعِ الْكِبَرَ وَاسْتَبِقِ التَّوَاضُعَ إِنَّهُ
قَبِيحٌ بَوَالِي النَّفْطِ أَنْ يَتَكَبَّرَا^(٢)
[الطويل]

قال: وسئل عمار بن ياسر عن الولايات؟ فقال: هي حُلوة الرُّضَاعِ، مُرَّةُ الْفِطَامِ.

ولابن المعتز في مثله:

كَمْ تَائِيَةً بَوْلَايَةً وَبِعِزْلِهِ يَعْذُو الْبَرِيدُ^(٣)
سُكْرُ الْوَلَايَةِ طَيِّبٌ وَخَمَارُهَا صَفْعٌ شَدِيدُ^(٤)
[مجزوء - الكامل]

ولغيره:

لَا تَجْزَعَنَّ فَكُلُّ وَالٍ يُعْزَلُ وَكَمَا عُرِّزَتْ فَعَن قَرِيبٌ يُعْزَلُ^(٥)
إِنَّ الْوَلَايَةَ لَا تَدُومُ لَوَاحِدٍ إِنْ كُنْتَ تَنْكِرُهُ فَأَيُّنِ الْأَوَّلُ!
وَكَذَا الزَّمَانُ بِمَا يَسْرُكُ تَارَةً وَبِمَا يَسُوءُكَ مَرَّةً يَنْقَلُ
[الكامل]

(١) المعاسن والأضداد ٦٤: «عكبراً».

(٢) المعاسن والأضداد «يتغيراً».

(٣) المعاسن والأضداد ٦٥.

(٤) المعاسن والأضداد «صعب».

(٥) المعاسن والأضداد ٦٥. والرواية هناك «يقتل».

مَحَاسِنُ بَعْدَ الْهَمَّةِ

قال: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ إِسْحَاقَ التُّسْتَرِيُّ قَالَ: دَخَلَ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي ذُوَادٍ عَلَى الْوَاتِقِ، فَقَالَ لَهُ الْوَاتِقُ بِاللَّهِ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، إِنِّي حَيِّثُ فِي يَمِينٍ؛ فَمَا كَفَّارَتُهَا؟ فَقَالَ: مِائَةُ أَلْفِ دِينَارٍ. فَقَالَ ابْنُ الزِّيَّاتِ: وَاللَّهِ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْكُفَّارَاتِ، إِنَّمَا قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ - وَتَلَا آيَةَ فِي كَفَّارَةِ الْإِيمَانِ ^(١) - فَقَالَ: تِلْكَ كَفَّارَةٌ مِثْلُهُ فِي بَعْدِ هَمَّتِهِ وَجَلَالَةِ قَدْرِهِ، أَوْ مِثْلَ آبَائِهِ، إِنَّمَا تَكُونُ كَفَّارَةُ الْيَمِينِ عَلَى قَدْرِ جَلَالَةِ اللَّهِ مِنْ قَلْبِ الْحَالِفِ بِهَا، وَلَا نَعْلَمُ أَحَدًا، اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ فِي قَلْبِهِ أَجَلَ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ. فَقَالَ الْوَاتِقُ: تُحْمَلُ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ يَتَصَدَّقُ بِهَا ^(٢).

قال: ودعا يحيى بن خالد البرمكي ابنه إبراهيم يوماً - وكان يسمى دينار بن برمك لجماله وحسنه - ودعا بؤديه وبين كان ضم إليه من كتابه وأحبابه ^(٣)، فقال: ما حال ابني هذا؟ قالوا: قد بلغ من الأدب كذا وكذا، ونظر في كذا وكذا. قال: ليس عن هذا سألت، قالوا: قد اتخذنا له من الضياع كذا، وغلته كذا، قال: ولا عن هذا سألت، إنما سألت عن بعد همته، وهل اتخذتم له في أعناق الرجال منناً، وحببتموه إلى الناس؟ قالوا: لا، قال: فبنس العشاء أنتم والأصحاب! هو والله إلى هذا أحوج منه إلى ما قلتم ثم أمر بحمل خمسمائة ألف درهم إليه، ففرقت على قوم لا يدرى من هم.

قال: وقال المأمون لولده؛ وعنده عمرو بن مسعدة ويحيى بن أكرم: اعتبروا في علو الهمة بمن ترون من وزرائي وخاصتي، إنهم والله ما بلغوا مراتبهم عندي إلا بأنفسهم، إنه من تبع منكم صغار الأمور تبعه التصغير والتحقيق، وكان قليل ما يفقد من كبارها أكثر من كثير ما يستدرك من الصغار، فترفعوا عن دناءة الهمة، وترفعوا للجلال الأمور والتدبير، واستكفوا الثقات، وكونوا مثل كرام السباع التي لا تشغل بصغار الطير والوحش، بل بجليلها وكبارها. واعلموا أن أقدامكم إن لم تتقدم بكم فإن قائدكم لا يقدمكم، ولا يغني الولي عنكم شيئاً ما لم تعطوه حقه، وأنشده ^(٤):

نحن الذين إذا تخمط عصبته من معشر كنا لها أنكالا ^(٥)

(١) هو قوله تعالى في سورة المائدة من الآية ٨٩: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا خَلَقْتُمْ﴾.

(٢) كذا في ك، وفي ل: «ليصدق».

(٤) ك: «وأنشد في ذلك».

(٥) تخمط: تكبر.

(٣) ط: «أحبابه».

قَبْلَ اللَّقَاءِ تُقَطَّرُ الْأَبْوَالُ
تَحْتَ الْعِجَاجَةِ وَالْعَيْونُ تَلَالَا
قَبْلَ السُّؤَالِ وَنَحْمَلُ الْأَثْقَالَ
كُنَّا لَزَلْزَلَةِ الْبِلَادِ جَبَالَا
[الكامل]

وَنَرَى الْقُرُومَ مَخَافَةً لِقُرُومِنَا
نَرُدُّ الْمَنِيَّةَ لَا نَخَافُ وُرُودَهَا
نُعْطِي الْجَزِيلَ فَلَا نَمْنُ عَطَاءَنَا^(١)
وَإِذَا الْبِلَادُ عَلَى الْأَنَامِ تَزَلْزَلَتْ

ولبعضهم في أبي دلف:

وَهَمَّتْهُ الصَّغْرَى أَجْلٌ مِنَ الدَّهْرِ^(٢)
عَلَى الْبِرِّ كَانَ الْبِرُّ أُنْدَى مِنَ الْبَحْرِ
فِي بَارِزِهِ كَانَ الْخَلَى مِنَ الْعُمْرِ^(٣)
كَمَا بُورِكَتْ فِي شَهْرَهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ
[الطويل]

لَهُ هِمٌّ لَا مَمْتَهَى لِكِبَارِهَا
لَهُ رَاحَةٌ لَوْ أَنَّ مَعَشَارَ جُودِهَا
وَلَوْ أَنَّ خَلَقَ اللَّهُ فِي مَسْكِ فَارِسٍ
أَبَا دُلْفٍ بُورِكَتْ فِي كُلِّ وَجْهَةٍ

ولغيره:

بَنُوا لَكَ بِنَانًا وَكُنْ أَنْتَ بَانِيَا
فَسَامَ بِكَفَيْكَ النَّدَى وَالْمَعَالِيَا
[الطويل]

لَا تَهْدَمَنَّ بِنْيَانِ قَوْمٍ وَجَدْتَهُمْ
وَإِنْ زَهَدَ الْأَقْوَامُ فِي طَلْبِ الْعَلَا

عبد الله بن ظاهر:

فَمَا زَجَ مِنْهُ الْهِيَا وَالْكَرْمُ
تَتَاوَلَ بِالْمَجْدِ أَعْلَى الْهَمِّ
لَيْسَنِي زَوَارُهُ عَن نَعَمٍ
فَفَلَّلَ عَنْهُمْ شِبَاةَ الْعَدَمِ
فِيَادِرَ قَبْلَ انْتِقَالِ النُّعَمِ
[المقارب]

فَتَى خَصَّهُ اللَّهُ بِالْمُكْرَمَاتِ
إِذَا هَمَّةٌ قَصَّرتْ عَن يَدِ
وَلَا يَنْكُتُ الْأَرْضَ عِنْدَ السُّؤَالِ
بَدَا حِينَ أُتْرِيَ بِإِخْوَانِهِ
وَذَكَرَهُ الْحَزْمُ غِبَّ الْأُمُورِ

قال: وحدثنا بعض أهل ذى الرِّيَاسَتَيْنِ^(٤). قال: كان ذو الرِّيَاسَتَيْنِ يبعث بي وبأحداثٍ من أهل بيته إلى شيخٍ بخراسان، ويقول: تعلموا منه الحكمة، فكنا نأتيه ونستفيد منه الآداب^(٥)، فلما كان بعد ذلك قال لنا: أنتم أدباء، وقد تعلمتم الحكمة، ولكم نعمة، فهل فيكم عاشق^(٦)؟ فاستحيينا من قوله وسكتنا، فقال: اعشقوا فإن العشق يُطلق لسان البليد، ويُسخي البخيل، ويُشجع الجبان،

(٤) ل: «بيت الرِّيَاسَتَيْنِ».

(٥) ك: «الأدب».

(٦) ك: «من عشق».

(١) ك: «فلا يمن عطوانا».

(٢) الكامل ٣: ١٢٨، ونسبه لبرك بن النطاح.

(٣) المسك: المجلد.

وَيَبِيعُ عَلَى التَّلَطُّفِ وَإِظْهَارِ المَرُوَّةِ^(١) فِي المَطْعَمِ وَالمَشْرَبِ وَالمَلْبَسِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَانظُرُوا أَنْ تَعْتَشِقُوا أَهْلَ البُيُوتَاتِ وَالمَشْرِفِ.

قال: فخرجنا من عنده، وصرنا إلى ذى الرياستين، فسألنا عما أفادنا، فهبنا أن نخبره، فقال: تكلموا، فقلنا: إنه أمرنا بكذا، وكذا؛ فقال: صدق وبر، أنتمون من أين قال لكم ذلك؟ قلنا: يخبرنا به الوزير، فقال^(٢): كان لبهرام جور ابن قد رشحه للملك من بعده، واعتمد عليه في حياته، وكان حاملاً المروءة، ساقط الهمة، فضم إليه عدة من المؤدبين والحكماء والعلماء، ومن يعلم الفروسية، فبينما بهرام في مجلسه إذ دخل عليه بعض أولئك المؤدبين المضمومين إلى ابنه، فسأله عن خبر ابنه، وأين بلغ من الحكمة والأدب؟ فقال: أيها الملك، قد كنت أرجو أن يتوجه أو يعي بعض ما ألقىته وألقيه إليه؛ حتى حدث من أمره ما آيسنى منه. قال: وما هو؟ قال: بصر بابنة فلان المرزبان فهويها، فهو الآن يهذى بها ليلاً ونهاره، فقال: الآن رجوت فلاحه، اذهب فشحجه براسلة المرأة وخوفه بى. فذهب المؤدب، فانتهى إلى ما أمره به وبعث بهرام إلى أبى الجارية ودعاه فقال: إني مزوج ابني ابنتك، فاتها ومزها أن تراسل ابني وتطمعه في نفسها، فإذا استحکم طمعه فيها ورجا الالتقاء تحت عليه، وقالت: إني لا أصلح إلا للملك عظيم القدر، بعيد الهمة، حسن المودة، أديب النفس، شجاع البطش، ولست كذلك، ولا هناك^(٣)! ثم عرفنى الكائن منك في ذلك.

فمضى المرزبان إلى ابنته، فأعلمها بذلك وبما قاله له الملك، فراسلت الفتى وأطمعته، ثم قالت له ما أمرها به أبوها، فلما سمع ذلك أنف أنفاً شديداً، وتقاصرت إليه نفسه، فأقبل على تعلم الأدب والحكمة والفروسية حتى صار رأساً في ذلك، فلما بلغ الغاية التي لا بعدها، رفع قصته إلى أبيه يشكو تخلف حاله وقصور يده عما يشتهي^(٤)، فوقع له أبوه بإزاحة علتة [فيها سأل]^(٥) والتوسعة عليه، ثم بعث إلى المؤدب فدعاه، فقال: قل لابني يرفع إلى قصته يسألني إنكلحه [من]^(٥) ابنة المرزبان. فقال له المؤدب ذلك، فكتب قصة رفعها^(٦) إلى الملك يسأله تزويجها منه، وأن يصل جناحه بذلك، وأنها ممن تصلح لثله. فأمر الملك بإحضار المرزبان، وسأله أن يزوج ابنته من ابنه. ففعل، وجهرها الملك بأجل ما يكون من الجهاز، وقال لابنه^(٧): إذا أنت خلوت فلا تحدثن شيئاً حتى آتيك.

فلما كان ذلك الوقت دخل الملك على ابنه، فقال: يا بئى؛ إياك وأن تُصغر شأن هذه المرأة عندك، فإنها من أعظم الناس منة عليك، وإن الذى كان من مراسلتها إياك، فإنما كان عن أمرى ويأذن وتديبرى فاعرف حقها وحق أبيها، وأحسن معاشرتها، وبرها. ثم خرج الملك وخلا الفتى بأهله. ثم قال ذو الرياستين: سلوا الآن الشيخ عن السبب الذى حمله على ما أمركم به. قال: فسألناه، فحدثنا بحديث ذى الرياستين.

(٥) من ك.

(٦) ك: «ورفعها».

(٧) ل: «له يا بئى».

(١) ك: «المودة».

(٢) ك: «قال».

(٣) ك: «لا هناك».

(٤) ل: «يشبهه».

مساوي سقوط الهمة

قال: وكان القاسم بن الرشيد ساقطاً الهمة، دفى النفس، وكان المأمون على أن يعهد إليه ويؤكد له ما كان الرشيد جعله له من ولاية العهد، وكان لا يزال يبلغه عنه ما يكره؛ مرةً في نفسه، وأخرى في حشمه، قال: فرُفع إليه في الخبر يوماً أنه قال لِقَوْمٍ حَمَامِيه: نَوْرُوا^(١) الناس بالمجان، ففعلوا ذلك، فلم يبق محتاج إلا جاء يتنوّره فلما علم أنهم كثّروا أخرج عليهم الأسد من بابٍ كان يدخل منه إلى الحمام، فخرج الناس عُراةً مغمى عليهم، مع ما عليهم من التورة، هارين من الأسد فصاروا إلى شارع قصره. وقد أشرف عليهم وهو يضحك.

فحدّثنا الحسن بن قريش، قال: دعاني المأمون وقال: يا هذا، مالي ولهذا الفتى! إلى كم أحتمل منه هذا الأذى! قال: فقلت: قومّه يا أمير المؤمنين إن رأيت في ذلك صلاحاً. قال: نعم، فقلت: يا سيدي، إنه عضوٌ منك، وأنت به وأولى الناس بتقويمه، قال: فجعل ينهأ ويأبى أن ينتهي، فلما كثّر هذا من فعله؛ عزم على خلّعه، فكتب إلى هرثمة بن أعين في ذلك كتاباً نسخته: «أما بعد، فإن أمير المؤمنين يستوفق الله جلّ وعزّ في جميع أموره ويستخيره فيها؛ خاصّها وعمامها، لطيفها وجليلها؛ استخارة من يوقن أن البركة وخيرة البدء والعاقبة في قضائه، وما يلهمه من إرشاد وتسيّد رأى وإثبات صواب، وقد رأى أمير المؤمنين عندما استخار الله تبارك اسمه فيه من أمر القاسم بن الرشيد، فيما كان إليه من ولاية العهد خلّعه عن ذلك وصرفه عنه، فأظهر ذلك فيمن بحضرتك، وأمر بالكتاب إلى العمال في نواحي عمّلك وثغورك. وولاية الأمصار، فقد أبل أمير المؤمنين أن يكون ذلك توفيقاً من الله تبارك اسمه. ورشدًا لهم إياه؛ إذ كان به توفيقه وعليه معوله، وإليه رجوعه فيما يبرم ويحصى، فامتثل ما حدّه لك أمير المؤمنين. وأنته إليه، واكتب بما يكون منك فيه إن شاء الله.»

قال: ونظر المأمون يوماً إلى ابنه العباس وأخيه المعتصم، فأبته العباس يتخذ المصانع ويبني الضياع، والمعتصم يتخذ الرجال، فقال شعراً:

يبني الرجال وغيره يبني القرى شتآن بين قرى وبين رجال
قلن بكثرة ماله وضياعه حتى يفرقه على الأبطال
[الكامل]

وأنشد في مثله:

لما رأيتك لا تجود بنائل وتضنّ بالمعروف ضنّ الساقط^(٢)

(١) التورة: حجر الكلس، ثم غلب على أصناف تضاف إلى الكلس من زرنخ وغيره؛ ويستعمل لإزالة الشعر.

(٢) ط: «وتظن» تصحيف.

سَوِّطَ الثَّرِيدِ وَشَمَّ رِيحَ الْغَائِطِ
 بِتِفَافُلٍ عَنْهَا كَأَنَّكَ وَانِطَى
 وَلَدَى الْمَكَارِهِ كَالْحِمَارِ الضَّارِطِ
 وَنَقَشْتُ شَبِيهَكَ صُورَةً فِي حَائِطِ
 [الكامل]

وَرَأَيْتَ هَمَّتَكَ الَّتِي تَعْلُو بِهَا
 وَإِذَا تُكَلِّفُ حَاجَةً ضَيِّعَتْهَا
 لِلْمَكَارِمِ تَشْرِبُ بِنَهْضَةٍ
 أَيَسَّتْ نَفْسِي مِنْ رَجَائِكَ دَهْرَهَا

وقال آخر سأل الله عز وجل:

وَلَا أَنْتَ فِي الْمَعْرُوفِ عِنْدَكَ مَطْمَعٍ
 وَلَا أَنْتَ يَوْمَ الْحَشْرِ مِنْ يُشْفَعُ
 وَعُودٌ خِلَالٍ مِنْ نَوَالِكَ أَنْفَعُ
 [الطويل]

إِذَا أَنْتَ لَا تُرْجَى لِدَفْعِ مُلَمَّةٍ
 وَلَا أَنْتَ ذُو جَاهٍ يَعِاشُ بِجَاهِهِ
 فَمَوْتُكَ فِي الدُّنْيَا وَعَيْشُكَ وَاحِدٌ

ولآخر سأل الله وعفا عنه:

لِحِظْتِنِي عَيْنَاكَ لِحِظَّةَ تَهْمَةٍ
 أَنْتَ عِنْدِي مِنْ أَعْبَدِ النَّاسِ هِمَّةً
 [الخفيف]

كَلَّمَا قَلْتُ وَيَكُ لِلْكَلْبِ إِخْسَاءً
 أَتْرَانِي أَظَنَّ أَنَّكَ كَلْبٌ

محاسن كرم الصحبة

قال ابن طاهر: حدثوني عن عبد الله بن مالك؛ قال: كنت أتولى الشرطة للمهدى، وكان يبعث إلي في نداء الهادي ومغنيته؛ أن أضربهم وأحبسهم صيانة له عنهم، فبعث الهادي يسألني الرفق بهم والترفيه عنهم، فلا ألتفت إلى ذلك وأمضى إلى ما يأمر به المهدي.

فلما ولي الهادي الخلافة أيقنت بالتلف، فبعثت إلي يوماً فدخلت عليه متكفناً متحنطاً؛ فإذا هو على كرسي والنطع والسيف بين يديه، فسلمت فقال: لا سلم الله عليك! تذكر يوم بعثت إليك في أمر الحراني لما أمر أمير المؤمنين رضي الله عنه بضربه، فلم تجيبي، [و] (١) في فلان وفي فلان! وجعل يعد نداءه - ولم تلتفت إلى قولي! قلت: نعم يا أمير المؤمنين، أفتأذن لي في استيفاء الحجة؟ قال: نعم. قلت: نشدتك الله يا أمير المؤمنين، أيسرك أن وليتني ما ولاني أبوك وأمرتني بأمر فبعثت إلي بعض بنيك بأمر يخالف أمرك، فاتبعت أمره، وعصيت أمرك؟ قال: لا، قلت: فكذلك أنا لك، وكذا كنت لأبيك وأخيك، فاستدناني فقبلت يده، وأمر بخلع فصبت علي؛ وقال: قد وليتكم ما كنت تتولاه، فامض راشداً.

فخرجت من عنده وصرت إلى منزلي مفكراً في أمره وأمرى، وقلت: حدث والقوم الذين عصيته في أمرهم ندماؤه ووزراؤه وكُتابه، فكأنني بهم حين يغلب عليه الشراب؛ وقد أزالوه عن رأيه في ومحمّله في أمرى على ما كنت أخوفه!

قال: فإني لجالس وبين يدي بنية لي والكانون بين يدي، ورقاق أشطره بكامخ وأسخته وأطعمه الصبية، حتى توهمت أن الدنيا قد اقتلعت بي وزلزلت لوقع حوافر الدواب وكثرة الضوضاء؛ فقلت: هاه! كان والله ما ظننت، فإذا الباب قد فتح، وإذا الخدم قد دخلوا، وإذا أمير المؤمنين الهادي علي حمار في وسطهم! فلما رأيتهم، وثبتت عن مجلسي مبادراً وقبلت يده ورجله وحافر حماره، فقال: يا أبا عبد الله، إني فكرت في أمرك، فقلت: يسبق إلى قلبك أني إذا شربت وجاءني أعداؤك أزالوا ما حسن من رأيي فيك، فأقلقك وأوحشك، فصرت إلى منزلك لأؤنسك، وأعلمك أن السخيمة قد زالت عن قلبي، فهات أطعمني ما كنت تأكل، وافعل فيه ما كنت تفعل؛ لتعلم أني قد تحرمت بطعامك؛ وأنست بمنزلك؛ في، زول خوفك ووحشتك.

فأدريت إليه ذلك الرقاق والسكرجة (٢) التي فيها الكامخ، فأكل منها ثم قال: هاتوا الزلة (٣) التي زلتها لأبي عبد الله من مجلسي، فأدخل إلي أربعمائة بغل موقرة دراهم، فقال: هذه زلتك فاستعن

(١) الزلة: الصنعة.

(٢) من الطبري.

(٣) السكرجة: الصفحة؛ فارسي معرب.

بها على أمرك، واحفظ هذه البغال عندك، فعلى احتاج إليها لبعض أسفاري، [قال: أظنك الله بخير] (١)، وانصرف راجعاً.

فأخبرني (٢) موسى بن عبد الله أن أباه أعطاه بستانه الذي كان وسط داره، فبنى حوله معاليف لتلك البغال، وكان هو يتولى القيام عليها مدة حياة الهادي (٣).

وحدث من حضر مجلس المأمون؛ وقد أمر بإحضار العباس صاحب الشرطة ببغداد، وبين يديه رجل مكبل بالحديد، فلما حضر قال: يا عباس، خذ هذا إليك واستوثق منه ولا يفوتك، وبكره به واحذر كل الحذر.

قال العباس: فدعوت جماعة حملوه، ولم يقدر يتحرك، فقلت في نفسي: مع هذه الوصية التي أوصاني بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب (٤) أن يكون معي إلا في بيتي. ثم سألته عن قصته وحاله، من أين هو؟ فقال: من دمشق، فقلت (٥): جزى الله ديمق وأهلها خيراً! فمن أنت من أهلها؟ قال: لا تزيد أن تسألني! فقلت له: أتعرف فلاناً؟ فقال: ومن أين عرفت ذلك الرجل؟ فقلت: كانت لي قصة معه، فقال: ما أنا بمعرفك خبره أو تعرفني قصتك! فقلت (٦): ويحك! كنت مع بعض الولاة بها، فخرج علينا أهلها حتى أراد الوالي أن يدلني في زنبيل من قصر الحجاج، وهرب هو وجميع أصحابه، وهربت فيمن هرب، فإني لفي بعض الطريق إذا جماعة يعدون خلفي، فما زلت أحاضرهم (٧) حتى مررت على هذا الرجل الذي ذكرته لك وهو جالس على باب داره، فقلت: أغثنى أغاثك الله! فقال: لا بأس عليك، ادخل الدار، فدخلت، فقالت لي امرأتها: ادخل الحجلة (٨)، فدخلتها وأنت الرجال خلفي فما شعرت إلا به وهم معه يقولون: هو والله عندك! فقال: دونكم الدار ففتشوها حتى لم يبق إلا البيت الذي كنت فيه، فقالوا: ها هنا! فصاحت المرأة وانهرتهم فانصرفوا، وخرج الرجل فجلس على باب داره ساعة وأنا قائم في الحجلة خائفاً، فقالت المرأة: اجلس لا بأس عليك، فجلست فلم ألبث أن دخل الرجل وقال: لا تخف فقد صرت إلى الأمن والدعة إن شاء الله تعالى، فقلت له: جزاك الله عنى خيراً! ثم ما زال يعاشرنى أحسن المعاشرة وأجملها، ولا يفتر من القصف والأكل والشرب والفرح أربعة أشهر؛ إلى أن سكنت الفتنة وهدأت، فقلت له: أتأذن لي في الخروج لأتعرف خبر غلمانك ومنزلي، فعلى أن أقف لهم على أثر أو خبر!

(١) من الطبرى.

(٢) الطبرى: «مذكرى موسى بن عبد الله».

(٣) الخبر في تاريخ الطبرى ٣: ٥٨٣، ٥٧٤ (طبع أوروبا).

(٤) ط: «يجب».

(٥) ط: «فقال».

(٦) ط: «فقال».

(٧) أحاضرهم؛ لعله من الحضر، وهو العدو.

(٨) الحجلة: بيت يزين بالثياب والأسرة والستور.

فأخذ عليّ الموائيق بالرّجوع إليه، فخرجتُ وطلبتُ غِلْماني، فلم أر لهم أثرًا، فرجعتُ إليه وأعلمته الخبر، وهو مع هذا لا يعرفني، ولا يعرف اسمي، ولا يخاطبني بغير الكُنيّة، ثم قال لي: ما تعزّم؟ فقلت: قد عزّمتُ على الشّخوص إلى بغداد، فإنّ قافلةً يخرُج بعد ثلاثة أيام، وقد تفضّلتُ على هذه المدّة، فأسألك أن تعطيني ما أتفقّه في طريقى وما ألْبَسه. فقال: يصنع الله عزّ وجلّ.

ثم قال للغلام له أسود: أنبل^(١) الفرس الفلاني؛ وتقدّم إلىّ من في منزله بإعداد السفر. فقلت في نفسي: ما أشك إلاّ أنّه يخرج إلى ضَيْعَة له أو ناحية من النواحي، فوقعوا يومهم ذلك في تعب وكدّ، فلما كان خروج القافلة جاءني في السّحر وقال: يا أبا فلان، قم فإنّ قافلةً تخرُج الساعة؛ وأكره أن تنفرد عنها. فقلت في نفسي: ما أعطاني شيئًا ممّا سألتُه، ثم قمت، فإذا هو وامرأته يحملان إلىّ خفتين^(٢) مقطوعه جُدًا ورائاتٍ وآلة السّفَر، ثم جاءني بسيفٍ ومنطقة فشدهما في وسطى ثم قدّم البغل، فحمل عليه الصناديق وفوقها مفرشين، ودفع إلىّ نسخة بما في الصناديق وفيها خمسة آلاف درهم، وقدّم إلىّ الفرس الذي كان أتعلّه بسرّجه ولجامه، وقال لي: اركب وهذا الغلام الأسود يخدمك ويسوس دوابك، وأقبل هو وامرأته يعتذران من تقصيرهما في أمرى. وركب معي فشيّعني. وانصرفت إلى بغداد وأنا على مكافأته ومجازاته، فعاقنا عن ذلك ما نحن فيه من الشغل بالسّفار واتصالها والتنقل من مكان إلى مكان.

فلما سمع الرجل الحديث قال: قد أتاك الله عزّ وجلّ من تريد مكافأته بلا متونة عليك، فقلت: وكيف ذلك؟ قال: أنا والله ذلك الرجل؛ ثم قال لي: ما أثبتك^(٣)، فعرّف إلىّ؛ وأقبل يذكّرني بأشياء يتعرف بها إلىّ حتى أثبتته وعرفته، فما تمالكت أن قمت إليه فقبلتُ رأسه، وقلتُ له: ما الذى أصارك إلى هذا؟ فقال: هاجت فتنة بدمشق مثل الفتنة التي كانت في أيامك، فنسيتُ إلىّ، وبعث أمير المؤمنين بجيوش فأصلحوها البلد، ومهلت إليّ، وأمرى عنده غليظٌ جدًّا، وهو قاتل لا محالة، وقد خرجت من عند أهلى بلا وصيّة، وقد تبغى من عبيدى من ينصرف إلى منزلى بخيرى، وهو نازل عند فلان، فإن رأيت أن تُنعم وتبعث إليه حتى يحضّر فأتقدّم إليه بما أريد، فإذا أنت فعلت ذلك فقد جاوزت حدّ المكافأة لي!

قال: فقال العباس: يصنع الله! ثم قال: علىّ بحدّادين، فأتوا بهم، فحلّ قيوده وما كان عليه من أنواع الأنكال، ودعا بالحجام فأحضّر، وأخذ من شعره ثم قال: علىّ ببولاه، فأنفذ في طلبه من يحضّره.

قال الرجل: فلما أن أخذ شعري أدخلنى الحمام فطرح عليّ من ثيابه ما اكتفيت به، ثم حضر مولاي وقعد يبكي، فقال العباس، علىّ بفرسى الفلاني والفرس الفلاني والبغل الفلاني، حتى عدّ عشرين. ثم قال: علىّ من الصناديق والكسوة بكذا، ومن صناديق الطعام بكذا، ثم أمر لي ببدرية فيها

(١) أنبل الدابة: أليس حافرها التعل.

(٢) الخفتان: جمع خفتان، وهو صدريّة تلبس تحت الدرع (فارسي).

(٣) ما أثبتك، أى ما عرفتك حق المعرفة.

عشرة آلاف درهم، وكيس فيه خمسة آلاف دينار، وقال لصاحب شرطته: خذه واعبر به إلى جسر الأنبار.

فقلت له: إن أمرى غليظ، وإن أنت احتججت بأني هرّبت بعث أمير المؤمنين في طلبى كل من على يابه، فأرد وأقتل، فقال: أنج بنفسك ودعنى أدبر أمري. فقلت: والله لا أبرح من بغداد أو أعلم ما يكون من خبرك، فإن احتجت إلى حضوري حضرت، فقال لصاحب الشرطة: إن كان الأمر على هذا فليكن في موضع كذا وكذا، فإن سلمت في غداة غد فسيبيل المحبة، وإن قتلت كنت قد وقيتة بنفسى كما وقانى بنفسه، وأنشدك الله أن تذهب^(١) من ماله شيئاً قيمته درهم، وتخلصه حتى تخرجه من بغداد.

قال الرجل: فأخذنى صاحب الشرطة؛ فصيرنى في مكان يثق به، وتفرغ العباس لنفسه، واغتسل وتحنط وتكفن.

قال العباس؛ فلم أفرغ من ذلك حتى وافقتى رسل المأمون في السحر، وقالوا: أمير المؤمنين يقول؛ هات الرجل، فسكت وأتيت الدار، وإذا أمير المؤمنين جالس؛ عليه ثيابه أمام فراشه، فقال: الرجل! فسكت.

فقال ويحك! الرجل! فقلت: يا أمير المؤمنين، اسمع منى، فقال: أعطى الله عهداً لئن ذكرت أنه هرب لأضربن عنقك، فقلت: لا والله ما هرب، فاسمع منى حديثى وحديثه، ثم أنت أعلم بما فعله في أمرنا، قال: قل.

فقلت: يا أمير المؤمنين، كان من حديثى معه كذا وكذا.. وقصصت عليه القصة، وعرفته أنى كنت أريد مكافأته، فشعلت عن ذلك، حتى إذا كان البارحة عرفته، وعبرت به جسر الأنبار، وقلت: أنا من سيدى أمير المؤمنين بين أمرين: إما صفع عنى وإما قتلى وأكون قد كافيتته ووقيتته بنفسى كما وقانى بنفسه.

فلما سمع المأمون الحديث قال: ويحك! لا جزاك الله خيراً عن نفسك وعننا وعن هذا الفتى الحر! إنه فعل بك ما فعل من غير معرفة، وتكافأته بعد المعرفة بهذا ألم لا عرفتنى خيره، فكنت أكافئه عنك! فقلت: يا أمير المؤمنين، إنه والله ما هنا قد حلف أنه لا يبرح حتى يعرف سلامتى، فإن احتيج حضوره حضر، قال: وهذه والله منه أعظم من الأولى، فاذهب إليه الآن وطيب نفسه، وسكن روعه، وتعبّر به إلى حتى أتولى مكافأته عنك.

فصرت إليه وقلت: ليسكن روعك، إن أمير المؤمنين قال كيئت وكيئت، فقال: الحمد لله الذى لا يحمّد على السرّاء والضراء غيره. ثم تهباً للصلاة فصلّى ركعتين، ثم جئنا.

فلما مثل بين يدى المأمون أدناه حتى أجلسه إلى جانبه، وأنسه وحديثه حتى حضر الغداء، ثم قال: الطعام، فأكل معه، وخلع عليه، وعرض عليه أعمال دمشق، فاستعفاه. ثم قال المأمون: على بعشرة

(١) ك: «ينهب».

أفراس بسرّوجها ولجمها، وعشرة بغال بجميع ألثها. وبعشر بدر، وبعشرة نخوت، وعشرة ممالك
بذواتهم وجميع آلثهم. فدفّع ذلك إليه، وكتب إلى عامله بالوصاية عليه وأوغر خراجه، وكتب إلى
صاحب البريد أن يُنفذ كتبه، وصرفه إلى بلده.

قال العباس: فكان إذا ورد له كتاب في خريطة يقول لي المأمون: يا عباس، هذا كتاب
صديقك!

وحدّث رجلٌ عن جعفر العطار قال: بينا يحبى بن أكتّم يمشى المأمون في بستان موسى،
والشمس عن يمينه، والمأمون في الظل؛ وقد وّصَع يده على عاتق يحبى، وهما يتحدّثان^(١)، إذا رأى
المأمون أن يرجع في الطريق الذي جاء منه، فلما انتهى إلى الموضع الذي قصده، قال ليحبى: إنك
جئت وعن يسارك الشمس، وقد أخذت منك، فكُن أنت الآن في منصرفك حيث كنت، وأكون أنا
حيث كنت أنت، فقال يحبى: والله يا أمير المؤمنين لو أمكنتني أن أقيِّك بنفسى من هؤلّ المظلم
لفعلت، فكيف لا أصبر على أذى الشمس ساعة! فقال: لا والله، لا بد من أن آخذ منها كما أخذت
منك، وتأخذ من الظل كما أخذت منه^(٢) فصار المأمون في موضعه، وصار يحبى في موضع المأمون^(٣)،
وقاشياً وأخذ بيده فوضعها على عاتقه؛ حتى صار إلى المجلس.

وحدّث رجل من آل أسوار^(٣) بن ميمون، عن عمّه عبد الله بن أسوار، قال: دخلت على
يحبى بن خالد البرمكى يوماً فقال: أجلس - وكنت أحد كتّابه - فقلت: ليست معى دواة، فقال:
ويحك! في الأرض صاحب صناعة تفارقه آله! وأغلظ لي في حرفٍ علمت أنه أراد به خطي، وأراني
بعض التناقل في كتاب ظهر لي به أنه أراد خطي على الأدب لا غير، ثم دعا بدواة، فكتبت بين
يديه كتاباً منه إلى الفضل ابنه، ورأى مني بعض الضجر فيما كتبت، فتوهم أن ذلك من أجل الكلمة
التي كلمني بها. فأراد أن يحو عن قلبي ما توهمه عليّ، فقال: عليك^(٤) دين؟ قلت: نعم، قال: كم
دينك؟ قلت: ثلاثمائة ألف درهم، فوقع بخطه إلى الفضل في الكتاب:

وكلكم قد نال شبعاً لبطنه وشبع الفتى لوم إذا جاع صاحبه
ثم قال: إن عبد الله ذكر أن عليه ديناً يُخرجه منه ثلاثمائة ألف درهم، فإذا نظرت في كتابي هذا،
وقبل أن تضعه في يدك، فأقسمت عليك لما حملت ذلك إلى منزله من أخصّ مال قبلك.
قال: فحملها الفضل إلىّ وما أعظم لها سبباً إلا تلك الكلمة.

(١) ك: «يتحدّثان».

(٢-٣) ك: «فسار المأمون في الشمس ويحبى في الظل».

(٣) ك: «سوار».

(٤) ك: «أعليك».

وحدّث إبراهيم بن ميمون قال: حدّثني جبريل بن بختيشوع قال: اشتريت ضيعةً فنقدتُ بعض الثمن وتعدّرت على بعضه، فدخلت على يحيى وعنده ولده وأنا أفكر، فقال لي: مالي أراك مفكراً! فقلت: أنا في خدمتك - وقد اشتريت ضيعةً بسبعمئة ألف درهم، ونقدتُ بعض الثمن، وتعدّرت على بعضه - فدعنا بالدواة وكتب: يُعطى جبريل سبعمئة ألف درهم، ثم دَفَع الكتاب إلى ولده؛ فوقع فيه كلُّ واحد منهم بثلاثمئة ألف درهم، فقلت: جعلت فداك! لقد أدّيت عامّة الثمن، وإنما بقى أقله، قال: اصرف ذلك في بعض ما يُنوبك. ثم صرّت إلى الرشيد فقال: ما أبطأ بك؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، كنت عند أبيك وإخوتك ففعلوا بي كذا وكذا، قال: فما حالي أنا! ثم دعا بدائيته فركب إلى يحيى فقال له: يا أبت، خير في جبريل بما كان، فما حالي من بين ولدك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، مر له بما شئت يُحمّل إليه، فأمر بحمل مالٍ إلى جبريل.

وكان إبراهيم بن جبريل على شرطة الفضل، فوجّهه إلى كابل فافتتحتها، وغنم غنائم كثيرة، ثم ولّاه سجستان، فلما انصرف منها كان عنده من مال الخراج أربعة آلاف ألف درهم، فلما قدِم بغداد وبنى داره في البغويين، استزار الفضل بن يحيى ليريه نعمته عليه، وأعد الهدايا والطرف، وأتية الذهب والفضة، والوصفاء والوصائف والدواب، والقياب والثياب، وما تهيأ لثلثه، ووضع الأربعة الآلاف ألف درهم في ناحية من الدار، فلما تغدى الفضل قدم إليه تلك الهدايا، فأبى أن يقبل منها شيئاً، وقال: لم أنك لأسلبك، فقال: أيها الأمير، إنها نعمتك على. قال: ولك عندنا مزيد. قال: فلم يزل يطّلب إليه، فأخذ من جميع ذلك سوطاً سجزيّاً فقال: هذا من آلة الفُرسان، فقال إبراهيم: أيها الأمير، فهذا المال مال الخراج، تأمر بقبضه. قال: هو لك، فأعاد عليه القول مراراً، فقال: مالك بيت يسعه! فوهب له المال بعد أن كان قد صار إليه ألف ألف درهم.

قال: ودخل قوم من حاشية المنصور وخدمه عليه، فرأى منهم رجلاً عليه سواد خلق، فقال له: يا فلان مالي أرى سوادك متقطعاً! أما تقبض رزقك! قال: بلى يا أمير المؤمنين، ولكن أبي توفى وترك ديناً، فبعت تركته في قضاء دينه، وصرفت أكثر رزقي إلى حرّمته وولده من بعده، فقال: أعد على ما قلت، فأعاده، فقال ما أحسن ما فعلت! أعد على في غد. فغدا عليه فوجد الربيع جالساً على الكرسي، فقال: قد سألت عنك أمير المؤمنين فأدخل. فدخل، فوجده قائماً يصلي، ففضى صلاته وقال: ألم أمرك أن تغدوا! فقال: يا أمير المؤمنين، ما قصرت في الغدوّ عند نفسي! قال: خذ ما تحت تلك المضربة وإذا السراج يزهر وسريراً صغيراً في ناحية المجلس ينام عليه، فرفعت المضربة فإذا دنانير، فجعلت أحثوها في كمي، ثم دعوت له وخرجت، فبصر بصفرة دينار في ضوء السراج، فدعاني، فقال: انظر ما على السريير، فإذا ديناراً، فأخذته فقال: أدن مني، فدنوت منه، فعرك أذني تعريكاً شديداً، وقال: تترك ديناراً وفيه نفقة يومك! قال: فأخذت الدينار ووزنت الدنانير، وإذا هي ألف دينار؛ عدّها تسعمائة وتسعة وتسعون ديناراً في عافية، وأخذت واحداً بعرك الأذن.

قيل: وقال علقمة بن ليبيد^(١) لابنه: يا بُني، إن نازعتك نفسك يوماً إلى صحبة الرجال لحاجتك إليهم، فأصحب من إن صحبته زانك، وإن تخففت^(٢) له صانك، وإذا نزلت بك نازلةً مانك، وإن قلت صدق قولك، وإن صُلّت به شدد صولك. أصحب من إذا مددت يدك لفضل مدها، وإن رأى منك حسنة عدها، وإن بدت منك ثلثة سدها. اصحب من لا تأتيك منه البوائق، ولا تختلف عليك منه الطرائق، ولا يخذلك عند الحفائق.

وقال بعض الحكماء: إذا رأيت كلباً ترك صاحبه وتبعك فارجمه بالحجارة، فإنه تاركك كما ترك صاحبه.

وقال آخر: اصحب من خولك نفسه، ومملك خدمته، وتخيرك لزمانه، فقد وجب عليك حقه ودمامه.

وكان يقال: من قبل صلتك فقد باعك مروءته، وأذل لقدرك عزه.

وقال بعضهم: أنا أطوع لك من اليد، وأذل من النعل.

وقال بعضهم: أنا أطوع لك من الرداء، وأذل من الحداء.

قيل: وقال ابن أبي دؤاد لرجل انقطع إلى محمد بن عبد الملك الزيات: ما خبرك مع صاحبك؟ قال: لا يقصر في الإحسان إليّ. قال: يا هذا؟ إن لسان حالك يكذب لسان مقالك^(٣).

(١) المحاسن والأضداد: «ليث».

(٢) كذا في المحاسن والأضداد وفي ك: «تحققت»، وفي ل مهمل.

(٣) ل: «قولك».

مَسَاوِي الصَّحْبَةِ

قال: كان يوسف بنُ عمر الثَّقَفِيُّ يتولَّى العِراقين لهشام بن عبد الملك، وكان مذمومًا في عمله، فحدَّث المدائنيُّ قال: وزن يوسف بن عمر درهما، فنقص حبةً، فكتب إلى دُور الضرب بالعراق، فضرب أهلها مائة سوط^(١).

قيل: وخطب في مسجد الكوفة، فتكلم إنسان مجنون؛ فقال: يا أهل الكوفة، ألم أنكم أن يدخل مجانينكم المسجد! اضربوا عنقه، فضربت عنقه^(٢).

قال: وقال لهمام بن يحيى - وكان عامله: يا فاسق، أخربت «مهرجان قذق»! قال: إني لم أكن عليها، أما كنت على ما دينار، وتقول: أخربت «مهرجان قذق»! فلم يزل يوسف يعذبه حتى قتله^(٣).

قال: وقال لكاثبه: ما حبسك عني؟ قال: اشتكيت ضرسى. قال: تشتكى ضرسك وتقعُد عن الديوان! ودعا له بالحجّام وأمره بقلع ضرسين من أضراسه^(٤).

* * *

وعن المدائنيِّ، قال: حدّثني رضيعٌ كان ليوسف بن عمر من بنى عبّس، قال: كنت لا أحبُّ عنه وعن حُرْمَتِهِ^(١)، فدعا ذات يوم بجوار له ثلاث، ودعا بخصيٍّ أسود يقال له حديج^(٢)، فقرب إليه واحدةً، فقال لها: أريد الشخصوص، فأخلفك أم أشخصك معي؟ فقالت: صحبة الأمير أحب إليّ، ولكني أحسب أن مقامى وتخلفى أعفى وأخف على. قال: أحببت التخلّف للفجور! اضرب يا حديج - فضربها حتى أوجعها؛ ثم أمره أن يأتيه بأخرى قد رأت ما لقيت صاحبها! فقال لها: إني أريد الشخصوص، فأخلفك أم أخرجك؟ قالت: ما أعدل بصحبة الأمير شيئًا، بل يخرجنى. قال: أحببت الجماع؛ ما تريد أن يفوتك! اضرب يا حديج، فضربها حتى أوجعها، ثم أمر بالثالثة أن يأتيه بها وقد رأت ما لقيت المتقدمتان. فقال لها: أريد^(٣) الخروج، فأخلفك أم أشخصك؟ قالت^(٤): الأمير أعرف^(٥) أىّ الأمرين أخف عليه. قال: اختارى لنفسك، قالت: ما عندى لهذا اختيار، فليختر الأمير، قال: قد فرغت أنا الآن من كلِّ شيء ومن كلِّ عمل، ولم يبق علىّ إلا أن أختار

(١-٢) المحاسن والأضداد ٦٦.

(٢) المحاسن والأضداد: «حلمته».

(٣) كذا في المحاسن والأضداد: حديج من أسماهم وفي ك، ل: «حديج».

(٤-٥) ك: «أتريدين الخروج معي أو أخلفك».

(٥) ك: «أعرف لينظر».

لك! أوجع يا حُدَيْج، فضرِبها حتى أوجعها، قال الرجل: وكأنما كان يضربني من شدَّة غَيْظي عليه - فولَّت الجارية وتبعها الخادم، فلما بعدتْ قالت: الخيرةُ والله في فراقك، ما تقرُّ والله عينُ أحدٍ يصحبك، فلهم يفهم يوسف كلامها، فقال: ما تقول يا حُدَيْج؟ قال: قالت: كذا وكذا، قال: يا بنِ الحبيثة! مَنْ أمرك أن تخبرني! يا غلام، خذ السوط من يده وأوجع به رأسه، فما زال يضربه حتى اشتفيت^(١).

(١) الخبر في المحاسن والأضداد، ٦٦، ٦٧.

مَحَاسِنُ السَّخَاءِ

روى عن نافع، قال: لقي يحيى بن زكرياء عليه السلام إبليس، فقال له أخيرني بأحب الناس إليك، وأبغض الناس إليك! قال: أحب الناس إلى كل مؤمن بخیل، وأبغض الناس إلى كل منافق سخى. قال: ولم ذاك؟ قال: لأن السخاء خلق الله الأعظم، فأخشى أن يطلع عليه في بعض سخائه فيغفر له^(١).

وقال عليه السلام: «السخى قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار. والبخیل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة؛ قريب من النار. ولجاهل سخى أحب إلى الله تعالى من عايد بخیل، وأدوأ^(٢) الداء البخل».

وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما أشرقت شمسٌ وبجنتيتها^(٣) ملكان يناديان، وإنما يُسمعان^(٤) الخلاق إلا الثقلين الجن والإنس^(٥): اللهم عجل لمتفق خلقًا، اللهم عجل لممسك تلقًا. وملكان يناديان: ياأيها^(٥) الناس، هلموا إلى ربكم، فإن ما قل وكفى، خير مما كثر وأهمل^(٦)».

وعن الشعبي، قال: قالت أم البنين بنت عبد العزيز أخت عمر بن عبد العزيز وكانت تحت الوليد بن عبد الملك^(٧): لو كان البخل قميصًا ما لبسته، ولو كان طريقًا ما سلكته^(٨). وكانت تُعتيق كل^(٩) يوم رقبة، وتحمل على فرس في سبيل الله. وكانت تقول: البخل كل البخل من بخل على نفسه بالجنة^(١٠).

قيل: وأعتقت هند بنت المهلب^(١١) في يوم واحد أربعين رقبة.

وروى عن أم ذر، قالت: أرسل ابن الزبير إلى عائشة بثمانين ومائة ألف درهم، فدعت بطبق - وهي يومئذ صائمة - فقسمته بين الناس حتى أمست وما عندها من جميع ذلك درهم واحد، فقالت: يا جارية هلمي فطريتي^(١٢)، فجاءتها بخبز وزيت، فقالت لها: عائشة، أما استطعت مما قسمت أن

(١) ، المحاسن والأضداد ٧٦ ، ٧٧.

(٢) ط: «أدوى»، الصواب ما أثبتته من المحاسن والأضداد ٧٧.

(٣-٣) المحاسن والأضداد: «إلا ومعها ملكان يناديان يسمعان الخلاق، غير الجن والإنس وهما الثقلان»

(٤) كذا في ك، وفي ل: «ليعرفان».

(٥) ، المحاسن والأضداد: «أيها».

(٦) ، المحاسن والأضداد ٧٧.

(٧) من المحاسن والأضداد.

(٨) المحاسن والأضداد: «أو طريقًا ما سلكتها»، والطريق تذكر وتؤنث.

(٩) ك: «في كل يوم».

(١٠) المحاسن والأضداد ٧٧: «هند بنت عبد المطلب».

(١١) فطره: أعطاه فطورا.

(١٢) المحاسن والأضداد ٧٧.

تشتري لحماً بدرهم! فقالت: لا تغضبي؛ فلو ذكرتني لفعلت.
وقيل: إنها تصدقت بسبعين ألف درهم؛ وإن درعها لمرقع.

وقال بعض الحكماء: ثواب الجود خلف ومحبة ومكافأة، وثواب البخل جرمان وإتلاف ومدمة^(١).
وقال علي بن أبي طالب رضى الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «يا عليّ كن شجاعاً، فإن الله جلّ وعزّ يحبُّ الشجاع. يا عليّ كن سخيّاً فإن الله عزّ وجلّ يحبُّ السخاء؛ يا عليّ كن غيوراً؛ فإن الله عزّ وجلّ يحبُّ الغيور. يا عليّ، وإن سائلٌ سألك حاجةً ليس لها بأهل؛ فكن أنت لها أهلاً»^(٢).
وقال ﷺ: «السخاء شجرةٌ في الجنة، أغصانها في الدنيا، من أخذ منها بغضنٍ قاده»^(٣) ذلك الغصن إلى الجنة».

قيل: وقال عبد العزيز بن مروان: لو لم يدخل على البخلاء في بخلهم إلا سوء ظنهم بالله عزّ وجلّ لكان عظيمًا^(٣).

وقال ﷺ: «تجافوا عن ذنب السخيّ؛ فإن الله جلّ وعزّ يأخذ بيده كلما عثر»^(٣).
وقال بهرام جور: من أحبّ أن يعرف فضل الجود على سائر الأشياء، فلينظر إلى ما جاد الله عزّ وجلّ به من المواهب الجليلة^(٤) النفيسة، والنسيم والريح وما وعدهم في الجنان، فإنه لولا رضاه الجود لم يصطنعه لنفسه^(٥).

قال: وقال الموبد^(٦) لأبرويز: أكنتم وآباؤكم تمنون بالمعروف، وترصدون عليه بالمكافأة؟ فقال: لا، ولا نستحسن ذلك لحوّلنا وعبيدنا، فكيف نرى ذلك لأنفسنا! وفي كتاب ديننا: إن من أظهر معروفًا خفيًا ليتطاول به على المنعم عليه، فقد نبذ الدين وراء ظهره، واستوجب ألا يعدّ في الأبرار، ولا يُذكر في الأتقياء والصالحين^(٥).

قال: وسئل الإسكندر: ما أكثر ما سررت^(٧) به من مُلكك؟ قال: اقتداري^(٨) على اصطناع الرجال والإحسان إليهم^(٥).

قال: وقال أرسطاطاليس في رسالة له إلى الإسكندر: اعلم أنّ الأيام تأتي على كل شيء فتخلق الآثار، وتميت الأفعال، إلا ما رَسَخَ في قلوب الناس. فأودع^(٩) قلوبهم محبةً بآثارك تبقى بها حسن ذكرك، وكريم فِعالك. وشريف آثارك^(١٠).

قيل: ولما قدّم بزرجمهر إلى القتل قيل له: أنت في آخر وقت من أوقات الدنيا، وأول وقت من

(٦) الموبد: رئيس الكهنة.

(٧) المحاسن والأضداد: «ما شيدت به ملكك».

(٨) المحاسن والأضداد: «ابتدأرى إلى اصطناع الرجال».

(٩) كذا في المحاسن والأضداد. وفي ط: «وأودع».

(١٠) المحاسن والأضداد ٧٩.

(١) المحاسن والأضداد ٧٧

(٢) المحاسن والأضداد: «مد به».

(٣) المحاسن والأضداد ٧٨.

(٤) ل: «الجليلة».

(٥) المحاسن والأضداد ٧٨.

أوقات الآخرة، فتكلّم بكلام تُدّكر به، فقال: أتى شيء أقول! الكلام كثير، ولكن^(١) إن أمكنتك أن تكون حديثاً حسناً فافعل^(٢).

قيل: وتنازع رجل من أبناء الأعاجم وأعرابي في الضيافة، فقال الأعرابي: نحن أقرى للضيف، قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنّ أحدنا ربما لم يملك إلاّ بعيراً فإذا حلّ به ضيف نحر له، قال العجمي: فنحن أحسن مذهباً في القرى منكم. قال: وما ذلك؟ قال: نسمي الضيف «مهمان»، ومعناه أنه أكبر من في المنزل وأملكنا به.

وقال بعض الحكماء: قام^(٣) بالجود، من قام بالمجهود^(٤).

وقيل: من لم يرض^(٤) بالموجود هو الجواد.

وقال المأمون: الجود بذل الموجود، والبخل سوء الظن بالمعبود.

قيل: وشكا رجل إلى إياس بن معاوية كثرة ما يهب ويصل ويُنفق، فقال: إن النفقة داعية إلى الرزق - وكان جالساً بين با بين - فقال للرجل: أغلق هذا الباب فأغلقه، فقال: هل تدخل الريح البيت؟ قال: لا، قال: فافتحه، ففتحه، فجعلت الرياح تخرق البيت، فقال: هكذا الرزق، إنك إذا غلقت الباب لم تدخل الريح، وكذلك إذا أمسكت لم يأتك [الرزق]^(٥).

قيل: ووصل المأمون محمد بن عبّاد المهلبى بمائة ألف دينار، ففرّقها على إخوانه، فبلغ ذلك المأمون، فقال: يا أبا عبد الله، إن بيوت المال لا تقوم بهذا، فقال: يا أمير المؤمنين، البخل بالموجود، سوء ظن^(٦) بالمعبود^(٧).

وعن أمية بن يزيد الأموى: قال: كنا عند عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية، فجاءه رجل من أهل بيته، فسأله المعونة على تزويج^(٨)، فقال له قولاً ضعيفاً فيه وعدّ وقلة طمع، فلما قام^(٩) من عنده ومضى، دعا صاحب خزانته، وقال: أعطه أربعمائة دينار، فاستكثرناها وقلنا: كنت رددت عليه رداً ظننا أنك تعطيه شيئاً قليلاً، فإذا أنت قد أعطيته أكثر مما أمل! فقال: إني أحبُّ أن يكون فعلى أحسن من قولى^(١٠).

(١) ك: «ولكنك».

(٢) المحاسن والأضداد ٧٩.

(٣) المحاسن والأضداد: «بلغ الجود».

(٤) ك: يضّر، ل: «يظن».

(٥) تكلمة من المحاسن والأضداد ٧٩، ٨٠.

(٦) ك: «الظن».

(٧) المحاسن والأضداد ٨٠.

(٨) ك: «التزويج».

(٩) ك: «قدم».

(١٠) المحاسن والأضداد ٨٠.

وبحاتم يُضرب المثل في السخاء، فحدّثنا عن بعض رجالات^(١) طيبي قال: كان حاتم جواداً شاعراً، وكان حينما نزل عُرف منزله، وكان مظفراً، إذا قاتل غلب؛ وإذا غنم أنهب، وإذا سئل وهب، وإذا ضرب بالقدح سبق، وإذا أسر أطلق. وكان أقسم ألا يقتل واحداً منه، ولما بلغ حاتم قول المتلمس:

وأعلمُ علمَ حقِّ غيرِ ظنٍّ وتقوى الله من خير العتاد^(٢)
لحفظِ المالِ خيرٌ من بُغاهُ وطوفٍ في البلادِ بغيرِ زادٍ
قليلُ المالِ تَصْلِحُه فيبقى ولا يبقى الكثيرُ على الفسادِ

[الوافر]

قال: ماله قطع الله لسانه، حرّض الناس على البخل! أفلا قال:

فلا الجودُ يُفنى المالَ قبلَ فنائه ولا البخلُ في مالِ الشحيحِ يزيدُ^(٣)
فلا تلتمسِ بُخلاً بعيشٍ مقترٍ لكلِّ غدٍ رزقٌ يعودُ جديدُ
ألم ترَ أن الرزقَ غادٍ ورائحٍ وأنّ الذي يعطيك سوف يعيدُ^(٤)

[الطويل]

قيل: ولما مات حاتم خرج رجل من بني أسيد يعرف بالخبيري في نقر من قومه، وذلك قبل أن يعلم كثير من العرب بموته، فأناخوا بقبره، فقال: والله لأحلفن للعرب أني نزلت بحاتم وسألته القرى فلم يفعل، وجعل يضرب برجله قبره؛ وهو يقول:

أعجلُ أبا سَفانَةَ قِراكا فسوف أنبي سائلي ثناكا^(٥)

[الرجز]

فقال بعضهم: مالك تنادي رمة! وياتوا مكائهم. فقام صاحب القول من نومه فرعاً، فقال: يا قوم، عليكم مطاياكم، فإن حاتم أنشدني:

أبا الخبيري وأنت امرؤ ظلومُ العشيّةِ شتأها
أتيت بصحبك تبغي القرى لدى حُفرةٍ صخبِ هامها
تبغي لي الدّم عند المبيت وحولك غوثٌ وأنعامها
فإننا سنشيع أضيافنا ونأقِ المطىٰ فنعمتها^(٦)

(١) المحاسن والأضداد: «حالات».

(٢) الأغاني ٢١: ١٣٦ (ساسى).

(٣) المحاسن والأضداد ٨٠.

(٤) كذا في المحاسن والأضداد، وفي ط: «غير بعيد».

(٥) النحل: العطية.

(٦) الخبر والأبيات في المحاسن والأضداد ٨٢، وفي الأغاني ١٦: ٩٧، ٩٨، والحزنة ١: ٤٩٥، واللآلئ ١٤٧، مع اختلاف في

الرواية.

قيل: ونزل على حاتم ضيفٌ ولم يحضره قرى، فنحَرَ ناقةَ الضيفِ وعشاهُ وغداهُ، ثم قال له: إنَّك أقرضتني ناقةً فغديتُك^(١)، فأحتكم^(٢)، قال: راحلتين، قال: لك عشرون، أرضيت؟ قال: نعم، وفوق الرضا. قال: فلك أربعون، ثم قال لمن بحضرته من قومه: من أتاننا بناقةً فله ناقتان بعد الغارة؛ فأتوه بأربعين فدفعها إلى ضيفه.

وحكوا عن حاتم أنه خرج في الشهر الحرام يطلب حاجة، فلما كان بأرض عترة ناداه أسير لهم: يا أبا سفانة، أكلني الإسار! قال: ويملك! والله ما أنا في بلادى، وما معى شيء، وقد أسأت أن نوّهت بي! فذهب إلى العنزيين فسأوهمهم به واشتراه منهم، وقال: خلوا عنه وأنا أقيم مكانه في قيده حتى أودى فداه. ففعلوا فاتاهم بفدائه^(٣).

وقيل في المثل: هو أجودٌ من كعب بن مامة. وكان من إباد، وبلغ من جوده أنه خرج في ركب وفيهم رجل من أهل النمر بن قاسط في شهر ناجر - والنجر العطش - فضلوا وتضافوا^(٤) ماءهم، فجعل النمرى يشرب نصيبه فإذا أصاب كعباً نصيبه قال: أعط أخاك يصطبح، فيؤثره على نفسه حتى أضرب به العطش^(٥)، فلما رأى ذلك استحث راحلته وبأدر حتى رُفعت له أعلام الماء، وقيل له: رد كعب فإنك وارد، فغلبه العطش، فمات ونجا رفيقه^(٦).

وقيل في المثل: هو أسحٌ من لافظة، وهى العنز تستدعى للحلب، فتجىء إليه وهى تلفظ بجرتها فرحاً بالحلب.

وقال الشاعر:

يداك يدٌ خيرها يُرتجى وأخرى لأعدائها غائظة
فأما التى خيرها يُرتجى فأجودُ جوداً من اللافظة
وأما التى شرها يُتقى فنفسُ العدر بها فائظة

[المتقارب]

قيل: وخرج معاوية بن أبي سفيان ذات يوم، فقام إليه رجل فقال: قد أملتك لهم، فما عوضى من ذلك! قال: إبلاغك أمنيّتك، فتمن، قال: ألف دينار، قال: هى لك ومثلها؛ استظهاراً لبقاء النعمة عليك.

(٤) تصافن القوم: تقاسموا الماء بالمحصص.

(٥) محاضرات الأبرار: «فأضربهم».

(٦) المحاسن والأضداد ٨٢ ومحاضرات الأبرار ١: ٢٦٠.

(١) ك: «فغديتك بها».

(٢) ك: «فأحتكم على».

(٣) المحاسن والأضداد ٨٢.

وقال المهلب بن أبي صفرة لبنيه: يا بني إن ثيابكم على غيركم أحسن منها عليكم، ودوابكم تحت غيركم أحسن منها تحتكم.

وكان يقول لولده: لا تتكلوا على ما سبق من فعلى، وافعلوا ما ينسب إلى، ثم قال متملاً:
إنما المجد ما بنى والد الصدق وأحيا فعالة المولود
[الخفيف]

ويقول: ابتداء الفضل يد موفورة، والبذل بعد الطلب يد مقبوضة.

فأما صلوات الخلفاء وسخاؤهم؛ فإنه حدثنا هارون بن محمد بن إسماعيل بن موسى الهادي، قال: حدثني علي بن صالح، قال: كنت يوماً على رأس الهادي وأنا غلام، وقد جفا^(١) المظالم ثلاثة أيام عاقر العقار فيها، فدخل عليه الحرابي^(٢) فقال: يا أمير المؤمنين، إن العامة لاتقاد - أو قال: لا تنقاد - لما أنت عليه، لم تنظر في أمر المظالم منذ ثلاثة أيام. فالتفت إلى فقال: يا علي، ائذن الناس علي بالجفلي لا بالنقري، فخرجت من عنده وأنا أطير على وجهي لا أدري ما قال لي. فقلت: أرجع فأسأله عما قال، فيقول: تحجبنى ولا تعلم كلامي! ثم أدركني ذهني؛ فبعثت إلى أعرابي كان وقد علينا، فسأله عن الجفلي والنقري، فقال: الجفلي جفالة الرجال، والنقري ترتيبيهم. فأمرت بالسُّتور فرفعت، وبالأبواب ففتحت، فدخل الناس على بكره أبيهم، فلم يزل ينظر في المظالم إلى الليل، فلما تقوض المجلس [مثلت بين يديه، فقال: كأنك تريد أن تذكر شيئاً يا علي]^(٣) قلت: [نعم] يا أمير المؤمنين، كلمتني بكلام لم أعرفه^(٤)، [قبل يومى هذا، وحفت مراجعتك فتقول: أتحجبنى وأنت لم تعلم كلامي!] فبعثت إلى أعرابي كان عندي^(٥) ففسره لي، وفهمني؛ فكافته عنى يا أمير المؤمنين، فقال: نعم مائة ألف درهم تحمل إليه، فقلت: يا أمير المؤمنين، [إنه] أعرابي جلف، وفي عشرة آلاف درهم ما أغناه [وكفاه]، فقال: ويحك^(٦)! أجود وتبخل^(٧)!

قال: وحدثنا عبد الله بن عمرو البلخي، عن ابن دأب، أنه كان يأكل مع الهادي ويناديه وكان يدعو له متكاً^(٨) - وما كان يفعل ذلك في مجلسه بغيره؛ وكان لذيق المفاكهة، طيب المسامرة، كثير النادرة، جيد الشعر، حسن الانتزاع - قال: فأمر له ذات ليلة بثلاثين ألف دينار، فلما أصبح وجهه قهرمانة إلى باب موسى وقال له: الت الحاجب، فقل له يوجه إلينا بهذا المال. فلقي الحاجب، وأتاه

(١) كذا في الطبرى، وفي ل: «خفى»، وفي ك: «خفى عليه».

(٢) كذا في ل والطبرى. وفي ك: «الحرابي».

(٣) من تاريخ الطبرى.

(٤) الطبرى: «لم أسمع».

(٥) الطبرى: «عندنا».

(٦) الطبرى: «ويلك».

(٧) الخبر في الطبرى ٣: ٥٨٢ (طبع أوربا)، وتاريخ ابن الأثير ٥: ٨٠.

(٨) ط: «يتكاه» وما أنبتة من الطبرى.

برسالته، فتبسم وقال: هذا ليس إلي؛ فانطلق إلى صاحب التوقيع ليُخرج إليك^(١) كتاباً إلى الديوان فتدبره ثم تفعل فيه كذا وكذا. فرجع إلى ابن دأب فأخبره، فقال: دعها ولا تعرض لها. قال: فبينما موسى في مستشرق له [بيغداد]^(٢) إذ نظر إلى ابن دأب قد أقبل، وليس معه إلا غلام واحد، فقال لإبراهيم الحرّاني^(٣): أما ترى ابن دأب! ما غير من حاله شيئاً، [ولا تزين لنا]^(٤)؛ وقد برّناه بالأمس، لئرى أثر ذلك عليه.

فقال إبراهيم: إن أمرني أمير المؤمنين تعرضت له بشيء من أمره^(٥)؛ قال: لا، هو أعلم بأمره. ودخل ابن دأب وأخذنا في حديثه إلى أن عرض له موسى بذكر ذلك، فقال: أرى ثوبك غسلاً، وهذا شتاء يحتاج فيه إلى الثوب الجديد اللين. فقال: يا أمير المؤمنين، باعى قصير عمّا احتاج إليه. قال: وكيف وقد صرفنا إليك من برّنا ما ظننا أن فيه صلاح شأنك! قال: ما وصل إلي ولا قبضته. فدعا صاحب بيت مال الخاصة وقال: عجل له الساعة ثلاثين ألف دينار، فأحضرت وجعلت بين يديه^(٥).

وقال الحسن بن يحيى بن عبد الخالق: حدثني محمد بن القاسم بن الربيع، قال: أخبرني محمد بن عمرو الرومي؛ قال: حدثني أبي قال: جلس الهادي مجلساً خاصاً، فدعا بإبراهيم بن جعفر بن أبي جعفر، وإبراهيم بن سلم بن قتيبة بن مسلم، والحرّاني، فجلسوا عن يساره، ومعهم خادم للهادي أسود يقال له أسلم، إذ دخل صالح صاحب المصلّى، فقال: هارون بن المهدي! قال: ائذن له، فدخل وسلم عليه وقبل يده، وجلس عن يمينه بعيداً، فأطرق موسى، ثم التفت إليه وقال: يا هارون، كأنّي بك تحدّث نفسك بتمام الرؤيا وتؤمّل ما أنت منه بعيد، ودون ذلك خرط القتاد! تؤمّل الخلافة! قال: فبرك هارون على ركبتيه وقال يا موسى، إنك إن تجيرت وضعت، وإن تواضعت رفعت، وإن ظلمت خيلت^(٦)، وإني أرجو أن يفضى إلى الأمر فانصف من ظلمت، وأصل من قطعت، وأصير أولادك أعلى من أولادي، وأزوجهم بناتي، وأبلغ ما يجب من حق الإمام المهدي.

فقال له موسى: ذلك الظن بك يا أبا جعفر، أدن مني. فدنا وقبل يده، ثم ذهب يعود إلى مجلسه فقال: لا والشيوخ الجليل، والملك النبيل - أعنى أباك المنصور - لاجلست إلا معي. فأجلسه في صدر المجلس معه، ثم قال: يا حرّاني، أحمل إلى أخي ألف ألف دينار، وإذا افتتح الخراج فاحمل إليه

(١) الطبري: «له».

(٢) من الطبري.

(٣) ك: «الحرّاني».

(٤) ك: «من ذلك» الطبري: «من هذا».

(٥) الحير في تاريخ الطبري ٣: ٥٨٩: ٥٩٠ (طبع أوروبا) وتاريخ ابن الأثير ٥: ٨٧.

(٦) ك: «خيلت»، وفي ابن الأثير: «قتلت».

النَّصَف، واعرَضَ عليه ما في الخزانة^(١) الخاصَّة وسائر الخزانين من مالنا، وما أُخِذَ من أهل بيت اللعنة^(٢) فيأخذ منه ما أراد.

قال: ففعل ذلك، فلما قام قال لصالح: أدن دابَّته إلى البساط.

قال عمرو الرومى: وكان هارون يأنس به قلت: يا سيدي، ما الرؤيا التي قال لك؟ قال المهديُّ: رأيت في منامى كأني دفعتُ إلى موسى قضييًّا، وإلى هارون قضييًّا^(٣) أورق من قضييب موسى وأعلى منه^(٤)؛ فأما قضييب هارون فأورق من أوله ألى آخره، وكان قضييب موسى دون قضييب ذلك.

فدعا المهديُّ الحَكَمَ بن موسى العَنَزِيَّ^(٥) - وهو الذي بنى أبوه واسطًا للحجاج - فقال له: عبر هذه الرؤيا. قال: يملكان جميعًا، فأما موسى فتقلَّ أيامه، وأما هارون فيبلغ مدى آخر ما عاش خليفة، وتكون أيامه أحسن أيامٍ وأنضرها، ودهره أحسن دهر. قال: فلم يلبث إلا أيامًا يسيرة حتى مات موسى، وتولَّى الأمر هارون، فزَوَّجَ همدونة من جعفر بن موسى، وفاطمة من إسماعيل، ووفى بكلِّ ما قال. فكان دهره أحسن الدهور^(٥).

محمد^(٦) بن عليَّ بن الحسين العَلَوِيَّ، قال: كنتُ عند عمر بن الفرج الرُّخَجِيَّ في اليوم الذي عقد فيه المأمون لأخيه أبي إسحاق على ثغر المغرب، ولابنه العباس على الشام والجزيرة، ولعبد الله ابن طاهر على الجند ومحاربة أبائك، وعند عمر جماعة من الهاشمين، فتذاكرنا أمر هؤلاء الثلاثة، فقال عمر: فرَّق أمير المؤمنين في^(٧) هؤلاء الثلاثة ما لم يفرِّق مثله أحدٌ منذ كانت الدنيا؛ أمر لأخيه أبي إسحاق بخمسمائة ألف دينار، ولابنه العباس بخمسمائة ألف دينار، ولعبد الله بن طاهر بخمسمائة ألف دينار، فمن سخَّتْ نفسه بمثل هذا!

وكان للبرامكة في هذا الشأن ما لم يكن لأحد من الناس؛ منها أنَّهم كانوا يخرجون بالليل سرًّا، ومعهم الأموال يتصدَّقون بها، وربما دَقُّوا على الناس أبوابهم، فيدفعون إليهم الصُّرة فيها ما بين الثلاثة آلاف إلى الخمسة آلاف والأكثر من ذلك والأقل، وربما طرَّحوا ما معهم في عتَب الأبواب،

(١) الطبري: «الخزانين».

(٢) زاد ابن الأثير: «يعني بني أمية».

(٣-٣) الطبري: «فأورق من قضييب موسى أعلاه».

(٤) الطبري: «الضمرى».

(٥) الخبر في تاريخ الطبري ٣: ٥٧٦ - ٥٧٨ وتاريخ ابن الأثير ٥: ٧٨.

(٦) ك: «حدثنا».

(٧) ك: «على».

فكان الناس لإعتيادهم ذلك يعمدون إلى العتب إذا أصبحوا يطلبون ما ألقى فيها.

ومنهم خالد بن برمك فإنه حدثنا يوسف بن سلام الزعفراني، قال: حدثني أبي قال: قال خالد بن برمك - وهو بالرّي، وأراد الخروج يوماً إلى مجلس له وإخراج^(١) دوابّه إلى الحضرة^(٢) ونحن قيام بين يديه: من يخرج مع هذه الدوابّ؟ قال أبي: أنا - وليس أحد يجترئ أن يتكلّم - فقال: أخرج معها، فخرجت وكنت أحسن إليها، فلما رددتها حمد أثرى فيها، فقلت: أيها الأمير، لي حاجة! فقال: وما حاجتك؟ قلت: أرى مملوكة لقوم^(٣) بالبصرة، وحاجتي أن يشتريها الأمير، قال: وكم ثمنها؟ قلت: ثلاثة آلاف درهم، قال: ثلاثة آلاف؟ قلت: نعم، قال: أعطوه ثلاثة آلاف درهم، وقال لي: اشتريها الآن وأعتقها. ثم قال: ما تريد؟ قلت: الحج، أحجّ وتحجّ هي أيضاً^(٤)، قال: أعطوه ثلاثة آلاف درهم: قلت: نحتاج إلى خادم يخدمنا. قال: أعطوه ثلاثة آلاف درهم لثمن خادم. قلت: نحتاج إلى ثمن كسوة^(٥). قال: أعطوه ثلاثة آلاف درهم لكسوتهم^(٦) فلم أزل أقول وأعد شيئاً شيئاً حتى قلت: واحتاج إلى منزل، واحتاج إلى فرس، وهو يقول: أعطوه ثلاثة آلاف درهم، حتى أخذت ثلاثين ألف درهم.

قال: وحدثنا يزيد البرمكي، قال: كسا خالد كل ثوب كان له حتى لم يبق عليه من كسوته إلا طيلسان خلق، فاتصل خبره في كسوته بامرأته أم خالد بنت يزيد، وكانت بالرّي، فبعثت إليه بكسوة من الرّي؛ طيلسان مطبّق لم أر مثله جودةً وحسناً وسعةً، وكان خالد ذا بسطةٍ في الجسم، فكان يحتاج إلى أسبغ ثوبٍ وأتمه، فوضع بين يديه، فنظر إليه، ثم رفع رأسه إلى، فقال: يا يزيد، كيف ترى هذا الطيلسان؟ قلت: ما رأيت مثله، وإن بالأمير إليه الحاجة^(٧). قال خالد: أصنع به ماذا؟ قلت: تلبسه أيها الأمير. قال: أنا والله إلى غير هذا أحوج. قلت: وما هو؟ قال: أن تقوم الساعة على شريف من أشرف الناس، أو حرٍّ من أحرارهم فتتجفّه به، فيقوم فيلبسه كلُّ يوم عيد، أو يخرج^(٨) إذا خرج نحو أهله، فيلبسه عند قدومه عليهم، فيقول: هذا كسوة خالد؛ هذا والله أفضل وأشرف من لبسي إياه^(٩).

قال: فكساه بعض عُفاته.

(٦) ك: «لثمن كسوتهم».

(٧) ك: «حاجة».

(٨) ك: «ويخرج».

(٩) ك: «له».

(١) ك: «وأخرج».

(٢) ك: «الحضرة».

(٣) ك: «لقرم»، والقرم: السيد.

(٤) ك: «معى فقال».

(٥) ك: «الكسوة».

ومنها يحيى بن خالد، فإنه حَدَّثنا علي بن الحسين الأشقر، عن عبد الله بن أسوار، قال: كنت أخطُ بين يدي يحيى، وكان خطي يُعجبه، فبينما أنا جالس بين يديه إذ ناوَله رجل كتاباً، فتَنى أعلاه وجعل يقرؤه فدخل الفضل ابْنه فسَلَّم وجلس، ثم أقبل على رجل يحدِّثه وطرف يحيى في الكتاب الذي بيده، فقال الفضل لذلك الرجل: إني لأعجب كثيراً من أمر نحن فيه! كان الرجل يصلُ الرجلَ بخمسين ألف درهم فتُغنيه وعشيرته، فيكتفون بها، ونرى ذلك في وجوههم ويتبين عليهم أثره، ونحن نصل الرجل بخمسمائة ألف درهم والأكثر فلا نرى ذلك في وجوههم. فالتفت إليه يحيى وقطع قراءة الكتاب، فقال: يا أبا العباس، إذا كان أملُ الرجل ألف ألف درهم وأعطيته خمسمائة ألف لم تقع منه مَوْقَعاً، وإنما يُرى^(١) في وجه الرجل ما بلغ به الأملُ. فعجِب أهلُ المجلس من كرمه وقوله، وما زالوا يَحْكُونُه^(٢) عنه.

وحدَّث ابن مَرْزُوع، عن أبيه قال: كنتُ أسيرُ في موكب يحيى بن خالد، فعرضَ له رجلٌ من العامة ومعه كتاب، فقال: أصلح الله الأمير^(٣)! اخْتِمْ هذا الكتاب، فيادر إليه الشاكرية يزجرونه من حواشي موكبه، فقال: دَعُوهُ قَبْلَ أَلَّا نَتَنَفَّعَ بِهِ - يعني خاتمه - واستدناه فَخْتَمَهُ له. وتعجَّب مُسايروه من اغتنامه المعروف، وعلمه بأفعال الرجال^(٤).

وحدَّث صالح بن سليمان، قال: وذَكَر ليحيى وهو مجاور بمكة أن بجدة قومًا يصيدون السمك ويبيئونه ويشترون طعامهم به فإن^(٥)، لم يجدوا صيداً مكتوا أياماً لا يأكلون، يشدُّ الرجل على بطنه حجراً، ولا يسألون الناس شيئاً، وربما مات أحدهم جوعاً. فقال: هؤلاء أعجب قوم سمعت بهم! ينبغي أن نلتمس الثواب فيهم. فبعث فحمل إليه بعضهم، فسأله عن حالهم، فأخبره، فقال: وكم أنتم؟ فذكر عدده، فقال: وكلكم على هذه الطريقة^(٦)؟ قال: نعم. قال: فما يُغنيكم؟ قال: تُحْفَر لنا بركة يجتمع فيها ماء السماء، فإن الماء يعزُّ بالبلاد إلا على من كانت له مَصْنَعَةٌ، فيشرب منها ويبيع فَضْلُهَا وينتفع ثمنه.

قال: فبكم يكتفي أحدكم في الشهر؟ قال: بأربعة دراهم لكل رجل، وللمرأة ستة دراهم، قال: فإني قد أجرِيت لكل رجل عشرة دراهم، ولكل امرأة ثمانية عشر درهماً. فهل تتزوجون؟ قال نعم، قال: فكم مهور^(٧) نسائكم؟ قال: أربعمائة درهم. قال: فإني أمر بإعطائكم ما أجرِيت عليكم لسبع سنين، ولمهور نسائكم عشرين ألف درهم. قال: مَنْ يدفع هذا المال إلينا؟ فأشار إلى غلام أمرَد معه، فقال: ادفع إلى هذا المال. فدفع^(٨) إليه، فقال: أتأذن أن أشتري - أصلحك الله - من

(٧) ك: «مهر».

(٨) ك: «قدمه».

(٤) ك: «الزمان».

(٥) ك: «فإذا».

(٦) ك: «الحالة».

(١) ك: «ترى».

(٢) ك: «يحكون».

(٣) ك بعدها: «الوزير».

هذا المال تايوتا أجعله فيه ! قال : نعم، وأمر باتخاذ بركة لهم، بلغت النفقة عليها^(١) عشرين ألف درهم.

* * *

وحدثنا يزيد البرمكي قال : قدم الواقدي من المدينة بأسوأ حال، فصار إلى يحيى وهو لا يعرفه، فوضع الطويلة على رأسه، فركب يحيى وخرج، فرآه جالساً على باب داره في زى القضاة، فقام الواقدي وأثنى عليه، ودعا له. ومر يحيى في موكبه إلى دار أمير المؤمنين، ثم انصرف وإذا الواقدي في مجلسه ذلك، فقام إليه ودعا له وأثنى عليه، فدخل في منزله، وجلس الواقدي فسأل يحيى عنه، وقال : من هذا الشيخ الرث الهيثم ؟ فلم يعرفه أحد. فقال : ويحك ! لا أشك إلا أنه شيخ أصيل، معه علم وفقه، ودعا بكيس فيه أربعة آلاف دينار، وأمر وكيلاً له أن يذفها إليه، وكان قصارى الواقدي ومناه أن يصله بألف درهم. فخرج الرسول ووضع الكيس في حجره، فلما رأى عظم الكيش، أقبل يدعو ليحيى وبثني عليه، ثم قام وانصرف إلى منزله، وقد أخذته الرعدة والحرج أن يرى ما في الكيس فيعرف منتهاه، فلما صار إلى حجرته استعار من بعض جيرانه ميزاناً وصنجات، ثم فتح الكيس وإذا أربعة آلاف دينار، فكاد أن يغشى عليه من السرور، فرم من حاله، واتخذ ثياباً سوية، وعزم على أن ينصرف إلى المدينة، فلما كان من الغد بكر على يحيى ليودعه، فدخل وأنشد، فرآه عالماً فقيهاً مسامراً بليغاً. فأعجب به، فقام ليودعه، فقال : أقم عندنا ولك في كل حول هذا المقدار. فأقام عنده.

* * *

وحدثنا يعقوب بن إسحاق، قال رأى رجل من الموالى ليحيى رؤيا عجيبة، وكان يحيى على حال الخوف، والوجل من الهادي، فقص الرؤيا على أبيه، فقال : يا بُني، هذه والله رؤيا^(٢) عجيبة، وأخلق به؛ لأن الرشيد في حجره، وولاية العهد له.

قال : يا أبت؛ أفترى^(٣) أن أخبره بها ؟ قال : يا بُني لا تفعل، فإن السلطان غليظ عليه، وهو يرميه بالزندقة، وأنا أشفق عليه من إتيانه، لأنه لا يقبل مثل هذا في هذا الوقت، فعصى الرجل أباه وأتاه. قال الرجل : فلما دخلت عليه رأيت المصحف بين يديه يقرأ فيه، فعجبت مما قيل فيه فلما خف من عنده دنوت منه، فقصت عليه الرؤيا، فقال : يا بن أخي، ما أحسن بالرجل أن يلتمس الرزق بالأحسن الأجل ! وأقبح به أن يلتمس على هذا وبما تذكره مما يشبهه. فخرجت من عنده وقد سقط وجهي، فأتيت أبي فأعلمته فقال : بعداً لك وسحقاً ! قد نصحت لك فلم تقبل. ثم أقبل يشتمه وتشتمه أمه وأهله، يقولون : نشهد عليك أنك من الزنادقة المعطلين.

قال : ثم^(٤) لم يلبث أن توفى الهادي، وأفضى الأمر إلى الرشيد، وصار يحيى إلى ما صار إليه، فبينما هو في موكبه يوماً، إذ بصرتي، فوجه إلى ودعاني فدخلت عليه وهو على كرسي قد طرح ثوبه،

(٣) ل : «فترى».

(١) ك : «عليه».

(٤) ك : «فلم».

(٢) ك : «الرؤيا واقه».

وجعل يمسح وجهه، فلما دنوتُ منه قال: أين كنتُ عنا؟ قلت: أعزك الله! والله ما لقيتُ منك ما يدعو إلى إتيانك، قال: ويحك! إنك أتيتنا ونحن في حال^(١) كنا نتخوف الجُدْر أن يكون فيها مَنْ يَسْعَى بنا، والإخوان أن يسعوا بنا ويحتالوا علينا، ولم يكن الرأي أن أجيبك إلا بما أجبتك، والله^(٢) ما فارقتُ الفكر في العناية بك، والإيجاب لك، والمعرفة بحقك، منذ وقعتُ عليك عيني.

ثم أمر سلماً بإحضار عشرة آلاف درهم، فأحضرتُ، وأمر بالكتاب^(٣) إلى سليمان بن راشد بأرمينية. فدفع المال إلى، وحملني وخلع عليّ، وقال: اذهب فأصلح [بها]^(٤) شأنك وتعال فتسلم كتبك، وأمر لي بعشرة من دوابّ البريد، فأنصرفتُ إلى منزلي وتحتي دابةً وعليّ خِلمة، ومعى عشرة آلاف درهم. فقال أبي: ما هذا يا بني؟ فأعلمته الخبر، فما زلتُ وأهلي وأبي ندعو له ونشهد أنه من الصديقين والشهداء والصالحين. فقلت لبعض جيرانتنا: ما أصنع بعشر دوابّ البريد؟ فقال: أكرها فإنك تصيب في السكك من تنصّر به دوابّه عن حاجته، فيكترى منك. قال: فلما كان من الغد عدتُ إليه، فأخذتُ كُتبي وجوازى، فلما صرتُ إلى السكّة وجدتُ رجلاً كبيراً قد وُجّه إلى تلك الناحية، ولم يكتف بما مُجّل عليه من الدوابّ، فأكريتُ له^(٥) ثمانى دوابّ، وخرجتُ على دابّتين، أنا على دابّته، وغلامى على أخرى، ولم أزلُ في حشم المكترى حتى صرنا إلى أوّل العمل، فإذا يحمي قد سبقني بالكتاب إلى سليمان: أن رجلاً من حاله كيت وكيت، وله عندى أيادٍ، فاخترتك له، فكن عند ظني بك في أمره، وافعل به وافعل.

قال: فوجّه سليمان قائداً في جند عظيم لاستقبالي، حتى إذا أتصل به دُنوي استقبلي في وجوه أهل البلد، فلما دنا منا بادر إلى الرجل المكترى مني، ولم يشك أنى هو، وسأله فأعلمه المكترى أنه فلان ابن فلان، فقال سليمان: توهمتُك فلاناً! قال: لستُ هو، ولكنه ذاك - وأشار إلى - فأقبل سليمان ركضاً إليّ، وتضاءلتُ منه حياة لثلاثة حالي، فسألني وأعلمني أنه وجّه^(٦) إليّ وكيله، وحمل معه هدايا، فقلت: ما وصل ذلك إليّ. فلما نزلنا وحططنا في بعض تلك المنازل؛ إذا وكيله قد وافى بهداياه^(٧)، وإذا دوابّ وبغال موقرة، ونخوت وثياب، فدخلتُ البلد وقد حسنتُ حالي.

فلما كان من الغد ركب إليّ وقال: قد أعلمني أبو عليّ - أعزّه الله - عن حالك، ووكد^(٨) عليّ في كتابه، وليس عندى إلا إطلاق العمل لك، وهاهنا نشوى الكبرى، ونشوى الصغرى؛ وهما من أجل الأعمال بأرمينية ونواحيها، فإن شئتُ أن تخرج إليهما فأخرج، وإن شئتُ فما هنا من يبذل عنها خمسمائة ألف درهم.

قلت: لا والله - أبقاك الله - إلا الخمسمائة الألف؛ عجّلها لي، فأنصرف إلى أبي، شيخ كبير، وعيالٍ قد خلقتهم ورائي. قال سليمان: ذاك إليك، فلما خرج سليمان سألتُ عن نشوى ونشوى قال: فقيل مقاطعتها^(٩) خمسمائة ألف درهم، ويصير إلى المقاطع مثلاً. ثم لم ألبث من الغد أن أتى

(٧) ك: «هدايا».

(٨) ك: «أكد».

(٩) ك: «مقاطعها».

(٤) من ك.

(٥) ط: «منه».

(٦) ك: «إليه».

(١) ك: «على حال».

(٢) ك: «قوائمه».

(٣) ك: «بكتاب».

رسوله بالمال، فخرجت وأهديت يحيى هدايا كثيرة، وألطافاً جليلة مما كان برّني به سليمان. فلما دخلت إليه تبسم إليّ وقال: إنا لم نوجهك لنتنفع^(١) بك، بل وجهناك لنتنفع بنا، وسيّصل^(٢) معروفنا إليك فالزمتنا، فكسبت بجاهه - ما مع وصل إلىّ منه، ولم يزل يصلني به - عشرين ألف ألف درهم.

وحدثني أيوب بن هارون بن سليمان بن عليّ، قال: جاء يحيى ومعه ابنه جعفر إلى عبد الصمد بن عليّ، فسلم عليه، وبياهه فتى من ولد عبد الله بن عليّ، فقام إلى جعفر؛ فقيل يده، فقال له: اثبتني وارفع إليّ حوائجك [الأرفعها] إلى أمير المؤمنين، وقد أمرت لك بخمسة آلاف دينار. فقال يحيى: وقد أمرت لك بثلاثمائة ألف درهم في كلّ شهر، فابعت بن يقبض ذلك!

فلما انصرف، دعاه عبد الصمد فقال: لم فعلت ما فعلت^(٣)؟ فقال: أنا ابن أخيك، وإنما تصلني في السنة بأربعة آلاف درهم، وقد أغناني هذا وأبوه في ساعة واحدة، فكيف تلومني على ذلك!

وحدث يحيى بن محمد، قال: لما خرج الرشيد إلى القاطول^(٤) قال ليحيى: يا أبت لا تفجعني بك، وكُنْ معي في هذا الوجه لأنس بك. فعمد إلى الشخص معه، فقال لرجاء بن عبد العزيز - وكان على نفقاته: كم عند وكلائنا من المال؟ قال: سبعمائة ألف درهم. قال: فاقبضها إليك، فعدا إليه، فقيل يده - ومنصور بن زياد عنده - فلما خرج رجاء قال لمنصور: قد ظننت أن رجاء توهم أنا وهبنا له هذا المال، وإنما أمرناه بقبضه ليكون معنا في هذا الوجه: فقال منصور: فأنا أعلمه ذلك. قال: إذن يقول: «فقل له: يقبل يدي كما قبلت يده»؛ فلا تقل له شيئاً وترك المال له. وكان يحيى يقول: أسرف فإن الشرف في السرف.

ومنهم الفضل بن يحيى البرمكيّ، فإنه حدثنا محمد بن عليّ بن عيسى بن ماهان، عن محمد بن زيد، أنه قال: دخلت على الفضل بن يحيى وقد خرج من الحمام بعد العصر وهو يقول: أعوذ بالله من النار! فقلت: جعلت فداك! اشتر هذا الوجه الحسن من النار، فدعا بخمسمائة ألف درهم، وقال: اشتر^(٥) بها وجهي الساعة. فقلت جعلت فداك! الوقت ضيق، ولكن غداً إن شاء الله، فقال: لا والله، إلا الساعة. فوجهت إلى القضاة في الجانبين بثلاثمائة ألف درهم، وحملت إلى أبي محمد

(٣) يريد تقبيل يد جعفر.

(١) ك: «بما يصير إليك».

(٢) ك: «وسيصل».

(٤) القاطول: نهر كان في موضع ساتراء، حفره الرشيد وبنى على فوهته قصرًا سماه أبا الجند لكثرة ما كان يسقى من الأرضين، وجعله لأرزاق الجند (مراصد الأطلاع).

(٥) ك: «استر».

السمرقندى منها صدراً، وأمرتهم عنه بتفريقه، وفرقتُ البقية بحضرتي، فلم تغب الشمس حتى فرّق ذلك كله.

وحدّث محمد بن الحسين بن مصعب، قال: وقفَ الفضلُ بن يحيى بخراسان موقفاً لم يقفه أحدٌ قطّ، خرج إلى الميدان ليضرب بالصّوالج، فأمر بدفاتر البقايا التي على الناس فأحضرت، وأمر الحاجب بالخروج إلى الناس، وإعلامهم^(١) أنّه قد وهبها لهم. ثم أمر بها فضربت بالنار، وكان مبلغ ذلك أكثر من عشرين ألف ألف درهم.

وحدّث بعض الهاشميين عن خلف المصريّ قال: مررتُ يوماً بباب يحيى بن معاذ، فوجدته مغلقاً ولم أر بالباب أحداً، فأنكرتُ ذلك، فدنوتُ إلى الباب واستفتحت، ففتح لي، ودخلتُ عليه، وسألته عن حاله، فذكر أنّه توارى عن غرمانه، فقلت: وكم لديّانك عليك؟ فقال: ثلاثمائة ألف درهم، ثم مضيتُ إلى الفضل بن يحيى فأخبرته، فسكت، فلما انصرفتُ إلى منزلي كتب إليّ: إنك دلتنا على مكرمة، فشكرناك^(٢) على ذلك، وأمرنا لك بمائة ألف درهم لدلاليتك، وبعثنا إليك بثلاثمائة ألف درهم؛ لتوصلها إلى يحيى بن معاذ. فأوصلتها إليه، فقبض ديبته بها.

قيل: ودفع حمزة بن جعفر بن سليمان إلى أبي النضر الشاعر رُقعةً ليوصلها إلى الفضل؛ يسأله فيها الإذن له في ابتياع ضيعة بفارس، وكان مبلغ ما يؤزّن في ثمنها مائة ألف درهم. قال أبو النضر: فأخذتها منه، فدفعتها إلى الفضل، فنظر ووضعها فاغتممتُ لما رأيتُ من قلة نشاطه لها؛ فلما أصبحت قيل لي: خزّان بيت المال يطلبونك، فظننتُ أنه نظر لي بشيء في خاصتي، فأتيهم، فقالوا لي: أحضر من يحمل المائة الألف إلى صاحب الرُقعة، فحملتها إلى حمزة، قال حمزة: فصرت إليه، فقلت له: أصلح الله الأمير! وصلتُ إلى صلتك، ولا والله ما أدري كيف أشكرك إلا بقول أبي النضر فيك:

وللناس معروفٌ وفيهم صنائعٌ ولن يجبر الأحران إلا جداً الفضل
إذا ما العطايا لم تكن برمكيةً فتلك العطايا ما تمرّ وما تحلّي

قال أبو النضر: فالتفت إلى الفضل فقال: يا أبا النضر، جزاؤك عندي. فوصلني حتى أغنانى.

(٢) ل: «فشكرت لك ذلك».

(١) ك: «وأعلمهم».

وحدّث أحمد بن عليّ السّيفيّ^(١) وغيره عن ينزل بنهر المهديّ، قال: أقبل الفضلُ بن يحيى يوماً على نهر المهديّ يريد منزله بباب الشّمسائيّة^(٢)، فاستقبله فتى من الأبناء قد أمّلك^(٣)، ومعه جماعة كثيرة قد ركبوا معه في السّواد والسيوف - وهكذا كانوا يفعلون، يركبون مع الرجل عند إملاكه، ويستعيرون الدوابّ ويسيرون خلفه ويطرّقون بين يديه - قال: فترجّل الفتى للفضل وقبّل يده ورجّله. فسأله عن شأنه، فأخبره فقال: كم أصدقت^(٤) أهلك؟ قال: أربعة آلاف درهم، فدعا قهرمانه وقال: أحملْ إليه السّاعة أربعة آلاف درهم لصداقِ أهله، وأربعة آلاف درهم لشراء منزلٍ ينزله، وأربعة آلاف درهم لنفقة تحويل أهله، وأربعة آلاف درهم للنفقة على الوليمة وأربعة آلاف درهم ليتصرّف بها في معيشته.

قال أحمد بن عليّ: فأشاروا على الفتى أن يسأله أن يأمر قوّاده وحشمه بإتيانه، فأمرهم بذلك، فأتوه، وجعلوا يطرّحون العشرة الآلاف الدرهم والخمسة الآلاف الدرهم والأقلّ والأكثر في مجلسه، حتى اجتمع له خمسون ألف درهم سوى ما أعطاه الفضل.

وحدّث أحمد بن عليّ، قال: حدّثنا رجل من جيراننا أن الفضل بن يحيى مرّ في يوم صائف^(٥) منصرفاً من المدينة، يريد منزله، فقال الرجل: لا والله إن^(٦) في منزلي قليل ولا كثير، فعبّس الفضل فقلت: يرحمك الله! وقد كان سمع يميني، فأمر بعض غلمانِه أن يحمِلني معه على دابّته فلمّا صار بي إلى قصره أخرج إلى خمسة آلاف درهم، وعشرة أثواب، فانصرفتُ بها إلى منزلي، فقالت لي امرأتِي: والله لقد خرجت من عندنا وما^(٧) تملك قليلاً ولا كثيراً، فمن أين سرقت هذا؟ قال: فأعلمتها القصة، فلم تصدّق قولي، واستراب الجيران بحالي، وتناهى الخبر إلى السّلطان، فطَمِع فيّ، وأخذني فحبسني، فقلت له: إنّه كان من أمرى كيت وكيت، فوقع خبري إلى الفضل، فأمر بإحضاري فلمّا أحضرت ورأني عرّفني، وأمر بإطلاقي ووصلني بخمسة آلاف أخرى، وبعشرة أثواب، وقال: تعهّدنا تنفّك.

فلم يزل ينفعه^(٧) حتى حدّث من أمرهم ما حدّث.

وعن أحمد بن محمد بن عبد الصمد، أن رجلاً كان ينزل على نهر المهديّ، وكانت عليه نعمة فزالت، فلم يقدر على شيء، فَمَطِر الناس ثلاثة أيام متتابعة، فبقي في منزله لا يقدر على الخروج،

(١) كذا في ك، والسيفيّ؛ بفتح السين، نسبة إلى سيف اسم رجل، وقد اشتهر بها كثيرون. وفي ل: «الشقي» وانظر للباب لابن الأثير.

(٢) الشّمسائيّة، بفتح أوله وتشديد ثانيه: صحراء كانت في أعلى بغداد ينسب إليها باب من أبوابها مراد اصطلاح ٢: ٨١.

(٦) ك: «ما» وما وإن هنا نافية.

(٧) ك: «ينفعني».

(٣) أمّلك، أى تزوج.

(٤) أصدقت الرجل المرأة، أى سمى لها صداقاً.

(٥) يوم صائف أى حار.

فأضرب به ذلك، وبلغ إليه الجوع وإلى عياله، فلما كان في آخر الليل، جاء إلى البقال^(١) بقصعة له ليرهنها عنده على خبز، فانتهره البقال وقال: ما أصنع بهذه القصعة! وأبى أن يعطيها عليها شيئاً. قال: فعاد إلى منزله مغموماً لا حيلة له، فرفع يده إلى السماء وقال: اللهم سئى إلى في هذه الليلة عبداً من عبادك تحبب، يُفرج عني. ما أمسيت فيه! فما شعرت إلا والباب يدق عليّ، فإذا رجل على حمار قد حَفَّ به خَدَمٌ، فقال لي: كم عيالُك؟ قلت: كذا وكذا، فأعطاني كيساً قدّرت أن فيه خمسة آلاف درهم، فقلت: الحمد لله الذي استجاب دعائي، وفرج عني. فقال لي: وما كان قولك ودعاؤك؟ فخبرته الخبر بصنيع البقال وما دعوتُ الله جلَّ وعزَّ به، فاستحلفني أني دعوتُ بهذا الدعاء! فحلفت له، فأمر لي بمائة ألف درهم فسألت بعض أولئك الخدم عنه لأعلم: هل يقدر على ما أمر لي به أم لا! فقال: هو الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي، فسكنتُ إلى ذلك^(٢)، وانصرفت إلى منزلي ومضيت إلى قهرمانه لما أصبحت، فقبضتُ منه المال.

وحدّث خلف بن عمر المصري، قال: كنا عند الفضل ذات ليلة^(٣) فقال: أتعرفون رجلاً كانت عليه نعمة فزالت عنه حتى أردّها عليه! فقال الأشعريّ - وكان قاضيّاً - أعرِفُ أصلحك الله رجلاً شريفاً من آل خالد بن عبد الله القسريّ بالكوفة؛ قد أضرتُ به الحاجة - وسماه له - فكتب إلى عامل الكوفة: أحمِلْ إلى فلاناً على البريد، فقد بعثت بجوازِهِ، فلم يعلم الخالديّ حتى حملة العامل على البريد ووجهه إليه، فلما قدم عليه دعاه وسأله عن حاله، وأمر له بمائة ألف درهم وقال: أقم بها مَرُوءتك حتى أنظر في أمرك، وأديرّ لك ما يُصلِحُ^(٤) حالك، ثم ولاء كَرَمَان، فصار إليها، وحسنت حاله^(٥).

ثم إن كتاب صاحب البريد بها ورد على الفضل بن يحيى بوفاة الكوفيّ، فقال لنا: أتدرون ما قال الفارسيّ في مَثَلٍ له، فذكر^(٦) المَثَلُ بالفارسيّة، ثم فسره بالعربية، فقال: إلى أن يُدرك الحشيش قد مات الحمار؛ أردت بهذا الرجل الغنيّ، فمات قبل ذلك.

واغتمّ لوفاته، ولما فاته من الإحسان إليه بعد الذي قد كان أعطاه وأكسبه من مرافق العمل الذي ولاء، وتقدّم بحمّل جميع ما خلفه إلى أهله فحمل إليهم^(٧).

وحدّثنا أبو طالب الجعفرى قال: حدّثني سليمان بن أبي جعفر، أن محمد بن إبراهيم الإمام، ركب إلى الفضل بن يحيى يوماً، وكان قد ركبِهِ دين، وحمل حقه^(٨) فيها جوهر، فلما وصل إليه قال: قد لزمى دين أحوجنى إلى احتيال ألف ألف درهم، وعلمتُ أن التجار لا يسمّحون بإخراج مثلها،

(٥) ك: «أحواله».

(٦) ك: «ثم ذكر».

(٧) ك: «فحملة».

(٨) الحقّة: دعاه من خشب وقد تسوى من العاج.

(١) البقال: «بائع البقول».

(٢) ك: «لذلك».

(٣) ك: «يوم».

(٤) ك: «ما تصلح به حالك».

وإن وثقنا الرهن، ولك مُعاملون، وتجار مطيعون، ومعى رهن، فإن رأيت أن تأمر بقبضه، وحمل هذا المال إلينا، فأنت أولى بذلك! فقال الفضل: نعم. لنا تجار يطيعوننا، ويسارعون إلى أمرنا، ولكن ما هذا الرهن؟ فوضع الحقّة بين يديه، ففتحها حتى نظر إليها، فأعجب بالجواهر الّذى فيها، ثم أمر بإعادتها إلى حالها وقال: ضع خاتمك عليها؛ فختمها.

قال: فقال الفضل: إن نُجِّح الحاجة أن تقيم في منزلى الّذى أنا فيه. فقال: يشقّ على المُقام. فقال: وما يشقّ عليك! إن رأيت أن تلبس من ثيابنا شيئاً دعوت لك به، وإلا فابعت إلى منزلك لتوقى به. فأقام عنده ونهض الفضل فدعا وكيله، وأمر أن يحمل إلى منزل محمد بن إبراهيم ألف درهم مبدّرة، ويضعها قبالة مجلسه ليراها إذا دخل، ففعل الوكيل ذلك، وانصرف محمداً إلى منزله مع المغرب، فلما دخل وقعت عينه على المال، فقال: ما هذا؟ قالوا: وجّه به الفضل، قال: أحسن الله جزاءه! فإنه وإن كان وجّه بذلك على ما رهناه^(١) فقد ظهر لنا من عنايته ما قدّرناه فيه، قالوا: وما الرهن؟ قال: الحقّة، قالوا: ردّها بختمك^(٢)، فقال: أين هي؟ فأتى بالحقّة ففتحها حتى نظر إليها وفرح فرحاً شديداً. فغداً إلى الفضل فوجده قد سبقه إلى دار أمير المؤمنين فتبعه، فلم يزل واقفاً ينتظره حتى خرج الفضل من بابٍ آخر، فصار إلى منزله وشكر له ما كان منه، وانصرف عنه، فلما دخل منزله وجد فيه ألف ألف درهم سوى الأولى، فقال: ما هذا؟ قالوا: بعث به الفضل فأتاه، فقال له: جعلت فداك! أما كان فيها وجّهت به أمس كفاية؛ حتى أردفته بمثله! فقال: إنه والله طالت على ليلتي فركبت إلى أمير المؤمنين، وأعلمته حالك، فأمرني بالتقدير لك، فقدّرت مائة ألف دينار؛ فما زال يقول ويماكسني حتى وقفت على ألف ألف، فأمر لك بها، فلما انصرف إلى المنزل حتى حمل المال إليك. فقال محمد: لست أجد لك شكراً أفضى به حقك، غير أنه على من الأيمان المغلظة إن وقفت بباب أحد سواك أبداً حتى ألقى الله جلّ وعزّ، ولا أسأل أحداً حاجة - ما بقيت - سواك. فكان لا يركب إلى أحدٍ سوى الفضل، ولا يقف بباب أحدٍ غيره.

ومن كرمه ما حدّث به المأمون - فكبر عنده واستحسنه، وعجب من جوده وسعة صدره - فإنه بلغنا عن عمرو بن مسعدة قال: رفعت قصة إلى المأمون منسوبة إلى محمد بن عبد الله؛ يمت فيها بحرمة، ويزعم أنه من أهل النعمة والقدر، وأنه مولى ليحيى بن خالد، وأنه كان ذا ضيعة واسعة، ونعمة جلييلة، وأن ضياعه قبضت فيها قبض للبرامكة، وزالت نعمته بحلول التهمة عليهم. فدفعها المأمون إلى ابن أبي خالد، وأمره أن يضمّ الرجل إلى نفسه، وأن يجرى عليه، ويحسن إليه. ففعل ذلك به وصلحت حاله^(٣)، وتراجع أمره، وصار نديماً لابن أبي خالد لا يفارقه. فتأخّر عنه ذات يوم لمولود ولد له، فبعث إليه، فاحتجب عنه، فغضب عليه ابن أبي خالد، وأمر بحبسه وتقييده وإلباسه جبّة صوف، فمكث كذلك أياماً، فسأله المأمون عنه، فقصّ عليه قصّته، وعظّم عليه جرّمه؛ وشكا

(١) ك: «أرهناه».

(٢) ل: «تحت خاتمك»؛ وما أنبته من ك.

ما يراه عليه من التَّيه والصَّلَف والافتخار بالبرامكة، والسموُّ بأبائهم. فأمر بإحضاره، فأحضر في صوفيه، فأقبل عليه المأمون بالتوبيخ، مصغراً لقدره، مُسْفِهاً لرأيه، وعظَّم في عينه إحسان ابن أبي خالد إليه؛ مع طُنن على البرامكة ووضعٍ منهم، فأطنَّب في ذلك.

فقال محمد: يا أمير المؤمنين، لقد صَغَرْت من البرامكة غير مصغراً، ووضعت منهم غير موضوع، وذممت منهم غير مذموم؛ ولقد كانوا شفاءً أسقامِ دهرهم، وغيثاً إجدابِ عصرهم، كانوا مَفْرَعاً للملهوفين، وملجأً للمظلومين، وإن أذن لي أمير المؤمنين حدَّثته بعض أخبارهم. ليستدلُّ بذلك على صدقِ قولي فيهم، ويقف على جميل أخلاقهم، ومحمود مذاهبهم في عصرهم؛ والأفعال الشريفة والأيدى النَّفيسة. قال: هات. قال: ليس بإنصاف! محدثٌ مُقيدٌ في جُبَّةِ صوف! فأمر فأخذ قيده، فقال: يا أمير المؤمنين، ألم الجبَّة يحول بيني وبين الحديث، فأمر فخلَّع عليه، ثم قال: هات حديثك.

قال: نعم يا أمير المؤمنين، كان ولأني وانقطاعي إلى الفضل. فقال لي الفضل يوماً بمحض من أبيه وأخيه جعفر: ويحك يا محمد! إني أحبُّ أن تدعوني دعوةً كما يدعو الصديق صديقه، والحليل خليله، فقلتُ جعلتُ فداك! شأني أصغر من ذلك، ومالي يعجزُ عنه، وباعى يَقصرُ عن ذلك، ودارى تَضيقُ عنه، ومُننى لا تقوم له، قال: دع عنك ذلك، فلا بدَّ منه. فأعدتُ عليه الاستعفاء؛ فرأيتُه جاداً في ذلك مقبياً عليه، وسألاه ذلك، وأعلمناه قصورَ يدي من بلوغ ما يجب ويشبه مثله، فقال لهما: لست بقانع منه دون أن يدعوني وإياكما، لا رابع معنا.

فأقبل عليَّ يحيى وقال: قد أبي أن يُعفيكَ، وإذ لم يكن غيرنا، فأقمَدنا على أثاث بيتك فلا حشمةً منا، وأطعمنا من طيبخ أهلِكَ، فنحن به راضون، وعليه شاكرون. فقلتُ: جعلتُ فداك! إن كنت قد عرضت على ذلك وأبيت إلا هتكى وفضيحتي؛ فلا أقل أن توجلني حتى أتأهب؛ فقال: أستأجل لنفسك. فقلت: سنة؛ فقال: ويحك! أمعنا أمان من الموت إلى سنة! فقال يحيى: أفرطت في الأجل، ولكني أحكم بينكما بما أرجو ألا يرده أبو العباس، وأقبله أنت أيضاً. فقلت: أحكم - وفكك الله للصواب - وتفضَّل عليَّ بالاستظهار والفسخ في المدة فقال: قد حكمت بشهرين.

فخرجتُ من عندهم. وبدأت برمُّ داري، وإصلاح آلتى، وشراء ما أتجمل به من فرش وأثاث وغير ذلك، وهو في ذلك لا يزال يذكرني، ويعدُّ الأيام عليَّ؛ حتى إذا كانت الجمعة التي تجب فيها الدعوة قال لي: يا محمد، قد قرب الوقت، ولا أحسبه بقيَ عليك إلا الطعام. قلت: أجل يا سيدي، فأمرت بأنحاذ الطعام على غاية ما انبسطت به يدي ومقدرتي، وجاءني رسوله عشية اليوم الذي في صبيحته الدعوة، فقال لي: إلى أين بلغت؟ وهل تأذن بالركوب؟ قلت: نعم؛ بكر. فبكر هو ويحيى وجعفر، ومعهم أولادهم وفتياتهم، فلما دخلوا أقبل عليَّ الفضل وقال: يا محمد، إن أول ما أبدأ به النظر إلى نعمتك كلها صغيرها وكبيرها، فقم بنا إليها حتى أدور فيها وأقف عليها، فقمتُ معه، وطاف في المجلس، ثم خرج إلى الخزانين وصار إلى بيوت الشراب، وخرج في الاصطبلات، ونظر إلى صغير نعمتي وكبيرها، ثم عدل إلى المطبخ فأمر بكشف القدور كلها، وأبصرَ قدراً منها فأقبل على أبيه وقال: هذا قدرك الذي يُعجبك، ولست أبرح دون أن تأكل منه. ثم كره أن يأكل

فيثلم عليّ في أكله، ويفسد طعامه، فدعا برغيف فغمسه في القدر، وناول أباه، ثم فعل ذلك بأخيه، ودعا بإخلاق وخرج إلى الدار، ووقف في صحنها مفتحاً طرفه في فنانها وبنائنها وسقوفها وأروقعتها، ثم أقبل عليّ وقال: من جيرائك؟ قلت: جعلتُ فداك! عن يميني فلان ابن فلان التاجر، وعن شمالي فلان ابن فلان الكاتب، وفي ظهر داري رجلٌ بنى برجاً كبيراً، فهو في بنائه لا يفتُر ولا يقصُر، فقال لي: أو تعرفه؟ قلت: لا، قال: كان ينبغي لك في قدرك ومحلّك من هذه الدولة ألا يجترئ أحد أن يشتري شيئاً في جوارك إلا بأمرك لا سيّما إذا كان ملاصقاً لك، ولا ترضى لنفسك إلا بجارٍ تعرفه، فقلت: لم يعنى من ذلك إلا ما كنتُ فيه من الشغل بهذه الدعوة المباركة! فقال لي: فأين الحائط الذي يتصل بداره؟ فأومأت إليه، فقال: عليّ بنجار، فأتى به، فقال: افتح هاهنا باباً، فأقبل عليه أبوه وقال: نشدتك الله يا بنيّ ألا تهجم على قوم لا تعرف لهم سبباً! وأقبل عليه أخوه بمثل ذلك، فامتنع دون فتح الباب، فلما رأته قد ردّ أباه وأخاه، أمسكت عن مسألته، ففتح الباب ودخل وأدخلني معه، فدخلتُ داراً حاراً بصرى فيها من حسنها، كلّها لؤلؤ يعشى العيون، فانتهى إلى رواق فيه مائة مملوك في قدّ واحد، وزيّ واحد، وعليهم أقبية الديباج المنسوجة، والمناطق المذهبة. فلما نظروا إلى الفضل عدّوا ووقفوا بين يديه، وإذا شيخ بهي قد خرج من بعض تلك المجالس، فقَبِل يده، فقال: مرّ بنا نظراً في مرافق هذه الدار، فما دخلت مجلساً من مجالسه إلا وقد أفرغ تحشيتة بالفرش الذي لا يحيط به الوصف وكذلك مرافقها من الستور والبسط، وغير ذلك.

ثم قال للشيخ: مرّ بنا إلى عند الدواب، فدخلنا اصطبلًا فيه أربعمائة رأس من الدواب والبغال وغيرها، فوجدت ذلك الاصطبل أحسن بناءً من داري. ثم خرج نحو دور النساء - والشيخ بين يديه - فلما انتهى إلى الباب، وقف الشيخ ودخل الفضل، وجذبني إلى نفسه وأنا معه؛ حتى دخلتُ بعض تلك الدُور، فإذا فيها مائة وصيفة كأنهنّ الأقمار؛ قد أقبلن في حلّهنّ وحلّهنّ، فوقفن بين يديه، فقال: يا محمد، هذه الدار أجلّ أم دارك؟ فقلت: يا سيدي، وما أنا، وما داري! هذه تصلح للأمير لا غيره - على تخرج مني في قولي. فقال: يا محمد، هذه الدار بما فيها من الدواب والرقيق والفرش والأواني لك، ولك عندي زيادة! فقلت في نفسي: يب لي ملك غيره! فعلم ما في نفسي، فقال: يا محمد، إني لما سألتك هذه الدعوة تقدّمت إلى هذا القهرمان بشراء البراح^(١)، وأن يعجل الفراغ منه ومن بنائه، وحوّلت إليها ما ترى، فبارك الله لك فيها!

وانصرف بي إلى عند أبيه وأخيه وحديثها بما جرى، فرأيت أخاه جعفرًا قد أمعص^(٢) من ذلك، وتغيّر وجهه تغييراً عرفته، ثم أقبل على يبه يشكو الفضل ويقول: يتفرد بمثل هذه المكرمة من دوني! فلو شاركتني فيها لكانت يداً أشكرها منه. فقال: يا أخي بقي لك منها قطبها قال: وما هو؟ قال: إن مولانا هذا لا يتهمياً له ضبط هذه الدار بما فيها إلا بدخل جليل، فأعطه ذلك، فقال: فرجت عني يا أخي، فرج الله عنك! فدعا من وقته بصكاك الخمس قريّات واحتمل عن خراجها، فخرج عني وأنا أيسر أهل زمانى! فهل تلومني يا أمير المؤمنين على ذكرهم والقول بفضلهم! فقال

(٢) أمعص: أغضب.

(١) البراح: المكان القضاء.

المأمون: ذهب القوم والله بالمكارم! ثم أمر لمحمد بمائة ألف درهم.
وتقدم إلى ابن أبي خالد برد مرتبته وتصويره في جملة خواصه.

وحدثنا غيره قال: اصطحب رسول للفضل ورجل كوفي في طريق خراسان، فأقبل الكوفي يسأل عن أفعال الفضل، فأخبره بإنهايه الأموال الجليلة في العطايا، فقال له الكوفي: خبرني عن هذه الأموال التي يهبها؛ يراها وينظر إليها! فقال: لا، قال: فمن هناك تهون عليه، فلما وصلا إلى الموضوع دعا الفضل بالرسول، وسأله عما رأى في طريقه وعما سمع، فأقبل يخبره حتى انتهى إلى خبر الكوفي، فذكر له ما قال - وكان متكئا فاستوى جالسا، ثم قال: يا غلام انت صاحب بيت المال، فأسأله عن حاصله، فقال: هو: عشرة آلاف، فقال: تحمل الساعة إلى دار العامة، وتشق عنها البدر شقا، وتنثر في وسط الدار. قال: ففعل ذلك بها. ثم قال للرسول: هات صاحبك الكوفي، فأتى به، وأمر الفضل بتفريق ذلك المال على زواره رجلا رجلا، واسما اسما على مقاديرهم. وما وقع لكل رجل منهم. ثم أمر للكوفي بمائة ألف درهم، وقال: هذه لك؛ لتبنيها على إياي على هذا الفعل.

ومما قيل في ذلك: (١)

كريم كريم الأمتات مهذب
هو البحر من أي النواحي أتيت
جواد إذا ما جئت للعرف طالبا
ولو لم يكن في كفه غير روجه
تحلب كفاه الندى وأنامله
فلجته المعروف والجود ساجله
حباك بما تحوي عليه أنامله
لباد بها فليتنق الله سائله
[الطويل]

وللبحتري في ذلك:

لو أن كفاك لم تجد لمؤمل
أو أن مجدك لم يكن متقادما
لكفاه عارض وجهك المتهلل (٢)
أغنناك آخر سوؤد عن أول
[الكامل]

علي بن يحيى النديم، قال: دعاني المتوكل ذات يوم وهو مخمور، قال: أنشدني قول عمارة (٣) في أهل بغداد، فأنشدته:

من يشتري مني ملوك المخرم
أبغ حسنا وابني هشام بديرهم (٤)

(١) لأبي تمام، ديوانه ٣: ٢٩، مع اختلاف في الرواية.

(٢) ديوانه ٢: ١٨٠.

(٣) نسيها ياقوت في معجم البلدان ٧: ٤٠٩ إلى دعبل وقال: يهجو الحسن بن رجاء وابني هشام: أحمد وعلياء، ودينار بن

عبد الله ويحيى بن أكنم، وهؤلاء كانوا يسكنون «المخرم».

(٤) المخرم: محلة ببغداد بين الرصافة ونهر العلي.

وَأَعْطَى رَجَاءً بَعِيدَ ذَاكَ زِيَادَةً
وَأَمْنَحُ دِينَارًا بِغَيْرِ تَنْدُمٍ
وَأَبَادِلُفٍ وَالْمَسْتَطِيلَ ابْنَ أَكْثَمِ^(١)
[الطويل]

فقال المتوكل: ويلي على ابن البوال على عقبيه! بهجو شقيق دولة بني العباس! قلت: ياسيدي، مَنْ شقيق دولة بني العباس؟ فقال: القاسم بن عيسى، فهل عندك من مديحه شيء؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، قول الأعرابي الذي يقول:

أَبَادِلُفٍ إِنَّ السَّمَاةَ لَمْ تَزَلْ
فَبَشَّرَهَا رَبِّي بِمِلَادِ قَاسِمٍ
مُغَلَّلَةٌ تَشْكُو إِلَى اللَّهِ غُلْهَا
فَأَرْسَلَ جَبْرِيلًا إِلَيْهَا فَحَلَّهَا^(٢)
[الطويل]

ولبكر بن النطاح في أبي دُلف:

بَطَلٌ بِصَدْرِ حُسَامِيهِ وَسِنَانِيهِ
وَرِثَ الْمَكَارِمَ وَأَبْتَنَاهَا قَاسِمٌ
يَا عَصْمَةَ الْعَرَبِ الَّتِي لَوْ لَمْ تَكُنْ
إِنَّ الْعَيُونَ إِذَا رَأَتْكَ جِدَادُهَا
وَإِذَا رَمَيْتِ الثَّغَرَ مِنْكَ بَعْرَمِيَّةً
وَكَانَ رُمْحَكَ مُنْقَعٌ فِي عُصْفَرٍ
لَوْ صَالَ مِنْ غَضَبِ أَبُو دُلْفٍ عَلَى
أَذْكَمِي وَنَوَرَ لِلْعَدَاوَةِ وَالْهَوَى
أَجْلَانٍ مِنْ صَدْرِ وَمِنْ إِيرَادِ^(٣)
بِصَفَائِحِ وَأَسْنَةِ وَجِيَادِ
حَيًّا إِذَا كَانَتْ بِغَيْرِ عِمَادِ
رَجَعْتُ مِنَ الْإِجْلَالِ غَيْرَ جِدَادِ
فَتَحَّتْ مِنْهُ مَوَاضِعُ الْأَسْدَادِ
وَكَانَ سَيْفَكَ سُلًّا مِنْ فِرْصَادِ^(٤)
بِيضِ السِّيُوفِ لَذَبْنِ فِي الْأَعْمَادِ
نَارَيْنِ: نَارَ دَمٍ وَنَارَ رَمَادِ^(٥)
[الكامل]

وقال أبو هفان: أنشدته عبد العزيز بن أبي دُلف بسرٍّ من رأى، فبرّني ثم قال: هل خلق مثله؟ قلت: لا.

ولغيره في أبي دُلف:

وَلَوْ يَجُورُ لِقَالَ النَّاسَ كُلَّهُمْ
قَرَمٌ إِذَا مَا حَوَى فِي كَفِّهِ حَجْرًا
لَوْلَا أَبُو دُلْفٍ مَا أَوْرَقَ الشَّجَرُ^(٦)
يَفِيضُ فِي كَفِّهِ مِنْ جُودِهِ الْحَجْرُ
[البيسط]

(١) رواية ياقوت للبييت:

فإن ودَّ مِنْ عَيْبٍ عَلَى جَمِيهِمْ

(٢) المحاسن والأضداد ٨٤.

(٣) المحاسن والأضداد ٨٣.

(٤) الفرصاد: صبح أحر.

فَلَيْسَ يَرُدُّ الْعَيْبَ يَحْيَى بْنِ أَكْثَمِ

(٥) المحاسن والأضداد: «زناد».

(٦) المحاسن والأضداد ٨٤.

وَأُنشِدُ أَيْضًا رَحِمَهُ اللهُ:

أَعْطَاكَ مَا مَلَكَتْ كَفَاةً وَاعْتَدَّرَا^(١)
إِنَّ الْجَمِيلَ إِذَا أَخْفَيْتَهُ ظَهَرَ
[البسيط]

خَلَّ إِذَا جَنَّتَهُ يَوْمًا لَتَسْأَلُهُ
يُخْفِي صَنَائِعَهُ وَاللهُ يُظْهِرُهَا

وَأُنشِدُ:

وَأُخْرَى لِأَعْدَائِهَا غَائِظَةً
فَأَجُودُ بِالْمَالِ مِنْ لَافِظَةٍ
فَنَفْسُ الْعَدُوِّ بِهَا فَائِظَةٌ
[المتقارب]

يَدَاكَ يَدٌ غَيْبُهَا مُرْسَلٌ
فَأَمَّا الَّتِي سَبَّهَا يُرْتَجَى
وَأَمَّا الَّتِي شَرَّهَا يُتَّقَى

وَقَالَ آخَرَ:

فَلَيْسَ تَرَاهُ الدَّهْرَ إِلَّا عُلَى الْعَهْدِ^(٢)
وَلَيْسَ عَلَى الْحَرَامِ الْكَرِيمِ سِوَى الْجَهْدِ
[الطويل]

فَتَى عَاهَدَ الرَّحْمَنَ فِي بَدَلِ مَالِهِ
فَتَى قَصُرَتْ أَمَالُهُ عَنْ فِعَالِهِ

وَقَالَ آخَرَ:

وَسِعِدَتْ مِنْ دُنْيَاكَ بِالْإِسْعَادِ^(٣)
رَفَقًا فَقَدْ أَثْقَلْتَهُ بِأَيْدِي
بَدْرٍ بَدَا مَتَغَمَّرًا بِسَوَادِ^(٤)
أَمْ الْكِرَامِ قَلِيلَةُ الْأَوْلَادِ^(٥)
[الكامل]

عَادَ السُّرُورَ إِلَيْكَ فِي الْأَعْيَادِ
رَفَقًا بِشُكْرِ جَلِّ مَا أَوْلَيْتَهُ
مَلَأَ النَّفُوسَ مَهَابَةً وَمَحَبَّةً
مَا إِنْ أَرَى لَكَ مُشَبَّهًا فِيمَنْ أَرَى

وَقَالَ آخَرَ:

عَلَيْهِ مَصَابِيحُ الطَّلَاقِ وَالْبِشْرِ^(٦)
مَوَاقِعُ مَاءِ الْمَزِينِ فِي الْبَلَدِ الْقَفْرِ
[الطويل]

إِذَا مَا أَنَاهُ السَّائِلُونَ تَوَقَّدَتْ
لَهُ فِي دُرِّ الْمَعْرُوفِ نَعْمَى كَأَنَّهَا

(١) المحاسن والأضداد ٨٤، والرواية هناك: «حر إذا جنته».

(٢) المحاسن والأضداد ٨٥.

(٣) المحاسن والأضداد ٨٤.

(٤) كذا في ك والمحاسن والأضداد، وفي ل: «متعمًا».

(٥) المحاسن والأضداد: * إن الكرام قليلة الأنداد *

(٦) المحاسن والأضداد ٨٥.

محاسن صلوات الشعراء

قيل: دخل جريرٌ على عبد الملك بن مروان؛ وقد أوفده إليه الحجاج بن يوسف، فدخل محمد بن الحجاج، فقال: يا أمير المؤمنين، هذا جريرٌ مادحك وشاعرك؛ فقال: بل مادح الحجاج وشاعره! فقال جرير: إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في إنشاده مدحة! قال: هات. ابدأ بالحجاج؛ قال: بل بك يا أمير المؤمنين؛ فقال: هات، ابدأ بالحجاج، فأنشده:

صَبَرَتِ النَّفْسُ يَا بَنَ أَبِي عَقِيلٍ مُحَافِظَةٌ فَكَيْفَ تَرَى الثَّوَابَا^(١)
وَلَوْ لَمْ تُرَضِ رَبُّكَ لَمْ يُنْزَلْ مَعَ النَّصْرِ الْمَلَانِكَةُ الْغَضَابَا
إِذَا سَعَرَ الْخَلِيفَةُ نَارَ حَرْبٍ رَأَى الْحَجَّاجَ أَتَقَبَّهَا شَهَابَا
[الوافر]

فقال: صدقت! كذاك هو؛ ثم قال للأخطل: قُمْ فهاتِ مديحًا؛ فقام فأنشد وأجاد وأبلغ، فقال: أنت شاعرنا، وأنت مادحنا، قم فاركبه، فألقى النصراني ثوبه، وقال: خب يا بن المراجعة! فسَاء ذلك من حصر من مضر، وقالوا: يا أمير المؤمنين، إن النصراني لا يركب الحنيف المسلم، فاستحيا عبد الملك وقال: دعه.

قال جرير: فانصرفتُ أخزى خلق الله، حتى إذا كان يوم الوداع دخلتُ لأودعه فأنشدته:
أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ يَطُونُ رَاحًا^(٢)
[الوافر]

فقال: بلى، نحن كذلك، أعدتُ، وأسفر لونه، وذهب ما كان في قلبه، فالتفت إلى محمد بن الحجاج فقال: أترى أم حذرة يروها مائة من الإبل؟ فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، إن كانت من فرائض كلب فلم تُروها، فلا أرواها الله! فأمر لي بمائة من الإبل.

وحدثنا المدائني؛ عن كيسان، عن الهيثم قال: حجَّ عبد الملك بن مروان ومعه الفرزدق، فبينما هو قاعد بمكة في الحجر، إذ مرَّ به علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وعليه مطرف خز، فقال عبد الملك: من هذا يا فرزدق؟ فأنشأ يقول:

(١) ديوانه ١٧، من قصيدته التي مطلعها:
سَنَمْتُ مِنَ الْمَوَاصِلَةِ الْحَبَابَا وَأَمْسَى الشُّبُّ قَدْ وَرِثَ الشَّبَابَا
(٢) ديوان ٩٨.

والبيت يعرفه والحل والحرم^(١)
 هذا التقى النقى الطاهر العلم
 إلى مكارم هذا ينتهى الكرم
 ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم
 عن نيلها عرب الإسلام والعجم
 طابت عناصره والخيم والشيم
 من كف أروع في عزينه شم
 كالشمس تنجأ عن إشراقها الظلم
 فما يكلم إلا حين يبتسم
 كفر وقربهم منجى ومعتصم
 ويسترب به الإحسان والنعم
 ولا يداينهم قوم وإن كرموا
 أوقيل من خير أهل الأرض قيل هم
 في كل بر ومختموم به الكلم

[البسيط]

قال: فلما فرغ من شعره، قال له عبد الملك: أورا فضى أنت يا فرزدي؟ فقال: إن كان حب أهل البيت رقصاً فنعم. فحرمه عبد الملك جائزته، فتحمل عليه بأهل بيته، فأبى أن يعطيه، فقال له عبد الله بن جعفر بن أبي طالب: ما كنت تؤمل أن يعطيك؟ قال: ألف دينار في كل سنة. قال: فكم تؤمل أن تعيش؟ قال: أربعين سنة. قال: يا غلام، على بالوكيل فدعاه إليه وقال: أعط الفرزدق أربعين ألف دينار: فقبضها منه.

قيل: ودخل الفرزدق على سكينه بنت الحسين، فقالت له: من أشعر الناس؟ فقال: أنا، قالت: كذبت! أشعر منك الذى يقول^(٢):

بنفسي من تجنبه عزيز
 ومن أمسى وأصبح لا أراه
 على ومن زيارته لمأ
 ويطرقتني إذا هجع النيام
 [الوافر]

فقال: أما والله لئن تركتني لأسمعك ما هو أحسن منه. فقالت: أخرجوه عني، اثم عاد من الغد. فقالت: من أشعر الناس؟ قال: أنا. قالت: كذبت، أشعر منك الذى يقول:

(١) أبيات منها في الأغاني ١٥: ٣٢٧ (طبعة دار الكتب) وقال: «ومن الناس من يروى هذه الأبيات لداود بن مسلم في ثمن بن العباس، ومنهم من يروها لمحمد بن يزيد معه.. والصحيح أنها للحزين الكنانى.
 (٢) الخبر في الأغاني ٧: ٥٠ (ساسى)، وفيه: «أشعر منك جرير الذى يقول»، والبيتان في ديوانه ٥١٢.

يا بَيْتَ عاتِكةَ الَذى أتعزَّلُ حَذَرَ العِداَ وبه الفؤادُ موكَّلُ^(١)
 إني لأمنُحُكَ الصُّدودَ وإنى قسماً إليك مع الصدودِ لأَميلُ
 [الكامل]

فقال: أما والله لئن تركتني لأسمعَنَّك أحسن منه، فقالت: أخرجوه عني. ثم عاد من الغد وعندها جوار كالتماثيل، فأخذت جاريةً منهن بقلبه، فقالت سُكينة: من أشعرُ الناس؟ قال أنا؛ قالت: كذبت! أشعر منك الذى يقول:

إنَّ العيونَ الَّتى فى طَرْفِها حورٌ قتلنا ثم لم يُحِبِّينَ قتلانا^(٢)
 [البسيط]

فقال: يا بنت رسول الله، إن لى حقاً بإقبالى عليك من مكة، ولا أراك تدعيني أسمعك شعري، ولا تريديني على التكذيب، مع أنى لأخاف لما بي أنى لا أبرح إلا ميتاً، ولى حاجة! قالت: فما هي؟ قال: إن أنا مت تأمرين بتكفيني فى ثياب هذه - وأشار إلى الجارية - فقالت: هي لك، وضمت إليها جائزة وكسوة.

وعن أبى الزناد، قال: اجتمع جرير والفرزدق وجميل وكثير ونُصِبَ فى منزل سُكينة بنتِ الحسين، فخرجت جاريةً ومعهما قِرطاس وقالت: أيكم الفرزدق؟ فقال: هاذا! قالت: أنت الذى تقول:

أبيتُ أمنيَ النفسِ أنْ سوفَ نلتقى وهل هو مقدورٌ لنفسي لِقاؤها^(٣)
 فإنَّ ألقها أو يجمعَ الدهرَ بيننا ففيها شفاءُ النفسِ منهاَ وداؤها
 [الطويل]

قال: نعم. قالت: قولك أحسن من منظرِكَ، وأنت القائل:

ودعني بإشارةٍ ونحيبةٍ وتركتني بين الديار قتيلا
 لم أستطع رَدَّ الجوابِ عليهمُ عند الوداعِ وما شفينَ غليلا
 لو كنت أملكهمُ إذن لم يبرحوا حتى أودعَ قلبي المخبولاً
 [الكامل]

قال: نعم. قالت: أحسنت أحسن الله إليك! وأنت القائل:

ها دلتانى من ثمانينَ قامَةً كما انقضَّ بازُ أقتمُ الرِّيشَ كاسره^(٤)

(١) للأحوص، الأغاني ١٨: ١٩٥ (ساسى).

(٢) لجرير، ديوانه ٥٩٥.

(٣) ديوانه ١: ٧ مع اختلاف فى الرواية.

(٤) ديوانه ١: ٢٥٩ مع اختلاف فى الرواية.

فَلَمَّا اسْتَوَتْ رِجْلَايَ فِي الْأَرْضِ نَادَتَا:
فَقُلْتُ ارْفَعُوا الْأَسْيَابَ لَا يَشْعُرُ وَاِبْنَا
أَحَاذِرُ بَسْوَائِنِ قَدْ وُكِّلَا بِهَا
فَأَصْبَحْتُ فِي الْقَوْمِ الْقَعُودِ وَأَصْبَحْتُ
أَعْمَى فَيَرْجِي أُمَ قَتِيلٍ نَحَاذِرُهُ (١)
وَوَلَّيْتُ فِي أَعْجَازِ لَيْلٍ أَبَادِرُهُ
وَأَحْمَرَ مِنْ سَاجٍ تَبِصُّ مَسَامِرُهُ (٢)
مَغْلَقَةً دُونِي عَلَيْهَا دَسَاكِرُهُ (٣)
[الطويل]

قال: نعم، قالت: سوءة لك؛ قضيت حاجتك فأقشيت عليها وعلى نفسك! فضرب بيده على
جبهته؛ وقال: نعم، فسوءة لي!

ثم دخلت وخرجت وقالت: أيكم جريراً؟ فقال: هاأنذا! قالت: أنت القائل:
رُزِقْنَا بِهِ الصَّيْدَ الْغَزِيرَ وَلَمْ نَكُنْ
فَهِيهَاتَ هِيهَاتَ الْعَقِيقُ وَمَنْ بِهِ
كَمَنْ نَبَلُهُ مَحْرُومَةٌ وَجِبَاتُهُ (٤)
وَهِيهَاتَ حَىِّ بِالْعَقِيقِ نُوَاصِلُهُ (٥)
[الطويل]

قال: نعم، قالت: أحسن الله إليك! وأنت القائل:

كَأَنَّ عَيُونَ الْمُجْتَلِينَ تَعْرَضَتْ
إِذَا ذُكِرَتْ لِلْقَلْبِ كَادَ لَذِكْرِهَا
وَشَمْسًا تَجَلَّى يَوْمَ دَجَنَ سَحَابُهَا (٦)
يَطِيرُ إِلَيْهَا وَاعْتَرَاهُ عَذَابُهَا
[الطويل]

قال: نعم؛ قالت: أحسنت، وأنت القائل:

سَرَّتِ الْمَهْمُومُ فَبِتَّنْ غَيْرَ نِيَامٍ
طَرَفَتِكَ صَائِدَةُ الْقُلُوبِ وَلَيْسَ ذَا
وَأَخُو الْمَهْمُومِ يَزُومُ كُلَّ مَرَامٍ (٧)
وَقَتَّ الزِّيَارَةَ فَارْجِعِي بِسَلَامٍ
لَوْ كَانَ عَهْدُكَ كَالَّذِي حَدَّثْتَنِي
بَرْدٌ تَحْدَرُ مِنْ مُتُونِ غَمَامٍ
تُجْرِي السَّوَاكُ عَلَى أَعْرُ كَأَنَّهُ
[الكامل]

قال: نعم، قالت: سوءة لك! جعلتها صائدة القلوب، حتى إذا أناخت بيابك جعلت دونها
حجاباً! ألا قلت:

(١) الديوان: «يرجى» بالجيم المشددة.

(٢) في الديوان:

• وَأَسْمَرَ مِنْ سَاجٍ تَبِصُّ مَسَامِرُهُ •

(٣) دساكره: قياه.

(٤) ديوانه ٤٧٩، وروايته: «ولم أكن».

(٥) رواية الديوان:

فَلَيْتَ أَيَّاتَ الْعَقِيقِ وَمَنْ بِهِ

وَأَيَّاتَ وَصَلَ بِالْعَقِيقِ نُوَاصِلُهُ

(٦) ديوانه ٥٢.

(٧) ديوانه ٥٥١.

طَرَقَتْكَ صَانِدَةُ الْقُلُوبِ فَمَرَحِبًا نَفْسِي فِدَاؤِكَ فَادْخُلِي بِسَلَامٍ
[الكامل]

قال: نعم. فسوءة لي! ودخلت وخرجت، وقالت: أيكم كثير؟ فقال: هأنذا! قالت: أنت القاتل:
وأعجبني يا عَزَّ مِنْكَ خَلَاتِقُ حِسَانٌ - إِذَا عُدَّ الْخَلَائِقُ - أَرْبَعٌ (١)
دُنُوكِ حَتَّى يَطْمَعَ الصَّبُّ فِي الصَّبَا وَقَطْعُكَ أَسْبَابَ الصَّبَا حِينَ تَقْطَعُ
فَوَاللَّهِ مَا يَدْرِي كَرِيمٌ مَطْلَبُهُ أَيَشْتَدُّ إِنْ قَاضَاكَ أَمْ يَتَضَرَّعُ!
[الطويل]

قال: نعم، قالت: أعطاك الله منك! وأنت القاتل:

هَنِيئًا مَرِيئًا غَيْرَ دَائٍ مَخَامِرٍ لَعَزَّةٌ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتْ (٢)
فَمَا أَنَا بِالْدَّاعِي لَعَزَّةً فِي الْوَرَى وَلَا شَامِتٍ إِنْ نَعَلُ عَزَّةً بَزَلَّتْ
وَكُنْتُ كَذِي رَجُلَيْنِ رَجُلٍ صَحِيحَةٍ وَرَجُلٍ رَمَى فِيهَا الزَّمَانَ فَشَلَّتْ
[الطويل]

قال: نعم! قالت: أحسن الله إليك! ثم دخلت وخرجت، وقالت: أيكم نصيب؟ فقال: هأنذا:
قالت: أنت القاتل:

وَلَوْلَا أَنْ يُقَالَ صَبَا نُصِيبُ لَقَلْتُ: بِنَفْسِي النِّشَاءُ الصُّغَارُ (٣)
أَلَا يَا لَيْتِي قَامَتْ عَنْهَا وَكَانَ يَحِلُّ لِلنَّاسِ الْقِمَارُ!
فَصَارَتْ فِي يَدِي وَهَمَرْتُ مَالِي وَذَلِكَ الرَّبِيعُ لَوْ عَلِمَ التَّجَارُ!
عَلَى الْإِعْرَاضِ مِنْهَا وَالتَّوَانِي فَإِنْ وَعَدْتْ فَمَوْعِدُهَا ضِمَارُ
بِنَفْسِي كُلِّ مَهْضُومٍ حَشَاهَا إِذَا قَهَرْتِ فَلَيْسَ بِهَا انْتِصَارُ
إِذَا مَا الرُّؤْلُ ضَاعَفْنَ الْحَشَايَا كَفَاهَا أَنْ يُبْلَاثَ بِهَا إِزَارُ
وَلَوْ رَأَتْ الْفَرَّاشَةَ طَارَ مِنْهَا مَعَ الْأَرْوَاحِ رَوْحٌ مُسْتَطَارُ
[الوافر]

قال: نعم. قالت: والله أن إحداهن لتقوم من نومتها فما تحسن أن تتوضأ! لا حاجة لنا في
شعرك.

ثم دخلت وخرجت وقالت: أيكم جميل؟ فقال: هأنذا، قالت: أنت القاتل:
لَقَدْ ذَرَفَتْ عَيْنِي وَطَالَ سُفُوحُهَا فَأَصْبَحَ مِنْ نَفْسِي سَقِيًّا صَحِيحُهَا (٤)

(١) الموشح للمرزباني ١٦٨، ١٦٩، مع اختلاف في الرواية.

(٢) أمالي القالي ٢: ١٠٧.

(٣) بيتان منها في الأغاني ١٤: ١٦٦ (سأسي).

(٤) ديوانه ٥٦.

أَلَا لَيْتِنَا كُنَّا جَمِيعًا، وَإِنْ نَمُتْ
أَظْلَمُ نَهَارِي مَسْتَهَامًا وَيَلْتَقِي
فَهَلْ لِي فِي كِتْمَانِ حَيِّ رَاحَةٍ
مُجَاوِرٌ فِي الْمَوْتِ ضَرِيحِي ضَرِيحَهَا
مَعَ اللَّيْلِ رُوحِي فِي الْمَنَامِ وَرُوحَهَا
وَهَلْ تَنْفَعُنِي بَوَاحَةٌ لَوْ أَبَوْحَهَا!
[الطويل]

قال: نعم، قالت: بارك الله عليك! وأنت القائل:

خَلِيلِي فِيمَا عَشْتِمَا هَلْ رَأَيْتِمَا
أَبَيْتَ مَعَ الْهَلَاكِ ضَيْفًا لِأَهْلَهَا
فِيَارِبِّ إِنْ تَهْلِكُ بُشِينَةً لَا أَعِشُ
وِيَارِبِّ أَنْ وَقَيْتَ شَيْئًا فَوْقَهَا
قَتِيلًا يَكِي مِنْ حُبِّ قَاتِلِهِ قَبْلِي!^(١)
وَأَهْلِي قَرِيبٌ مُوسِعُونَ ذَوُو فَضْلٍ
فُوقًا وَلَا أَفْرَحُ بِمَالِي وَلَا أَهْلِي^(٢)
حُتُوفَ الْمَنَائِبِ، رَبِّ وَاجْمَعْ بِهَا شَمْلِي
[الطويل]

قال: نعم، قالت: أحسنت أحسن الله إليك! وأنت القائل:

أَلَا لَيْتَ شَعْرِي هَلْ أَبَيْتَنَ لَيْلَةً
لِكُلِّ حَدِيثٍ عِنْدَهُنَّ بِشَاشَةٌ
وَيَا لَيْتَ أَيَّامَ الصَّبَا كُنَّ رُجْعًا
إِذَا قُلْتُ مَا بِي يَا بُشِينَةَ قَاتِلِي
وَإِنْ قُلْتُ رَدَى بَعْضَ عَقْلِي أَعِشْ بِهِ
فَمَا ذُكِرَ الْخِلَانُ إِلَّا ذَكَرْتُهَا
فَلَا أَنَا مَرْدُودٌ بِمَا جُنْتُ طَالِبًا
يَمُوتُ الْهَوَى مَنَى إِذَا مَا لَقَيْتَهَا
بِوَادِي الْقَرَى! إِنِّي إِذْنُ لَسَعِيدٌ^(٣)
وَكُلُّ قَتِيلٍ بَيْنَهُنَّ شَهِيدٌ
وَدَهْرًا تَوَلَّى يَا بُشِينُ يَعُودُ!
مِنَ الْحَبِّ، قَالَتْ: ثَابِتٌ وَيَزِيدُ
تَنَاءَتٌ وَقَالَتْ: ذَاكَ مِنْكَ بَعِيدُ
وَلَا الْبِخْلُ إِلَّا قُلْتُ سَوْفَ تَجُودُ
وَلَا حَيْهًا فِيهَا يَبِيدُ
وَيَحْيَا إِذَا فَارَقْتَهَا وَيَزِيدُ
[الطويل]

قال: نعم، قالت: لله أنت! جعلت لحديثها ملاحه وبشاشة، وقتيلها شهيدًا، وأنت القائل:

أَلَا لَيْتِي أَعْمَى أَصَمُّ تَقُودُنِي بُشِينَةُ لَا يَخْفَى عَلَيَّ مَكَانُهَا

قال: نعم، قالت: قد رضيت من الدنيا أن تقودك بشينة وأنت أعمى أصم! قال: نعم. ثم دخلت
وخرجت ومعها مدهن فيه غالبية^(٤)، ومندبل فيه كسوة، وصره فيها خمسمائة دينار، فصبت الغالية
على رأس جميل حتى سالت على لحيته ودفعت إليه الصرة والكسوة، وأمرت لأصحابه بمائة مائة.

(١) ديوانه ١٧٦: ١٧٧.

(٢) فواقا، أى قليلا، وأصله ما بين الحلبتين من الراحة.

(٣) ديوانه ٦١، ٦٢.

(٤) المدمن: القارورة، والغالية: أخلاط من الطيب.

وقال سوار بن عبد الله: قال رؤبة بن العجاج: أرسل إلى سليمان بن علي وهو^(١) بالبصرة. فقال: هذا رسول الأمير أبي مسلم قدم في إشخاصك. قلت: سمعاً وطاعة! أرجع إلى أهلي، فأصلح من شأني. قال: ليس إلى ذلك سبيل. ثم التفت إلى الحرسي فقال: هذا صاحبك فشأنك، فلم أنهته أن حملت على البريد، فوافيت الأنبار مع الجمعة الأخرى، فأدخلت سرادقاً فيه عشرة آلاف رجل في السواد، واضعياً أذقانهم على قبائع^(٢) سيوفهم لا ينظر بعضهم إلى بعض إلا شزراً، ولا يكلمه إلا همساً، ثم اخترق بي سرادقاً آخر مثل الأول على مثل حالهم. فقلت في نفسي: أحسبه تذكر علي بعض قولي في بني أمية، فأراد قتلي. فأيست عند ذلك من الحياة، ثم خرجت إلى سرادق ثالث، فإذا قبة مضروبة في وسطه، فدفعت إليه، فسلمت بالإمارة عليه، فقال لي: أنت رؤبة بن العجاج؟ قلت: نعم، جعلني الله فداك أيها الأمير! فقال: أنشدني كلمتك:

* يرمى الجلاميد بجلمودٍ مدق^(٣) *

فحقق في نفسي ما كنت قدرت وظننت. ثم قلت: بل أنشدك، جعلت فداك:

لبيك إذ دعوتني لبيكا تطلبُ حقاً واجباً عليكاً^(٤)

فسكت حتى فرغت منها، ثم أقبل علي فقال: أنشدني قولك:

* يرمى الجلاميد بجلمودٍ مدق *

قلت: بل أنشدك قولي^(٥):

ما زال يئس خندقاً وهدمه وعسكراً يشرعه وهزمه
ومغنياً يجمعه ويقسمه مروان لما غره منجمه^(٦)
[الزجر]

فأمسك حتى فرغت ثم قال: أنشدني كلمتك:

* يرمى الجلاميد بجلمودٍ مدق *

(١) هو والي البصرة، وانظر الأعلام.

(٢) قبيلة السيف ما على طرف مقبضة من فضة أو حديد، وجمه قبائع، وفي ط: «قوايع» تحريف.

(٣) المدق: ما دقت به الشيء، والأرجوزة في ديوانه ١٠٤ - ١٠٨.

(٤) في ملحق ديوانه ١٨١.

قلت ونسجى مستجداً حوكا
أحد رباً سابقى إليك
لبيك إذ دعوتني لبيكا
الحمد والنعمة في يديكا

(٥) ملحق ديوانه ١٨٦.

(٦) الديوان:

* مروان لما أن تهاوت أنجمه *

فقلت: بل أنشدك:

ما زال يأتي الأمر من أقطاره على اليمين وعلى يساره
حتى أقر الملك في قراره مُشتمراً لا يُصطلي بناره^(١)

فقال: أنشدني ومحك: «يرمى الجلاميد»! فأنشدته:

وقائم الأعماق حاوي المخرق مُشتميه الأعلام لماع الحفق

فأنصت حتى انتهيت إلى قولي:

* يرمى الجلاميد بجلمود مدق *

فوقفت. فقال: إن أمير المؤمنين وجهني إلى خراسان وبها جبال الحديد من الرجال: فدمتها حتى جعلتها دهباً^(٢)، فلم أجد لي مثلاً إلا قولك:

* يرمى الجلاميد بجلمود مدق *

أنا والله ذلك الجلمود، أذكر حاجتك. قلت: جعلت فداك! حاجتي أن تردني إلى أهلي، فقد خرجت من عندهم وهم على وجل! فقال: يا غلام، على بئرة، فكانها لم تزل بين يديه. فقال: يا أبا الجحاف، إنك أتيتنا والأموال مشفوهة^(٣)، وقد أمرنا لك بشيء وهو زمر^(٤)، ولو أتيتنا ونحن على طمأنينة لأوطأت العرب عقيبك، والدهر بيننا وبينك: الطريق^(٥) مستتب ولك عودة، وعلينا معول! قال رؤبة: فوالله ما دريت بم أجيبه! ثم قال: يرد على السير الذي جاء عليه، فما شعري سليمان في الجمعة الثانية إلا وأنا عنده، فأخبرته الخبر، فقال: يا أبا الجحاف، هذه ديتك، وربحت نفسك^(٦)!

قال: وحدثنني عبد الله بن عمرو بن عبيد الله، قال: حدثني جدِّي عبيد الله، قال: لما دخل مروان بن أبي حفصة على المهدي، وأنشده شعره الذي يقول فيه:

* ومر مروان على حمارة *

(١) ملحق ديوانه ١٧٤، وبعده

(٢) الدهس: المكان السهل، ليس يرمل ولا تراب.

(٣) أموال مشفوهة: أي كثرت نحوها ما الأيدي.

(٤) ك: «حشد» تحريف.

(٥) الطريق المستتب: الواضح اللاحب؛ وفي ط. «أطرق» تحريف.

(٦) الخبر في الأغاني ١٨، ١٢٣ (ساسى).

أَنِّي يَكُونُ وَلَيْسَ ذَاكَ بِكَائِنٍ لِيَنِّي الْبِنَاتِ وَرِاثَةُ الْأَعْمَامِ (١)
[الكامل]

أجازه بسبعين ألف درهم، فقال مروان:

بِسَبْعِينَ أَلْفًا رَأْسِي مِنْ حَبَائِهِ وَمَا نَالَهَا فِي النَّاسِ مِنْ شَاعِرٍ قَبْلِي
[الطويل]

فحدثنا إدريس بن سليمان بن يحيى بن يزيد بن أبي حفصة، قال: كان سبب اتصال مروان بخلفاء بني العباس، أن جاريةً يمانيةً أهديت إلى أبي جعفر المنصور، فأنشدته شعراً لمروان يمدح به السري (٢) بن عبد الله، يذكر فيه وراثته العباس، فسألها: لمن الشعر؟ فأخبرته؛ فأمر بإحضار مروان، فوافاه بالرُبذة حاجاً، فلقى الربيع (٣) والمنصور عليل، العلة، التي مات فيها، فقال: كن قريباً حتى ندعو بك، فلم تزل العلة تشتد به حتى مات قبل أن يصل إليه مروان، فقال له الربيع: الحق بالمهدى ولا تتخلف عنه. وانصرف مروان إلى اليمامة فجعلها طريقاً، وعليها بشر بن المنذر واليا، فأوفده بشر فيمن أوفد، وأعطى كل رجل ألف درهم؛ فقدم مروان على المهدي، وقد مدحه بأربع قصائد؛ قوله:

صَحَا بَعْدَ جُهْدٍ فَاسْتَرَاحَتْ عَوَاذِلُهُ وَأَقْصَرَ عَنْهُ حِينَ أَقْصَرَ بَاطِلُهُ
[الطويل]

وقوله أيضاً:

طَافَ الْخِيَالُ فَحِيَّهَ بِسَلَامٍ أَنِّي أَلِمُّ وَلَيْسَ حِينَ لِمَامٍ!
[الكامل]

وقوله أيضاً:

أَعَصَرَ الْهُرَى وَتَعَزَّزَ عَنْ سَعْدَاكَ فَلَمَّثِلَ جِلْمَكَ عَنْ هَوَاكَ نَهَاكَ
[الكامل]

وقوله أيضاً:

مَرَى الْعَيْنُ شَوْقَ حَالٍ دُونَ التَّجُلُّدِ فَفَاضَتْ بِأَسْرَابٍ مِنَ الدَّمْعِ جُسُودِ (٤)
[الطويل]

(١) الشعر والشعراء ٧٤١.

(٢) ك: «السدي».

(٣) هو الربيع بن يونس حاجب المنصور ووزيره، وانظر ترجمته في ابن خلكان ١: ١٨٥.

(٤) ك: «حشد» تحريف.

- جسد؛ من الجساد^(١)، يريد أن يخلطها به.

قال إدريس: فأعطى المهديّ مروان ثلاثين ألف درهم. فأنصرف إلى اليمامة، ثم عاد في سنة أربع وستين ومائة، فطلب الوصولَ بيعقوب بن داود، فأقام نحوًا من سنة، وغضب المهديّ على يعقوب بن داود.

قال إدريس: فحدثني مروان قال: بينا أنا واقف على باب المهديّ؛ إذ خرج خالد بن يزيد بن منصور، فقال: يا بن أبي حفصة، ذكرك أمير المؤمنين أنفًا، وهو يراك أشعر الناس، غير أنه يقول: لا حاجة لنا فيما قبلك؛ فأنصرف عن بابنا. قال: فأنصرفت مغموماً، ثم تذكرت رجلاً أتحدث عنه وأتفرج به، وأنس لديه، فأتيت يزيد بن مزيد، فشكوت إليه ما قال لي خالد بن يزيد، فقال أدلك على رجل صدوق له رقة لعله ينفك! قلت: ومن هو؟ قال: الحسن الحاجب، فغدوت إلى الحسن، فشكوت إليه ما حكاه خالد من رأي أمير المؤمنين، فقال: بل من يعقوب بن داود. فقلت: بأبي أنت وأمي! أنت ترجو أن يكون ذلك مفتاحًا لما أنا فيه! قال: ذاك كما أقول لك؛ فأنصرفت وقلت:

أتاني من المهديّ قولٌ كأنما
وقلت وقد خفتُ التي لا شوى لها
وما لي إلى المهديّ لو كنتُ مذنبًا
ولا هو عند السُّخْطِ منه ولا الرضا
عليه من التقوى رداءً يكنه^(٤)
يغضُّ له طرفُ العيونِ وطرفه
هل البابُ مُفضُّ بي إليك ابن هاشمٍ
أنت امرأ أطلقتَه من وثاقه
وجلى ضبابَ العدمِ عنه وراشه
فقلت: وزيرٌ ناصحٌ قد تابعتُ
وما كان لي إلا إليك ذريعة
وإن كان مطويًا على الغديرِ كشحه
وقل مثل ما قال ابن يعقوب يوسفُ
تنفس فلأ تشرِبَ إنك آمنُ

به احترز أنفي مُدمن الضغنِ جادع^(٢)
بلا حدِّ: إني إلى الله راجع^(٣)
سوى حليمه الصافي من الناس شافعٍ
بغيره الذي يرضى به الله صانعٍ
وللحق نورٌ بين عينيه ساطعٍ
على غيره من خشية الله خاشعٍ
فعدري إن أفضى بي البابُ ناصعٍ
وقد أنشبت في أخدعيهِ الجوامع
وأنهضه معروفك المتتابع
عليه بإنعام الإمام الصنائع
وما ملك إلا إليه الذرائع
فلم أدر منه ما تجنُّ الأضالع
لإخوته قولاً له ألقبُ تالِع^(٥)
وأني لك المعروف والقدر جامع

(١) الجساد: الزعفران.

(٢) ك: «مدمن الضغف».

(٣) لا شوى لها؛ أي لا بره منها.

(٤) ل: «يكفه».

(٥) التلع: «التلف».

فما النَّاسُ إِلَّا ناظِرٌ متشَوِّفٌ إلى كلِّ ما تُسدى إلى، وسامعٌ
[الطويل]

قال: وقد قلتُ في قصيدة أخرى:

سَيَحْشُرُ يَعْقوبُ بنُ داودِ خاتِبًا
خِيانتَهُ المهدِيُّ أودتْ بِذِكْرِهِ
بَدَأَ مِنْكَ لِلْمهدِيِّ كالصَّيْحِ ساطِعًا
وهلَّ لبياضِ الصَّيْحِ أنْ لآحَ ضَوْؤُهُ
أَمْنَزَلَةٌ فوقَ التي كُنْتَ نلتَهَا
تَعاطَيْتِ، لا أَفْلَحْتَ مِمَّا تحاذِرُ!
فأَمسى قَدْ كَمُنَ غَيْبَتُهُ المَقابِرُ
من الغشِّ ما كانتْ تُجِنُّ الضمانُ
فجاء الدُّجى من ظُلْمَةِ اللَّيْلِ ساترًا!

قال: ثم أتيتُ بها الحسن بعد يومين، فقال: ما صنعت؟ فأنشدتها إياه، قال: اكتبها لي؛ فقلت: قد فعلت. فقال: هاتها، فتناولها، وقال: لست واضعها من يدي حتى أضعها في يد المهدى. ثم مضى. وأتيته من الغد فقال: ما وضعتها من يدي حتى وضعتها في يد المهدى^(١)، فقرأها، فرقك لك وأمر بإدخالك عليه، فأحضر يوم الاثنين، فحضرت، فخرج عليّ فقال: قد علم أمير المؤمنين بمكانك، وقد أحب أن يجعل لك يومًا يشرفك فيه ويبلغ بك! قلت: فمتى بأبي أنت وأمي! قال: يوم الخميس، فعدت إليه يوم الخميس، فإذا وجوه بني العباس يدخلون على المهدى، فلما تنام المجلس دعاني، فدخلت، فسلمت، فرد السلام، فقال: إنما حبسك عن الدخول انقطاعك إلى الفاسق يعقوب بن داود، فافتتحت النشيد بما قلتُ في يعقوب، فأنشدته؛ ثم أنشدته، قولي فيه:

* طَرَقَتْكَ زائِرَةٌ فحَى خيَالُهَا (٢) *

[الكامل]

فأعجب بذلك وقال: جزاك الله خيرًا! فقلت اشهدوا، هذا والله الشرف! أمير المؤمنين يجزيني خيرًا.

ثم أنشدته:

* أعادَكَ من ذِكرِ الأُحِبَّةِ عائدٌ *

[الطويل]

فلما صرت إلى قولي:

أَيادي بني العباس بيضُ سوايغِ على كلِّ قومِ بادئاتُ عوائدِ

(١) زاد بعدها في ك: «أمير المؤمنين».

(٢) الأغاني ٩: ٣٩ (سأسي) وبقية:

* بيضاء تخطط بالجمال دلها *

كما يعبدُ البيتَ الحرامَ القواعدُ^(١)
 ينوءُ بصولاتِ الأُكفِ السَّواعِدُ
 على وجهه نورٌ من الحقِّ شاهدُ^(٢)
 على قُبَّةِ الإسلامِ والخلقِ راقِدُ
 لرأفته بالناسِ، للناسِ والدُّ^(٣)
 سَقَتَهُ به الموتُ الحُتوفُ الرِّواصدُ^(٤)

[الطويل]

فهم يَعِدلون السَّمك من قُبَّةِ الهدى
 سواعِدُ عَزَّ المسلمِينِ وأَمَّا
 يزيْنُ بنى ساقى الحجيجِ خَلِيقَةُ
 يَكُونُ غِراراً نوْمُهُ من حِذارِهِ
 كَأَنَّ أميرَ المؤمنِينِ محمداً
 على أَنه من خالَفَ الحقَّ منهم

أشار إليّ، فأمسكت. فقال: يا بني العباس! هذا شاعرُكم المنقطع إليكم، المعادى فيكم، فأتوا إليه ما يسره.

فقلت: ينبغي إذ سمعوا كلامَ أميرِ المؤمنين وعرفوا رأيه أن يصلوني من أموالهم! فقال: أنا فأرضُ عليهم لك مالا، ففرض على موسى ابنه خمسة آلاف درهم، وعلى هارون خمسة آلاف، ثم فرض على القوم على قدر حالاتهم، حتى فرض عليهم سبعة وثلاثين ألف درهم، والربيع يكتب كل ما فرض على كل رجل منهم.

فقال أبو عبد الله: يا أمير المؤمنين! إنما نحن من أهلك، فأدخلنا فيها أدخلتهم فجعل عليه ألفاً، وعلى الربيع ألفين، فتمت أربعين ألفاً.

فقلت: يا أمير المؤمنين، من لي بهذا المال؟ قال: هذا - وأشار إلى الربيع - ثم قال: إن أمير المؤمنين يعطيك من صُلب ماله. فأمر لي بثلاثين ألف درهم في ثلاث بدر، فجاء بهن فطرحن قريباً، فدعوت وشكرت، فقال: يا بن أبي حفصة، ستجيتك صلاح وبرى، وبأتيك منى ما يؤدبك إلى الغنى.

فقلت: يا أمير المؤمنين، قد رأيت من قبلك وبشرك وسرورك^(٥) بما سمعت منى ما سآزداد به شرفاً^(٦)، وستسمع ويبلغك، وقلت: يا أمير المؤمنين، لا يبلغ ما أعطيتني لشاعر بعدى! قال: أجل، قلت، وأذنى في زيارتك! قال: نعم، قلت: يا أمير المؤمنين، لى عدوّ فيك وفى أهل بيتك، فإن رأى أمير المؤمنين ألا يجعل لأجد على سلطاناً دونه! قال: لا سلطان عليك دون أمير المؤمنين. فقلت: اكتب إلى بذلك كتاباً، فأمر بالكتاب بذلك.

(١) ك: «البيت العتيق».

(٢) ساقى الحجيج، يريد العباس، جد الخلفاء.

(٣) الأغاني ١٠: ٨٩ (مطبعة الدار).

(٤) الأغاني: «سقته يد الموت».

(٥) ك: «سؤددك».

(٦) ل: «شعرا».

فانصرفت، فلما صرّت خلف السّتر خرج إلى خادم^(١) بمندبل فيه أربعة أثواب: ثوب وشى، وثوب خزّ، وجبة بياض محشوة، وقميص. فقال ألبسوه وأعيدوه إلى، فلبست الخزّ والوشى على الثياب التي كانت على وألقيت القميص على أحد منكبيّ والجمبة على المنكب الآخر، فقال لى: يا بن أبى حفصة، أتدخل على أمير المؤمنين هكذا وقد مثلت بنفسك! فقلت: والله لو كانت كرامة أمير المؤمنين أحدًا لما خلعت منها شيئًا أطيق حمله.

ثم دخلت، فلما رآني تبسّم، ثم قال: مطرف! فأبطنوا به، فقال: المطرف! وأنا قائم، ثم قال الثالثة: المطرف! فلما أبطنوا انصرفت وقعدت خلف السّتر، فلم أثبت أن رُفِع السّتر وخرج أمير المؤمنين على دابة، فقمّت إليه، فلما رآني قال: المطرف! فما برح حتى أتى به، فنشّر^(٢) على بين يديه، وأمر بعشرة من خدّم الرّوم، وقطيعه بناحية السّواد، فبعت القطيعه من عيسى بن موسى بعشرين ألف درهم، وبرذون بسرّجه ولجامه، قال: فلم يزل مروان على باب المهديّ حتى هلك.

وعن عبد الله بن هارون قال: حدّثني عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله، عن المغيرة، قال: دخل المغيرة بن عبد الرحمن المخزوميّ، وأبو السائب، والعمثانيّ بن لؤلؤ الرطبي، وابن أخت الأحوص على المهديّ وهو بالمدينة فقال: أنشدوني، فأنشد المغيرة:

وللناس بدرٌ في السماء يرونه
فبالله يا بدرَ السماء وضوءه
وما البدرُ إلاّ دون وجهك في الدجى
وما نظرت عيني إلى البدر ماشياً
وأنت لنا بدرٌ على الأرض مُقْمِرٌ
تزال تكافى عشرَ مالك أضيرٌ
يغيب فتبدو حين غاب فتقمرٌ
وأنت فتَمسى في الثياب فتسحر^(٣)
[الطويل]

وأنشد ابن أخت الأحوص:

قالت كلابة: من هذا؟ فقلت لها:
إني امرؤ لِح بي حب فأحرَضني
هذا الذي أنت من أعدائه زعموا
حتى بليت وحتى شَفني المسقم
[البسيط]

وأنشده العمثانيّ المخزوميّ:

رمى القلب من قلبي السّواد فأوجعا
وصاح فصيح بالرحيل فأسمعا

(١) ك: «الخادم».

(٢) ل: «فشن»، وما أثبتته من ك.

(٣) ك: «وأنت فتَمسى».

فأصبحتُ مسلوبَ الفؤادِ مَفْجَعًا^(١)
أرى اليئِنَ لا أَسْطِيعُ لليئِنِ مَدْفَعًا
فيالكَ بيْنَا ما أَمْرٌ وأَوْجَعًا!
[الطويل]

وَعَرَدَ حَادِي اليئِنِ وَأَنْشَقَّتِ العَصَا
كَفَى حَزْنًا مِنْ حَادِثِ الدَّهْرِ أَنِّي
وَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ اليَوْمِ بِالْيئِنِ جَاهِلًا

وأنشده أبو السائب:

صُدُورَ المَطَايَا نَحْوَهَا فَتَسْمَعُ
مُقِيمٍ، وَإِنْ بَأْتَتْ فَيِينَا بِنَا مَعَا
قَعِيدَ كَمَا بِاللهِ أَنْ تَتَرَعَّرَعَا
[الطويل]

أَصِيخًا لِدَاعِي حُبِّ لَيْلَى فَيَمَّا
خَلِيلِيَّ إِنْ لَيْلَى أَقَامَتْ فَيَأْتِي
وَأَنْ أَتَيْتُ لَيْلَى بِرَبِيعٍ يَحُورُهَا^(٢)

فقال: والله لأغنينكم الليلة!

ثم قال للمغيرة: هل لك من حاجة؟ فإنه بلغني أنك بعثت جاريتك في دين كان عليك، قال: والله يا أمير المؤمنين، لقد فعلت ذلك، قال: فلأردنها عليك، فأجاز ثلاثة منهم بعشرة آلاف دينار؛ إلا ابن لؤلؤ الرطب، فإنه سار معه، فمر بدار فقال: لمن هذه الدار؟ فقال: للأحوص الذي يقول:

يَا بَيْتَ عَاتِكَةَ الذي أُنْعَزَلُ حَذَرَ العِدَا وبِهِ الفؤَادُ مَوْكَلُ
وَأَرَاكَ تَفْعَلُ مَا تَقُولُ وَبَعْضُهُمْ مَذِقُ الحَدِيثِ يَقُولُ مَا لَا يَفْعَلُ
[الكامل]

فقال: عز على ألا تأخذ شيئاً! ثم قال للربيع: اعتق ما تملك إن لم تعطه أنت عشرة آلاف دينار، وأنا عشرة آلاف دينار، فقبضها وخرج.

قال: ودخل ابن الخياط^(٣) على المهدي فمدحه، فأمر له بخمسين ألف درهم، فلما قبضها فرقها على الناس وأنشأ يقول:

لَسْتُ بِكَفَى كَفَّهُ أَبْتَغِي الغِنَى وَلَمْ أَدْرُ أَنْ الجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُعِدِي^(٤)

(١) ك: «مضيعة».

(٢) كذا في ك، وفي ل: «إنشئت».

(٣) ك، ل: «الخياط» وما أثبتته من الأغاني ١٨: ٩٤.

(٤) الأغاني ١٨: ٩٤.

فلا أنا منه ما أفادَ دَوُو الغني أفدَّتْ، وأعداني فبدَّتْ ما عندي^(١)
[الطويل]

فأعطاه بكلِّ درهم ديناراً.

قال: ودخل سلم بن عمرو الخاسر على المهديّ، فقال:

أليسَ أحقُّ الناسَ أن يُدركَ الغني مُرَجِّي أمير المؤمنينِ وسائله
لقد بسطَ المهديُّ عدلاً ونائلاً كأنها عدلُ النبيِّ ونائله!

[الطويل]

فقال: أما ما ذكرت يا سلم من الجود، فواقه ما تعدى الدنيا عندي خاتمي هذا. وأما العدلُ فإنه لا يقاس برسول الله صلى الله عليه وسلم أحدٌ، وإنى لأتحرّاهُ جُهدى. ثم أمر له بعشرة آلاف درهم، وعشرة أتواب.

ثم وفد عليه في السنة الثانية، فأنشده:

إنَّ الخِلافةَ لم تكن بخِلافَةٍ حتى استقرَّت في بني العباسِ
شدَّت مناكِبُ ملكِهِم بخِليفةٍ كالدَّهرِ يَخِطُ لِنَهْ بِشِماسِ^(٢)

[الكامل]

فأمر له بعشرين ألف درهم، وعشرين ثوباً.

فلما كان في العام الثالث وفد عليه فأنشده:

أفنى سؤالَ السائلينَ بجودهٍ ملكٌ مواهبُهُ ترُوحُ وتعدى
هذا الخليفةُ جودهٌ ونواله نَفدَ السؤالِ وجودهٌ لم ينفدِ

[الكامل]

فأمر له بثلاثين ألف درهم وثلاثين ثوباً.

وعن أحمد بن بكر الباهليّ؛ قال: حدّثني حاجبُ المهديّ قال: قال لي المهديّ يوماً نصفَ النهار: أخرج وانظر مَنْ بالباب! فخرجت فإذا شيخٌ واقف، فقلت: ألك^(٣) حاجة؟ فقال: ما يمكن أن أخبر بحاجتي^(٤) أحداً غير أمير المؤمنين. فتركته ودخلت على المهديّ، فقال لي: أخرج فانظر مَنْ بالباب! فخرجت، فإذا الشيخ، فقلت: إن كان لك حاجة فاذكرها، قال: لا أذكرها إلا لأمر

(١) الأغاني: «فأتلقت».

(٢) ك: «لبيته بشماس».

(٣) ل: «لك».

(٤) ك: «بها».

المؤمنين، ففعل هذا مرّاتٍ، فقال المهديّ: انظر من بالباب! فقلت: شيخ^(١) قد سألته غير دفعه عن حاجته. فقال: ما يمكن أن أخبر بحاجتي أحدًا دون أمير المؤمنين^(٢)، وقلت: (١) أيدخل؟ قال: نعم، ومرة بتخفيف؛ فخرجت، فقلت له: أدخل وخفف، فدخل وسلّم بالخلافة، ثم قال: يا أمير المؤمنين، إنا قد أمرنا بالتخفيف^(٣):

فإن شئت خففنا فكنا كريشة متى تلقها الأنفاس في الجو تذهب
وإن شئت ثقّلنا فكنا كصخرة متى تلقها في حومة البحر ترسب
وإن شئت سلّمنا فكنا كراكب متى يقض حقا من سلامك يعزب

فضحك المهديّ وقال: بل تُكرم وتُقضى حاجتك. فقضى حاجته، وصله بعشرة آلاف درهم.

قال الميرد: حدّثني محمد بن عامر الحنفيّ^(٤)، قال: ذكروا أن فتيانا كانوا مجتمعين قد اختلفوا في نظام واحد، كلهم ابن نعمة، وكلهم قد شرد عن أهله، وقنع بأصحابه، فذكر ذاكر منهم وقال: كنا قد اكرتينا دارًا شارع^(٥) على أحد طرق بغداد المعمورة بالناس، [وكنّا نفلس أحيانًا ونوسر أحيانًا، على مقدار ما يمكن الواحد من أهله]^(٦)؛ وكنّا^(٧) لا نستكثر أن تقع مئونتنا على واحد منا إذا أمكنه، ويبقى الواحد منا لا يقدر على شيء، فيقوم أصحابه بأمره الدهر الأطول، فكنا إذا أيسرنا أكلنا من الطعام أطيبه، ولبسنا من اللباس^(٨) أليقه، ودعونا الملهين والمهليات، وكنّا^(٩) في أسفل الدار، وإذا عدنا الطرب فمجلسنا^(١٠) في غرفة لنا، نتمتع فيها بالنظر إلى الناس، وكنّا لا نخل بالنيبذ في عسر ولا يسر ولا نبيع الثوب من الأثواب. فإنّا لكذلك يومًا إذا^(١١) بفتى يستأذن علينا، فقلنا له: اصعدْ وادخل، فإذا رجل حلّو الوجه؛ سرى الهيئة، تنبىء رؤيته^(١٢) أنه من أهل النعم، فأقبل علينا فقال: إني سمعتُ بمجتمعكم وحسن منادمتكم وصحة الفتكم؛ حتى كأنكم أدرجتم جميعا في قلب^(١٣) أحدكم، فأحببت أن أكون واحدًا منكم، وألا تحتشموني^(١٤). قال: وصادف ذلك منا إقتارًا من القوت، وإكثارًا من النبيذ، فقال لفلان^(١٥) معه: هات ما عندك. ففبر عتًا^(١٦) غير بعيد،

(١-١) ك: «شيخ قد سألته: ألك حاجة؟ قال: ما يخبر إلا أمير المؤمنين».

(٢) ط: «فقلت».

(٣) ك: أضاف: «وأنشأ».

(٤) في العقد ٦: ٣٨٢: «حدثنا محمد بن عامر الحنفي، وكان من سادات بكر بن وائل، وأدركته شيخًا كبيرًا مملقًا، وكان إذا أفاد على إملاقه شيئًا جاد به، وقد كان قديمًا ولي شرطة البصرة؛ فحدثني هذا الحديث الذي نذكره ووقع إلى من غير ناحيته، ولا أذكر ما بينها من الزيادة والنقصان، إلا أن معاني الحديث مجموعة فيها أذكر لك». ثم ساق بقية الخبر.

(٥) كذا في العقد؛ ودار شارع، أى قريية من الطريق النافذ، وفي ط: «شارعته» تحريف.

(٦) من العقد.

(٧) العقد: «رواؤه».

(٨) كذا في العقد، وفي ط: «فكنا».

(٩) العقد: «في قالب واحد».

(١٠) ل: «التياب».

(١١) العقد: «فلا تحتشموا».

(١٢) العقد: «وكان جلوسنا».

(١٣) ك: «لغلامه»، العقد: «لغلام له».

(١٤) ط: «فجلسنا»؛ والصواب ما أثبتته من العقد.

(١٥) ك: «لغلامه»، العقد: «لغلام له».

(١٦) ك: «إذا نحن».

(١٧) غير: ذهب، وفي العقد: «غاب».

ثم أتى بسَلَّةِ خَيْرُزَانَ فيها طعام [المطبخ] ^(١)، من جِداءٍ ودجاجٍ وفراخٍ ورُقاقٍ ^(٢) وأَسنانٍ وأخلةٍ ^(٣) ومَحَلَبٍ ^(٤)، فأصبنا من ذلك الطعام ثم أفضنا ^(٥) في شراينا، وانبسط الرجل؛ فإذا هو أحلى خلقي الله إذا حَدَّثَ، وأحسُّنهم استماعاً إذا حَدَّثَ. وأمَسَكُهُم عن مَلاحاةٍ إذا خُولفَ، ثم أفضنا معه إلى أكرمِ محالعةٍ، وأجلِّ معاشرته، فكنا ربما امتحنناه بأن ندعوه إلى الشيء الذي نعلم أنه يكرهه، فيُظهِر لنا أنه لا يحبُّ غيره، ويُرَى ذلك في أسارير وجهه، فكنا نغنى به عن حسن الغنى ^(٦) ونتمثل بكلامه، ونتدارس أخباره، فشغلنا بظرفه، وبما عاشرتنا به عن وصفه، والسؤال عن تعرف اسمه ونسبه، فلم يكن عندنا من أمره إلا معرفة الكنية، فإننا سألناه عنها فأنبأنا أنه يكنى أبا الفضل.

فقال لنا يوماً بعد اتصال الأُنس: ألا أخبركم كيف عرفتكم؟ قلنا له: إنا لَنُحِبُّ ذاك، فقال: أحببتُ جاريةً في جوارِكُم، وكانت مولاتها ^(٧) ذات حبايب، فكانت تختلف بالرسائل بينها وبين حبايبها، وكنت أجلس لها في الطريق، ورأيتُ غرفتكم هذه، فسألت عن خبرها، فخبرتُ عن اتلافكم ومساعدة بعضكم بعضاً، فكان الدخولُ عندي فيما أنتم فيه أثر عندي من الظفرِ بالجارية. فسألناه، فخبرتنا بمكانها، فقلنا له: فإننا نخدعها لك ^(٨) حتى يُظفرك الله بها، قال: يا إخواني ^(٩)؛ إني والله على ما ترون من شدَّة الشوق إليها ^(١٠) والكلفِ بها ^(١١)، ما قدَّرتُ فيها حرماً قطً، وما تقديري إلا مطاولتها ومصابرتها؛ وإلى أن ين الله جلَّ وعزَّ بثروة فأشترتها.

فأقام معنا شهرين ونحن به على غاية الاغتباط، وبقره به على غاية السرور، ثم احتبس ^(١٢) عنا فنالنا ^(١٣) بفراقه شُكْلُ مِمَضٍ ^(١٤) ولوعةٌ مؤلمةٌ، ولم نعرف له منزلاً نلتمسه فيه، فيكون فقدُه أخفَّ علينا، فكفَّر عيشنا الذي كان صافياً قد طاب لياؤه، وقُبِح ما كان قد حَسُن لنا بقره، وانصرم الغمُّ بمحادثته، فكنا فيه كما قال القائل:

يُذَكِّرُنِيهِمْ كُلُّ خَيْرٍ رَأَيْتُهُ وَشَرٌّ فَمَا أَنْفَكُ مِنْهُمْ عَلَى ذِكْرِ ^(١٤)
[الطويل]

فغاب عنا عشرين يوماً لا نلتذهن ^(١٥)، ثم نحن يوماً مجازون في الرُصافة، فإذا به وقد طلع في موكب ^(١٦) نبيل، وزِيَّ جليل، فحيث بَصُر بنا انحطَّ عن دابته، وانحطَّ غلمانُه، ثم قال: يا إخواني،

(٧) العقد: «سيدتها».

(١) من العقد.

(٨) العقد: «نخدتعها».

(٢) الرقاق: الخبز المنبسط الرقيق.

(٩) العقد: «يا إخواني».

(٣) الأخلة: جمع خلل؛ وهو ما تحلل به الأسنان.

(١٠) ساقطة من ل والعقد.

(٤) المحلب، كمسكن: شجر له حب يجعل في الطيب.

(١١) العقد: «ما» من غير واو.

(٥) كذا في ل، وفي ك والعقد: «أفضينا».

(١٢) العقد: «اختلس».

(٦) العقد: «عن تعرف اسمه ونسبه».

(١٣-١٤) ط: «فتألنا لفراقه كل ممض». والأجود ما أتته العقد.

(١٤) لمكرشة العيسى، من كلمة له في الحماسة - بشرح التبريزي ٣: ٧٨-٧٩، يرثى بنيه.

(١٥) ساقطة من العقد.

(١٦) العقد: «مركب» وفي ك «مركب عظيم».

ما هُنَّأى عيش بعدكم! ولست أملككم بحدى وخبرى حتى نبلى المستقر^(١). ثم مال بنا إلى مسجد فقال: أعرّفكم أولاً نفسى^(٢)، أنا العباس بن الأحنف؛ وكان من خبرى أنى انصرفت من عندكم إلى منزلى؛ والمسودة قد أحاطت بى قمضى^(٣) بى إلى دار أمير المؤمنين، فصرت إلى يحيى بن خالد، فقال: ويحك يا عباس! إنما اخترتك من ظرفاء الشعراء لقرب مأخذك وحسن تأتيك. وإن الذى ندبتك له من شأنك، وقد عرفت خطرات الخلفاء؛ وإنى أخبرك أن ماردة هى الغالبة على أمير المؤمنين، وقد جرى بينها عتب؛ وهى بدالة^(٤) المعشوق تأبى أن تعتذر، وهو بعزة الخلافة وشرف الملك يأبى ذلك، وقد رمت الأمر من قبلها فأعيانى، وهى أحرى أن تستعزه^(٥) الصباية، فقل شعراً تسهل به هذا السبيل. ففضى كلامه، ثم دعاه أمير المؤمنين فصار إليه، وأعطيت قرطاساً ودواة، فاعترانى الزم^(٦) ونقر عنى كل شىء من العروض، ثم انفتح لى شىء من الأشياء، والرسول ما تغبى، فجاءتنى أربعة أبيات رضىتها؛ وقعت صحيحة المعنى، سهلة الألفاظ، ملائمة لما طُلب، منى فقلت لأحد الرسل: أبلغ الوزير أنى قد قلت أربعة أبيات، فإن كان فيها مقنع [ووجهت بها]. وفى قدر ذهب الرسول ومجيبه حضرتى بيتان من غير ذلك الروى، فكتبت الأربعة الأبيات فى صدر الرقعة وعقبت بالبيتين. فكتبت:

| | |
|--------------------------|--|
| العاشقان كلاهما متغضبٌ | وكلاهما متوجّدٌ متجنّبٌ ^(٧) |
| صدت مغاضبةً وصد مغاضباً | وكلاهما مما يعالج متعبٌ |
| راجع أجبتك الذين هجرتهم | إن المتيم قلباً يتجنب |
| إن التجنب إن تطاول منكها | دب السلو له، فعزّ المطلب |

[الكامل]

ثم كتبت تحت ذلك:

| | |
|----------------------|--------------------------------------|
| لابد للعاشق من وقفة | تكون بين الوصل والصرم ^(٨) |
| حتى إذا لهم تمادى به | راجع من يهوى على رغم |

[السريع]

قال: ووجهت بالكتاب، فدفعه إلى الرشيد، فقال: والله ما رأيت شعراً أشبه بما نحن فيه من هذا، والله لكأنى قصدت به. فقال يحيى: فأنت والله المقصود به يا أمير المؤمنين؛ هذا يقوله العباس بن الأحنف فى هذه القصة، فلما قرأ البيتين وأفضى إلى قولى:

(١) العقد: «حتى آتى المنزل».

(٢) «بنفسى».

(٣) ك: «فمضوا». وما أثبتته من ل والعقد.

(٤) كذا فى العقد، وفى ط: «بعزة دلالة».

(٥) الأغاني ٦: ٢٩٥ (طبعة الدار)، وذكر بعد هذا البيت:

تغيب أحياناً وفى عتبِهِ
إظهار ما يخفى من السقمِ
إشفاقه داعٍ إلى ظنهِ
وظنهُ داعٍ إلى الظلمِ

* راجع من يهوى على رُغم * *

استفرغ ضحكا [حتى سمعت ضحكك] (١). ثم قال: إى (٢) والله، أراجعها على الرُغم! وقال: يا غلام، نعلّ! فنهض وأذهله الجدَلُ والسُرور عن أن يأمر لي بشيء، فدعاني يمجى وقال: إن شعرك قد وقع بغاية الموافقة، وأذهل أمير المؤمنين السُرور عن أن يأمر لك بشيء. قلت: لكن هذا الخبر لم يقع (٣) منى بغاية الموافقة. قال: إذن أوقعه. ثم جاء إنسان فسأره بشيء. فنهض ونهضت لهوضه، فقال: يا عباس، أمسيت أنبل (٤) الناس، أتدري ما سأرتني به هذا الرسول؟ قلت: لا، قال: دكر أن ماردة تلقت أمير المؤمنين لما علمت بجميته، فقالت: كيف كان هذا يا أمير المؤمنين؟ فأعطاها الشعر، وقال: هذا الذى جاء بى. قالت: فمن يقوله؟ قال: العباس بن الأحنف. قالت: فيكم كوفى؟ قال: ما فعلت شيئا. قالت: إذن والله لا أجلس حتى يكافأ، فأمر المؤمنين قائم لقيامها، وأنا قائم لقيامها (٥)، وهما يتناظران فى صلتك، فهذا كله لك. قلت: ما لى من هذا إلا الصلة! فضحك وقال: هذه أحسن من شعرك. فأمر لى أمير المؤمنين بمال كثير، وأمرت هى لى بمال دونه، وأمر لى الوزير بمال دون ما أمرت به، وحملت على ما ترون من الظهر، ثم قال لى الوزير: تمام اليد عنك ألا تخرج من الدار حتى يؤثل (٦) لك بهذا المال، فاشتريت لى ضياع تغلّ عشرين ألف درهم، ودفع إلى بقية المال.

فهذا هو خبرى الذى عاقنى عنكم؛ فهلّموا حتى أقاسمكم الضياع، وأفرق بينكم المال! فقلنا: هنأك الله مالك، كلنا (٧) يرجع إلى نعمة من أبيه وأهله فأقسم وأقسمنا؛ وقال: أنتم أسوتى فيه، قلنا: أما هذا فنعم؛ فامضوا بنا إلى الجارية حتى نشترها. قال: فمضينا إلى صاحبها (٨) وكانت جارية جميلة حلوة لا تحسن شيئا أكثر مما بها (٩) من الظرف - وكانت تساوى على وجهها خمسين ومائة دينار (١٠). فاستأمت بها صاحبها خمسمائة دينار (١١)، فأجبنها بالتعجب، فحطت مائة، فقال لنا العباس: يا فتيان، إني أحتشم والله أن أقول بعد ما قلت، ولكن هى جارية فى نفسى؛ بها يتم سرورى. إن هذه الجارية أريد إينار نفسى بها، وأكره أن تنظر إلى بعين من ماكس فى ثمنها، فدعوتنى أعطها خمسمائة دينار، قلنا: قد حطت مائة. قال: وإن فعلت!

(١) من المقد.

(٢) ط: «إنى»، وما أثبتته من المقد.

(٣) المقد: «ما وقع».

(٤) المقد: «أملأ الناس»؛ من قولهم: ملأ الرجل، فهو ملء، صار ثقة غنيا.

(٥) المقد: «وأنا قائم لقيام أمير المؤمنين».

(٦) التأثيل: التهيئة والتأصيل.

(٧) المقد: «فكلنا».

(٨) ك: «سيدتها».

(٩) ك: «فيها»، وفى المقد: «أكثر ما فيها ظرف اللسان وتأدية الرسائل».

(١٠-١١) المقد: «فلما رأى مولاها ميل المشتري استام بها خمسمائة».

فصادفت مولاتها رجلاً حراً؛ وأخذت من الثمن ثلاثمائة، وجَهَّزتها بالباقي،
فها زال لنا عَشيراً حتى فَرَّقَ بيننا وبينه الموت.

وعن المبرد قال^(١): حدثني من أعتد عليه أن مُسْلِمَ بنَ الوليد كان يمدح مَنْ دون الخليفة، وكان يقول: إن نفسي تذوب حشراتٍ من أنه يحوى خزائن^(٢) الخلفاء من لا يقاربنى في أدب، ولا يوازيني^(٣) في نَسَب، ولا يَصْلُحُ أن يكون شعره خادماً لشعري. وكان إذا كَسَبَ جمع أصحابه فلم يخرج من منزله؛ حتى يأتي على جميع ما معه، فلا يزال في أكلٍ وشربٍ وقُصْفٍ حتى يُفْنِي [جميعاً]^(٤) ما معه. فعرف بذلك، وكانت البرامكة ويزيد بنُ مَزِيدِ الشَّيبَانِي، ومحمد بن منصور بن زياد يَبْرُونَه ويعطفون عليه، ويتفقَدون مِن حاله. فخرج ذاتَ يوم فلقى يزيد بن منصور الحميرى بباب الرشيد، فسَلَّمَ عليه، فردَّ عليه السَّلَام، ورَحَّبَ به، وسأله عن شأنه؛ فخبَّره وسأله أن يقربَه من الخليفة، وأن يجتال حتى يُعَدَّ في مادحيه^(٥) ومن تجرى عليه أرزاقه، فقال الحميرى: سأأتى لوصولك إلى أمير المؤمنين، فإصاب أمير المؤمنين لِقَسَ النفس، قد اشتمل عليه الفكر، [فقال له يحيى: ما بك يا أمير المؤمنين؟ قال: الفكر]^(٦) في سرعة تقضى أمور الدنيا، وأنا لا نتشبت^(٧) منها بشيء إلا كان كالظَّلِّ الزائل، والسراب الخادع.

فقال له جعفر بن يحيى: يا أمير المؤمنين، أفتظن أن هذا الفكر يحبس عليك الأيام، أو يمنعك بما لا تستمتع به! إنما هذا الذى أنت فيه، عارضٌ عَرَضٌ لك، وقد كان مَلِكٌ من الملوك يقال له: «بهمان»^(٨) - وكان من أجل ملوك العجم، وكان حكيماً - يقول: اللهم مفسدة للنفس، ومضلة للفهم، ومشددة^(٩) للقلب، ومن أعظم الخطأ التشاغل بما لا يمكن دفعه، وقد قالت الحكماء: بالسرور يطيب العيش، ومع الهم تقي^(١٠) الموت.

قال له سليمان بن أبي جعفر^(١١): يا أمير المؤمنين؛ يروى عن لقمان الحكيم^(١٢) أنه قال: مَنْ يملك يستأثر، ومن لا يستشير يندم؛ والهم نصف الهرم، والفقر الموت الأكبر.

قال: فكان الرشيد نشطاً واندفع عنه ما اعتراه من ذلك الفكر، فتقدم إليه الحميرى وقال: يا أمير المؤمنين؛ خلفتُ بالباب أنفاً رجلاً من أخوالك الأنصار؛ متقدماً في شعره وأدبه وظرفه، أنشدنى قصيدة يذكر فيها أنسه وهواه ولعبه ومحادثته إخوانه؛ ويذكر مجالس اتصلت له؛ بأبلغ قول

(١) الخبر في ترجمة مسلم بن الوليد، الملحقه بديوانه، ص ٢٩٤ (نشرة الدكتور سامى الدهان)، عن كتاب جمهرة الإسلام.

(٢) ك: «الجواز».

(٣) وكذا في الديوان، وفي ك: «يوازنى».

(٤) الديوان: «كيومرد».

(٥) من ك.

(٦) الديوان: «مدهشة».

(٧) ط: «ممازحيه»، وما أنته من الديوان.

(٨) ك: «يتقى».

(٩) من الديوان.

(١٠) ك: «منصور».

(١١) الديوان: «ولسنا تشبت منها بشيء».

(١٢) الديوان: «القس».

وأحسن وصف، وأقرب رصف، تبعث والله على الصباية والفرح، وتباعد عن الهمم والتروح، وكأنه قد وُفق بيمن أمير المؤمنين وسعادة جده لأن يكون مبراً من هذه الشكوى، وزائداً في سرور أمير المؤمنين^(١)، مستندياً له صلة رحمه؛ والتشرف بخدمته.

قال: فاستفزه السرور والقلق إلى دخوله عليه واستماع قصيدته، وجعل يتابع الرسل بعضهم في أثر بعض حتى دخل. وكان حلوَ الشمائل، فوصل إليه في وقت قد كان خرج فيه من رسم الشباب وشيرته^(٢)، ولم يكن في عداد من قد اضطرب سناً^(٣). وكان ناهيك من رجل! معه فهم وتجربة وتمييز ومعرفة، فأمهل حتى سكن، ثم أذن له في الجلوس والانبساط، واستدعى منه أن يزيد في الأناجيد.

فانبرى مُسلم ينشد قصيدته، فجعل الرشيد يتناولها؛ ويستحسن ما حكاها من وصف شرابٍ وهو، ودماثةٍ وغزل، وسهولةٍ ألفاظ. ثم أمر له بمالٍ، وأمر أن يتخذ له مجلس يتحول إليه، وجعل الرشيد وأصحابه يتناشدون قصيدته، فسماه يومئذ بأخر بيت من قصيدته: «صريع الغواني»، والرشيد الذي سماه بهذا الاسم، والقصيدة هي هذه:

| | |
|---------------------------------|--|
| أديراً على الكأس لا تشرباً قبلي | ولا تطلباً من عند قاتلي دخلي ^(٤) |
| فما جرى أني أموت صباية | ولكن على من لا يحل لها قتلي |
| أحب التي صدت وقالت لتربها: | دعيه الثريا منه أقرب من وصلي ^(٥) |
| بلى ربما وكلت عيني بنظرة | إليها تزيد القلب خيلاً على خبلي |
| كتمت تباريح الصباية عاذلي | فلم يدري ما بي فاسترحمت من العذلي ^(٦) |
| ومانحة شرابها الملك قهوة | يهودية الأصهار مسلمة البعل |
| ربيبية شمس لم تهجن عروقها | بنارٍ ولم يجمع لها سعف النخل |
| بعثنا لها منا خطيباً لبضعها | فجاء بها يمشي العرضة في مهل ^(٧) |
| قد استودعت دنأها فهو قائم | بها شفقا بين الكروم على رجل |
| فواني بها عذراء خل أخو ندى | جزيل العطايا غير نكس ولا وغل |
| معتقة لا تشتكي دم عاصر | حرورية في جوفها دلقمها يغلي ^(٨) |

(١) الديوان: «الخليفة».

(٢) الديوان: «وزقه».

(٣) الديوان: «حياء».

(٤) ديوانه مع اختلاف في الرواية. والفعل: طلب النار.

(٥) بعده في الديوان:

أما أنت وأخيت مهجتي فهي عندها
ومأ نلت منها نائلاً غير أنني

(٦) تباريح الصباية: حرارتها.

(٧) العرضة: مشية فيها إنحراف من التيه.

(٨) الديوان: «وطم عاصر»، وشبهها برجل حروري يغلي دمه.

فصارت له منها أنامل كالدبل^(١)
وفاتت فلم تطلب بوتر ولا تبيل^(٢)
كما أخضلت عين الخريدة بالكحل^(٣)
إذا أسفرت منها الشعاع على البزل^(٤)
مبتلة حوراء كالرشا الطفل^(٥)
أباريقها أو جسن قعقة النيل
كان عليه ساق جارية عطل
خدلجة هيفاء ذات شوى عبل^(٦)
تمشت به مشى المقيد في الوحل
ولا هي عادت بعد عل ولا تهل^(٨)
لا مضى هما؛ أو أصيب فتى مثلى^(٩)
وأغدو وصرع الكأس والأعين النجل!
[الطويل]

أغارت على كف المدير بلونها
أما ت نفوساً من حياة قريبة
شققنا لها في الدن عيناً فأسبلت
كان فنيقا بازلاً شق نحره
ودارت علينا الكأس من كف طيبة
كان ظباء عكفا في رياضها
وحن لنا عود فباح بسره
تضحكه طورا، وتبكيه تارة
إذا ما علت منا نوبة واحد^(٧)
فلا نحن مبتنا مودة الدهر بغتة
سأنقاد للذات متبع الهوى
هل العيش إلا أن أزوح مع الصبا

* * *

قيل: وأدخل الفضل بن يحيى أبا نواس عند^(١٠) الرشيد، فقال له الرشيد: أنت القائل:
عُتِّقْتُ فِي الدَّنِ حَتَّى

[مجزوء الرمل]

أحسبك زنديقا! قال: يا أمير المؤمنين، قد قلت ما يشهد لي بخلاف ذلك. قال: وما هو؟ قال:
قلت:

(١) الذبل: عظام صفر كعظام الفيل.

(٢) الديوان: «تبيل ولا ذحل»، والوتر والتبيل والذحل بمعنى.

(٣) الديوان: «عين الخريد بلا كحل»، والخريد والخريدة: المرأة الحبيبة المحتشمة.

(٤) الفتيق: الجمل الأبيض، وفي الديوان: «إذا ما استدرت كالشعاع على البزل».

(٥) الديوان: «من كف طفلة»، والمبتلة: كاملة الخلق.

(٦) الخدلجة: الحسنة الخلق. والهيفاء: الضامرة البطن؛ ويعدو في الديوان:

لنا عن ثنايا، لا قصار ولا تمل
حكى نائحات بين بيكين من نكل
ورحنا حميدى العيش متفقى الشكل
ومالت علينا بالخديمة والختل
إذا ما اشتهينا الأفحوان تبست
وأشدها الزمار يشدو كأنه
غدونا على اللذات نجى ثمارها
أقامت لنا الصهباء صدر قناتها
(٧) الديوان: «نوابه شارب».

(٨) يعدو في الديوان:

وساقية كالريم هيفاء طفلة
تنزه طرفي في محاسن وجهها
(٩) الديوان: «متبع الصبا».

(١٠) ط: «إلى عندي».

وَأَيُّ حَدِّ بَلَغَ الْمَارِحُ^(١) !
 وَنَاصِحٌ لَوْ قَبِلَ النَّاصِحُ !
 وَرُوحٌ لَمَّا أَنْتَ لَهُ رَائِحٌ
 سَبَقَ إِلَيْهِ الْمَتَجَرُّ الرَّابِحُ
 إِلَّا أَمْرُؤُ مِيزَانُهُ رَاجِحٌ
 مُهَوَّرُهُنَّ الْعَمَلُ الصَّالِحُ
 [السريع]

آيَةَ نَارٍ قَدَحَ الْقَادِحُ
 اللَّهُ دُرُّ الشَّيْبِ مِنْ وَاغِظِ
 فَاغْدُ فَمَا فِي الْحَقِّ أَغْلُوطَةٌ
 مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ فَذَاكَ الَّذِي
 لَا يَجْتَلِي لِحَوْرَاءَ مِنْ خِدْرِهَا
 فَاسْمُ بَعِينِكَ إِلَى نَسْوَةٍ

فقال الفضل: يا سيدي، إنه يؤمن بالبعث، ويحمله المَجُونُ على ذكر ما لا يعتقد، ثم أنشده:

وقد طال تردادي بها وعنائِي^(٢)
 أراها أمامي مرةً وورائي^(٣)
 عن الدار واستولى عليّ عزائي
 عليّ ولا يَنْكِرُنْ طَوْلَ ثَوَائِي
 يميني وحتي رَيْطِي وَجِدَائِي^(٤)
 على قُبْلَةٍ أَوْ مَوْعِدِ بَلْقَاءِ
 تساقط نور من فوق سماء
 عليك، ولو غَطَّيْتَهَا بِغِطَاءِ
 وَفَضْلِ هَارُونََا عَلَى الْخَلْفَاءِ !
 وَمَا سَاسَ دُنْيَانَا أَبُو الْأَمْنَاءِ
 يُؤَمِّلُ رُؤْيَاهُ صَبَاحَ مَسَاءِ
 يُنَاطُ نِجَادًا سَيْفِهِ بِلَوَاءِ
 [الطويل]

لقد طال في رسم الديار بكائي
 كأني مُرِيغٌ فِي الدِّيَارِ طَرِيدَةٌ
 فَلَمَّا بَدَأَ لِي الْيَأْسُ عَدَيْتُ نَاقَتِي
 إِلَى بَيْتِ حَانَ لَا تَهْرُ كَلَابُهُ
 فَمَارُمْتُهُ حَتَّى أَتَى دُونَ مَا حَوْتُ
 وَكَأْسٍ كَمَصْبَاحِ السَّمَاءِ شَرِبْتُهَا
 أَتَتْ دَوْنَهَا الْأَيَّامُ حَتَّى كَانَتْهَا
 تَرَى ضَوْعَهَا مِنْ ظَاهِرِ الْبَيْتِ سَاطِعًا
 تَبَارَكَ مَنْ سَاسَ الْأُمُورَ بِقُدْرَةٍ
 نَرَاكَ يَخِيرُ مَا انْطَوَيْنَا عَلَى التُّقَى
 إِمَامٌ يَخَافُ اللَّهَ حَتَّى كَانَتْهَا
 أَشْمُ طُؤَالِ السَّاعِدِينَ كَانَتْهَا

فخلع عليه الرشيد ووصله بعشرة آلاف درهم، والفضلُ بِمَثَلِهَا؛ فنظر إلى جارية تختلف كأنها لؤلؤة، فقال: يا أمير المؤمنين، أنا ميتٌ في ليلتي هذه، فإذا ميتٌ فمره أن أدفن في بطن هذه الجارية! فقال له الرشيد: خذها لا بارك الله لك فيها!

قال أبو نواس: فأخذتها وانصرفتُ بِمَثَلِ الشَّمْسِ حَسَنًا، وفي منزلي غلامٌ مِثْلُ الْقَمَرِ، فلقيني محمد بن يسير^(٥) الشاعر، فقال: أتيتك مهنتًا بما حباك به أمير المؤمنين، فقلت: نعمة تتبعها نعمة! فقال: ولم ذاك؟ فقلت: عندي غلامٌ مِثْلُ الْقَمَرِ، وهذه مثل الشمس، وإن جمعتهما أَخْشَوْفَ مَا تَعْلَمُ.

(١) ديوانه ١٩٢، مع اختلاف في الرواية وترتيب الأبيات.

(٢) ديوانه ٦٢، وروايته: «لقد طال».

(٣) مريفة؛ من قولهم: أرأغ الصيد؛ إذا تبعه.

(٤) الرِيطة: الملازمة.

(٥) ط: «بشير» تصحيف.

وإن أفردت الجارية لم آمنَ عليها، وغلّامى لا بدّ منه. قلت: اجعلها عند بعض إخوانك إلى وقت حاجتك إليها. قلت: فلفل الحارس هو المتحرّس منه! قال: فصيرها عند عجوز تتيقّ بها. قلت: لعلّي أسترعى الذئب!

قال: ثم افترقنا، فالتقى معه أبو نواس بعد ثلاثة أيام، فقال له: يا محمد بن يسير، ما على الأرض شرّ منك! شاورتك في أمر فلم تفتح عليّ فيه شيئاً، فلما فارتكتك ازدحم عليّ الرأى المصيب. قال محمد: فماذا صنعت؟ قال: زوجت الشمس من القمر، فحصلتها لأقضى بها وطرى؛ قال: كان الشيء عليك حلالاً فجعلته حراماً، قال: يا أحمق، أشاورتك في الحلال والحرام! إنما قلت: كيف الرأى في تحصيلها؟ ثم أنشأ:

زوّجتُ هَذَاكَ بهيْزى لَكى أنكحُ ثنتينِ فثنتينِ
أنكحُ هذه مرةً ثم - ذا أديرُ رُمحاً بينَ صَفينِ
متعَتُ نفسى بهما لذةً يا من رأى مَطْلِعَ شمسينِ!

وحدثنا محمد بن أيوب بن جعفر بن سليمان وهو أمير البصرة، قال: كان بالبصرة رجل من بنى تميم، وكان شاعراً ظريفاً، وكنت أنسُ به، فأردتُ أن أخدعه^(١) [وأستزله]^(٢)، فقلت: يا أبا نزار، أنت شاعر وظريف، والمأمون أجودُّ من السحاب الحافل، والريح العاصف، فما يمنعك منه؟ قال: ما عندي ما أتحمّل به^(٣). قلت: أنا أعطيك نجيباً فارهاً، ونفقةً سابعةً؛ تخرُجُ إليه وقد امتدحتهُ، فإنك إن حظيتَ بلقائه صرتَ إلى أمنيّتك. قال: والله أيها الأمير، إنى لأظنك^(٤) صادقاً. قلت: أجل؛ فدعوتُ بنجيبيةً فارهيةً، فقال: هذه إحدى الحسنين^(٥)، فما بال الأخرى! فدعوتُ له بثلاثمائة درهم، فقال: وهذه الثانية، ثم قال: أحسبك أيها الأمير قصرتَ فى النفقة، قلت: لا، هى لك كافيةٌ إن قبضتَ يدك عن السرف. قال: ومتى رأيت السرف فى أكابر بنى سعد، فكيف فى أصاغرها! فأخذ النجيبية والنفقة، ثم عمل أرجوزة ليست بطويلة، فأنشدنيها وحذف منها ذكرى، فقلت له: ما صنعتَ شيئاً. قال: وكيف ذلك؟ قلت: تأتي الخليفة وأنت وافد، فلا تشنى على أميرك! قال: أيها الأمير، أردتُ أن تخدعنى فوجدتنى خداعاً، ولمثلها ضرب هذا المثل: «من يترك العيرَ يترك نائكا»، والله ما لكرامتى حملتنى، وجُدتُ لى بمالك الذى ما رامه أحد إلا جعل الله خده الأسفل، ولكن لأذكرك [فى شعرى، وأمدحك عند الخليفة، افهم هذا، قلت: صدقت، فقال: أما إذا أبديت ما فى ضميرك، فقد ذكرتك وأثبتت عليك]^(٦). قلت: فأنشدنى ما قلت، فأنشدنى:

(١) كذا فى الطبرى، وفى الأصول: «أنفمه».

(٢) من الطبرى.

(٣) الطبرى: «ما يقلى».

(٤) الطبرى: «ما إخالك أبعدت».

(٥) كذا فى الطبرى، وفى الأصول: الحسنين».

(٦) من الطبرى.

فقلت: أحسنت وأجدت^(١)، فتركتني وخرج حتى أتى الشام والمأمون بسلفوس^(٢). فأخبرني، قال: بينا أنا في غداة^(٣) قرّة، قد ركبت نجيبى، وليست أطمارى، وأنا أريد العسكر؛ فإذا أنا بكهّل على بغل فاره ما يقرّ قراره، ولا يدرك خطاه فتلقاني مكافحة ومواجهة وقال: السلام عليكم - بكلام جهورى، ولسان بسيط - فقلت: وعليكم السلام، فقال: قف إن شئت. فوقفت، فتصوّعت منه رائحة المسك الأذفر. فقال: بمن؟ قلت: رجل من مضر، قال: ونحن من مضر، ثم ماذا؟ قلت: من بني تميم، قال: وما بعدهم؟ قلت: من بني سعد. قال: هيه! فما أقدمك [هذا البلد]^(٤)؟ قلت: قصدت هذا الملك الذى ما سمعت بمثله أندى راحة ولا أوسع باحة، ولا أطول باعاً، ولا أمد يفاعاً^(٥) منه. قال: فما الذى قصدته به؟ قلت: شعر طيب، يلدّ على أفواه الرواة، ويحلو في آذان المستمعين. قال: فأنشدنيه. فغضبت^(٦) وقلت: ياركيك، أخبرك^(٧) أنى قصدت الخليفة بشعر قلته، ومديح حبرته، فتقول: أنشدنيه! فقال: وما الذى تأمل فيه؟ قلت: إن كان على ما ذكر لى فألف دينار، قال: أنا أعطيك ألف دينار إن رأيت الشعر جيداً، والكلام عذباً، وأضع عنك العناء وطول الترداد. متى تصل أنت إلى الخليفة [و]^(٨) بينك وبينه عشرة آلاف راح ونابل! قلت: فلى عليك عهد الله أن تفعل! قال: لك الله أن أفعل. قلت: ومعك مال؟ قال: بغلى هذا خير من ألف دينار، أنزل لك عن ظهره. قال: فغضبت وعارضتني مرة بنى سعد، وخفة أحلامها، وقلت: ما يساوى هذا البغل هذا النجيب! قال: فدع عنك هذا، ولك الله أن أعطيك ألف دينار، فأنشدته الأرجوزة، وقلت:

مأمون ياذا المن الشريفة صاحب المربة المنيفة
وقائد الكنية الكثيفة هل لك في أرجوزة ظريفه!
أظرف من فقه أبى حنيفة لا والذى أنت له خليفة
ما ظلمت في أرضنا عفيفه أميرنا شكته خفيفه^(٩)
وما اختبى شيئاً سوى الوظيفة فالذئب والنجعة في سقيفه

* واللص والتاجر في قطفه * [الرجز]

فوالله ما أتممت إنشادها حتى جاء زهاء عشرة آلاف فارس قد سدو الأفق، وهم يقولون:

(١) كذا في الطبرى: وفي تصويبات ط: «ولعنت».

(٢) سلفوس: حصن في بلاد الثغور بعد طرسوس (مراص: الاطلاع).

(٣) الطبرى «غزة»

(٤) من الطبرى.

(٥) الطبرى: «بفاع».

(٦) كذا في الطبرى، وفي ط: «فمضيت».

(٧) الطبرى: «أخبرتك».

(٨) من الطبرى.

(٩) الطبرى: «مؤتة».

السَّلام عليك يا أمير المؤمنين! فأخذني القلقُ، ونظر إلى بتلك الحالِ وشملي قد تبدد فقال: لا بأس عليك! قلتُ: يا أمير المؤمنين، أمعيرى أنت؟ قال: نعم، ثم التفت إلى خادم في جانبه وقال له: أعطه ما معك. فأخرج له كيسًا فيه ثلاثة آلاف دينار، وقال: هاك، سلامٌ عليك! فكان آخر العهد به^(١).

حدثنا إبراهيم بن عبد السلام، عن الحسين بن الضحاک، قال: دخلتُ أنا ومحمد بن عمرو الرومي دار المعتصم بالله، فخرج علينا كالجأ، فجاء إيتاخ^(٢) وقال: المهلون على الباب: مخارق، وعلوية، وفلان، وفلان. فقال: اعزب، عليك وعليهم لعنة الله! قال: فتبسمتُ إلى محمد وتبسم إلى، فقال المعتصم: مم تبسمت يا حسين؟ قلت: من شيء خطر لي. قال: هاته، فأنشدته:

إنف عن قلبك الحزنُ بدنو من السکن
وتمتع بكر طرُّ فك في وجهه الحسن^(٣)
[مجزوء الخفيف]

فدعا بالتمني دينار: ألف لي، وألف لمحمد بن عمرو. فقلت: يا أمير المؤمنين، الشعر لي، فبا معنى «ألف لمحمد»؟ قال: لأنه جاء معك. وأمر المهلين بالدخول، فأدخلوا؛ فما زال يومه ذاك يُنشد الشعر، ولقد قام يريد البول، فسمعتَه يردده^(٤).

قال أبو العيناء: أنشدني المعتصم يعقب مدح جرى ببغداد:

سقاني بعينيه كأس أهوى فظلتُ وبى منه مثل اللمم
بعيني مهابة تبينته وشنب عذاب وفرع أحم
[للتقارب]

قال أبو العيناء: فتوهمت أنه يعني سر من رأى، ويكنى عنها بذلك الكلام. فقلت: يا أمير المؤمنين، قال مروان في جدك:

قريش الأبلج ذو البهائم غيث العفاة في عد الأنواء
* وهم زمام الدولة الزهراء * [الرجز]

(١) الخير في تاريخ الطبري ٣: ١١٤٤ - ١١٤٨ (طبع أوروبا).

(٢) هو إيتاخ التركي المعتصم. كان غلاما خزريا لسلام الأبرش، فاشتره منه المعتصم، ثم رفعه، ومن بعده الوائق، وضا إليه من أعمال السلطان أعمالا كثيرة؛ وكل من أراد المعتصم أو الوائق أن يقتله قتله، وقتل بذلك كثيرين. ثم تولى الحكم بالديار المصرية من سنة ٢٣٠ - ٢٣٥، ثم كتب التوكل إلى إسحاق بن إبراهيم بن مصعب بالقبض عليه في الباطن إن أمكنه: فتحايل عليه إسحاق حتى قبض عليه وقيده بالحديد، وقتله عطشا سنة ٢٣٥. وانظر حواشي الأغاني ٧: ١٨٤ (طبعة الدار). (٣) بعده في الأغاني:

إن فيه شفاء صد رك من لاعج الحزن
(٤) الخير في الأغاني ٧: ١٨٥ (طبعة الدار).

فقال: قُلْ يا أبا عبد الله في مدح بني هاشم لك ولغيرك ، فلقد أصبتَ مقالاً، فأنشدته لمرّوان بن أبي حفصة:

إلى مَلِكِ بَدْرِ الدُّجَى عظيم الفناء ربيع الدُّعَمِ
قَرِيعِ نَزَارِ غَدَاةِ الفَخَارِ وَلَوْ شِئْتُ قَلْتُ جَمِيعَ الأَمَمِ
لَهُ كَفَّ جَوْدِ تَفِيدِ العِنَى وكف تبيدُ بسيفِ التَّقَمِ
[المقارب]

فقال: زدني، فأنشدته:

انتجعي يا ناقُ مَلِكِ غالبِ^(١) قريشَ بطحاءِ أولى الأهاضبِ
والرأسُ ممدودٌ على المناكبِ مدُّ القباطيِّ على المشاجِبِ
[الرجز]

فقال: زدني، فأنشدته:

يا قَطَبَ رَجْرَاجَةِ المَلْحَاءِ ومنزلَ البدرِ من السماءِ
* * * * * * * * *
[الرجز]

فقال: حسبك يا أبا عبد الله! ثم التفت إلى جارية بين يديه فقال: عشرَ بدر، ووصيفة وفرسًا، ومملوكًا وخمسين ثوبًا الساعة! فجيء بذلك كله، فأعطاه إياه وانصرف، فقال له الناس: يا أبا العيناء، ما هذا؟ قال: مال الله، عليايد عبد الله، الحمد لله، والشكر لأمير المؤمنين مادامت السماء، وما حملت مقلتاى الماء.

* * *

قال أحمد بن أبي طاهر: أخبرني مروان بن أبي الجنوب؛ قال: لما استخلف المتوكل بعثت إليه بقصيدة، مدحت فيها ابن أبي دؤاد، وفي آخرها بيتان ذكرتُ فيها ابن الزيات بين يدي ابن أبي دؤاد، وهما:

وقيل لى الزيات لاقى جمامهُ فقلتُ أتانى الله بالفتح والنصرا
لقد حفرَ الزياتُ بالغدرِ حُفْرَةً فألقى فيها بالخيانة والغدرا
[الطويل]

فلما صارت القصيدة في يدي ابن أبي دؤاد، ذكر ذلك للمتوكل، وأنشده البيتَين، قال: أحضرني، قال: هو باليمامة. قال: يحمل، قلتُ: عليه دين، قال: كم؟ قلتُ: ستة آلاف دينار. قال: يُعطاه، فأعطيتُ ذلك وحملتُ، وصرتُ إلى سرٍّ من رأى؛ وامتدحتُ المتوكلَ بقصيدةٍ أقول فيها:

رحلَ الشبابُ وليتهُ لم يرحلِ والشيبُ حلَّ وليتهُ لم يحلِ
[الكامل]

(١) في الأصلين: «ملوك».

فلما صرْتُ من القصيدة إلى هذين البيتين:
 كانتْ خِلافةَ جَعْفَرِ كِنْيَةٍ جاءتْ بلا طلب ولا بتبخل
 وهبَ الإلهُ له الخِلافةَ مثلما وهبَ النبوةَ للنبيِّ المرسلِ
 أمر لي بخمسين ألف درهم.

قال: وكان عليُّ بنُ الجَهْمِ يقع^(١) في مروانَ ويثلبه، حَسَدًا لمنزلتِهِ من أمير المؤمنين^(٢). فقال له المتوكلُ: يا عليُّ، أيُّكَ أشعر، [أنت أو مروان]^(٣)؟ قال: أنا أشعر منه. قال: ما تقول يا مروان؟ قال: إذا حَقَّقْتُ شعرك في أمير المؤمنين، لم أبال بمن زَيْف شعري. ثم التفت مروان إلى عليٍّ؛ فقال: يا عليُّ، أنت أشعر مني! قال: نعم، تشكُّ في ذا! قال: [نعم أشكُّ وأشكُّ وأ]^(٤) أمير المؤمنين بيني وبينك، قال: هو يحاييك، فقال المتوكلُ: هذا من عَيْبِكَ، ثم التفت إلى حمدون النديم، فقال: ذا حَكَمٌ بينكما، فقال: يا أمير المؤمنين. تركتني بين الحِجْرِي الأَسَدِ، قال: لا بدُّ أن تصدقني، قال: يا أمير المؤمنين، أعرههما في الشعر أشعرهما. فقال: المتوكلُ: يا مروان، هِجْءٌ، قال: لا أبذوه، ولكن يقول: فقال عليُّ: قد كظنتي التبيذ ولست أقدر أن أقول؛ قال مروان: لكنني أقول:

إِنَّ ابْنَ جَهْمٍ فِي الْمَغِيبِ يَعِيبُنِي ويقول لي حسنًا إذا لاقاني^(٥)
 وَإِذَا التَّقِينَا نَاكَ شِعْرِي شِعْرَهُ وَنَرَا عَلَى شَيْطَانِهِ شَيْطَانِي^(٦)
 إِنَّ ابْنَ جَهْمٍ لَيْسَ يَرْحَمُ أُمَّهُ لَوْ كَانَ يَرْحَمُهَا لِمَا عَادَانِي
 [الكامل]

فقال المتوكل: يا مروان، بحياتي لا تقصُر، فقال:
 يا عليُّ يا ابنَ بَدْرٍ^(٧) قلت أُمِّي قُرَشِيَّةٌ

(١) الأغاني «يطعن».

(٢) الأغاني: «ويثلبه حسدًا له على موضعه من المتوكل».

(٣) من الأغاني.

(٤) من الأغاني.

(٥) بعده في الأغاني:

صَفَرَتْ مَهَابَتُهُ وَعَظَّمَ بَطْنَهُ فكأنما في بطنه ولدان

(٦) في الأغاني: فضحك المتوكل والجلساء معه. وانخزل ابن الجهم؛ فلم يكن عنده أكثر من أن قال: جمع حيلة الرجال وحيلة النساء، فقال له المتوكل: هذا أيضا من عيبك وبردك؛ إن كان عندك شيء فهاته، فلم يأت بشيء. فقال لمروان: بحياتي إن حضرك شيء فهاته، ولا تقصُر في شتمك، فقال مروان:

لَعَنُوكَ مَا الْجَهْمُ بِنَ بَدْرٍ بِشَاعِرٍ وهذا عليُّ بعده يدعي الشعرا
 وَلَكِنْ أَبِي قَدْ كَانَ جَارًا لِأُمَّهُ فلما ادعى الأشعار أوهني أمرا

قال: فضحك المتوكل، وقال: زده بحياتي.. ثم ساق الأبيات.

(٧) الأغاني:

* يَا بَنَ بَدْرٍ يَا عَلِيَّةُ *

قَلْتُ مَا لَيْسَ بِحَقٍّ فَاسْكِي يَا نَبِيطِيَّةُ
 اسْكِي يَا بِنْتَ جَهْمِ اسْكِي يَا حَلْقِيَّةَ^(١)
 [مجزوء الرمل]

قال^(٢): فجعل المتوكل يضرب برجليه ويضحك، وأمر لي بألف دينار^(٣).

قال مروان: صرت إلى المتوكل فقلت:

سقى الله نجدًا والسَّلامُ على نجدٍ
 نظرتُ إلى نجدٍ وبغدادٍ دونها
 ونجدٌ بها قومٌ هواهم زيارتي
 وياحيدًا نجدًا على القرب والبعد!
 لعلِّي أرى نجدًا، وهيهات من نجد!
 ولا شيء أحلى من زيارتهم عندي
 [الطويل]

قال: فلما أتممت إنشادها أمر لي بعشرين ومائة ألف درهم وخمسين ثوبًا وثلاثة من الظهور:
 فرسٍ وبغلةٍ وحمارًا، فما برحتُ حتى قلتُ في شكره:

تخَيْرُ رَبُّ النَّاسِ لِلنَّاسِ جَعْفَرًا فَمَلَّكَ أَمْرَ الْعَبَّادِ تَخَيْرًا
 [الطويل]

فلما صرت إلى هذا البيت:

فَأَمْسِكْ نَدَى كَفَيْكَ عَنِّي وَلَا تَزِدْ
 فَقَدْ خَفْتُ أَنْ أُطْفِئَ وَأَنْ أُتَجَبَّرَا

قال: لا، والله لا أمسك حتى أغرقك بجودي، ولا تبرح أو تسأل حاجة. قلت: يا أمير المؤمنين،
 الضيقة التي أمرت بإقطاعي إياها من اليمامة، ذكر ابن المدبّر أنها وقف من المعتصم. قال: فإني
 أقبلتها^(٤) بخراج درهم، قلت: لا يحسن أن يؤدى درهم. فقال ابن المدبّر: فألف درهم. قلت: نعم،
 فأمضاها لي: ثم قال: ليست هذه حاجة؛ قلت: فضياعى التي كانت لي وحال ابن الزيات بيني
 وبينها، فأمر بردّها^(٥).

(١) يقال: أتان حلقية، إذا تداولتها الحمر فأصابها داء في رحها.
 (٢) في الأغاني: «فأخذ عبادة هذه الأبيات فغناها على الطبل وجاوبه من كان يقف، والمتوكل يضحك ويضرب بيديه
 ورجليه؛ وعلى مطرق كأنه ميت، ثم قال: على بالدواة. فأق بها فكتب:

بلاءٌ ليس يشبهه بلاءٌ
 يبيعهك منه عرضًا لم تصنه
 عداوةٌ غير ندى حسبٍ ودينٍ
 ويرثع منك في عرضٍ مضمونٍ
 [الوافر]

(٣) الخبر بتمامه في الأغاني ١٢: ٨١ - ٨٣ (طبعة الدار).

(٤) أقبلتها: أى ضمنتها لك والتزمت بذلك، والاسم القبالة.

(٥) الخبر في الأغاني ١٢: ٨٠، ٨١ مع اختلاف في العبارة.

قال: وقال أبو يعقوب الخطابي: كنت جالساً عند معن بن زائدة، وإذا عليه إزار يساوي أربعة دراهم، فقال: يا أبا يعقوب، هذا إزاري؛ وقد قسمت العام في قومك خاصة أربعين ألف دينار. فبينما نحن نتحدث؛ إذا أبصر أعرابياً يحطّ به الآل من خوخة مشرفة له على الصحراء، فقال لحاجبه: إن كان هذا يريدنا فأدخله، فدخل الأعرابي وسلّم؛ وأنشأ يقول:

أصلحك الله قلّ ما بيدي فلا أطيق العيال إذ كنروا
البحّ دهرٌ رمى بكلكله فأرسلوني إليك وانتظروا
[المنسرح]

قال: فاضطرب وقال: أرسلوك وانتظروا! يا غلام، ما فعل بغلتنا الفلانية؟ قال: حاضرة، قال كم: هي؟ قال: ألف دينار، قال: اطرحها إليه، ثم قال: اذهب إليهم بما معك، ثم إذا احتجت فارجع.

وعن أبي يعقوب الخطابي قال: دخل أعرابيّ معه ظبيّ صغير^(١) في نطع إلى معن بن زائدة، وقال:

سميت معناً بمعن ثم قلت له هذا سميت امرئ في الناس محمود
أنت الجواد ومنك الجود أوله لابل يمينك منها صورة الجود
[البيسط]

فأعطاه ألف دينار.

قال: ودخل يزيد بن مزيد مسجداً باليمن، فوجد في قبلته مكتوباً:

مضى معن وخلائي ببني على معن بن زائدة السلام
[الوافر]

فسأل عن قائله، فإذا هو معهم، فقال: يا غلام، أمعك شيء؟ قال: نعم. ألف دينار، قال: فادفعها إليه، فخرج الرجل وهو يقول: رحم الله أبا الوليد! وصلني حياً وميتاً.

وحدثنا جعفر بن منصور بن المهدي قال: حدثني أبي قال: حجّ المهدي فتزل زباله^(٢)، فدخل حسين بن مطير الأسدي عليه، فقال:

أضحت يمينك من جود مصورة لا بل يمينك منها صورة الجود
من حسن وجهك تضحى الأرض مشرقة ومن بنائك يجرى الماء في العود
[البيسط]

(٢) زباله: موضع بطريق مكة.

(١) ك: «ومعه صبي».

فقال له المهدي: كذبت! قال: ولم ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: لقولك في معن بن زائدة:

| | |
|---|---|
| سَقَتَكَ الْغَوَادِي مَرَبَعًا ثُمَّ مَرَبَعًا ^(١) | أَلْمَا عَلَى مَعْنٍ وَقُولًا لَقَبْرِهِ |
| وَقَدْ كَانَ مِنْهُ الْبِرُّ وَالْبَحْرُ مَرَعًا! | فِيَا قَبْرٍ مَعْنٍ كَيْفَ وَارَيْتَ جُودَهُ |
| وَأَصْبَحَ عِرْنَيْنُ الْمَكَارِمِ أَجْدَعًا | فَلَمَّا مَضَى مَعْنُ مَضَى الْجُودُ وَانْقَضَى |
| فَقَدْ أَصْبَحَتْ قَفْرًا مِنَ الْجُودِ بَلَقَعًا | فَكُنْتُ لِدَارِ الْجُودِ يَا مَعْنُ عَامرًا |
| وَإِنْ كَانَ قَدْ لَاقَى جِمَامًا وَمِصْرَعًا | أَبِي ذَكَرَ مَعْنُ أَنْ يُمَيِّتَ فِعَالَهُ |
| كَمَا كَانَ بَعْدَ السَّيْلِ مَجْرَاهُ مَرْتَعًا | فَتَى عَيْشٍ فِي مَعْرُوفِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ |

[الطويل]

فقال: يا أمير المؤمنين، إنما معنٌ حسنةٌ من حسناتك، وفعلته من فعلاتك، فأمر له بألف دينار، ثم قال: سل حاجتك، فقال:

| | |
|--|--|
| وَتَغَيَّبُ فِيهِ وَهُوَ جَعْدٌ أَسْحَمُ | بِيضَاءُ تَسْحَبُ مِنْ قِيَامِ فَرَعَهَا |
| وَكَأَنَّهُ لَيْلٌ عَلَيْهَا مَظْلُمٌ | فَكَأَنَّهَا فِيهِ نَهَارٌ مَشْرِقٌ |

[الكامل]

قال: خذ بيدها - لجارية كانت على رأسه^(٢) - فأولدها مطير بن الحسين بن مطير.
قال: ودخل مروان بن أبي حفصة على جعفر بن يحيى يسأله إيصاله إلى الرشيد، وأنه قد مدحه بقصيدة ينشدها إياه، وقد كان جعفر وصله بثلاثين ألف درهم، كتب له بها إلى صالح الصيرفي، وكانت فيها دراهم طبرية؛ فقال:

| | |
|--|---|
| دَعَا لِي بِهَا لَمَّا رَأَى الصُّكَّ صَالِحُ ^(١) | ثَلَاثُونَ أَلْفًا كُلُّهَا طَبْرِيَّةٌ |
| عَطَاءُ أَبِي الْفَضْلِ الْجِيَادِ الرَّوَاجِحُ ^(٢) | دَعَا بِالزُّيُوفِ النَّاقِصَاتِ وَإِنَّمَا |
| أَلْجُدُ هَذَا مِنْكَ أَمْ أَنْتَ مَا زَحُ؟ | فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا دَعَا بِزُيُوفِهِ: |

فلما أنشد ذلك جعفرًا ضحك، وقال: أنشدني مرثيتك في معن بن زائدة، فأنشده:

| | |
|---------------------------------------|--|
| كَانَ الشَّمْسُ يَوْمَ أَصِيبَ مَعْنُ | مِنَ الظُّلَمَاءِ مُلْبَسَةً جِلَالًا |
| وَكَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ لَمَعِينَ | إِلَى أَنْ زَارَ حُفْرَتَهُ - عِيَالًا |

[الوافر]

فقال جعفر: هل أتاك على هذه المرثية أحدٌ من ولده وأهله؟ قال: لا، فلو كان حيًّا ثم سمعها منك بكم كان يُشيبك؟ قال: بأربعمائة دينار، قال: أظنُّ أنه كان لا يرضاه لك. قد أمرنا لك عن

(١) ديوان الحماسة بشرح التبريزي ٢: ٣٩٢، مع اختلاف في الرواية وعدد الأبيات.

(٢) ك: «وكان على رأس المهدي جارية فقال له: خذ بيدها، فأخذها».

(٣) في الأصول: «دعاني».

(٤) زيوف: جمع زائف؛ وهو الدرهم الرديء المردود لغش فيه.

معن بأربعة كما ظننت، وزدناك^(١) مثلها كما ظنناه به فيك، فأغد على الخازن لقبضا منه.
قال^(٢): ودخل أعرابي على داود بن يزيد^(٣) بالسند، فقال: أيها الأمير، تأهب لمديحي؛ فتأهب،
ثم قال: لئن أحسنت لأحسنن إليك، ولئن أسأت لأردن شعرك عليك، فقال:

أَينْتُ بداوِدٍ وجودِ يمينِهِ مَن الحدِثِ المخشِي والبؤسِ والفقرِ
وأصبحتُ لا أخشى بداوِدَ نبوةً ولاحدَ ثانا إذ شدتُ به أزرِي^(٤)
فما طلحةُ الطلحاتِ ساواه في الندى ولا حاتمُ الطائي ولا خالدُ القسري
له حُكْمُ لقمانِ وصورةُ يوسفٍ ومُلكُ سليمانِ وصدقُ أبي بكرِ
فتى تهربُ الأموالُ من طَلِّ كفه كما يهربُ الشيطانُ من ليلةِ القدرِ^(٥)
[الطويل]

فقال: يا أعرابي، أحسنت فاحتكم، وإن شئت فاردد الحكم إلي. فقال: ما عند الأمير ما يسعه
حكمه، فقال: أنت في هذا أشعر، وأمر له بعشرة آلاف درهم.

قال: ودخل محمد بن الجهم على المأمون، فقال: أنشدني أحسن ما سمعته في المديح، فقال: نعم
يا أمير المؤمنين، قوله:

تَجوُدُ بالنفسِ إذ ضَنَّ الجوادُ بها والجوُدُ بالنفسِ أقصى غايةِ الجودِ^(٦)
[البيسط]

فقال: أنشدني أحيث ما سمعته في الهجو، فقال: قوله:

قَبِحتُ مناظرَهُم فحين خَبَرْتَهُم حَسنتُ مناظرَهُم لقبِحِ المخبرِ^(٧)
[الكامل]

قال: فأنشدني أحسن ما سمعته في المراثي، فقال: قوله:

أرادوا ليخفوا قبرَهُ عن عدوِّهِ فطِيبُ ترابِ القبرِ دلُّ على القبرِ^(٨)
[الطويل]

ومثله أيضاً:

على قبرِهِ بين القبورِ مهابةٌ كما قبلَهُ كانت على ساكنِ القبرِ
[الطويل]

(٥) العقد: «من جود كفه».

(٦) لمسلم بن الوليد، ديوانه ١٦٤.

(٧) لمسلم بن الوليد، ديوانه ٣٢١.

(٨) لمسلم بن الوليد، ديوانه ٣٢٠.

(١) ل: «وزودناك».

(٢) ك: «قبيل».

(٣) الخبر في العقد ١: ٢٨٩؛ وفيه «داود بن المهلب».

(٤) العقد: «من الحدتان إذ شدت».

قال: فَأَنْشِدْنِي أَحْسَنَ مَا سَمِعْتَهُ فِي الْفَزْلِ، قال: قوله:
 حُبُّ مُحَمَّدٍ وَحَبِيبٍ يَلْعَبُ وَأَنْتَ مُلْقَى بَيْنَهُمْ مُعَذِّبٌ (١)
 [الكامل]

فاستحسن الأبيات، ثم أمر بتقليدي الصَّيْمِرَةَ وَالسَّيْرَانَ ومهرجان قذق، والدُّبْنُورَ ونهاوند.
 فانصرفتُ من عنده بولاية الجبل.

مساوى منع الشعراء والبخل

قيل: كان أبو عطاء السندی بيباب أمير المؤمنين أبي العباس، وبنو هاشم يدخلون ويخرجون، فقال:

إن الخيار من البرية هاشمٌ وبنو أمية عودهم من خروغ
وبنو أمية عودهم من خروغ ولهاشم في المجد عود نضار
أما الدعاء إلى الجنان فهاشمٌ وبنو أمية من دعاة النار
وبهاشم زكت البلاد وأعشبت وبنو أمية كالسراب الجارى

فلم يؤذن في الدخول على أبي العباس، ولم يصله أحد من بني هاشم، فولى وهو يقول:
يأليت جور بني مروان عاد لنا وأن عدل بني العباس في النار

قال: وقال المؤمل المحاربى: شخصت إلى المهدي؛ وهو بالرئى، فامتدحته فأمر لى بعشرين ألف درهم، فرُفع الخبر إلى المنصور، فبعث قائداً إلى جسر النهروان يستقري^(١) القوافل، فلما وردت عليه قال: من أنت؟ قلت: أنا المؤمل، أقبلت من عند الأمير من الرئى، فقال: إياك أردت، ثم أخذ بيدي فأدخلني على المنصور وهو بيباب الذهب، فقال: أتيت غلاماً غراً فخدعته فقلت: بل أتيت غلاماً غراً كريماً فخدعته فانخدع. فقال: أنشدني ما قلته فيه، فأنشدته:

هو المهدي إلا أن فيه مشابه صورة القمر المنير
تشابه ذا وذا فهما إذا ما أنارا يشكلان على البصير
فهذا في الظلام سراج ليل^(٢) وهذا بالنهار سراج نور
ولكن فضل الرحمن هذا على ذا بالنهار والسريير
وبالملك العزيز فذا أميرٌ وما ذا بالأمير ولا الوزير
ونقص الشهر يحمّد ذا وهذا^(٣) منيرٌ عند نقصان الشهر
فيا بن خليفة الله المصفي به تعلق مفاخرة الفخور
لئن فت الملوك وقد توافقوا إليك من السهولة والوعور
لقد سبق الملوك أبوك حتى تراهم بين كاب أو أسير^(٤)
وجئت وراءه تجرى حثيثاً وما بك حين تجرى من فتور

(٣) أمال الزجاجي: «نعل».

(٤) أمال الزجاجي: «بقوا من بين كاب».

(١) ط: «يستبرئ».

(٢) أمال الزجاجي: «نار».

فقال الناس: ما هذان إلا كما بين الخلق إلى الجدير^(١)
فإن بلغ الصغير مدى كبير فقد خلق الصغير من الكبير

فقال: ما أحسن ما قلت! ولكن لا يساوى ما أخذت. يا ربيع، خذ منه ستة عشر ألفاً، وخله وما سواها. قال: فحط والله الربيع ثقل^(٢) حتى أخذ مني ستة عشر ألفاً، فما بقيت معي إلا نفقة، فأليت على نفسي ألا أدخل العراق وللمنصور بها ولاية. فلما بلغني موت المنصور، واستخلاف المهديّ قدمت بغداد؛ وقد جعل المهديّ على المظالم رجلاً يقال له: ابن ثوبان، فرفعت إليه قصة أذكر فيها خبري، فعرضها على المهديّ، فضحك حتى استلقى وقال: هذه مظلمة أنا بها عارف، ردوا عليه ماله، وزيدوا له عشرين ألفاً. فأخذتها وانصرفت^(٣).

قيل: ودخل عونٌ على عمر بن عبد العزيز، فقال: يا أمير المؤمنين، هذا جريرٌ بالباب يريد الدخول عليك فقال عمر: ما أدري أن أحداً من أمة محمد صلى الله عليه وسلمٍ يحجب عني! قال: إنه يريد إذناً خاصاً، قال: أدخله، فخرج عونٌ وأخذ بيده فأدخله، فشكا إليه طول المقام وشدة الحال، وإلحاح الزمان، وجهد العيال، وسأله أن يأذن له في إنشاده شعراً، فقال: إن أمير المؤمنين لفي شغل عن الشعر، فقال: إنها رسالةٌ من أهل الحجاز، قال: هاتها، فقال:

قد طال قولي إذا ما كنت مجتهداً
خليفة الله ثم الله يحفظه
إنا نرجو إذا ما ألقيت أخلقنا
نال الخلافة إذ كانت له قدرًا^(٤)
مازلت بعدك في دار تورقني^(٥)
أذكر الجهد والبلوى التي نزلت
كم بالمواسم من شعناء أرملة
أمسى حزينا يبكي فقد والده
إن نسه عنه فمن يرجو لفاقته

يارب عاف قوام الدين والبشر^(٤)
عند المقام وإما كان في السفر
من الخليفة ما نرجو من المطر
كما أتى ربه موسى على قدر
قد طال في الحى إصعادي ومنحدري
أم قد كفاني الذي نبئت من خبري
ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر!
كالفرخ في العش لم ينهض ولم يطير
أوتنح منها فقد أنحيت من ضرر!

(١) أمالي الزجاجي: «بمتزلة الخلق».

(٢) كذا في الطبري والأغاني والزجاجي، وفي الأصول: «بغلي».

(٣) الخبر مع اختلاف في الرواية، في الأغاني ١٩: ١٤٧، ١٤٩، وأمالي الزجاجي ٦٠ - ٦٢، وتاريخ الطبري ٣: ٤٠٦ - ٤٠٨ (طبع أوربا).

(٤) ديوانه ٢٧٤ - ٢٧٦، ومظلمها:

لجئت أمانة في لومي وما علمت
عرض السناوة روحاتي ولا بكري

وأبيات منها مع الخبر في الأغاني ٨: ٤٧ - ٤٩ (طبعة الدار) مع اختلاف في الروايات.

(٥) كذا في الديوان والأغاني، وفي ط: «بذ الخلافة أم كانت».

(٦) الأغاني والديوان: «تعرقتي» أي تفقره ولا تترك له شيئاً.

أنت المبارك والمهدى سيرته
ما ينفع الحاضر المجهود باديتنا
هذه الأرامل قد قضيت حاجتها
الخير ما دمت لا يفارقنا
تعصى الهوى وتقوم الليل بالسور
ولا يعوذ لنا باد على حصر
فمن الحاجة هذا الأزل الذكر
بوركت يا عمر الخيرات من عمر

فبكى عمر، ثم رفع رأسه، وقال: ما حاجتك يا جرير؟ قال: حاجتي ما عودتني الخلفاء قبلك
قال: وما ذاك؟ قال: أربعائة من الإبل برعاتها وتوابعها من الحملان والكسي. قال له عمر: أمن
المهاجرين أنت؟ قال: لا، قال: فمن الأنصار؟ قال: لا، قال: فممن أنت؟ قال: من التابعين
بإحسان. قال: إذن نجرى عليك كما نجرى على مثلك، قال: فإني لا أريد ذاك، قال: فما أرى لك في
بيت المال حقاً، قال: إنما جئت أسألك من مالك، قال: فإن لى كسوة ونفقة وأنا أقاسمكما،
قال: بل أوترك وأحمدك يا أمير المؤمنين. فانصرف من عنده وهو يقول:

وجدت رقى الشيطان لا تستفزه
وقد كان شيطاني من الجن راقياً^(١)
[الطويل]

ولبعض الشعراء في مثله:

إن حراماً قبول مدحتنا
كما الدنانير والدرهم في الصر
ومنع ما يُرتجى من الصدف
ف حرام إلا يدا بيد

* * *

أبو نجدة في مثله:

فلما أن بلوناك ولم تلقك بالناشط
أطعنا فيك ميموناً فصورك في الحانط
إذا لم تك نقاعاً فانت النازح الشاحط
سواء أنت في عيني بجى كنت أم واسطاً^(٢)

* * *

وروى في الحديث قال: «لا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبداً». ويقولون: الشحيح أعذر من الظالم، وأقسم الله جل وعز بعزته لا يساكنه بخيل.
وقال النبي ﷺ: «من فتح له باب من الخير فلينتهزه، فإنه لا يدري متى يغلق عليه». وقال الشاعر في ذلك:

ليس في كل ساعة وأوان
تتهيأ صنائع الإحسان

(١) قبله:

تركت لكم بالشام حبل جماعية أمين القوى مستعيد العقيد بأكيا
(٢) جى: اسم مدينة أصبهان القديمة، وواسط: مدينة بين الكوفة والبصرة، وفي ط: «بجى» تصحيف.

فإذا أمكنت تقدمت فيها حذراً من تعذر الإمكان
[الخفيف]

* * *

وسئل بعض الحكماء: من أكيس الناس في زماننا؟ فقال: ابن أبي دواد حيث يقول فيه الشاعر:
بدا حين أترى بإخوانه ففَلَّ عَنْهُمْ عَنْهُمْ شِبَاةَ الْعَدَمِ
وحذره الحزمُ صَرَفَ الزَّمانِ فبَادَرَ قَبْلَ انْتِقَالِ النِّعَمِ
فليس وإن يَخِلَ الباخلو ن يقرَعُ سِنًا لَهُ مِنْ نَدَمِ
ولا يَنْكُتُ الأَرْضَ عند السؤالِ لِيَمْنَعَ سُؤالَهُ عَن نَعَمِ
ولكن يُرَى مُشرقًا وجهُهُ لِيَرْتَعَ فِي مالِهِ مَنْ عَدِمِ
[المتقارب]

وفصل لبعضهم في هذا المعنى:

إنَّ لآيَامِ القُدْرَةِ على الخَيْرِ غنائمَ فاصطنعها ما دامت راهنةً لديك وأنت منها متمكِّنٌ؛ قبل أن
تتفضى عنك.

* * *

وفي المثل السائر في البُخل: «هو أبخل من مادر»، وهو رجل من بني هلال بن عامر، بلغ من
بخله أنه سقى إبله فبقى في أسنل الحوض ماءً قليل، فسَلَحَ فيه ومدّر الحوض^(١). فسَمَى مادراً.

* * *

وذكروا أن بني فزارة، وبني هلال تنافروا إلى أنس بن مُدرك وتراضوا به، فقالت بنو هلال:
يا بني فزارة، أكلتم أيرَ الحمار، فقال بنو فزارة: [أكلناه] و^(٢) لم نعرفه. وكان سبب ذلك، أن
ثلاثة أنفار اصطحبوا: فزارى وتغلبى، وكلابى، فصادوا حماراً وحشاً، فمضى الفزارى في بعض
حوادثه، فطبخاه، وأكلاه، وخبأ للفزارى أيرَ الحمار، فلما رجع قال له: قد خبأنا لك فكل، فأقبل
يأكل ولا [يكاد]^(٣) يُسيفه، فيجملًا يضحكان، ففطن وأخذ السيفَ وقام إليهما، فقال لهما: إن
أكلتُمَا^(٤) وإلا قتلتما. فامتعا؛ فضرب أحدهما فأبان رأسه وتناولهُ الآخر فأكل منه، فقال فيهم
الشاعر:

نَشَدْتِكَ يَا فِزارَ وَأَنْتَ شَيْخُ إِذَا خَيْرَتَ تَخْطِئُ فِي الخِيارِ
أصِحْبَانِيَّةَ أَدَمْتَ بِسَمْنِ^(٤) أَحَبُّ إِلَيْكَ أَمْ أَيْرُ الحِمَارِ

(١) مدر الحوض: وضع فيه القدر.

(٢) من جمع الأمثال.

(٣) جمع الأمثال: «لتأكلناه أو لأقتلنا».

(٤) الصحنى: ضرب من تمر المدينة أسود صلب المضغة، نسب إلى صحن، وهو كيش كان يربط إلى نخل المدينة.

بلى أَيْرُ الحِمَارِ وَخُصِيَتَاهُ أَحَبُّ إِلَى فِرَارَةٍ مِنْ فِرَارِ^(١)
[الوافر]

فَقَالَتْ بَنُو فِرَارَةٍ: مِنْكُمْ يَا بَنِي هَلَالٍ مِنْ سَقَى إِلَيْهِ، فَلَمَّا رَوَيْتُ سَلَحَ فِي الْحَوْضِ وَمَدَّرَهُ بُخْلًا.
فَقَضَى أَنَسُ بْنُ مُدْرِكٍ عَلَى الْهَلَالِيِّينَ، وَأَخَذَ الْفِرَارِيُّونَ مِنْهُمْ مَائَةَ بَعِيرٍ، وَكَانُوا تَرَاهُنَا عَلَيْهَا^(٢).
وَفِي بَنِي هَلَالٍ يَقُولُ الشَّاعِرُ:

لَقَدْ جَلَّلْتُ خِزْيًا هَلَالُ بْنُ عَامِرٍ بَنِي عَامِرٍ طُرًّا بِسَلْحَةٍ مَادِرِ^(٣)
فَأَفَّ لَكُمْ لَا تَذْكُرُوا الْفَخْرَ بَعْدَهَا بَنِي عَامِرٍ، أَنْتُمْ شِرَارُ الْمَعَاشِرِ
[الطويل]

وَفِي الْمَثَلِ: «هُوَ أَبْخَلُّ مِنْ نَارِ الْحُبَابِ»، وَهُوَ رَجُلٌ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، مِنْ يُخْلَهُ أَنَّهُ كَانَ
يُسْرِجُ السَّرَاجَ، فَإِذَا أَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَأْخُذَ^(٤) مِنْهُ أَطْفَاءً؛ فَضْرَبَ بِهِ الْمَثَلَ^(٥).

وَمِنْهُمْ صَاحِبُ نَجِيحِ بْنِ سُلَيْفِ الْيَرْبُوعِيِّ، فَإِنَّهُ ذَكَرَ أَنْ نَجِيحًا خَرَجَ يَوْمًا إِلَى الصَّيْدِ، فَعَرَضَ
لَهُ حِمَارٌ وَحِشٌّ، فَاتَّبَعَهُ حَتَّى دَفَعَ إِلَى أَكْمَةٍ، فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ أَعْمَى أَسْوَدَ قَاعِدٍ، فِي أَطْمَارٍ، بَيْنَ يَدَيْهِ
ذَهَبٌ وَفِضَّةٌ وَدُرٌّ وَيَاقُوتٌ، فَدَنَا مِنْهُ نَجِيحٌ فَتَنَاوَلَ مِنْهَا بَعْضَهَا، فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَحْرُكَ يَدَهُ حَتَّى أَلْقَاهَا،
فَقَالَ: يَا هَذَا، مَا الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ؟ وَكَيْفَ تَسْتَطِيعُ حَمَلَهُ؟ أَلَمْكَ هُوَ أَمْ لَغَيْرِكَ؟ فَإِنِّي أَعْجَبُ
مِمَّا أَرَى؛ أَجَوَادٌ أَنْتَ فَتَجُودُ لَنَا، أَمْ بِخَيْلٍ فَأَعْدِرُكَ؟ فَقَالَ الْأَعْمَى: كَيْفَ تَطْلُبُ مَالَ رَجُلٍ قَدْ غَابَ
مِنْذُ سِتِّينَ؛ وَهُوَ سَعْدُ بْنُ خَشْرَمِ بْنِ شَمَّاسٍ، فَأَتَيْتُ بِسَعْدٍ يَعْطُكَ مَا تَشَاءُ.

فَانْطَلَقَ نَجِيحٌ مَسْرِعًا قَدْ اسْتَطِيرَ فَوَادُهُ حَتَّى وَصَلَ إِلَى مَحَلَّتِهِ، وَدَخَلَ خِيَابَهُ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ وَنَامَ
لَمَّا بِهِ مِنَ الْغَمِّ، لَا يَدْرِي مَنْ سَعْدٌ فَأَتَاهُ آتٌ فِي مَنَامِهِ فَقَالَ لَهُ: يَا نَجِيحُ، إِنَّ سَعْدَ بْنَ خَشْرَمٍ فِي
حَيِّ مَحَلِّمْ، مِنْ وَلَدِ ذُهَلِ بْنِ شَيْبَانَ. فَخَرَجَ وَسَأَلَ عَنِ بَنِي مَحَلِّمْ، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ خَشْرَمٍ، فَإِذَا هُوَ
بِشَيْخٍ قَاعِدٍ عَلَى بَابِ خِيَابِهِ، فَحَيَّاهُ نَجِيحٌ، فَرَدَّ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ نَجِيحٌ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: خَشْرَمُ بْنُ
شَمَّاسٍ؛ قَالَ: وَأَيْنَ ابْنُكَ؟ قَالَ: خَرَجَ فِي طَلْبِ نَجِيحِ بْنِ سُلَيْفِ الْيَرْبُوعِيِّ، وَذَلِكَ أَنْ آتِيًا أَتَاهُ فِي
مَنَامِهِ فَحَدَّثَهُ أَنَّ مَالًا فِي نَوَاحِي بَنِي يَرْبُوعٍ، لَا يَعْلَمُ بِهِ إِلَّا نَجِيحٌ، فَضْرَبَ نَجِيحٌ بَطْنَ فَرَسِهِ وَهُوَ
يَقُولُ:

أَيْطَلْبُنِي مَنْ قَدْ عَنَانِي طَلَابُهُ فَيَالِيَتَنِي أَلْفَاكَ سَعْدُ بْنُ خَشْرَمٍ؛
أَتَيْتُ بَنِي يَرْبُوعٍ تَطْلُبُنِي بِهِ وَقَدْ جِئْتُ كَيْ أَلْفَاكَ حَيِّ مَحَلِّمْ

[الطويل]

(١) فِي مَجْمَعِ الْأَمْثَالِ: «فَحَذَفَ الْهَاءَ مِنْ فِرَارَةٍ كَمَا تَحذف فِي التَّرخِيمِ، وَإِنْ كَانَ هَذَا فِي غَيْرِ النَّدَاءِ».

(٢) الْخَبِيرُ فِي مَجْمَعِ الْأَمْثَالِ لِلْمِيدَانِيِّ ١: ١١٢، وَالْمَحَاسِنُ وَالْأَضْدَادُ ٨٧، ٨٨.

(٣) مَجْمَعِ الْأَمْثَالِ ١: ١١٢.

(٤) ك: «يَسْرِجُ مِنْهُ إِنْسَانٌ».

(٥) الْمَحَاسِنُ وَالْأَضْدَادُ ٨٧.

فلما دنا من محلته استقبل سعدًا فقال له: أيها الراكب، هل لقيت سعدًا في بني يربوع؟ قال: أنا سعد فهل تدلّ على نجيح! قال: أنا نجيح، وحديثه بالحديث؛ ثم قال: الدالّ على الخير كفاعله - وهو أول من قاله - فانطلقا حتى أتيا ذلك المكان، فتوارى الرجل حين أبصرهما، وترك المال، فأخذ سعد كلّه، فقال له نجيح: يا سعد، قاسمّني، فقال له: اطو عن مالي كَشْحًا. وأبى أن يعطيه، فانتضى نجيح سيفه، فجعل يضربه حتى برد، فلما وقع قتيلًا تحوّل الرجل الحافظ للمال سعادةً فأسرع في أكل سعد، وعاد المال إلى مكانه، فلما رأى نجيح ذلك، ولى هاربا إلى قومه^(١).

* * *

قال: وكان أبو عُميس بخيلًا، فكان إذا وقع الدرهم في يده نقره بإصبعه، ثم يقول له: كم من مدينة قد دخلتها، ويد قد وقعت فيها! والآن استقرّ بك القرار، واطمأنت بك الدار، ثم يرمى به في صندوقه، فيكون ذلك آخر العهد به.

قيل: ونظر سليمان بن مزاحم إلى درهم فقال: في شقّ «لا إله إلا الله»، وفي شقّ: «محمد رسول الله» ﷺ، ما ينبغي أن يكون هذا إلا معاذة؛ وقدّفه في صندوقه^(٢).

* * *

وذكروا أنه كان بالريّ عاملٌ على الخراج يقال له: المسيّب، فأتاه شاعرٌ فامتدّحه فسعل سعلًا فصرط، فأنشأ الشاعر يقول:

أتيتُ المسيّبَ في حاجةٍ فما زال يسعلُ حتى صرطُ
فقال غلطنًا حسابَ الخراجِ فقلتُ: من الصرطِ جاء الغلطُ
[المقارب]

فولّع به الصبيان، فكان كلّمًا مرًّا قالوا: «من الصرطِ جاء الغلط»، فما زالوا يقولون ذلك حتى هرب منها من غير عزّل^(٣).

* * *

وكان أبو الأسود اللؤلؤي بخيلًا، وهو القائل لبنيه: لا تجاودوا الله، فإنه أجود وأجمد، ولو شاء أن يوسع على الناس كلهم حتى لا يكون فقير لفعل.

وسمع رجلًا يقول: من يعشى الجائع؟ فعشاه ثم ذهب ليخرج، فقال: هيهات! تخرج فتؤذى غيرى من المسلمين كما أذيتنى! ووضع رجله في الأدهم حتى أصبح^(٤).

قال: وكان رجل يأتي ابن المقفع فيلج عليه ويسأله الغداء عنده، فيقول: لعلك تظن أني أتكلّف

(١) الخير في المحاسن والأضداد ٨٨ - ٩٠ ومحاضرة الأبرار ١: ٢٥٨.

(٢) المحاسن والأضداد ٩٠ ومحاضرة الأبرار: ٢٥٨.

(٣) المحاسن والأضداد ٩٠: ٩١.

(٤) المحاسن والأضداد ٩٠.

لك شيئا، والله لا أقدم إليك إلا ما عندي. فلما أتاه إذا ليس في بيته إلا كسر يابسة، وملح جريش، وجاء سائل إلى الباب فقال: وسع الله عليك! فلم يذهب. فقال: والله لئن خرجت إليك لأدقن ساك. فقال ابن المقفع للسائل. لو عرفت من صدق وعيده ما أعرف من صدق وعده لم تردد^(١) كلمة، ولم تَقَمْ طرفةً ببابه^(٢).

المدائني عن خالد كيلويه، قال: كنت نجارًا حاذقًا، فذهب بي إلى المنصور، فقال: افتح لي بابًا أنظر منه إلى المسجد وعجل الفراغ منه. قال: ففتحت الباب، وعلقت عليه بابًا، وجصسته وفرغت منه قبل وقت الصلاة، فلما نودي بالصلاة جاء فنظر إليه، فأعجبه عمله، وقال لي: أحسنت بارك الله عليك! وأمر لي بدرهمين.

قال: وقال المنصور للمسيب بن زهير: أحضر لي بناءً حاذقًا الساعة، فأحضره، فأدخله إلى بعض مجالسه وقال له: ابن لي بإزائه طاقًا يكون شبيهًا بالبيت، فلم يزل يُوقِي بالحصص والآجر حتى بناه وجوده ونظر إليه واستحسنه، فقال للمسيب: أعطه أجره، فأعطاه خمسة دراهم، فاستكرها وقال: لا أرضى بذلك، فلم يزل حتى نقصه درهماً، وفرح بذلك وابتهج كأنه أصاب مالا.

وحكى عن المنصور أنه لُدغ، فدعا مولى له - يقال له: أسلم - رقاء، فأمره أن يرقيه، فرقاه، فبرئ. فأمر له برغيف، فأخذ الرغيف فثقبه وصيره في عنقه، وجعل يقول: رقيت مولاي فبرئ، فأمر لي برغيف، فبلغ المنصور ذلك فقال: لم أمرك أن تشنع علي، قال: لم أشنع إنما أخبرت بما أمرت. فأمر أن يُصَفَّع ثلاثة أيام في كل يوم ثلاث صفعات.

وعن الأصمعي؛ قال: دخل أبو بكر الهجري ذات يوم على المنصور، فقال: يا أمير المؤمنين. انتقض علي فمي، وأنتم أهل بيت بركة! فلو أذنت لي لقبلت رأسك لعل الله يشد فمي! فقال المنصور: اختر ذلك أو الجائزة، فقال: يا أمير المؤمنين، أهون عليّ عن ذهاب درهم الجائزة ألا يبقني في فمي حاكّة. ومنه مكاتبات:

كتب أرسططاليس إلى رجلٍ في رجلٍ يصله بشيء، فلم يفعل، فكتب إليه: إن كنت أردت فلم تقدر فمعدور، وإن كنت قدرت فلم ترد، فسيأتيك يوم تريد فيه فلا تقدر^(٣).

قيل: وكتب إبراهيم بن سيّابه إلى رجلٍ صديق له كثير المال يستسلفه، فكتب إليه: العيال كثير،

(١) البيان والتبيين: «لم تراه».

(٢) الخبير في البيان والتبيين ١: ١٩٧، ١٩٨.

(٣) المحاسن والأضداد ٩١.

والدُّخْل قليل، والمال مكذوب، فكتب إليه: إن كنت كاذبًا فجعلك الله صادقًا؛ وإن كنت صادقًا فجعلك الله معذورًا^(١).

قال: وكتب بعضهم يصف^(٢) رجلًا: أما بعد، فإنك كتبت تسأل عن فلان، فكأنك هممت أو حدثت نفسك بالقدوم عليه، فلا تفعل أمتع الله بك! فإن حُسن الظن به لا يقع في الوهم إلا بخذلان الله، وإن الطمع فيما عنده لا يحظر على القلب إلا بسوء التوكل على الله، وإن الرجاء لما في يده لا ينبغي إلا بعد اليأس من رحمة الله. إنه يرى الإقتار الذي نهى الله عنه، هو التبذير الذي يعاقب الله عليه، والاقتصاد الذي أمر الله عز وجل به هو الإسراف الذي يعذب الله عز وجل عليه. وأن بنى إسرائيل لم يستبدلوا العَدَسَ بالتمنّ واليَصْلَ بالسُّلوى، إلا بفضل أحلامهم، وقديم علم توارثوه من آبائهم، وإن الصنيفة مرفوعة، والصلة موضوعة، والهمة مكروهة، والصدقة منحوسة والتوسّع ضلالة، والجمود فسوق، والسخاء من هزات الشياطين، وإن مواساة الرجل أخاه من الذنوب الموبقة، وإفضاله عليه من إحدى الكبائر.

وإن الله عز وجل لا يَغْفِرُ أن يؤثر المرء في خصاصة على نفسه ﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾. ومن أثر على نفسه فقد ضلّ ضلالاً بعيداً، وخسر خسراً مبيناً؛ كأنه لم يسمع بالمعروف إلا في الجاهلية الذين قطع الله أديارهم، ونهى جلّ اسمه عن اتباع آثارهم، وإن الرجفة لم تأخذ أهل مدين إلا لسخاء كان فيهم، وإن الريح العقيم أهلكت عاداً وثمود لتوسّع كان فيهم. وهو يخشى العقاب على الإنفاق، ويرجو الثواب على الإقتار، ويعدّ نفسه العقوق، ويأمرها بالبخل، خيفة أن تمرّ به قوارع الدهور، وأن يصيبه ما أصاب القرون الأولى.

فأقم رحمة الله بكائك، واصبر على عُسرِكَ، لعلّ الله أن يُبدلنا وإياك (خيرًا منه زكاةً وأقرب رَحْمًا).

ومنه فنّ آخر. وصف أعرابيُّ رجلًا فقال له: بشرْ مُطعم، ومطلّ مونس؛ فأنت منه أبدًا بين اليأس والطمع، لا تمنع مُريح، ولا يبدل سريح^(٣).

وقال أعرابيُّ: أنا من فلان في أمانٍ تُهبط العُصم، وخُلف يذكر العُدْم، ولست بالحريص الذي إذا وعده الكذوب أعلق نفسه لديه، وأتعب راحلته إليه.

وذكر أعرابيُّ رجلًا فقال: له مواعيد عواقبها المظل، وتمازها الخلف، ومحصولها اليأس. ويقال: سرعة اليأس أحد النجحين.

(١) المحاسن والأضداد ٩٢.

(٢) المحاسن والأضداد: «وكتب آخر إلى آخر».

(٣) المحاسن والأضداد ٩٢، ٩٣.

وقال بعضهم: مواعيدُ فلان مواعيدُ عُرقوب، ولمع الآل، وبرقُ الخُلب، وأمانى الكُمون، ونار الحُجاجِب، وصيفٌ تحته راعدة^(١).

ولبعض الكتابِ فصل في هذا المعنى: أما بعد، فإن كثرة المواعيد من غير نجح، عارٌ على المطلوب، وقَلَّتْها عند الحاجة، مكرمةٌ من صاحبها، وقد رددتْنا في حاجتنا هذه مع كثرة مواعيدك من غير نُجْح لها؛ حتى كأننا قد رضينا بالتملُّل بها دون النجاح، كقول الأَوَّل:

لا تجعلنا ككُمونٍ بمزرعةٍ إن فاته الماءُ أروتهِ المواعيدُ^(٢)

[البسيط]

ولآخر منهم: ما رأيتُ مثلاً طيبَ قولك، أمره سوءُ فعلك، ولا مثلَ بسطِ وجهك، خالفهُ ضيقُ تنكُّدك، ولا مثلَ قربِ مواعيدك بأعدِّها فرطُ مَطْلِك، ولا مثلَ أنسِ بديهتك، أو حش منه قبيح عواقبك، حتى كأن الدهر أودعك لطيفَ الحيلةِ بالمكر بأهل الخلة، وكأنه زينك فيهم بالخديعة لتُدرك منهم فرصةَ الهلكة. وقد قيل: وعد الكريم نَقْدٌ وتمجيل، ووعد اللئيم مَطْلٌ وتأجيل.

وقال بعضهم: وعدتْنا مواعيدَ عُرقوب، ومطلتْنا مَطْلَ نِعاسِ الكلب^(٣)، وغررتْنا غرورَ السُّراب، ومُنيتْنا أمانى الكُمون.

ولبعضهم: أما بعد، فلا تدعنى متعلِّقاً بوعدك، فالعذر الجميلُ، أحسنُ من المطل الطويل، فإن كنت تريد الإِنعامَ فأنجِح، وإن تعذرتِ الحاجةُ فأوضح، وأعلمنى ذاك لأصرف وجهَ الطُّلبِ إلى غيرك.

وذكروا أن فتى من مراد كان يختلف إلى عمرو بن العاص، فقال له ذات يوم: ألك امرأة؟ قال: لا، قال: أفتنزَّوج وعلى المهر! فرجع إلى أمه فأخبرها، فقالت:

إذا حدتْكَ النفسُ أنك قادرٌ على ما حوتْ أيدى الرجال فكذب

[الطويل]

فتزوج، ثم أتى عمرو بن العاص فاعتلَّ عليه، ولم ينجزْ له وعده، فشكا ذلك إلى أمه، فقالت:

(١) المحاسن والأضداد ٩٥.

(٢) المحاسن والأضداد ٩٢، ٩٣.

(٣) في اللسان: الكلب يوصف بكثرة النعاس، وفي المثل: «مسطل كنعاس الكلب».

لا تغضبني على امرئ في ماله وعلى كرائم ماله نفسك فاغضب^(١)
[الكامل]

* * *

ولبعض الشعراء في هذا المعنى:
أروح وأغدو نحوكم في حوائجي وقد كنت أرضى للصديق شفاعة
فأصبح منها غدوة كالذي أمسى^(٢)
فقد صرت أرضى أن أشفع في نفسي
[الطويل]

ولأبي نواس:

وعدتني وعدك حتى إذا
جئت من الليل بغسالة
أطمتني في كنز قارون
تغسل ما قلت بصابون
[السريع]

وأشده لأبي تمام:

يحتاج من يرتجي نوالكم
فكنز قارون أن يكون له
إلى ثلاثٍ بغير تكذيب
وعمر نوح وصبر أيوب
[المنسرح]

ولآخر:

إني لأعجب من قول غررت به
لو تسمع العضم في صم الجبال به
كالخمر والشهد يجرى فوق ظاهريه
وكالسراب شبيها بالقدير وإن
لا يثبت العشب عن برق وراعدة
حلو يلد إليه السمع والبصر^(٣)
ظلت من الراسيات العضم تحدير
ومالباطينه طعم ولا خبر
تبغ السراب فلا عين ولا أثر
غراء ليس بها سيل ولا مطر
[البسيط]

* * *

وما قيل من الشعر في البخل بالطعام لبعضهم:
رأيت أبا عثمان يئذل عرضه
يحن إلى جارته بعد شبعه
وخبر أبي عثمان في أكرم الحرز^(٤)
وجاراته غرثي تمن إلى الخبز
[الطويل]

* * *

(٣) المحاسن والأضداد ٩٥، ٩٦، ونسبها إلى حسان بن ثابت.

(٤) المحاسن والأضداد ٩٦.

(١) الخبر في المحاسن والأضداد ٩٤.

(٢) المحاسن والأضداد ٩٥.

آخر:

ما كنتُ أحسبُ أن الخبزَ فاكهةً
الحابسُ الرُّوثَ في أعفاجِ بقلتهِ
حتى نزلتُ على عوفِ بنِ خنزيرٍ^(١)
بُخلاً على الحبِّ من لُقَطِ العَصافيرِ
[البسيط]

ولغيره:

نوالكُ دونهُ خرطُ القتادِ
تري الإصلاحَ صومكُ لا لِنسكِ
أرى عمرَ الرُّغيفِ يطولُ جدًّا
وخيرُكُ كالشربِا في البعادِ^(١)
وكسراً للرُّغيفِ من الفسادِ
لَدَيْكَ كأنهُ من قومِ عادِ
[الوافر]

ولآخر:

اللؤمُ منكُ على الطعامِ طِباعُ
وإذا يمرُّ ببابِ داركُ سائلُ
وعلى رغيِّكُ حيةٌ مسمومةٌ
فِعِيالُ بيتكُ ما حَيَّتُ جباغُ
هرَّتْ عليه نوابحُ وسِباعُ
وعلى خوانِكُ عقربُ وشُجاعُ^(٢)
[الكامل]

ولآخر:

ياتاركُ البيتِ على الضَّيفِ
ضَيْفُكَ قد جاءَ بزادٍ لَهُ
إذا اشتَهَى الضيفُ طيخَ الشُّتا
وإن دنا المسكينُ من بابهِ
وهاربًا منه مِنَ الخوفِ^(٣)
فارجعُ فكن ضيفًا على الضيفِ
أتاهُ بالشهوةِ في الصَّيفِ
شدُّ على المسكينِ بالسَّيفِ
[السريع]

ولآخر:

يكتبُ بالجبرِ على خبزِهِ
«والله لا يأكلُهُ الجارُ»
[السريع]

ويسألُ الخادِمَ من بخلِهِ
ويختمُ القنْزَ على أهلهِ
أى رغيِّفِ فيه أنارًا
ويشعبُ العظمَ بسمارًا

(١) المحاسن والأضداد ٩٦.

(٢) الشجاع: الحية.

(٣) المحاسن والأضداد ٩٧.

يُشْرِبُهُ النَّاسُ بِمَقْدَارٍ

وَالْمَاءُ فِي مَنْزِلِهِ طُرْفَةٌ

وَلَاخِرُ:

وَكُرْبُ الْمَوْتِ يُغْشَاهُ^(١)

أَرَى ضَيْفَكَ فِي الدَّارِ

«سَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ»

عَلَى خُبْرِكَ مَكْتُوبٌ:

[الهنج]

وَلَاخِرُ:

أَبْدًا فِي حِجْرِ دَائِيَّةٍ^(٢)

لَأَبِي نُوحٍ رَغِيْفٌ

بِكُمْ وَقَايَةٌ

أَبْدًا يَمْسَحُهُ الدَّفْرُ

خَطٌّ فِيهِ بِعَمَائِيَّةٍ:

وَلَهُ كَاتِبٌ سَرٌّ

سَهْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ

فَسَيَكْفِيكَهُمُ الدِّ

[بجزوه الرمل]

آخِرُ:

كَأَنَّهُ يَقْدُمُ مَنْ قَافٍ

الْخُبْزُ يُطَيُّ حِينَ يَدْعُو بِهِ

يَقُولُ: هَذَا مَلْحٌ سِيرَانٍ

وَيَمْدَحُ الْمَلْحَ لِأَصْحَابِهِ

وَقَلَعَ عَيْنِيهِ بِخُطَّانٍ

سِيرَانٍ أَكَلُ الْخُبْزِ فِي دَارِهِ

[السريع]

وقال آخر:

وَلَكِنْ يَغَارُ عَلَى خُبْرِهِ

فَتَى لَا يَغَارُ عَلَى عِرْسِهِ

وَكَفَّ السَّاحَةَ فِي عَجْرِهِ

فَمَنْهُ يَدُ الْجَوْدِ مَقْبُوضَةٌ

[المتقارب]

آخر:

وَأَزْوَاجُهُمْ يَخْتَرِقْنَ السُّكَّكَ^(٣)

يَصُونُونَ أَثْوَابَهُمْ فِي التُّخُوتِ

وَيُذْنُونَ مَنْ رَامَ حَلَّ التُّكَّكَ

يُنْحُونَ مَنْ رَامَ رَغْفَانَهُمْ

[المتقارب]

(١) المحاسن والأضداد ٩٧.

(٢) المحاسن والأضداد ٩٨.

(٣) المحاسن والأضداد ٩٨.

ولآخر:

غَدَّتْ غَرَّتِي لَصَفِيْتِه تَرُوْمُ
أَلَا أَيْنَ الْقَمَائِمِ وَالْقَرُوْمُ!
وَفِي الْهَيْجَا عَدُوْهُمُ سَلِيْمُ

[الوافر]

وَلَوْ أَنَّ الذُّبَابَ تَرَاهُ يَوْمًا
لِنَادَى فِي الْعَشِيْرَةِ: أَدْرِكُونِي
فِيَاوَيْلَ الذُّبَابِ إِنْ أَدْرِكُوهُ

ولآخر:

نِ فَمَنْ كَرِيْمَاتِ الْمَرْمِ (١)
وَلَا يُدَاقُ وَلَا يُشَمُّ
بِأَلَى النَّقُوشِ مِنَ الْمَرْمِ

[الكامل]

أَمَّا الرَّغِيْفُ لَدَى الْخُفَا
مَا إِنْ يُجَسَّ وَلَا يُجَسُّ
فَتَرَاهُ أَخْضَرَ يَابِسًا

ولآخر:

إِلَى رَحْلِهِ فَرَجَعْنَا صِيَامًا (٢)
فَقَلْتُ: دَعُوهُ وَمُوتُوا كِرَامًا

[المتقارب]

أَتَيْنَا أَبَا طَاهِرٍ مُفْطِرِينَ
وَجَاءَ بِخَبْزٍ لَهُ حَامِضٌ

وعن حذيفة بن محمد الطائي قال: قال الرشيد: لا أعرف لمولدي أهجى من قول أبي نواس:

وَلَكِنْ خِفْتُ مَرَزَنَةَ الذُّبَابِ (٣)
وَخَبْزُكَ عِنْدَ مُنْقَطِعِ التَّرَابِ

[الوافر]

وَمَا رُوْحَتْنَا لَتَذُبُّ عَنَّا
شِرَابُكَ كَالسَّرَابِ إِذَا التَّقِينَا

ولآخر:

وَجَفَانِي وَمَا تَغَيَّرْتُ بَعْدَهُ (٤)
غَيْرَ أَنِّي يَوْمًا تَعَدَّيْتُ عِنْدَهُ

[الخفيف]

خَانَ عَهْدِي عَمْرُو وَمَاخُنْتُ عَهْدَهُ
لَيْسَ لِي مَا حَيْثُ ذَنْبٌ إِلَيْهِ

(٣) المحاسن والأضداد ٩٩.

(٤) المحاسن والأضداد ٩٩.

(١) المحاسن والأضداد ٩٧.

(٢) المحاسن والأضداد ٩٩.

الخليل بن أحمد:

كفاه لم تُخلَقا للندي
فكف عن الخير مقبوضة
ولم يك بخلها بدعة^(١)
كما نقصت مائة تسعة

[المتقارب]

ولآخر:

أتيت أبا عمرو أرجى نواله
فكنت كباغي القرن أسلم أذنه
فزاد أبو عمرو على حزني حزنا^(٢)
فأب بلا أذنٍ ولم يستفد قرنا

[الطويل]

(١) المحاسن والأضداد ٩٩.

(٢) المحاسن والأضداد ١٠٠.

مساوئ من استدعى الهجاء ومن هجا نفسه

قال أبو العتاهية: خرجت مع المهدي إلى الصيد، ففترق أصحابه وبقيت معه، وقد أقبل علينا المطر، فانتبهنا إلى ملاحٍ معه زورق، فقال لنا: ادخلنا من هذا المطر، فدخلنا، ووقعت الرعدة على المهدي من شدة البرد، فقال له الملاح: هل لك أن ألقى عليك جُبتي؟ فقال: نعم، فألقاها عليه، فما زال يتقرف حتى نام، ثم أقبل الخدم والغلمان وألقوا عليه الخبز والوشى، فلما انتبه أمر بدفع ذلك إلى الملاح وقال: يا أبا العتاهية، ألا هجوتني؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، وكيف تطيب نفسي بهجائك! قال: فإني أسألك بالله، فقلت:

يا لابسِ الوشى على شيبه ما أقيح الأسيب في الداح^(١)
[السريع]

فنقر نقرة ثم قال: زدني، فقلت:

لوشئت أيضا جلت في خامة وفي وشاحين وأوضاع
[السريع]

فقال: ويلك! زدني، فقلت:

كم من عظيم الشأن في نفسه قد بات في جبة ملاح
[السريع]

قيل: وشرب يزيد بن معاوية ذات يوم وعنده الأخطل، فلما نمل قال: يا أخطل، أهجني ولا تفضحش، فأنشأ يقول:

ألا أسلمت سلمت أبا خالدٍ وحيّاك ربك بالعنقر^(٢)
وروى عظامك بالخندريس قبل الممات ولم تعجز^(٣)
أكلت الدجاج فأفنيتها فهل في الخنايص من معجز^(٤)
ودينك حقا كدين الحما ر بل أنت أكفر من هرمرز

[المقارب]

(١) الداح: نقش يلوح به للصبان يلعبون به.

(٢) الأبيات في الصحاح ٢: ٨٨٥ ونسبها إلى الأخطل؛ وليست في ديوانه، وفي الصحاح: العنقر: المرزوش وقضيب

الحمار.

(٣) في الصحاح: «فلا تعجز».

(٤) الخنايص: جمع خنوص؛ وهو الحمار.

فرجع يده ولطمه وقال: يا بن اللّخناء! ما بكلّ هذا أمرتك^(١)!

* * *

قال: ودخل أبو دلامة على المنصور وعنده المهديّ وعيسى بن موسى، فقال له المنصور: أهجّ بعض من في المجلس، فقال في نفسه: مَنْ أهجوا الخليفة؛ أم ابن أخيه! ما أحد أحقّ بالهجاء مني! فقال:

ألا أبلغ لذيكَ أبا دلامة فلست من الكرام ولا كرامة
جمعت دمامةً وجمعت لومًا كذاك اللوم تبعه الدمامة
إذا لبس العمامة قلت فردّ وخنزير إذا وضع العمامه
[الوافر]

فضحك المنصور وأمر له بجائزة.

قيل: وأتى أعرابيُّ عبد الله بن طاهر فقال: أيها الأمير، اسمع مديحي! فقال: لست أنحاش^(٢) له، قال: فاسمع شعري في نفسي، فقال: هات، فقال:

ليس من بخلك أني لم أجد عندك رزقا
ذا لجدى ولشؤمي ولحر في المبقى^(٣)
فجزاك الله خيرا ثم بعدا لي وسحقا!
[مجزوء الرمل]

فضحك ثم قال: تلطفت في الطلب؛ وأمر له بألف دينار.

(١) انظر ملحق ديوان الأخطل ٢٨٨.

(٢) يقال: فلان ما ينحاش من فلان، أى ما يكثر له، وفي الأصول: «انحاش».

(٣) الحرف: الحرمان.

مَحَاسِن الرِّجَالِ

مدح أعرابيُّ رجلاً فقال: فتى آتاه الله الخير ناشئاً فأحسن لبيسه، وزينَ نفسه.
ومدح أعرابيُّ رجلاً فقال: كان والله للأخلاءَ وَصُولاً، وللمالِ بَدُولاً، وكان الوفاءَ بهما عليه كفيلاً،
فمنَ فاضله كان مفضولاً.

ومدح أعرابيُّ رجلاً فقال: هو أكسبُهُم للمعدوم، وأكلَهُم للمأدوم، وأعطاهم للمحروم^(١).
ومدح أعرابيُّ رجلاً فقال: مازلتُ لأحسن ما يُرجى من الإخوان منك راجياً، ومازلتُ لأكثر
ما أرجو منك مصدقاً.

ومدح أعرابيُّ رجلاً فقال: كان والله تَعَباً في طلب المكارم، وغيرَ ضالٍّ في مصالح طرُقها،
ولا متشاغل عنها بغيرها.

ومدح أعرابيُّ رجلاً فقال: لسانه أحلى من الشَّهد، وقلبه سجنٌ للحقد.
ومدح أعرابيُّ رجلاً فقال: ذاك صحيحُ النَّسب، مستحکمُ الأدب، من أيِّ أقطاره أتيتَه قابلك
بكرم فَعَال، وحسن مقال.

ومدح أعرابيُّ رجلاً فقال: إذا أُنبِتت الأُصولُ في القلوب، نطقت الألسُن بالفروع، والله يعلم
أني لك شاكِر، ولساني بشنائك ذَاكِر، وما يظهر الوُدَّ السليم، إلا من القلب المستقيم.
ومدح أعرابيُّ رجلاً فقال: كان إذا نزلتُ به التوائب قام إليها ثم قام بها، ولم تُقَعِّده عِلَّات
النفوس عنها.

ومدح أعرابيُّ رجلاً وفرسه؛ فقال: كان والله طويلَ العِذار، أمينَ العِثار، إذا رأيتَ صاحبه عليه
حسبته بازياً على مَرَقَب^(٢)، معه رمح يقبض به الآجال.

ومدح أعرابيُّ رجلاً فقال: لا تراه الدهرَ إلا كأنه لا غنى به عنك، وإن كنتَ إليه أحوج، وإذا
أذنبتَ غَفِر. وكأنه المُذنب، وإن احتججتَ^(٣) إليه أحسنَ وكأنه المسيء.

قال: وقال أعرابيُّ لرجل: أما والله لقد كنتُ لجاماً لأعدائك ما تُفَلُّ شكيמתاه، إذا كبح به
الجموحُ ألقى على رجليه.

(١) ساقطة من ك.

(٢) المرقب: المكان العالي المشرف.

(٣) ك: «لم يخفضه».

قال: ولقي أعرابي أعرابياً فقال: كيف وجدت فلاناً؟ قال: وجدته والله رزين الحلم، واسع العلم، خصيب الجفنة، إن فاخرته لم يكذب وإن ما زحته لم يحفظ.
ومدح أعرابي رجلاً فقال: كان يفتح من الرأي أبواباً^(١) منسدّة، ويغسل من العار وجوهاً مسوّدّة.

ومدح أعرابي قومًا فقال: أولئك غيوثُ جدب، وليوثُ حرب، إن قاتلوا أبلوا وإن أعطوا أغنوا.
ومدح أعرابي رجلاً فقال: ذاك من شجر لا يجف ثمره، وماء لا يخاف كدره.

(١) كذا في ك، وفي ك «عيوناً».

مساوئ الرجال

وذمُّ أعرابيٌّ رجلاً فقال: يا نطفة الحمار، ونزيع الظنورة، وشبيهة الأخوال.
وذمُّ قوماً، فقال: إن آل فلان قوم غدر، شرابون للخمر، ثم هذا في نفسه نطفة حمار في رحم
صناجة^(١).

وذمُّ أعرابيٌّ رجلاً فقال: يقطع نهاره بالمتى، وستوسد ذراع المهّم إذا أمسى.
وذمُّ أعرابيٌّ رجلاً فقال: ما قنع كميّاً سيفاً^(٢)، ولا قرى يوماً ضيفاً، ولا حمداً له شتاءً ولا صيفاً.
وقال أعرابيٌّ لامرأته: أقام الله ناعيك، وأشمت أعاديك^(٣).

وذمُّ أعرابيٌّ رجلاً فقال: عليه كلُّ يوم قسامة^(٤) من فعله، تشهد عليه بفسقه؛ وشهادتُ الأفعال
أعدلُّ من شهادتِ الرجال.

وذمُّ أعرابيٌّ رجلاً فقال: تسهر زوجته جوعاً إذا نام شبعاً، ولا يخاف عاجلَ عار، ولا أجلَ نار،
كالبهيمة أكلت ما جمعت، ونكحت ما وجدت.

وذمُّ أعرابيٌّ رجلاً فقال: ذاك أعيا ما يكون عند الناس، أبلغ ما يكون عند نفسه.
وذمُّ^(٥) أعرابيٌّ رجلاً: تقطع أخاك لأبيك وأمك! فقال: إني لأقطع الفاسد من جسدي؛ وهو
أقرب إليّ من أخي، وأعزّ فقداً منه!

وذمُّ أعرابيٌّ قوماً فقال: يا قوم لا تسكنوا^(٦) إلى حلاوة ما يجري من القول على اللسنة
بني فلان، وأنتم تروون الدماء^(٧) تسيل من أفعالهم، وقد جعلوا المعاذير ستوراً، والعلل حجباً.

وذمُّ أعرابيٌّ رجلاً فقال: إذا سأل الحنف، وإذا سُئل سوف، يحسد أن يفضل؛ ويزهد أن يفضل.

وذمُّ أعرابيٌّ رجلاً فقال: يكاد أن يعدي بلؤمه من تسمي باسمه.

وذمُّ أعرابيٌّ رجلاً فقال: تعدو إليه مواكب الضلالة، وترجع من عنده بهلاك الأنام معلّم مما يجب،
مترّ مما يكره.

(١) الصناجة: المرأة صاحبة الصنع، والصنع: صفيحة مدورة يضرب بها على أخرى مثلها للطرب.
(٢) الكمي: الشجاع أو لابس السلاح! سمي بذلك لأنه كمي نفسه، أي سترها، وقنع رأسه بالسيف والوسط والعصا؛
غشاها به.

(٣) ل: «عاديك».

(٤) القسامة، بالفتح: الجماعة يقسمون، أي يلفنون على الشيء.

(٥) ل: «ولام».

(٦) ك: «لا نسكنوا».

(٧) ك: «الدنيا».

وقال أعرابي لرجل: والله ما جفانكُم بِعظام، ولا أجسامكم بوسام، ولا بدت لكم نار، ولا طلبتم بنار.

ورأى أعرابي رجلاً ظلوماً يدعو، فقال: يا هذا، إنما يُستحَاب لمظلوم أو مؤمن، ولست أحدًا منها! أراك تخفّ عليك الذنوب، وتحسنُ عندك مقايح العيوب.

وذمّ أعرابي رجلاً فقال: فلان لا يستحي من الشرّ، ولا يحبّ أنه أحبّ الخير، ولا يكون في موضعٍ إلّا حرمت فيه الصلاة، ولو قذف لؤمه على الليل طمست نجومه، ولو أفلتت^(١) كلمة سوء لم تصل إلّا إليه.

وسأل أعرابي رجلاً فقال: لقد نزلت بوادٍ غير ممطور، وبرجل بك غير مسرور، فارتحل بندم، أو أقمّ بعدم.

وذمّ آخرُ فقال: ما كان عنده فائدة ولا عائدة، ولا رأى جميل، ولا إكرام لدخيل. وقيل لأعرابي: ما بلغ من سوء خلقك؟ قال: تبدؤلى الحاجة إلى الجار أو الصاحب في بعض الليل، فأصبح غضبان عليه، أقول: كيف لم يعلمها!

وذكر أنه تنافر رجلان من بنى أسد إلى هرم بن سنان المرّي في الشرّ وعنده الحطيئة، فقال أحدهما، إنى بقيت زماناً وأنا أرى أنّي شرّ الناس والأمهم، حتى أتاني هذا، فزعم أنه شرّ مني! فقال هرم: أخبراني عنكما، فقال أحدهما: لم يمرّ بي أحدٌ^(٢) قطّ إلّا اغتبتته، ولا ائتمنتني إلّا خنته، ولا سألتني إلّا منعته. وقال الآخر: أما أنا فأبطرُ الناس في الرخاء، وأجبتهم في اللقاه، وأقلّمهم حياة، وأمنعهم حياة. فقال هرم: وأبيكما لقد تردّيتما في الشرّ، ولكن أخبركما بمن هو شرّ منكما. قالا: ما ولدت ذاك النساء! قال: بلى، هذا الحطيئة هجا أباه وأمّه ونفسه ومن أعطاه ومن أحسن إليه، فقال لأبيه:

| | |
|--------------------------------------|----------------------------|
| أبا ولحاك من عمّ وخال ^(٣) | لحاك الله ثم لحاك حقاً |
| وبسّ الشيخ أنت لدى المعالي | فبسّ الشيخ أنت على النوادي |
| وأبواب المخازي والضلال | جمعت اللؤم لا حياك ربي |

[الوافر]

وقال لأمه:

| | |
|--|----------------------------|
| أراح الله منك العالمينا ^(٤) | تنحى فاقعدى منى بعيداً |
| وكانونا على المتحدّثينا! | أغريبالا إذا استودعت سرّاً |
| ولكن لا أخالك تعلمينا! | أم أوضّح لك البغضاء منى |

[الوافر]

(٣) ديوانه ١١٩.

(٤) الأغاني: ٢: ١٦٣ (طبعة الدار).

(١) ك: «أقبلت».

(٢) ك: «رجل».

وقال لنفسه:

أَبَتْ شَفَتَايَ الْيَوْمَ إِلَّا تَكَلُّمًا بَشْرًا؛ فَمَا أُدْرِي لِمَنْ أَنَا قَائِلُهُ^(١)
أَرَى لِي وَجْهًا شَوَّهُ اللَّهُ خَلْقَهُ فُقِّحَ مِنْ وَجْهِ وَقُحِّحَ حَامِلُهُ!

[الطويل]

وقال لمن أعطاه:

سَبَلْتُ فَلَمْ تَبْخُلْ وَلَمْ تُعْطِ نَائِلًا فَيَسِيَانِ لَازِمٍ عَلَيْكَ وَلَا حَمْدُ^(٢)

[الطويل]

قيل: ولما حضرت الحطيئة الوفاة، قيل له: أوص، فقال:

الشُّعْرُ صَعْبٌ وَطَوِيلٌ سُلِّمَهُ إِذَا ارْتَقَى فِيهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ^(٣)
زَلَّتْ بِهِ إِلَى الْحِضِيضِ قَدَمُهُ وَالشُّعْرُ لَا يَسْطِيعُهُ مِنْ يَظْلُمُهُ
* يريد أن يُعْرِبَهُ فَيَعْجُمُهُ *^(٤)

[الرجز]

فقيل له: أوص للمساكين بشيء، فقال: أوصيهم بالمسألة ما عاشوا؛ فإنها تجارة لن تبور. قيل: أوص فقد حضرك أمرك، فقال: مالي للذكور من ولدي، دون الإناث؛ قيل له: إن الله عز وجل لم يأمر بهذا، قال: لكني أمرُ به، فقيل له: اعتق غلامك يسارًا الأسود. قال: هو مملوك مادام على ظهر الأرض عبسي^(٥)؛ قيل له: من أشعر الناس؟ فقال: هذا المحجن ما أطعم في خير - وأوماً إلى لسانه - ثم جعل يبكي، فقيل له: ما يبكيك؟ أجزعاً من الموت يا أبا مليكة! قال: لا؛ ولكن ويل للشعر من رواية السوء. ثم قال: أبلغوا السماخ أنه أشعر غطفان^(٦) على وجه الأرض، وإن مت فاحملوني على حمار، فإنه لم يمت عليه كريم قط.

وفي غير هذه الرواية أنه قال: احملوني على حمار، فإنه لم يمت عليه كريم قط؛ لعل أنجو؛ ثم أنشأ يقول:

(١) ديوانه ١٢٠، والأغاني ٢: ١٦٣.

(٢) ديوانه ٩١، وفي ط: «سألت»؛ وهو أيضاً في الأغاني ٢: ١٦٨.

(٣) ديوانه ١١، والأغاني ٣: ١٩٦.

(٤) الفاء هنا للاستئناف، أي فإذا هو يعجمه.

(٥) والحطيئة من بني عيس.

(٦) في الأغاني: لما حضرت الحطيئة الوفاة اجتمع إليه قومه فقالوا: يا أبا مليكة، أوص، فقال: ويل للشعر من رواية السوء؛

قالوا: أوص رحمك الله يا حطية! قال: من الذي يقول:

تَرْتُمُ تَكَلَّى أَوْجَعَتْهَا الْجِنَانُزُ

إِذَا أَنْبَضَ الرَّأْمُونَ عِنْدَهَا تَرْتُمُ

قالوا: السماخ، قال: أبلغوا غطفان أنه أشعر العرب.

لِكَلِّ جَدِيدٍ لَدَّةٌ غَيْرَ أَتْنِي رَأَيْتُ جَدِيدَ الْمَوْتِ غَيْرَ لَذِيذٍ^(١)
 لَهُ نَكْهَةٌ لَيْسَتْ بِطَعْمِ سَفْرَجَلٍ وَلَا طَعْمِ تَفَّاحٍ وَلَا نَبِيذٍ^(٢)
 [الطويل]

ثم خرجت روحه، فلما مات قال فيه الشاعر:

لا شاعرٌ ألامُّ من حُطِيَّةٍ هجا بنيه وهجا المرِيَّة^(٣)
 * من لؤمِه ماتَ على قُريَّة^(٤) *

[الرجز]

قال: وقيل لمعاوية بن أبي سفيان: مَنْ رَأَيْتُ شَرَّ النَّاسِ؟ فقال: علقمة بن وائل الحضرمي، قَدِمَ على رسول الله ﷺ، فأمرني أن أنطلق به إلى رجل من الأنصار أنزله عليه، فانطلقت معه وهو على ناقته، وأنا أمشي في ساعة حارة، وليس عليّ حذاء، فقلت: احملني يا عمّ من هذا الحرّ؛ فإنه ليس عليّ حذاء، فقال: لست من أرداف الملوك، قلت: أنا ابنُ أبي سفيان، قال: قد سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول ذلك، قال: فقلت: ألتى إلى نعليك، قال: لا تقلها قدامك، ولكن امش في ظلّ ناقتي، وكفى لك بذلك شرفاً؛ وإن الظلّ لك لكثير! فما مرّ بي مثل ذلك اليوم، ثم أدرك سلطاني فلم أواخذه بذلك، بل أجلسته على سريري هذا، وقضيت حوائجه.

ومنهم دُوَيْدُ بن زيد بن تَهْد^(٥)، وكان من المعمرين، قال: يا بَنِي أَوْصِيكُمْ بِالنَّاسِ شَرًّا، لَا تَبْتَغُوا لَهُمْ خَيْرًا، كَلِّمُوهُمْ نَزْرًا، وَالْحَظْوْهُمْ شَزْرًا، وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ عُذْرًا، وَلَا تُقْبِلُوهُمْ عَثْرَةً، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

يَا رَبِّ نَهَبَ صَالِحَ حَوَيْتُهُ وَرَبِّ غَيْلَ حَسَنِ لَوَيْتُهُ^(٦)
 لَوْ كَانَ لِلدَّهْرِ بِلَى أْبَلَيْتُهُ أَوْ كَانَ قَرْنِي وَاحِدًا كَفَيْتُهُ^(٧)
 * الْيَوْمَ يُبْنِي لِدَوَيْدٍ بَيْتَهُ *

[الرجز]

(١) ديوانه ١٢٠، والبيت الأول الأغانى في ٢: ١٩٦ ونسبه إلى ضايق البرجمي.

(٢) رواية البيت في الديوان:

لَهُ حُطِيَّةٌ فِي الْحَقِي لَيْسَ بِسُكْرٍ وَلَا طَعْمِ رَاحٍ يَشْتَهِي وَنَبِيذٍ

(٣) ديوانه ١٢٠، والأغانى ١: ١٩٧.

(٤) في الأغانى: «الغرية: الأنانة» والخبر هناك في ٢: ١٩٥ - ١٩٧، مع اختلاف في الرواية.

(٥) ورد الاسم محرفاً في الأصول؛ والصواب ما أثبتته من أمالي المرتضى ١: ٢٣٦، وطبقات الشعراء لابن سلام ٢٧، ٢٨.

وفيها الأبيات مع اختلاف الرواية.

(٦) الغيل: الساعد الريان المعتل.

(٧) القرن: الذى يلقاك ليقاومك.

محاسن ذكر التنعم

يُضْرَبُ المثل بِخُرَيْمِ النَّاعِمِ، وهو خريم بن عمرو، من بني مُرَّةَ بن عَوْفٍ، قيل له: الناعم؛ لأنه كان يلبس الخلق في الصيف، والجديد في الشتاء. وسأله الحجاج: ما النعمة؟ قال: الأمن، فأني رأيت الخائف لا ينتفع بنفسه ولا بعيشه: قال: زدني. قال: الغنى، فأني رأيت الفقير لا ينتفع بعيشه؛ قال: زدني، قال: الصحة، فأني رأيت السقيم لا ينتفع بعيشه؛ قال: زدني، قال: الشباب، فأني رأيت الشيخ لا ينتفع بعيشه؛ قال: زدني؛ قال: لا أجد مزيداً.

قال: وقال زيادٌ لجلسائه: مَنْ أنعم الناس عيشاً؟ قالوا: أمير المؤمنين، قال: هيهات! فأين ما يلقي من الرعية؟ قالوا: فأنت أيها الأمير، قال: فأين ما يرد على من الثغور والحراج! بل أنعم الناس عيشاً شابٌ له سدادٌ من عيش، وحظٌ من دين، وامرأة حسناء رضىها ورضيتها، لا يعرفنا ولا نعرفه.

قال: وقال عمرو بن العاص لمعاوية: يا أمير المؤمنين، ما بقي من شبابك وتلذذك؟ قال: والله ما بقي شيء يضيئه الناس من الدنيا إلا وقد أصبته، أما النساء فلا إرب لي فيهن ولا لهن في، وأما الطيب فقد شمتته؛ حتى ما أبالي به؛ وأما الثياب فقد لبست من ليتها وجيدها حتى ما أبالي ما ألبس؛ فما شيء ألدّ عندي من شربة باردة في يوم صائف، ونظري إلى بئى وبئى يدرجون حولي؛ فأنت يا عمرو؛ ما بقي من لذتك؟ قال: أرض أغرسها فأكل من ثمرها، وأنتفع بغلتها؛ ثم التفت معاويةً إلى وردان فقال: يا وريد، ما بقي من لذتك؟ قال: صنائع كريمة أعتقلها في أعناق الرجال، لا يكافئونني عليها؛ تكون لأعقابى من بعدى. فقال معاوية: تباً لهذا المجلس، يغلبنا عليه هذا العبد!

قال: وقال قتيبة بن مسلم لو كيع بن أبي سود: ما السرور؟ قال: لواء منشور، وجلوس على السرير، والسلام عليك أيها الأمير! وقيل لحضين بن المنذر: ما السرور؟ قال: امرأة حسناء، في دار قوراء، وفرس بالفناء. وقيل لرجل من بني قشير: ما السرور؟ قال: الأمن والعافية؛ قيل: صدقت! وقد قيل: العيش في سعة الرزق، وصحة الجسم، وإقبال الزمان، وعز السلطان، ومعاشرة الإخوان.

وقيل: نعيم المتوسطين لونٌ مشبع، وكأسٌ مُترع، وصديقٌ مُتبع، وغنىٌ مُقنع.
وقيل: راحة البدن النوم، وراحة الدار أن تُسكن.

وقال بعضهم: ليس سرور النفس بالجدّة، إنما سرورها بالأمل.

وقيل لبعضهم: أيّ الأمور أمتع؟ قال: الأمانى، وأنشد في ذلك:

إذا تمنيتُ بِتُ الليلَ مغتبطاً إنَّ المنى رأسُ أموالِ المفاليسِ
لولا المنى مِتَ من همٍّ ومن جَزَعٍ إذا تذكّرتُ ماني داخلِ الكيسِ^(١)

[البسيط]

وقيل لعبد الله بن الأهتم: ما السرور؟ قال: رفُعُ الأولياء، وحطُّ الأعداء.

وقال بعضهم: السرور توقيعُ نافذ، وأمرٌ جائز.

وقال عبد الرحمن بن أبي بكر: السرور إدراكُ الأمانى.

وقال آخر: السرور معانقةُ الأحبة، والرجوعُ إلى الكفاية.

وقال بعضهم: العيشُ محادثةُ الإخوان، والانتقالُ إلى كفاية.

وقيل لطرقة: ما السرور؟ قال: مَطْعَمٌ شهى، ومركبٌ وطى، وملبسٌ دَفِي.

وقيل للأعشى: ما السرور؟ فقال: صهباء صافية، تمزجها غانية، بصوبٍ غادية.

وقيل للملك: ما السرور؟ فقال: جمى ترعاه، وعدوٌ تُعناه.

وقيل لراهب: ما السرور؟ قال: الأمان من الوجيل، إذا انقضت مدة الأجل.

وقيل لبعضهم: ما السرور؟ قال: زوجةٌ وسيمة، ونعمةٌ جسيمة.

وقيل لمغن: ما السرور؟ قال: مجلسٌ يقلُّ هنره، وعودٌ يصفو وتره، وعقولٌ تفهمُ ما أقول.

وقيل لمظلوم: ما السرور؟ قال: كفايةٌ ووطنٌ، وسلامةٌ وسكنٌ.

وقيل لورّاق: ما السرور؟ قال: جلودٌ وأوراق، وحبرٌ برّاق، وقلمٌ مشاق^(٢).

وقيل لبعضهم: ما السرور؟ قال: بنونٌ أغیظُ بهم أعدائى، وأولا تُقرعُ معهم صفائى^(٣).

وقيل لفتاة: ما السرور؟ فقالت: زوجٌ يملأ قلبى جلالاً، وعينى جمالاً، وفنائى جمالا.

وقيل لطفيلى: ما السرور؟ فقال: ندامى تُسكنُ صدورهم، وتغلى قُدورهم، ولا تُغلقُ دُورهم.

وقيل لقانص: ما السرور؟ فقال: قوسٌ مَاطورة^(٤)، وشِرعةٌ مشزورة^(٥)، ونبالٌ مطرورة^(٦).

(١) ك: تفكرت

(٢) فلم مشاق: سهل الكتابة سريها.

(٣) الصفاءة فى الأصل: الحجر الصلد، والكلام على الاستعارة.

(٤) قوس مَاطورة: مطوفة مقوسة.

(٥) الشرعة: الوتر، شزر الحبل: قتلته عن يسار، وهو أشد لفتله.

(٦) مطرورة: محذبة.

وقيل لمحبوس: ما السرور؟ فقال: فِكَائِكَ يَفْجَأُ، وإطلاق لا يَرَزَأُ.
 وقيل للوطى: ما السرور؟ فقال: شَخْصٌ نَاضِرٌ^(١)، ودرهم حاضر.
 وقيل لعاشق: ما السرور؟ فقال: لَقِيَّةٌ تَشْفِي مِنَ الْفُرْقَةِ، واعتناق يداوى من الحُرْقَةِ.
 وكان يقال: إنه حَكِي عن الحكماء أن لَذَّةَ الثوبِ يوم، ولَذَّةَ المركبِ جمعة، ولذَّةَ المرأةِ شهر، ولذَّةَ الضَّيعةِ سنة، ولذَّةَ الدارِ الأبد.

الشعر في هذا الفن

أَطِيبُ الطَّيِّبَاتِ قَتْلُ الْأَعَادِي واختيال على مُتُونِ الْجِيَادِ^(٢)
 وَأَيَادٍ تَحْبُو بَيْنَ كَرِيمَا إنَّ عِنْدَ الْكَرِيمِ تَزْكُو الْأَيَادِي
 وَرَسُولٌ يَأْتِي بِوَعْدِ حَبِيبٍ وَحَبِيبٌ يَأْتِي عَلَى مِعَادِ
 [الخفيف]

وللخليع:

أَطِيبُ الطَّيِّبَاتِ أَمْرٌ وَنَهْيٌ لَا يُرَدَّانِ فِي الْأُمُورِ الْجَسَامِ
 وَامْتِطَاءُ الْخَيُْولِ فِي كَنَفِ الْأَمْرِ نِ بغير الإِقْدَامِ وَالْإِحْجَامِ
 وَسَمَاعُ الصَّهِيلِ فِي لَجَبِ الْمَوْءِ كَيْبٍ تَحْتَ اللَّوَاءِ وَالْأَعْلَامِ
 [الخفيف]

الموصلى:

أَطِيبُ الطَّيِّبَاتِ طَيْبُ الزَّمَانِ وَنِدَامُ الْمَنَعَمَاتِ الْعَوَانِي
 وَاحْتِسَاءُ الْعَقَارِ فِي غُرَّةِ الصَّبْرِ حِ عَلَى شَدْوِ مَا هَرَاتِ الْقِيَانِ
 وَأَمَانٌ مِنَ الْهَمُومِ وَمَالٌ لَيْسَ تَقْنِيهِ نَائِبَاتُ الزَّمَانِ
 [الخفيف]

(١) في الأصول: «ناظر».

(٢) ل: «واحتفال».

محاسن الفقر

رَوَى فِي الْحَدِيثِ أَنَّ الْفَقِيرَ الصَّبُورَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَبْلَ الْغَنِيِّ الشُّكُورِ بِأَرْبَعِينَ عَامًا. وَرَوَى عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّهُ قَالَ: لِأَنَّ أُمُوتَ وَعَلَى أَرْبَعَةَ آلَافٍ دِرْهَمَ أَنْوَى قَضَاءِهَا، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتْرِكَ بِمِثْلِهَا حَلَالًا.

وَقَالَ سَلْمَانَ الْفَارِسِيُّ: قَدْ خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ قَدْ تَرَكْتُ عَهْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. قِيلَ: وَلِمَ ذَلِكَ؟ قَالَ: لِأَنَّهُ قَالَ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَلَا يَكُونَنَّ^(١) زَاهِدًا مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا كَزَادِ الرَّاكَبِ»، وَأَنَا قَدْ جَمَعْتُ مَا تَرُونَ، فَقَوْمُوا مَا عِنْدَهُ فَبَلَغَ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ دِرْهَمًا.

وَكَانَ يُقَالُ: مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مَعَانِي فِي بَدَنِهِ، عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمَهُ، فَعَلَى الدُّنْيَا الْعَفَاءُ. وَرَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ مِنْ دَعَائِهِ: «اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَسْكِينًا، وَأَمِتْنِي مَسْكِينًا، وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ؛ اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ كَفَافًا» فَسُئِلَ بَعْضُهُمْ: مَا الْكِفَافُ؟ فَقَالَ: جُوعٌ يَوْمٍ، وَشَبَعٌ يَوْمٍ.

وَرَوَى أَنَّ عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ لَا يَأْوِي [إِلَى] سَقْفِ بَيْتٍ، فَأَلْجَأَهُ الْمَطْرُ ذَاتَ لَيْلَةٍ إِلَى غَارٍ، فَدَخَلَهُ، فِإِذَا سَبَّحَ قَدْ سَبَّحَهُ إِلَيْهِ، فَكَأَنَّ صَدْرَهُ ضَاقَ، فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ: يَا عِيسَى، ضَاقَ صَدْرُكَ! فَوَعِزَّتِي لَا زَوْجَنكَ أَرْبَعَةَ آلَافِ حَوْرَاءَ، وَلَا وِلْدَانَ عَلَيْكَ أَلْفَ عَامٍ! قَالَ: وَكَانَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ يَقُولُ فِي دَعَائِهِ: اللَّهُمَّ أَجْعَلْنِي وَأَجْعَلْ عِيَالِي، وَتَرَكْتَنِي فِي ظُلْمِ اللَّيْلِ بِلَا مُصْبِحٍ، وَإِنَّمَا تَفْعَلُ هَذَا بِأَوْلِيَانِكَ، فَبِأَيِّ مَنزِلَةٍ نَلْتُ هَذَا مِنْكَ يَا رَبَّ!

(١) كَذَا فِي ك، وَفِي ل: «الْفُقَرَاء».

مَسَاوِيءُ الْفَقْرِ

قيل: أمر الله عز وجل موسى عليه السلام فقال: أنت كورة كذا وكذا. فقال: يارب إني قتلت منهم نفساً، وأنا^(١) خائف. فقال الله جل وعز: إني قد أمت أقرباءه^(٢). فصار إليها، فأول ما استقبله قرابة للمقتول، فقال: يارب، هذا أخوه. قال: يا موسى، إني جعلته فقيراً، والفقير ميت من العقل، وعند الناس ميت، وعند الحلال والحرام ميت، والفقير الموت الأكبر. وقيل: إنه إذا أيسر الفقير ابتلى به ثلاثة: صديقه القديم يحفوه، وامرأته يتزوج عليها، وداره يهدمها وبينها.

وكان في الجاهلية رجل حسن الحال، وكان بنو عمه وأخواله يختلفون إليه فيعطيههم ويؤتمهم ويقوم بأمورهم. ثم اختل أمره، فأتاهم فحرموه، فأتى أهله كئيباً، فقالت له امرأته: ما حالك؟ فقال: دعيني عنك، وأنشأ يقول:

دعني عنك عدلى ما من العذل أعجب
وكان بنو عمي يقولون مرحباً
كأن مقلاً حين يغدو لحاجة
ولا بُدَّ حالٍ بعد حالٍ تقلب
فلما رأوني مقترأ مات مرحباً
إلى كل من يلقي من الناس مُذنب
[الطويل]

وقال بعضهم: رب مغبوط بميسرة هي داؤه، ومرحوم من عنم هو شفاؤه، والدنيا دُول، فما كان لك منها أتاك على ضعفك، وما كان عليك لم تدفمه بقوتك، ومن عتب على الدهر طالت معتبته.

وقال الأضبط^(٣)

أرض من الدهر ما أتاك به
من قر عيناً يعيشه نفعه
[المنسرح]

قال: وسمع سفيان الثوري قوماً يقول بعضهم لبعض: كيف حالك؟ فقال: لقد بلغني أن من كان قبلكم كان يكره أن يسأل أخاه عن حاله، إلا أن يكون مجمعاً على تغيير سوء حاله إذا أخبره. قال: وقال أوس بن حارثة: خير الغنى القنوع، وشر الفقر الخضوع.

(١) ك: «وإني».

(٢) ك: «قرباءه».

(٣) هو الأضبط السعدي، والبيت في اللآلي ٣٢٦.

قيل: ومَرَّ رجل من الأغنياء برجل من أهل العلم، فتحرَّك له وأكرمه، فقيل له: هل كانت لك إليه حاجة؟ قال: لا؛ ولكنَّ ذو المال مهيب. وقال فيه الشاعر:

أَرَى كُلَّ ذِي مَالٍ يُجِلُّ لِمَالِهِ وَمَنْ لَيْسَ ذَا مَالٍ يُهَانَ وَيُحَقِّرُ
وَيُخَذِّلُهُ الْإِخْوَانُ إِنْ قَلَّ مَالُهُ وَلَيْسَ بِمُحِبِّوْبٍ، بَلَى هُوَ يَهْجُرُ
وَأَقْنَعُ بِالْمَالِ الْقَلِيلِ تَكْرُمًا لِأَغْنَى بِهِ عَمَّا لَدَيْكَ وَأَصْبِرُ
[الطويل]

وذكروا أن زياد بن أبي سفيان أرق ذات ليلة وهو بالبصرة، فبعث إلى غيلان بن خرشة الضبي، وسويد بن منجوف السدوسي، والأحنف بن قيس السعدي، فلما توافقوا إليه قال: أتدرون فيم بعثت إليكم؟ إنه كان عندي ثلاثة من دهاقين كسرى، يحدثون بما كانت الأكاسرة فيه من ملكها، وعظيم شأنها، فتقاصر إلي ما نحن فيه، فبعثت إليكم لتصفوا لي ما كانت العرب فيه من البؤس وشدة الحال لتقنع بما نحن فيه، فإن الغنى القناعة.

قال غيلان: إن اقتصرت علي دون أصحابي حدثتك. قال: هات. قال: أخبرني عم لي صدوق أنه خرج في سنة أصابت العرب فيها شدة حتى أكلوا القد من القحط، واحمر أديم الأرض الأرض وأفاق السماء. قال: فطفقت ثلاثاً ما أطعم فيهن شيئاً إلا إلا ما يأكل بعيري من حشرات الأرض، حتى أصابني الميّد^(١)، فشدت على بطني حجراً من الجوع، فإني لكذلك في جوف الليل إذا دفعت إلى حي عظيم فسلمت، فقالوا: من هذا؟ قلت: طارق ليل يلتمس القرى، فقالوا: والله ما أبقث لنا هذه السنة قرى ولا فضلاً، فقالت امرأة كانت إلى جانب القبة: يا عبد الله، دونك القبة العظيمة، فإن كان عند أحد خير فعندها. فأمتها، فلما دفعت إليها سلمت، فقيل لي: من هذا؟ فقلت: طارق ليل يلتمس قرى، فقال رجل منهم: يا فلان، هل عندك قرى؟ قال: نعم؛ قد أبقيت في ضرع الفلانة^(٢) رسلاً^(٣) لطارق ليل، ثم سار إليها فناداها، فانبعثت وتفاجت^(٤) عن مثل الظبي القنيص، فضرب زبونها^(٥)، ثم حلب في علبه^(٦) معه؛ حتى علتها رغو اللبن، وكل ذلك برأى متى ومسمع؛ فلقد سمعت الغناء الحذاء، فما سمعت شيئاً كان أحب إلي مسامعي من صوت شيخها في تلك العلبة. ثم أقبل بها يريدني، فلما أهويت لأخذها عثر فانكفت العلبة وذهب ما فيها؛ فوالله لقد فقدت الأهل والمال فما أصبت بشر كان أفرغ لقلبي، ولا أعظم موقماً عندي من انكفاء تلك العلبة على مثل الحال التي كنت فيها؛ فلما رأني صاحب القبة ورأى ما بي من شدة الجهد، خرج حتى دخل في إبلة؛ وهو يقول: صدق أخو بني قيس في قوله:

(١) الميّد هنا: الغتيان والدوار.

(٢) الفلانة، بال التعريفية، كناية عن اسم ما لا يعقل، ويريد به ها هنا الناقة.

(٣) الرسل: ما كان من بقية لبن.

(٤) تفاجت: أفرجت رجلها.

(٥) الزبونة: العنق.

(٦) العلبة: قدح ضخم من جلود الإبل يجلب فيه.

هُمْ يَطْرُدُونَ الْفَقْرَ عَنْ جَارِهِمْ حَتَّى يُرَى كَالْعُصْبِ النَّاضِرِ
[السريع]

فَأَخَذَ نَاقَةَ كَوْمَاءَ فَكَشَفَ عَنْ عُرْقُوبِيِّهَا ثُمَّ قَالَ: دُونَكَ السَّنَامُ، فَلَمَّا وَاقَى الْوَدُكَ بَطْنِي وَحَفُوفِ الْمَاءِ - وَلَا عَهْدَ لِي قَبْلَ ذَلِكَ بِشَيْءٍ مِنْهُ - خَرَزْتُ مَغْشِيًا عَلَيَّ، فَوَ اللَّهُ مَا أَيْقَظُنِي إِلَّا بَرْدُ السَّحَرِ. فَقَالَ زِيَادٌ: قَطَّنِي، قَدْ اِكْتَفَيْتُ بِهَذَا، هَذَا وَاللَّهِ غَايَةَ الْجُهْدِ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مَنَّ عَلَيْنَا بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهَدَانَا إِلَى الْإِسْلَامِ، وَجَعَلَنَا مَلُوكًا ثُمَّ قَالَ: لَا أَبَ لِسَانَكَ. فَمَنْ الرَّجُلُ؟ فَقَالَ: عَامِرُ بْنُ الطَّفِيلِ، فَقَالَ: أَبُو عَلِيٍّ! وَاللَّهِ كَانَ لَهَا وَلَا مِثَالَهَا^(١).

قال: وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: لقد رأيتني في الجاهلية وأخية لي؛ لزرعى ناضحاً^(٢) لأبويتنا، قد زدوتنا أمتنا يمتنيها من الهبيد^(٣)، فإذا أسخنت علينا الشمس ألقىت الشملة على أختي، وخرجت عريان أسعى، فظلت نرعى ذلك الناضح، فترجع إلى أمتنا من الليل. وقد صنعت لنا لفيفة^(٤) من ذلك الهبيد فتعشى، فواخصبناه!. قال بعض جلسائه: فوالله لقد حسدته على ذلك.

قال: وسئل عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن جهد البلاء، فقال: قلة المال، وكثرة العيال. وكان الفضيل يقول: المال يسود غير السيد، ويقوى غير الأيد. وفي كتاب «كلىة ودمنة»: الرجل إذا افتقر أتهمه من كان له مؤتمناً، وأساء به الظن من كان يظن به حسناً، وإن أذنب غيره ظنوه به، وإن كان لسوء الظن والتهمة موضعاً حملوا على ذلك الذى يفعله غيره.

وأنشد في ذلك:

إِذَا قَلَّ مَالُ الْمَرْءِ قَلَّ صَدِيقُهُ وَأُؤِمَّتْ إِلَيْهِ بِالْعِيُوبِ الْأَصَابِعُ
[الطويل]

ولآخر^(٥):

إِذَا قَلَّ مَالُ الْمَرْءِ قَلَّ حَيَاؤُهُ وَضَاقَتْ عَلَيْهِ أَرْضُهُ وَسَمَاؤُهُ
وَحَارَ وَلَا يَدْرِي وَإِنْ كَانَ حَازِمًا أَقْدَامُهُ خَيْرٌ لَهُ أَمْ وَرَاؤُهُ!

(١) الخبر مع اختلاف في الرواية في عيون الأخبار ٣: ٢٤٤.

(٢) الناضح: البعير يستقى عليه؛ ثم استعمل في كل بعير وإن لم يحمل الماء.

(٣) الهبيد: حب الحنظل.

(٤) لفيفة: المصيدة المغلطة، لأنها تلفت؛ أى تلوى.

(٥) لصالح بن عبد القدوس، وانظر أدب الدنيا والدين ٢٢٥.

إِذْ قَلَّ مَالُ الْمَرْءِ قَلَّ حَيَاؤُهُ وَلَا خَيْرَ فِي وَجْهِهِ يَقْلُ حَيَاؤُهُ
[الطويل]

وقيل لأعرابي:

ما أشدَّ الأشياء؟ قال: كبدُ جائعة، تودى إلى أمعاء ضيقة.

وقيل لأعرابي: لم يقول أهل الحضرة: باعك الله في الأعراب؟ قال: لأننا والله نعرى جلده،
ونجميع كبده، ونطيل كده.

ومما قيل فيه من الشعر:

| | |
|---------------------------|---------------------------|
| أعظمُ من فاقةٍ وجوعٍ | مُقامُ حرٍّ على خضوعٍ |
| فلا تُردُّه ولا تُردُّ ما | أنيلُ بالذلِّ والخشوعِ |
| واطلبُ معاشاً بقدرِ قوتِ | وأنت في منزلٍ رفيعِ |
| لعلَّ دهرًا غداً بنحسٍ | يعودُ بالسعدِ في الرجوعِ! |

[مخلع البسيط]

آخر:

| | |
|-------------------|------------------------|
| الموتُ خيرٌ للفتى | من أن يعيشَ بغيرِ مالٍ |
| والموتُ خيرٌ للكر | يم من الضراعةِ للرجالِ |

[مجزوء الكامل]

آخر:

| | |
|----------------------------------|-------------------------------|
| بخلتُ وليسَ مِنِّي سجيَّةٌ | ولكن رأيتُ الفقرَ شرًّا سبيلِ |
| لموتِ الفتى خيرٌ من البخلِ للفتى | وللبخلِ خيرٌ من سؤالِ بخيلِ |
| لعمرك ما شيءٌ لوجهك قيمةٌ | فلا تلقَ مخلوقًا بوجهِ ذليلِ |
| ولا تسألنَّ من كان يسألُ مرَّةً | فللموتِ خيرٌ من سؤالِ سئولِ |

[الطويل]

آخر:

| | |
|------------------------------|---|
| لا تحسبنَّ الموتَ موتَ البلى | فإنما الموتُ سؤالُ الرجالِ |
| كلاهما موتٌ ولكنَّ ذا | أشدُّ من هذا لذلِّ السؤالِ ^(١) |

[السريع]

آخر في معناه:

مَنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا أَخَا ثَرَوَةٍ فَنَحْنُ مِنْ نَظَارَةِ الدُّنْيَا

(١) ك: «ذاك! على كل حال».

كَأَنَّا لَفْظٌ بِلَا مَعْنَى
[السريع]

غَمٌّ شَدِيدٌ وَعَذَابٌ
وَعَبِيدٌ وَدَوَابٌّ
وَحَصَادٌ وَكِرَابٌ^(١)
لِئِنِّي الدُّنْيَا يَبَابٌ
وَحَطَطْنَا عَنْ رِكَابٍ
نَ بَصِيرًا بِالْحَسَابِ
[مجزوء الرمل]

وَلَا لَخَلْقٍ عَلَيَّ إِفْضَالٌ
وَخَادِمِي وَالْوَكِيلُ بَقَالُ
[المنسرح]

أَخْفُ الكَيْسِ إِغْلَاءُ الشَّعِيرِ
وَصَرْتُ مِنَ الْبِغَالِ إِلَى الْحَمِيرِ
أَزْجَى الرَّجْلِ تَرْجِيَةً الْكَيْسِ
[الوافر]

لِي يَوْمًا مَطِيَّةٌ غَيْرُ رَجُلِي^(٢)!
قَرَّبُوا لِلرَّحِيلِ قَرَّبْتُ نَعْلِي
مَنْ رَأَى فَقَدْ رَأَى وَرَحَلِي

صَبْرًا عَلَى الدَّلِّ وَالصُّغَارِ
وَمَنْ جَوَادٍ بِلَا حِمَارٍ
[مخلع البسيط]

نَرْمُقُهَا مِنْ كَثْبٍ هَكَذَا

ولآخر:

قَدْ أَرَاكَ اللهُ مِنْ
وَاسْتَرَحْنَا مِنْ عِيَالٍ
وَضِيَاعٍ وَنَخِيلٍ
وَاسْتَرَحْنَا مِنْ وَقُوفٍ
وَقِينَعْنَا وَأَقْمِنَا
حَبْدًا الْوَحْدَةَ إِنْ كَا

آخر:

الْحَمْدُ لِلَّهِ لَيْسَ لِي مَالٌ
الْحَانَ بَيْتِي، وَمَشْجَبِي بَدَنِي

لآخر:

بَقِيْتُ وَمَرْكَبِي الْبَرْدُونُ حَتَّى
وَصَرْتُ إِلَى الْبِغَالِ فَأَعْجَزْتَنِي
فَعَزَّتَنِي الْحَمِيرُ فَصَرْتُ أَمْشِي

ولآخر:

أَتَرَانِي أَرَى مِنَ الدَّهْرِ يَوْمًا
وَإِذَا كُنْتُ فِي جَمِيعٍ فَقَالُوا
حَيْثَمَا كُنْتُ لَا أَخْلَفُ رَحْلًا

أبو هيفان:

يَا مَوْلِجَ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ
كَمْ مِنْ حِمَارٍ لَهُ حِمَارٌ

(١) الكراب: تقليب الأرض للزرع.
(٢) المقد ٣: ٤٦، ٦: ٢٦٥ ونسبها إلى الشمعق.

المحدوفى:

تَسَامَى الرَّجَالُ عَلَى خِيْلِهِمْ وَرَجُلًا مِنْ بَيْنِهِمْ حَافِيَةً
فَإِنْ كُنْتَ حَامِلَنَا رَبَّنَا وَإِلَّا فَارْجُلِ بْنِ الرَّزَائِيَةِ

* * *

قال: وكان أعرابي بالبصرة فى بيت، فكان إذا خرج استوثق من غلق بابه، فيظن جيرانه أن له مالا، فقال:

لَيْسَ إِغْلَاقِي لِبَابِي أَنْ لِي فِيهِ مَا أَخْشَى عَلَيْهِ السَّرْقَا
إِنَّمَا أَغْلَقْتُهُ كَيْ لَا يَرَى سَوْءَ حَالِي مِنْ يَمُرِّ الطَّرْقَا
لَيْسَ لِي فِيهِ سِوَى بَارِيَةٍ وَبَلَى أَخْلَقْتُ لِبَدَا خَلْقَا^(١)
مَنْزَلٌ دَاخِلُهُ الْفَقْرُ فَلَوْ دَخَلَ السَّارِقُ فِيهِ سُرْقَا
[الرمل]

ولآخر:

بَيْتٌ يُرَاعَى النِّجْمَ مِنْ جُوعِ بَطْنِهِ وَيُصْبِحُ يُلْقَى ضَاحِكًا مَتَبَسِّمًا
[الطويل]

ولآخر:

وَعَاقِبَةُ الصَّبْرِ الْجَمِيلِ جَمِيلَةٌ وَأَحْسَنُ أَخْلَاقِ الرَّجَالِ التَّفَضُّلُ
وَلَا عَارَ أَنْ زَالَتْ عَنِ الْمَرْءِ نِعْمَةٌ وَلَكِنَّ عَارًا أَنْ يَزُولَ التَّجَمُّلُ^(٢)

ولآخر:

وَكَمْ مِنْ فَقِيرٍ بَعْدَ جَهْدٍ وَحَاجَةٍ هُوَ الْيَوْمَ مَحْسُودٌ وَقَدْ كَانَ يُرْحَمُ!
ولآخر:

قَدْ يَكْثُرُ الْمَالُ يَوْمًا بَعْدَ قَلْتِهِ وَيَكْتَسِي الْفُضْنَ بَعْدَ الْيُبْسِ بِالْوَرَقِ
[البسيط]

آخر:

كَمْ مِنْ غَنِيٍّ رَأَيْتَ الْفَقْرَ أُدْرِكُهُ وَمِنْ فَقِيرٍ غَنِيَ بَعْدَ إِقْلَالِ
[البسيط]

آخر:

وَكَمْ مِنْ غَنِيٍّ كَانَ بِالْمَالِ مُثْرِيًا هُوَ الْيَوْمَ مَرْحُومٌ وَقَدْ كَانَ يُحْسَدُ
[الطويل]

(٢) ل: «التحمل».

(١) البارية: المحصورة.

آخر:

وكم من فتيّ كانَ ذا ثروةٍ رَمَتْهُ الحوادثُ حتى افتقرَ
[المتقارب]

آخر:

إذا كانَ جَدُّ المرءِ في الشيءِ مقبلاً وإن أدبرتْ دُنياهُ عنه توَعَّرتْ
وإن قلَّ مالُ المرءِ أقصاهُ أهلهُ وكذَّبَهُ الأقسامُ في كلِّ منطقيّ
تأتَتْ لهُ الأشياءُ من كلِّ جانبٍ عليه، وأعيَتْهُ وُجوهُ المطالبِ
وأعرضَ عنه كلُّ إلفٍ وصاحبٍ وإن كانَ فيه صادقاً غيرَ كاذبٍ
[الطويل]

آخر:

متى ما يرى الناسُ الفقيرَ وجارَهُ وليسَ الغنيّ والفقرُ من حيلةِ الفتيّ
يقولونَ: هذا عاجزٌ وجليدٌ ولكنَ أحاطَ قَسَمْتُ وجدودٌ
[الطويل]

وقال عبدُ الأعلى القاضي: الفقيرُ مرَقتهُ سِلقةٌ ورداؤه عِلقةٌ، وسَمَكتهُ سِلقةٌ^(١).

ولآخر:

مَنْ كانَ ذا مالٍ كثيرٍ فلمْ يفتقرُ في النَّفسِ وفيها الغنيّ
يقنعُ فذاك الموسرُ المُقترُ وفي غنيّ النفسِ الغنيّ الأكبر
[السريع]

* * *

وكتب بعضهم يستميحُ بعضُ الأغنياء: هذا كتابُ فتيّ أزرى الزمانُ بهِ
شَطَّتْ منازلُه عنه وضعَّعتهُ

قد كادَ تنفطرُ الأضلاعُ من هيمتهِ
رَبُّ الزمانِ فأيدى الضَّعفَ في كَلِمتهِ
[البيسط]

طَوَّراً بدمعٍ، وَيبيكي تارةً بدميه
يرجو بـجُودِكَ أن يُفتِكَ من عَدَميه
أنتَ المداوي صريعَ الدهرِ من سَقَميه
[البيسط]

يُدري الدموعُ بعينٍ غيرِ جامدةٍ
أضحى بيبائكِ محزوناً لهُ أملُ
يا ذا المُقدِّمِ في الأفعالِ من كرمِ

ولآخر:

خُلِقَ واسعٌ، ومالٌ قليلُ واعتداءً من الزمانِ طويلُ

(١) السِّلقة: نبتٌ يؤكل، والعلقة: قميصٌ بلا كمين، والشَّلقة: ضربٌ من السمك.

ما اخْتِيَالُ الفتي بدولةِ دهرٍ
كَلِمًا رامَ نهضةً أقعدتهُ
وعليه بالنائباتِ تدولُ!
غائلات من الزمانِ تقولُ^(١)
[الطويل]

* * *

فيمَن أترى بعدَ الفقرِ، أنشدَ لرجلٍ من المحدثين:
لئن كنتَ قد أُعْطيتَ خِزًّا تجرهُ
أرى أمةً قد أدبرتْ لذهابِ
فلا تَعَجِبَنَّ أن تملكَ النَّاسَ إنِّي^(٢)
تبدلته من قَروةٍ وإهابِ
أرى أمةً قد أدبرتْ لذهابِ
[الطويل]

ولآخر:

فصار لا يطرفُ من كِبْرِهِ
فإنه يحسنُ في فقْرِهِ^(٣)
تاه على إخوانه بالغي
أعادَه الله إلى حالِهِ
[السريع]

لدعبل الخزاعي:

وطورا على بَغلةِ نَدْبِهِ^(٤)
مِ مانالِ خَيْطًا ولا هُدْبِهِ
يش في رزقه الكلبُ والكلْبَهُ
لكنه الرزق من يعيد
عطاياه تغدو على سابعِ
فلو خُصَّ بالرزقِ بخلُ الكرا
[المتقارب]

ولآخر:

كنتَ إذ كنتَ عديما لي خِلاَ ونديما
ثم أثيرتَ فأعرضتَ
لنا ذنبا عظيما
ن من كان لثيما^(٥)
هكذا يفعل بالإخوا
[مجزوه الرمل]

ولآخر:

صحتُ إذ أنت لا تصحبُ
وإذ أنت لا غيرُكَ الموكِبُ^(٦)

(١) ط: «عالمته... تعول».

(٢) ك: «أن تملك الدهر».

(٣) ك: «قفره».

(٤) الفرس السابح: السريع، والبغلة النديبة: الماضية النشط.

(٥) ط: «كرميما».

(٦) الموكب: من يلزم الموكب.

ونفْسُكَ نَفْسُكَ تَسْتَجِيبُ
ومشِيكَ أضعافُ ما تَرَكَبُ
يَنالُ فأدركُ ما أَطْلُبُ
كأني ذُو عُرَّةٍ أَجْرُبُ^(١)

[المتقارب]

وإذ أنت تفرحُ بالزائرين
وإذ أنت تكثرُ ذمَّ الزمانِ
فقلتُ كريمٌ له همةٌ
فنلتُ وأقصيتني جانبًا

(١) العرة: قرحة الجرب.

محاسن الثقة بالله عز وجل

قيل: خطب سليمان بن عبد الملك: الحمد لله الذى أنقذنى من ناره بخلافته.
وقال الوليد بن عبد الملك: لأشفعن للحجاج بن يوسف، وقرّة بن شريك [عند ربى] (١)
وقال الحجاج: يقولون: مات الحجاج ا فمه (٢) ! ما أرجو الخير كله إلا بعد الموت، والله ما رضى
الله البقاء إلا لأهون خلقه عليه إبليس؛ إذ قال: ﴿رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ
الْمُنظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣)
وقال أبو جعفر المنصور: الحمد لله الذى أجارنى بخلافته، وأنقذنى (٤) من النار بها.

وحدثنا إبراهيم بن عبد الله، رفع الحديث إلى أنس بن مالك قال: دخلنا على فتى من الأنصار؛
وهو ثقيل فى مرضه، فلم نخرج من عنده حتى قضى (٥) عليه، وإذا عجوز عند رأسه، فالتفت إليها
بعض القوم وقال: استسلمى لأمر الله عز وجل واحتسبى. قالت: أمات ابنى؟ قال: نعم؛ قالت
أحق ما تقولون! قلنا: نعم؛ فمدت يدها إلى السماء ثم قالت: اللهم إنك تعلم أنى أسلمت لك،
وهاجرت إلى نبيك محمد ﷺ، رجاء أن تعينى عند كل شدة، اللهم فلا تحملنى هذه المصيبة اليوم.
فكشفت أنها الثوب الذى سجيناه به عن وجهه؛ وما برحنا حتى طعم وطعمنا معه (٦).

قيل: وبيننا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يعرض الناس، إذ هو برجل معه صبي له، فقال له
عمر رضى الله عنه: ويحك! ما رأيت غراباً أشبه بغراب من هذا بك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، والله
ما ولدته أمه إلا وهى ميتة، فاستوى عمر رضى الله عنه جالساً وقال: ويحك! حدثنى، قال: خرجت فى
غزاة وأمه حامل به فقالت: تخرج وتدعنى على هذه الحالة حاملاً متقللاً! فقلت: أستودع الله ما فى
بطنك!

فغبت ثم قدمت وإذا بابى مغلق، فقلت: ما هذا؟ وما فعلت فلانة؟ قالوا: ماتت. فذهبت إلى

(١) تكملة من المحاسن والأضداد ١٦٦.

(٢) المحاسن والأضداد: «٥٥».

(٣) سورة الحجر ٣٦ - ٣٨.

(٤) ل: «أبعدنى».

(٥) المحاسن والأضداد: «حتى قضى نحبه».

(٦) الخبر فى المحاسن والأضداد ١٦٦، ١٦٧.

قبرها وكنْتُ عنده، فلما كان من الليل قعدتُ مع بنى عَمِي أتحدّث؛ وليس يسترنا مع البقيع (١) شيء، فرفعت لى ناراً بين القبور، فقلتُ لبنى عَمِي: ما هذه النار؟ قال أحدهم: يا أبا فلان، نرى على قبر فلانة كل ليلة ناراً. فقلتُ: إنا لله وإنا إليه راجعون! والله لقد كانت صوامة قوامة عفيفة، والله لأنبشَنَ قبرها، ولأنظرنَ ما حالها؟ فأخذتُ فأساً وأتيتُ القبرَ فإذا هو مفتوح والمرأة ميتة، وهذا حَيٌّ يَدبُّ حولها، فنادى منادٍ: أيها المستودع ربّه وديعته، خذ وديعتك، أما إنك لو استودعته أمّه لوجدتها. فأخذته، وعاد القبر كما كان، وهو والله يا أمير المؤمنين هذا!

(١) البقيع، ويضاف أحياناً إلى الفرقد: مقبرة أهل المدينة.

مساوىء الثقة

قال: عيسى بن مريم عليه السلام: يا معشر الحواريين، إن ابن آدم خُلِقَ في الدنيا من أربعة منازل، هو في ثلاثة منها واثق بالله عز وجل، وهو في الرابع شيء الظن، يخاف خذلان الله عز وجل إياه، فأما المنزلة الأولى فإنه خُلِقَ في بطن أمه خَلْقًا من بعد خُلِقَ في ظلمات ثلاث: ظلمة البطن^(١)، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة^(٢)، يُنزل الله جل وعز عليه رزقه في جوف ظلمة البطن، فإذا خرج من ظلمة البطن وقع في اللبن، لا يخطو إليه بقدم ولا ساق ولا يتناولُه بيده، ولا ينهض بقوة، ويكره عليه إكراهًا، ويوجره إيجابًا؛ حتى ينبت عليه عظمه ودمه ولحمه، فإذا ارتفع من اللبن وقع في المنزلة الثالثة في الطعام، بين أبوين يكتسبان عليه من حلال وحرام، فإن مات أبواه من غير شيء عَطَفَ عليه الناس؛ هذا يُطعمه، وهذا يسقيه، وهذا يُؤويه^(٣)، فإذا وقع في المنزلة الرابعة واشتد واستوى وكان رجلًا خشيئًا؛ ألا يرزق، فيشب^(٤) على الناس، فيخون^(٥) أماناتهم، ويسرق أمتعتهم، ويكابرهم^(٦) على أموالهم مخافة خذلان الله عز وجل إياه^(٧)!

(١) كذا في ك والمحاسن والأضداد، وفي ل: «البصر».

(٢) المشيمة: غشاء ولد الإنسان، يخرج معه عند الولادة.

(٣) في الأصول: «يرويه».

(٤) ط: «يثيب»، وما أثبتته من المحاسن والأضداد.

(٥) ل: «يخون».

(٦) ك: «ويكأثرهم».

(٧) المحاسن والأضداد ١٦٧.

محاسن طلب الرزق

بلغنا عن ابن السَّمَاك أَنَّهُ قَالَ: لَا تَشْتَغَلْ بِالرِّزْقِ الْمَضْمُونِ، عَنِ الْعَمَلِ الْمَفْرُوضِ؛ وَكُنَ الْيَوْمَ مَشْغُولًا بِمَا أَنْتَ عَنْهُ غَدًا مَسْتَوْلٍ، وَإِيَّاكَ وَالْفُضُولَ؛ فَإِنَّ حَسَابَهَا طَوِيلٌ^(١).

وقال عمرو بن عُتَيْبَةَ: مَنْ لَمْ يَقْدَمْهُ الْحَزْمَ، أَخْرَهُ الْعَجْزَ^(٢).

وقال الله تبارك وتعالى: يَا بَنَ آدَمَ، أَحْدِثْ لِي سَفْرًا، أَحْدِثْ لَكَ رِزْقًا^(٣).

وفي بعض الحديث: «سافروا تقنموا».

وقال الكميت:

وَلَنْ يُزِيحَ هُمُومَ النَّفْسِ إِذْ حَضَرَتْ حَاجَاتُ مِثْلِكَ إِلَّا الرَّحْلُ وَالْجَمَلُ
[البيسط]

وقال الطائي:

وَطَوَّلَ مَقَامَ الْمَرْءِ فِي الْحَيِّ مَحَلٍّ لِدِيَابِجَتِيهِ فَاغْتَرِبَ تَتَجَدَّدُ^(٤)
فَإِنِّي رَأَيْتُ الشَّمْسَ زِيدَتْ مَحَبَّةً إِلَى النَّاسِ إِذْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ بِسَرْمِدٍ
[الطويل]

وقال بعض الحكماء: لَا تَدْعُ الْحِيلَةَ فِي التَّمَاسِ الرِّزْقِ بِكُلِّ مَكَانٍ؛ فَإِنَّ الْكَرِيمَ مُحْتَالٌ، وَالذَّنِيَّ عِيَالٌ^(٥).

وقال:

فَسِرٌّ فِي بِلَادِ اللَّهِ وَالتَّمِيسِ الْغَنَى تَعِشْ ذَا يَسَارٍ أَوْ تَمُوتَ فَتُعَذَّرَا
وَلَا تَرْضَ مِنْ عَيْشٍ بَدُونٍ وَلَا تَتَمَّ وَكَيْفَ يَنَامُ اللَّيْلُ مِنْ كَانَ مُعْسِرًا^(٦)!
[الطويل]

وتقول العرب^(٧): كَلْبٌ جَوَالٌ، خَيْرٌ مِنْ أَسَدٍ رَابِضٍ.

وتقول أيضًا: مِنْ غَلَى دِمَاغُهُ صَانِقًا، غَلَتْ قِدْرُهُ شَاتِيًا.

ووقع عبد الله بن طاهر: «من سعى رعى، ومن لزم المنام، رأى الأحلام».

(١) المحاسن والأضداد ١٧٠: «ويطول».

(٢-٢) المحاسن والأضداد ١٦٨.

(٣) هو أبو تمام ديوانه ٢٣٢.

(٤) المحاسن والأضداد ١٦٨.

(٥) المحاسن والأضداد ١٦٨ بدون نسبة.

(٦) المحاسن والأضداد ١٦٨: «العامّة».

وقال^(١) الْكِسْرَوِيُّ: أَخَذَهُ مِنْ تَوْعِيعِ أَنْوَشِرَوَانَ بِالْفَارَسِيَّةِ^(٢) «هَرَكَ رُوذْخُرْذَهَرَكَ حَسِيدَ خَافٍ وَبِنْدِ^(٣)»، وَأَنْشَدَ:

كفى حزناً أن النوى قدفت بنا
ولو أننا إذ فرق الدهر بيننا
بعيدا، وأن الرزق أعيت مذاهبه
غنى واحد منا تمول صاحبه
ولكننا من دهرنا في مئونة
يُكَالِبُنَا طَوْرًا، وَطَوْرًا نِكَالُهُ

[الطويل]

* * *

ولآخر:

إذا المرء لم يبيغ المعاش لنفسه
وصار على الأذنين كلاً وأوشكت
شكا الفقر؛ أو لأم الصديق فاكثرا
صلات ذوى القربى له أن تنكرا^(٣)

[الطويل]

ولآخر:

ومن يك مثل ذا عيالٍ ومقتراً
يلبغ عنراً؛ أو ينال غنيمة
من المال يطرح نفسه كل مطرح^(٤)
ومبلغ نفس عذرها مثل منجج

[الطويل]

ولآخر:

وليس الرزق عن طلبٍ حثيثٍ
تجىء بملئها يوماً ويوماً
ولكن أتى ذلوك في الدلاء^(٥)
تجىء بحمأةٍ وقليل ماءٍ

[الوافر]

ولآخر:

وقد علمتُ وعلم المرء ينفعه
أسعى له فيعنيني تطلبه
أن الذي هو رزقي سوف يأتي^(٦)
ولو قعدت أتاني لا يعنيني

[البيسط]

(١-١) المحاسن والأضداد: «هذا المعنى سرقه من توقيعات أنوشروان بالفارسية فإنه يقول:»

(٢) رجعت في ترجمة هذا النص الفارسي إلى السيد نصر الله الطرازي مفهرس الكتب الفارسية والتركية بالدار: فأفادني

بأنه يوافق في المعنى ما ذكر من توقيع عبد الله بن طاهر.

(٣) ط: «على الأذنين» تصحيف.

(٤) لمروة، ديوانه ٨٨.

(٥) من أبيات تنسب إلى أبي الأسود الدؤلي، ملحق ديوانه ٤٣.

(٦) لمروة بن أذينة، من مقطوعة له في أمال المرتضى ١: ٤٠٨، ٤٠٩؛ وروايته البيت الأول هناك:

• قَدَّ عَلِمْتُ وَمَا الْإِشْرَافُ مِنْ خُلُقِي •

ولآخر:

ولا كُلُّ شُعْلٍ فِيهِ لِلْمَرْءِ مَنَفَعَةٌ^(١)
عَلَيْكَ سَوَاءٌ، فَاغْتَنِمْ لَذَّةَ الدَّعَةِ
أَلَّا كُلُّ ضَيْقٍ فِي عَوَاقِبِهِ سَعَةٌ
[الطويل]

لَعَمْرُكَ مَا كُلُّ التَّبْطُلِ ضَائِرٌ
إِذَا كَانَتْ الْأَرْزَاقُ فِي الْقُرْبِ وَالنَّوَى
وَإِنْ ضُفَّتْ فَاصْبِرْ يُفْرَجِ اللَّهُ مَا تَرَى

ولآخر:

وَكُلُّ مَسْتَأْنَفٍ فِي اللَّوْحِ مَسْطُورٌ^(٢)
وَكُلُّ مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَمَحْظُورٌ
إِنَّ الْحَرِيصَ عَلَى الدُّنْيَا لِمُفْرُورٌ
[البسيط]

سَهْلٌ عَلَيْكَ فَإِنَّ الْأَمْرَ مَقْدُورٌ
يَأْتِي الْقَضَاءُ بِمَا فِيهِ لِمَدَّتِهِ
لَا تَكْذِبَنَّ وَخَيْرُ الْقَوْلِ أَصْدَقُهُ

آخر:

وَقَدْ تَقَدَّمَكَ الْمَقْدُورُ وَالْقَلَمُ
[البسيط]

لَا يُتَعَبَّنَكَ شَيْءٌ أَنْتَ تَطْلُبُهُ

ولآخر:

يَأْتِيكَ رِزْقُكَ حِينَ يُؤَدَّنُ فِيهِ
[الكامل]

لَا تَعْتَبِينَ عَلَى الْعِبَادِ فَإِنَّمَا

ولآخر:

فَاصْبِرْ فَلَيْسَ لَهَا صَبْرٌ عَلَى حَالٍ^(٣)
دُونَ السَّيِّئِ ، وَيَوْمَا تَخْفِضُ الْعَالِيَّ^(٤)
[البسيط]

هِيَ الْمَقَادِيرُ تَجْرِي فِي أَعْتِنِهَا
يَوْمًا تَرِيضُ خَسِيسَ الْقَوْمِ تَرْفَعُهُ

ولآخر:

فَلَيْسَ مِنْ شِدَّةٍ إِلَّا هَا فَرَجٌ^(٥)
وَيُضْبِحُ الْيَوْمَ قَدْ لَاحَتْ لَهُ السَّرْجُ
[البسيط]

أَصْبِرْ عَلَى زَمَنِ جَمٍّ تَلَوْنُهُ
تَلْقَاهُ بِالْأَمْسِ فِي عَمِيَاءٍ مُظْلِمَةٍ

(١) المحاسن والأضداد ١٧٠.

(٢) المحاسن والأضداد ١٧٠.

(٣) كذا في ل، وفي ك والمحاسن والأضداد ١٧١: «دع المقادير».

(٤) ل: «خسيس القدر».

(٥) المحاسن والأضداد ١٧١: «جم نواتيه».

ولآخر:

وَأَخْرَجَ قَدْ تَقَضَى لَهُ وَهُوَ آيِسٌ (١)
فَتَأْتِي التِّي تَقَضَى لَهُ وَهُوَ جَالِسٌ
[الطويل]

أَلَا رَبِّ رَاجِي حَاجَةً لَا يَنَالُهَا
يَجُولُ لَهَا هَذَا ، وَتَقَضَى لغيرِهِ

ولآخر:

وَتُصْبِحُ مِنْ خَوْفِ الْعَوَاقِبِ آمِنًا!
ضَمِنِيَا، وَلَا تَرْضَى بِرَبِّكَ ضَامِنَا!
فَاصْبَحْتَ مَدْخُولَ الْيَقِينِ مُبَايِنَا
[الطويل]

اتَطَلَّبُ رِزْقَ اللَّهِ مِنْ عِنْدِ غَيْرِهِ
وَتَرْضَى بِصُرَافِي وَإِنْ كَانَ مُشْرِكًا
كَأَنَّكَ لَمْ تَقْنَعْ بِمَا فِي كِتَابِهِ

ولآخر:

بَشِيرٍ عَرَضِي وَيَذَلُّ الْوَجْهَ لِلنَّاسِ
فِي ضَمْنِ ذِي الْعَرْشِ مِنْ شَكِّ وَلَا بَاسٍ
وَفِي سَوَالِ سِوَاهُ أَعْظَمُ الْيَاسِ
[البيسط]

إِنِّي لِأَكْرَمُ نَفْسِي أَنْ أَدْنَسَهَا
وَاللَّهُ ضَامِنٌ رِزْقِي مَا حَبِيتُ وَمَا
إِنِّي رَأَيْتُ سَوَالِ اللَّهِ مَكْرُمَةً

قيل: ووجد في بعض خزائن ملوك العجم لوح من حجارة فيه مكتوب: كُنْ لِمَنْ تَرْجُو أَرْجَى
مِنْكَ لِمَا تَرْجُو، فَإِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ خَرَجَ يَقْتَبِسُ نَارًا فَنُودِيَ بِالنَّبِوَّةِ.

وأنشد:

وَأَعْيَتِي الْمَسَائِلُ بِالْقُرُوضِ (٢)
وَرَبُّ الْعَرْشِ ذُو فَرْجٍ عَرِيضٍ
[الوافر]

وَلِمَا أَنْ عَيِّتُ بِمَا أَلَقِي
ذَكَرْتُ اللَّهَ لَا أَرْجُو سِوَاهُ

ولآخر:

أَبَشِرْ بِخَيْرٍ كَأَنَّكَ قَدْ فَرَجَ اللَّهُ
لَا تَيَأَسَنَّ فَإِنَّ الصَّانِعَ اللَّهَ
فَكَاشَفَ الضَّرَّ وَالْبَلْوَى هُوَ اللَّهُ
[البيسط]

يَا صَاحِبَ الْغَمِّ؛ إِنْ الْغَمُّ مَنقَطَعٌ
الْيَاسُ يَقَعُ أَحْيَانًا بِصَاحِبِهِ
إِذَا ابْتَلَيْتَ فَتَقَّ بِاللَّهِ وَارْضَ بِهِ

(١) المحاسن والأضداد ١٧١ من غير نسبة.

(٢) ط: «والقروض» وما أثبتته من المحاسن والأضداد ١٧١.

ولآخر:

وأخى سُقْمٍ من السَّقْمِ خَرَجَ
فَلَعِنَدَ الْيَأْسِ يَأْتِيكَ الْفَرْجُ
[الوافر]

كَمْ رَأَيْنَا مِنْ صَحِيحٍ قَدْ هَوَى
لَا تَكُنْ إِنْ رَأَى أَمْرٌ أَيْسَا

ولآخر:

فأصبر ، فكلُّ ضَبَابَةٍ تَتَكَشَّفُ^(١)
[الكامل]

وَإِذَا تُصِبَكَ مِنَ الْحَوَادِثِ نَكْبَةٌ

(١) المحاسن والأضداد ١٧٢: «فكل بلية»

مساوىء طلب الرزق

لديك الجن:

أحل وأمرز ممعا ، ولن تارة وأخشن
 وأغت واستغت بربك في الأز
 لا تقف للزمان في منزل الضي
 وأهن نفسك الكريمة لئلمو
 فلمرى للموت أزين للحر
 أى ماء يدور في وجهك الحر
 ثم لا سيما إذا عصف الذهب
 غاضت المكرمات وانقرض النسا
 فقليل من الورى من تراه
 وكذلك الهلال أول ما يب
 ثم يزداد ضوءه فتراه
 عاد تدميثك المضاجع للجن
 وأدرع يلمق اجتياپ دجى اللب
 عاملى النتائج تطوى له الأز
 جرشع لاحق الأياطل كالأع
 واتخذ ظهره من الذل حصنا
 لا أحب الفتى أراه إذا ما
 مستكينا لذى الغنى خاشع الطر
 أين جوب البلاد شرقا وغربا
 واعتراض الرقاق يوضع فيها
 ذهب الناس فاطلب الرزق بالسب

ورش وأثن، وانتدب للمعالى
 ل إذا جلت صروف الليالى (١)
 م ولا تستكن لرقية حال
 ت وقعم بها على الأهوال
 من الذل ضارعا للرجال (٢)
 إذا ما امتهنته بالسؤال
 ر بأهل الندى وأهل التوال
 س وبادت سحاب الإفصال
 يرتجى ، أو يصون عرضا بمال
 ذو نحيلا في دقة الخلخال (٣)
 قمرأ في السباء غير هلال
 ب ؛ فعال الخريذة المكسال
 بل بطرف مضرب الأوصال (٤)
 ض إذا ما استعد للانتقال
 فرف ضافى السبيب غير مذال (٥)
 نعم حصن الكريم فى الزلزال
 عضه الدهر جائبا فى الضلال
 ف ذليل الإذبار والإقبال
 واعتساف السهول والأجبال
 بظباء النجاد والعمال
 ف ، والآفت شديد الهزال
 [الخفيف]

(١) ك: «أعن واستمن» والأزل: الشدة.

(٢) ك: «أزين بالحر»

(٣) ل: «عندما يبدو».

(٤) اليلق: القياء المحشو، والطرف: الكريم من الخيل، والمضرب: المكتنز اللحم.

(٥) الجرشم: العظيم من الإبل، وطل: جمع أطل؛ وهو مجتمع الأضلاع، ولاحق الأياطل: ضارها. والسبيب من الفرس:

شعر العرف، وغير مذال: أى ذيله قصير.

محاسن استصلاح المال

رَوَى عن عبد الله بن جعفر، قال: بعثني علي بن أبي طالب إلى حكيم بن حزام^(١)، يسأله سَلْفَ ثلاثين ألف درهم، فَأَتَيْتُهُ، فَانْطَلَقَ بِي إِلَى مَنْزَلِهِ، فَوَجَدَ فِي الطَّرِيقِ صُوفًا فَأَخَذَهُ، وَمَرًّا بِقِطْعَةٍ كِسَاءٍ فَأَخَذَهَا، فَلَمَّا صَارَ إِلَى مَنْزَلِهِ أَعْطَانِي طَرْفَ الصُّوفِ، فَجَعَلْتُ أَفْتِلُهُ وَيُرْسِلُ حَتَّى فَتَلْتُهُ، ثُمَّ دَعَا بِغِرَارَةٍ مَخْرُوقَةٍ فَرَفَعَهَا بِالكِسَاءِ، وَخَاطَهَا بِالخَيْطِ، وَصَبَّرَ فِيهَا ثَلَاثِينَ أَلْفَ دَرَاهِمٍ، وَجَمَلْتُ مَعِيَ.

قال: وَأَتَى قَوْمَ قَيْسَ بْنِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، يَسْأَلُونَهُ فِي حِمَالَةٍ، فَصَادَفُوهُ فِي حَائِطٍ^(٢) لَهُ يَتَّبِعُ مَا يَسْقُطُ مِنَ التَّمْرِ، فَيَعْزِلُ جَيْدَهُ عَنِ رَدِيئِهِ، وَيَجْعَلُ كُلَّ صِنْفٍ مِنْهَا عَلَى حِدَّتِهِ. فَهَمُّوا أَنْ يَرْجِعُوا عَنْهُ، وَقَالُوا: مَا نَنْظُرُ عِنْدَ هَذَا خَيْرًا. ثُمَّ عَزَمُوا عَلَى لِقَائِهِ، فَأَقَامُوا حَتَّى فَرَّغَ مِنْ حَائِطِهِ فَكَلَّمُوهُ فَأَعْطَاهُمْ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ لَهُ: لَقَدْ رَأَيْتُكَ تَصْنَعُ شَيْئًا لَا يُشْبِهُ فَعَالِكَ، وَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: إِنَّ الَّذِي رَأَيْتُمْ مِنْ صَنِيْعِي قَضَيْتُ بِهِ حَاجَتَكُمْ.

عبد العزيز بن أبان، عن هشام الثقفي، عن رجل أتى طلحة بن عبيد الله يسأله جمالة، فرآه يهنا بغيراً له، فقال: يا غلام، أخرج له بَدْرَةً فقبضها، ثم قال: أردت أن أنصرف حين رأيتك تهنأ^(٣) البعير!

فقال: إِنَّا لَا نَضَعُ الصَّغِيرَ، وَلَا يَتَعَاظَمُنَا الْكَبِيرَ.

وكان يقال: مَنْ أَنْفَقَ وَلَمْ يَحْسَبْ، عَطِبَ وَلَمْ يَشْعُرْ.

وقيل: الإِفْلَاسُ سُوءُ التَّدْبِيرِ.

الأصمعيّ؛ قال: سَمِعْتُ بَعْضَ الْمُهَلَّبِيِّينَ^(٤) يَقُولُ لِبَنِيهِ: لَا تَشْتَرُوا الْغَنَمَ؛ فَإِنَّهَا مَالُ الرَّقَّةِ^(٥)، وَلَا تَشْتَرُوا الْبَقْرَ؛ فَإِنَّهَا مَالُ الدَّلَّةِ، وَاشْتَرُوا الْإِبِلَ وَاقْتَنُوا؛ فَإِنَّهَا رَقْوَةُ الدَّمِّ، وَصَدَقَاتُ الْحَرَائِرِ، وَسُقُنُ الْبَرِّ، وَفِيهَا قِضَاءُ الْحَقُوقِ. وَلَا تَتَزَوَّجُوا الْمَمِيَّاتِ، فَإِنَّهُنَّ يَضْرِبْنَ عَلَى رِءُوسِكُمْ مَنْ كَانَ قَبْلِكُمْ، وَتَزَوَّجُوا الْمَطْلُوقَاتِ، فَإِنَّهُنَّ أَضْعَفُ نَفْسًا، وَإِنَّكُمْ تَضْرِبُونَ عَلَى رِءُوسِهِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلِكُمْ.

(١) ك: «ابن خويلد».

(٢) الحائط هنا: البستان.

(٣) هنا البعير: طلاء بالهاء، وهو القطران.

(٤) ط: «المهلبين».

(٥) في اللسان «يقال في حاله رقق ورقة، أي قلة».

وقال بعضهم في جمع القليل إلى القليل:

رُبَّ كبيرٍ هاجهُ صغيرٌ وفي البحور تفرَّق البحورُ

[الرجز]

وقال آخر:

قَدْ يَلْحَقُ الصَّغِيرُ بِالْجَلِيلِ وَأَمَّا الْقَرْمُ مِنَ الْأَفِيلِ^(١)
* وَسُحْقُ النَّخْلِ مِنَ الْفَسِيلِ^(٢) *

(١) الأفيل: صغير الإبل، والقرم: الفحل منها.
(٢) سحق: جمع سحق، بالفتح: وهي النخلة الطويلة، والفسيل: جمع فسيلة، وهي النخلة الصغيرة تطلع من الأرض أو تنقطع من الأم فتغرس.

محاسن الدين

قيل: قديم رجل مع إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة، وهو على قضاء البصرة، فأقام أكثر من سنة متعطلاً، فكثُر عليه الدينُ لرجل من أهل البصرة، فتوعده أن يقدمه إلى القاضي، فأق الرجل إسماعيل فأخبره بما تخوفه من حبس الرجل إياه، فقال: إذا قدمك فأقر له بحقه، ثم قل: أبيع داري وأقضيه، فإنه سيقول: لا دار لك؛ قل: فأبيع دابتي وضيعتي، فإنه سينكر أن يكون لك شيء. ففعل، فجرى بينها ما قاله القاضي، فقال القاضي: قد أقرت أنه لا شيء له، فكيف أجبسه! فخلّى سبيله.

قال: وكان لرجل من التجار صاحب عينة^(١) على رجل من الجند مأل فخرج عطاء الجند ولم يقض صاحبه، فأرسل إليه التاجر غلاماً يلزمه، وعلى الغلام كساء أحمر فلزمه، فجعل الرجل يتلو: ﴿وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة﴾^(٢). والغلام يتلو: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها﴾^(٣). فلما طال ذلك على الرجل، واشتد إلحاح الغلام عليه، أتى صاحبه فقال:

مَنع الرُقَادُ فَمَا أُغْمَضُ سَاعَةً
مِنَ غَمِّ تَعْدِيَةِ الْكِسَاءِ الْأَحْمَرِ
يَتْلُو الَّتِي فِيهَا الْأَمَانَةُ مِنْهَا
لَوْثُهَا، وَأَتْلُو آيَةَ الْمَتَيْسِرِ

[الكامل]

فضحك الرجل، وهب له ما كان عليه من دينه.

(١) العينة: خيال المال، وفي ك «عينة».

(٢) سورة البقرة ٢٨٠.

(٣) سورة النساء ٥٨.

مساوي الدين

قال أبو اليقظان: كان الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب الشاعر يسلف الناس، فإذا حلّ ماله ركب حماراً^(١) اسمه «شارب الريح» فيقف على غرمانه ويقول:
 بنى عمنا ردوا الدراهم إنما يُفرّق بين الناس حبّ الدراهم
 [الطويل]

وكان رجل من بني الدئل عسير القضاء، فإذا تعلق به غرماؤه فرّ منهم، وقال:
 فلو كنت الحديد لكسروني ولكني أشد من الحديد
 [الوافر]

فأقرضه الفضل بن العباس، فلما كان قبل المحل^(٢) جاء فبنى معلقاً على باب داره، وكان يقال له: «عقرب»، فلقى كل واحد منها من صاحبه شدة، فهجاه، فقال:
 قد تجرت في سوقنا عقرباً يا عجباً للعقرب التاجرة!
 قد ضاقت العقرب واستيقنت ليس لها دنيا ولا آخرة
 فإن تعدّ ترجع بما ساءها وكانت النعل لها حاضرة
 كل عدو يتقى مقبلاً وتبقى شرّها دايرة
 إن عدوا كيده في استيه لغير ذي كيد ولا بايرة^(٣)
 [السريع]

قال: وقدم أعرابيان غريباً لها إلى قاض، فحلف ثم قال:
 ألم تعلم أنّي طموح عنانه وأنّي لا يقضى عليّ أمير
 طمست الذي في الصك مني بحلّفة سيقفها الرحمن وهو غفور
 [الطويل]

(١) ك: «حماراً له».

(٢) المحل، بكسر الهمزة: وقت حلول الدين، وفي ك «الموعد».

(٣) الخبز والأبيات في الأغاني ١٥: ٧ (ساسي) مع اختلاف في الرواية.

ولآخر:

أرى الغرماء قد كُثروا وضجوا إلى السلطان غير مُقصرينا
فإن سألوا اليمين فقد رَبِحنا وإن سألوا الشهود فقد خَزينا
[الوافر]

ولآخر:

الدِّينُ حَقًّا كاسمه دَوِيُّ قَد يَخْضَعُ الْمَرْءُ لَهُ الْقَوِيُّ
* كَمِ مَنْ شَرِيفٍ غَاظُهُ غَيْبٌ *
[الرجز]

مَحَاسِنُ إِصْلَاحِ الْبَدَنِ

قال: جَمَعَ الرَشِيدُ أَرْبَعَةً مِنَ الْأَطْبَاءِ: عِرَاقِيًّا، وَرُومِيًّا، وَهِنْدِيًّا، وَسُودَانِيًّا، فَقَالَ: لِيَصِفَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ الدَّوَاءَ الَّذِي لَا دَاءَ فِيهِ.

فقال الرومي: الدواء الَّذِي لَا دَاءَ فِيهِ حَبُّ الرُّشَادِ الْأَبْيَضِ.

وقال الهندي: الماء الحار.

وقال العراقي: الإهليلج الأسود.

وكان السُّودَانِيُّ أَبْصَرَ، فَقَالَ لَهُ: تَكَلِّمْ، فَقَالَ: حَبُّ الرُّشَادِ يُوَلِّدُ الرُّطُوبَةَ، وَالْمَاءُ الْحَارُّ يَرْخِي المَعْدَةَ، وَالْإِهْلِيلِجُ يُرِيقُ المَعْدَةَ، قَالَ: فَأَنْتَ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: الدَّوَاءُ الَّذِي لَا دَاءَ فِيهِ أَنْ تَقْعُدَ عَلَى الطَّعَامِ وَأَنْتَ تَشْتَهِيهِ، وَتَقُومُ عَنْهُ وَأَنْتَ تَشْتَهِيهِ.

وقال بعضهم: سَأَلْتُ أَسْقُفَ فَارِسَ، فَقُلْتُ: إِنَّا قَوْمٌ نَعْتَرِبُ وَتَتَغَيَّرُ عَلَيْنَا المِياهُ، فَصَفْ لَنَا مَا نَتَعَالَجُ بِهِ، فَقَالَ: دَعُوا الأَدويةَ، وَعَلَيْكُمْ بِالْأَغذيةِ، وَمَا يَخْرُجُ مِنَ الضَّرْعِ وَالنَّحْلِ، وَعَلَيْكُمْ بِأَكْلِ اللِّحْمِ، وَشَرْبِ ماءِ الكَرَمِ وَدُخُولِ الحَمَّامِ، وَلبَسِ الكِتَّانِ.

وعن الهيثم بن عدى قال: قلت لثيادوق - وكان متطيب الحجاج: أوصني بشيء أحفظه عنك فأبني مسافر، فقال: لا تَتَمَنَّئُ حَتَّى تَعْرُضَ نَفْسَكَ عَلَى الخَلَاءِ، وَلَا تَذُوقَنَّ طَعَامًا فِي مَعْدَتِكَ طَعَامًا، وَاتَّقِ مَا تُخْرِجُهُ النِّعْجَةُ وَالنَّحْلَةُ، فَإِنْ اعْتَلَّتْ فَأَنَا الضَّمِينُ، إِلَّا عِلَّةَ المَوْتِ.

وقال سُودَانِيٌّ: سَأَلْتُ بَخْتِيَشُوعَ: مَا مَعْنَى البَلْغَمِ؟ فَقَالَ: تَفْسِيرُهُ «بِلاءٌ وَغَمٌّ».

وقال بعض الفلاسفة: يَنْبَغِي لِلعَاقِلِ أَنْ يَتَّقِيَ البَرْدَ فِي أَوَّلِ الشِّتَاءِ وَفِي آخِرِهِ، فَقِيلَ لَهُ: ففِي وَسَطِهِ؟ قَالَ: ذَاكَ يَتَّقِيهِ العَاقِلُ وَالْأَحْمَقُ!

قِيلَ: وَأَوْصَى بَعْضُ الحُكَمَاءِ وَلَدَهُ فَقَالَ لَهُ: إِيَّاكَ أَنْ تَسِيرَ شَبْرًا مِنَ الأَرْضِ وَأَنْتَ حَافٍ، وَلَا تَذُوقَنَّ نَبْتَةً وَلَا تَشْمَنَّهَا حَتَّى تَعْرِفَهَا، وَإِيَّاكَ أَنْ تَبُولَ فِي شَيْءٍ مِنَ الأَرْضِ فَتَخْرُجَ مِنْهُ عَلَيْكَ دَاهِيَةٌ، وَلَا تَشْرَبْ مِنْ فَمِّ قَرِيْبَةٍ وَلَا إِدَاوَةَ حَتَّى يَكُونَ المَاءُ مَعِينًا، وَاحذِرْ مِرافِقَةَ المَعْرِفَةِ، وَمَنْ لَا تَعْرِفُ فِلا تَصَاحِبْهُ، وَإِيَّاكَ وَالسُّجُودَ عَلَى بَارِيَّةٍ^(١) جَدِيدَةٍ حَتَّى تَمْسَحَ بِكَمِّكَ، فَرُبَّ شَطِيْبَةٍ حَقِيْرَةٍ فَقَاتَ عَيْنًا

(١) البارية: الحصيرة.

خطيرة، ولا تنظرن في بئر عادية^(١)، ولا تشهدن من الحيوان الكبار ما هو في النزع، واقبل وصيق ترشد، ولا تدعها فتندم.

قيل: ودخل أعرابي ذو كِدْنَةٍ^(٢) على معاوية بن أبي سفيان فأعجبه، فقال: يا أعرابي، مِمَّ هذا السَّمْنُ؟ قال: لا أكل حتى أجوع، وأستوتق من أطرائي في الشتاء، وأغفل غاشية الهجر^(٣). وقال بعض الفلاسفة: اخضع للريح خضوعك للملك، وجاهد البلغم مجاهدة عدوك ودار المرة مداراتك صديقك، وأنزل دمك في السنة مرة أو مرتين، وروّ مشاشك من ماء لحوم الطير، وعليك بالشراب الأصفر فإنه حليف الروح.

وذكر أبو الحسين محمد بن أحمد بن يحيى بن أبي البغل، عن أحمد بن أبي الأضبع^(٤) - وكان كاتباً لأحمد - عن يحيى بن ماسوية، قال: أكل الفالوذ لصاحب النبيذ عندنا من شرّ الطب.

وقيل: ما من أحدٍ إلا وفيه أربعة عروق: عرق الجذام، وعرق البرص، وعرق العمى، وعرق الجنون، فإذا تحرك عرق الجذام، قمعه الله بالزكام فأذهبه، وإذا تحرك عرق البرص سلط الله عليه الدماميل فأذهبه، وإذا تحرك عرق الجنون سلط الله عليه البلغم فقطعه، وإذا تحرك عرق العمى سلط الله عليه الرمد فأذهبه.

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تكروها أربعا لأربع: لا تكروها الزكام؛ فإنه يقطع عرق الجذام، ولا تكروها السعال؛ فإنه يقطع عرق الفالج، ولا تكروها الرمد؛ فإنه يقطع عرق العمى، ولا تكروها الدماميل؛ فإنها تقطع عرق البرص».

وروى عن علي رضي الله عنه أنه قال: من ابتدأ غذاءه بالملح أذهب الله عنه سبعين نوعاً من السوء، ومن أكل إحدى وعشرين زبيبة حمراء لم ير في جسده شيئا يكرهه، ومن أكل سبع تمرات عجوة، قتلت كل دابة في بطنه، واللحم والثريد طعام العرب، والسواك وقراءة القرآن يذهبان بالبلغم، والبقر لحومها داء، وألبانها دواء، وسمنها شفاء، والسّمك يذيب الجسد، والشحم يخرج مثله من الداء، ولن يتداوى الناس بمثل السمن، ولن تستشفى النفساء بمثل الرطب، والمرء يسعى بجده، والسيف يقطع بحدّه، ومن أراد البقاء - ولا بقاء - فليباكر الغداء، وليخفف الرداء، وليقلل من غشيان النساء؛ وخفة الرداء قلة الدين.

(٣) الهجر: نصف النهار.

(٤) ك: «أصعب».

(١) البئر العادية: القديعة؛ منسوبة إلى عاد.

(٢) الكدنة، ككرة الشحم.

قيل: مَنْ باتَ والمُنْدَبَاءُ في جوفه باتَ آمناً من الدَّبِيلَةِ^(١)، وَمَنْ باتَ والفَجَلُ في جوفه باتَ آمناً من البَشَمِ، ومن باتَ والكَرْفَسُ في جوفه باتَ آمناً من وجع الأضراس، وَمَنْ باتَ والجرَجِيرُ في جوفه باتَ وعروق الجذام تتردّد في صدره، ومن باتَ والكَرَّاثُ في جوفه باتَ آمناً من البواسير.

وقال بعض الفلاسفة؛ لا ينبغي للعاقل أن يستخفّ بالقليل من ثلاثة أشياء: بالقليل من النار، والقليل من السلطان، والقليل من السَّقَمِ.

وقال أبو هِفَّان: حدّثني العباس بن المأمون قال: كنت عند المأمون ذات يوم وعنده الموبّد، فسأله: ما أنفع الأشياء؟ فقال: الاقتصاد في الطَّعْمِ^(٢) والشُّرْبِ؛ فإنّ كثيره يُثَقِّلُ الجسم، ويوهنُ العلم والفهم، ويكدرُ صفاء البَشَرَةِ، ويفتح الأَدْوَاءَ ويخمد نارَ المَعْدَةِ، ويمحق شرفَ صاحبه. فقال المأمون: لو أسلمتَ يا موبّد، ولم أستقضِّك، كنت. قد ضيّعتُ حجةَ الله في أرضه!

الحسنُ بن عليّ بن زيد: قال: سمعت عليّ بن الجعد يقول: لما قدم بختيشوع الأكبر على أبي جعفر من السُّوسِ، أمر له بالطعام، فلما وُضِعَ بين يديه الخوان قال: الشراب! قيل له: لا يُشربُ على مائدة أمير المؤمنين؛ قال: لا آكل طعاماً ليس معه شراب، فأخبر أمير المؤمنين بذلك، فقال: دَعُوهُ، فلما حضر العشاء فعل به مثل ذلك، فطلب الشراب، فقيل له: لا يُشرب على مائدة أمير المؤمنين، فتعشى وشرب ماءً دَجَلَةً، فلما كان الغد نظر إلى مائه فقال: ما كنت أحسب شيئاً يجري مجرى الشراب، فهذا ماءٌ دجلة يجري مجرى الشراب - يريد في المنفعة أنه مثله.

(١) الدبيلة: داء في الجوف.

(٢) الطعم، بالضم: الطعام.

مساوي ما يفسد البدن

قال: وقال رجل لعبد الملك بن أبيجر: أشتهى أن أمرض، فقال له: كُلْ سَمَكًا مالحًا، واشرب نبيذًا حلوًا، واقعد في الشمس، واستعرض الله عز وجل، فإن لم تمرض فأنت حمار!

محاسن الندامة

رَوَى عن عائشة رضی الله عنها، أنها دخلت على أم سلمة بعد رجوعها من وقعة الجمل، وقد كانت أم سلمة حلفت ألا تكلمها أبداً من أجل مسيرها إلى محاربة علي بن أبي طالب، فقالت عائشة: السلام عليك يا أم المؤمنين، فقالت: يا حائط، ألم أنك ! ألم أقل لك ! قالت عائشة: فإني أستغفر الله وأتوب إليه، كَلَمْنِي يا أم المؤمنين، قالت: يا حائط، ألم أقل لك ! أم أنك ! فلم تكلمها حتى ماتت، وقامت عائشة وهي تبكي وتقول: وا أسفاه على ما فرط مني !.

قيل: وسُئِلَتْ عائشة رضی الله عنها، عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضی الله عنه - فقالت: وما عسيبُ أن أقول فيه وهو أحب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ! لقد رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قد جمع شملته على علي وفاطمة والحسن والحسين، وقال «هؤلاء أهل بيتي، اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، قيل لها، فكيف سرتِ إليه؟ قالت: أنا نادمة، وكان ذلك قدراً مقدوراً.

وعن جَمِيعِ بنِ عُمير، قال: قلت لعائشة: حدّثيني عن علي رضی الله عنه، فقالت: تسألني عن رجل سألت نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم في يده، وولّى غسله وتغميضه وإدخاله قبره ! قلت: فما حملك على ما كنا منك؟ فأرسلت جمارها على وجهها وبكت وقالت: أمرٌ كان قُضِيَ على.

قال: وقال ابن العاقى لأبي مسلم صاحب الدولة: أيها الأمير، لقد قمت بأمر لا يقصرك ثوابه عن الجنة، في إقامة دولة بني العباس، فقال: خوّفي من النار والله، أولى من الطمع في الجنة، إني أطفأت من أمية جرة، وألهبت من بني العباس نيراناً، فإن أفرح بالإطفاء فواحزنا من الإلهاب !

وحدّث أبو نَمَلَةَ عن أبيه، قال: سمعت أبا مسلم بعرفات في الموقف يقول باكياً: اللهم إني تائب إليك بما لا أظن أن تغفره لي ! فقلت: أيها الأمير، أيعظم على الله عز وجل غفران ذنب فقال: إني نسجت ثوباً من الظلم لا يبلى مادامت الدولة لبني العباس، فكم من صارخ وصارخة تلعنني عند تفاقم هذا الأمر، فكيف يغفر الله عز وجل لمن هذا الخلق خصماؤه !

قيل: ولما سَخِطَ عليه المنصور، ووكل به شهرام المروزي قال له يوماً: الويل لك من الخليفة المنصور! فقال: الويل لي من ربي، وأين يقع ويل ساعة من عذاب الأبد!

مساوئ الندامة

قال: وإلى الكسعي^(١) يضرب المثل في الندامة، وذلك أنه كان يرعى إبلاً له بوادٍ كثير العشب، فبينما هو كذلك إذ بصر بنبعة^(٢) في صخرة، فأعجبته فقال: ينبغي أن تكون هذه قوساً، فجعل يتمهدا حتى إذا أدركت قطعها وجففها وأخذ منها قوساً، فأنشأ يقول:

يارب وفقني لنحت قوسي فإنها من لذتي لنفسي
وانفع بقوسي ولدي وعرسي أنحتها صفراء مثل الوركس
* صفراء ليست كقسي النكس^(٣) * [الرجز]

ثم دهنها وخطمها بوتر، ثم عمد إلى ما كان من برائتها، فجعل منه خمسة أسهم، فجعل يقلبها في كفه ويقول:

هن وربي أسهم حسان تلد للرامي بها البنان
كأنما قومها الميزان فأبشروا بالخصب يا صبيان
* إن لم يعقني الشوم والحرمان * [الرجز]

ثم خرج حتى أتى موارد حمر الوحش فكمّن فيها، فمرّ قطع منها، فرمى غيراً فأخطه^(٤) السهم حتى جازه وأصاب الجبل، فأورى ناراً، فظن أنه أخطأ فقال:

أعود بالله العزيز الرحمن من نكد الجدّ معنا والحرمان
مالى رأيت السهم بين الصوان يورى شراراً مثل لون العقيان
* فأخلف اليوم رجاء الصبيان * [الرجز]

ثم مكث على حاله، فمرّ به قطع آخر، فرمى غيراً منها فأخطه السهم، فصنع صنيع الأول، فقال:

لا بارك الرحمن في رمي القتر أعود بالرحمن من سوء القدر
أنخط السهم لإرهاق الضرر أم ذاك من سوء احتيال ونظر!
[الرجز]

ثم مكث على حاله، فمرّ به قطع آخر فرمى غيراً منها؛ فأخطه السهم، فقال:

- (١) في مجمع الأمثال عن حمزة: «هو رجل من كعب واسمه محارب بن قيس».
- (٢) التبعة: واحدة النبع؛ وهو شجر تتخذ منه القسي، ومن أغصانه السهام، ينبت في قلة الجبل.
- (٣) ط: «صلباء»، وما أثبتته من مجمع الأمثال.
- (٤) في مجمع الأمثال: «أى أنفذه فيه وجازه».

ما بَالُ سَهْمِي يُوَقِّدُ الْحُبَّاحِيَا قَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَكُونَ صَانِيَا
وَأَمَكْنَ الْعَيْرُ وَأَبْدَى جَانِيَا فَصَارَ رَأْيِي فِيهِ رَأْيَا خَانِيَا
[الرجز]

ومكث مكانه (١)، فمر به قطع آخر، فرمى عيرا منها، فأصرد (٢) السهم، فصنع صنيع الأول، فقال:

أَبَعْدَ خَمْسٍ قَدْ حَفِظْتُ عِدَّهَا أَحْمَلُ قَوْسِي وَأُرِيدُ رَدَّهَا
أَخْزَى إِلَهُ لَيْهَا وَشَدَّهَا وَاللَّهِ لَا تَسْلَمُ عِنْدِي بَعْدَهَا
[الرجز] * * * * * * * *

ثم عمد إلى القوس فضرب بها حجرا فكسرها، ثم بات، فلما أصبح إذا الحمر مطرحة حوله، وأسهمه مضرجة بالدم، فندم على كسر قوسه، وشد على إبهامه فقطعها، وأنشأ يقول:

نَدِمْتُ نَدَامَةً لَوْ أَنَّ نَفْسِي تَطَاوَعُنِي إِذْنٌ لَقَطَعْتُ خَمْسِي
تَبَيَّنَ لِي سَفَاهُ الرَّأْيِ مِنِّي لَعَمْرُ أَبِيكَ حِينَ كَسَرْتُ قَوْسِي
[الوافر]

وقال الفرزدق:

نَدِمْتُ نَدَامَةَ الْكُسْبِيِّ لَمَّا غَدَّتْ مِنِّي مَطْلَقَةً نَوَارُ (٣)
وَكَانَتْ جَنَّتِي فَخَرَجْتُ مِنْهَا كَادَمَ حِينَ لَجَّ بِهِ الضَّرَارُ
[الوافر]

ومنه ما قيل في خُفَى حُنَيْن، وكان حُنَيْنُ إِسْكَافًا مِنَ الْحَيْرَةِ، فَسَاوَمَهُ أَعْرَابِي بِخَفِيهِ، وَاخْتَلَفَا فِي ذَلِكَ حَتَّى أَغْضَبَهُ، فَأَرَادَ أَنْ يَغِيظَ الْأَعْرَابِيَّ، فَلَمَّا ارْتَحَلَ أَخَذَ حُنَيْنُ الْحَفْنَيْنِ، فَالْتَمَى أَحَدَهُمَا عَلَى الطَّرِيقِ، وَأَلْقَى الْآخَرَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْ طَرِيقِهِ، فَلَمَّا مَرَّ الْأَعْرَابِيُّ رَأَى أَحَدَهُمَا، فَقَالَ: مَا أَشْبَهَ هَذَا بِخَفَى حُنَيْنٍ! وَلَوْ كَانَ مَعَهُ أَخُوهُ نَزَلْتُ فَأَخَذْتَهُ، وَمَضَى. فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى الْآخَرِ نَدِمَ عَلَى تَرْكِ الْأَوَّلِ، وَأَنَاخَ رَاحِلَتَهُ، فَأَخَذَهُ وَرَجَعَ إِلَى الْأَوَّلِ، وَقَدْ كَمَنَ لَهُ حُنَيْنٌ، فَعَمَدَ إِلَى رَاحِلَتِهِ، فَذَهَبَ بِهَا وَمَا عَلَيْهَا، وَأَقْبَلَ الْأَعْرَابِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ إِلَّا الْحَفْنَانِ، فَقَالَ لَهُ قَوْمُهُ: مَا الَّذِي أَتَيْتَ بِهِ؟ قَالَ: أَتَيْتُ بِخَفَى حُنَيْنِ، فَضَرَبْتَهُ الْعَرَبَ مِثْلًا، وَقَالَ الشَّاعِرُ فِي مِثْلِهِ:

لَتَفْرَعَنَّ عَلَى السَّنِّ مِنْ نَدَمٍ إِذَا تَذَكَّرْتَ يَوْمًا بَعْضَ أَخْلَاقِي (٤)
[البيسط]

(١) في جمع الأمثال: «ثم مكث مكانه؛ فمر به قطع آخر، فرمى عيرا منها، فصنع صنيع الثالث، فأنشأ يقول:

يا أسفا للشؤم والبد التكد أخلف ما أرجو أهل وولد

(٢) أصرد: أخطأ.

(٣) ديوانه ٣٦٣، وانظر مجمع الأمثال ٢: ٣٤٨، ٣٤٩. (٤) مجمع الأمثال ٢: ٢٧٢، الفاخر ٩٧.

محاسن الحنين إلى الوطن

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾^(١)؛ ففقرن جل ذكره الجلاء عن الوطن بالقتل، وقال جل وتعالى: ﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نِقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنَ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾^(٢)، فجعل القتال تآراً للجلاء.

وقال النبي ﷺ: «الخروج عن الوطن عقوبة».

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: لولا حُبُّ الوطن لخرّب بلدُ السوء.

وكان يقال: يحبُّ الأوطان، عُمرت البلدان.

وقال جالينوس: يتروّح العليل بنسيم أرضه، كما تتروّح الأرض الجذبةً ببُلك المطر.

وقال بقراط: يداوى كلُّ عليل بعقاير أرضه، فإن الطبيعة تنزع إلى غذائها.

ومما يؤكّد ذلك قولُ أعرابيٍّ وقد مرض بالحُمرة^(٣)، فقال له قائل: ما تشتهي؟ قال: محضاً^(٤) رويّاً مشويّاً.

وحدّث عن بعض بنى هاشم قال: قلت لأعرابيٍّ: من أين أقبلت؟ قال: من هذه البادية، قلت: وأين تسكن منها؟ فقال: مساطق الحمى، حمى ضرية^(٥) هالعمر الله ما تُريد بها بدلاً، ولا نبغى عنها جولا، نفحتها القدوات^(٦) وحفّتها الفلوات، فلا يعلولج^(٧) تراؤها، ولا يتمعر^(٨) جناؤها، ولا يملولج ماؤها، ليس بها أدّى ولا قذى، ولا موم، فنحن فيها بأرّفه عيش، وأنعم معيشة وأرغد نعمة! قلت: فما طعامكم؟ قال: بَخْ بَخْ، عيشنا عيشٌ تعللُ جاذبه، وطعامنا أطيّب طعامٍ واهنؤه وأمرؤه: الفث^(٩)، والهبيد^(١٠)، والصليب^(١١)، والعنكث^(١٢)، والعلّهز^(١٣)، والذّآنين^(١٤)، والينمة^(١٥).

(١) سورة النساء ٦٦.

(٢) سورة البقرة ٢٤٦.

(٣) ط: «الحضرة»، تصحيف. والحمرة من الأدواء المعروفة.

(٤) المحض: اللبن الخالص.

(٥) ضرية: قرية في طريق مكة من البصرة.

(٦) القداة: الرائحة الطيبة.

(٧) يعلولج: لا يتمعر.

(٨) لا يتمعر: لا يجذب.

(٩) الفث: حب برى يأكله أهل البادية عام القحط بعد دقه وطبخه.

(١٠) الهبيد: الحنظل.

(١١) الصليب: الودك.

(١٢) العنكث: نبت يشتهي الضب.

(١٣) العلّهز: دم القراد والوبر يخلط ويشوى ويؤكل زمن الجذب.

(١٤) الذّآنين: نبت تشق عنه الأرض فيخرج مثل سواعد الرجال لا أوراق له.

(١٥) الينمة: نبت من أحرار البقول ينبت في السهل له أوراق طوال لطف محذب.

والعراجين^(١)، والحسلة^(٢)، والضباب واليرابيع والقناذف والحيات، وربتها والله أكلنا القَدَّ، واشتوتينا الجلد، فما نعلم أحداً أخصب منا عيشاً ولا أرخى بالاً، ولا أعر حالاً، أو ما سمعت قول الشاعر، وكان والله بصيراً بريق العيش ولذيذه؟ قلت: وما قال؟ قال: قوله:

إذا ما أصبنا كلَّ يومٍ مُدَيِّقَةً وخمسٌ تُميراتٍ صغارٍ كوانز^(٣)
فنحنُ ملوكُ الناسِ خِصْباً ونعمةً^(٤) ونحنُ أسودُ الناسِ الهزاهزِ
وكم مُتَمَنِّ عَيْشِنَا لا يَنالُهُ ولو ناله أضحى به حقٌّ فائزاً

[الطويل]

فالحمد لله على ما بَسَطَ من حسن الدعة ورَزَقَ من السعة، وإياه نَسألُ تمام النعمة^(٥).

* * *

وقيل لأعرابي: كيف تصنع بالبادية إذا انتصف النهار. وانتعل كلَّ شيءٍ ظَلَّه؟ قال: وهل العيش إلا ذاك! عيشي أحدنا ميلاً فيرفض عرقاً كأنه الجمان، ثم ينصب عصاه، ويُلقى عليها كسائه، وتقبل عليه الرياح من كلِّ جانب، فكأنه في إيوان كسرى.

(١) العراجين: نوع من الكماء.

(٢) الحسلة: جمع حسل؛ وهو ولد الضب.

(٣) معجم البلدان: «كنائز».

(٤) معجم البلدان: «فنحن ملوك الناس شرقاً ومغرباً».

(٥) الخبر في معجم البلدان ٥: ٤٣٣، ٤٣٥.

ذُكِرَ مِنْ اخْتَارَ الْوَطْنَ عَلَى الثَّرْوَةِ

قال بعض الأديباء: عُسْرُكَ فِي بِلَدِكَ؛ خَيْرٌ مِنْ يُسْرِكَ فِي غُرْبَتِكَ.
وقيل لأعرابي: ما الغبطة؟ قال: الكفاية، ولزوم الأوطان، والجلوس مع الإخوان. قيل: فما
الذلة؟ قال: التنقل في البلدان، والتنحي عن الأوطان.
وقال بعض الأديباء: الغربة ذلة، فإن رَدَفَهَا عِلَّةٌ، وَأَعَقَبَتْهَا قِلَّةٌ، فَتَلِكْ نَفْسٌ مَضْمَحَلَّةٌ.
وقالت العرب: الغربة ذلة، والذلة قلة.
وقال آخر: لا تنهض عن وكرِكَ فَتَنْفَصِكَ الْغَرَبَةَ، وَتَضِيْمَكَ الْوَحْدَةَ.

وشبَّهت العرب والحكماء الغريبَ باليتيم اللطيم الذي نكل أبويه؛ فلا أم تراه له، ولا أب يجذب
عليه.

وكان يقال: الجالي عن مسقط رأسه كالعير الناشز عن موضعه، الذي هو لكل سبع فريسة،
ولكل كلب قنيسة، ولكل رام رمية.
وكان يقال: الغريب عن وطنه ومحل رضاعه، كالفرس الذي زایل أرضه، وقد شربه، فهو ذابو
لا يشير، وذابل لا ينضر، وأنشد:

ومغترب بالمرج يبكي لشجوهه وقد غاب عنه المسعدون على الحب
إذا ما أتاه الركب من نحو أرضه تنفس يستشفى برائحة الركب
[الطويل]

آخر:

إذا ما دكرت الثغر فاضت مدامعي وأضحى فؤادي نوبة للهمام
حينئذ إلى أرض بها أخضر شاربى وحلت بها عنى عقود التمام
وألطف قوم بالفتى أهل أرضه وأرعاهم للمرء حق التقادم
[الطويل]

ولآخر:

أحن إلى أرض الحجاز وحاجتى خيام بنجد دونها الطرف يقصر
وما نظرى من نحو نجد بتافعى أجل، لا ولكنى على ذاك أنظر

لعينيك يجرى ماؤها يتحدراً!
حزين، وأما نازح يتذكراً!
[الطويل]

أفي كل يوم نظرة ثم عبرة
مق يستريح القلب إما مجاوراً

الطائي:

ما الحب إلا للحبيب الأول
وحنينه أبداً لأول منزل!
[الكامل]

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى
كَمْ منزل في الأرض يألّفه الفتي

مساوئ من كره الوطن

قال بعض الفلاسفة: اطلبوا الرزق في البعد، فإنكم إن لم تكسبوا مالا، غنمتم عقلا كثيرا.
وقال آخر: لا يألف الوطن، إلا ضيق العطن.

وقيل لآخر: ما أصبرك على الغربة؟ فقال: أنست بالنواب حتى ما أعرف غيرها، وغذيت بالمكاره فما أجد ضيرها.

ومدح أعرابي رجلا فقال: خرجته الغربة، ودرّيته التجربة، وضرسته النواب.
وقال آخر: ما حن أحد إلى بلد لا جمع فيه شمله إلا لو صمته في عقله، ولا تنزع نفسه إلى بلد قل به رفده، إلا لاستيلاء الموق عليه.

وقيل لآخر: ما العيش؟ فقال: دوران البلدان، ولقاء الإخوان، ومغازلة القيان، واستماع الأغاني والنعمة من الزير^(١) والمثاني^(٢).

وقد قيل: من صبر على الغربة أمن الكربة، وأفضل العدة، الصبر على الشدة.
وقالوا: لا توحشك الغربة إذا أنست بالكفاية، ولا تجزع لفراق الأهل مع لقاء اليسار.
وقيل: الفقير في الأهل مضر، والغني في الغربة موصول.
وقيل: أوحش قومك ما كان في إباحشهم أنسك، واهجر وطنك ما نبت عنه نفسك.
وقرئ على باب خان بطرسوس:

ما من غريب وإن أبدى تجلده إلا تذكر عند الغربة الوطن

[البسيط]

وأسفله مكتوب:

أير الحمار وأير البغل في القرن في است الغريب إذا ماحن للوطن

[البسيط]

(١) الزير: الدقيق من الأوتار.

(٢) المثاني من أوتار العود: ما بعد الأول، واحده مثنى.

الطائي:

لا يَمِينَنَّكَ خَفْضَ العَيْشِ تَطْلُبُهُ
تَلْقَى بِكُلِّ بِلَادٍ إِنْ حَلَّتْ بِهَا

[البسيط]

ولآخر:

نَبَتْ بِكَ الدَّارُ فَيْسِرُ آمَنًا
فَلِفَّتِي حَيْثُ انْتَهَى دَارُ

[السريع]

وروى عن كعب بن مالك، أنه وصف وحشة المدينة لعبيبة النبي ﷺ فقال: تنكرت البلاد فما هي بالبلاد التي تعرف، وتنكر الناس فما هم بالناس الذين نعرف.

وقال معناه قال الشاعر:

فَمَا النَّاسُ بِالنَّاسِ الَّذِينَ عَهَدْتَهُمْ
وَلَا الدَّارُ بِالدَّارِ الَّتِي كُنْتُ أَعْرِفُ

[الطويل]

وأنشد:

لَا تَقْنَعَنَّ وَمَطْلَبٌ لَكَ مُمَكِّنٌ
فَإِذَا تَضَايَقَتِ المَطَالِبُ فَاقْنَعِ

[الكامل]

وأنشد:

كم المقامُ وكم تعنادُكَ العِللُ^(١)
إِنْ كُنْتُ تَعْلَمُ أَنَّ الأَرْضَ وَاسِعَةٌ
فَارْحَلْ فَإِنَّ بِلَادَ اللهِ مَا خُلِقَتْ
اللهُ قَدْ عَوَّدَ الحَسَنَى فَمَا بَرِحَتْ
إِنْ ضَاقَ بِي بِلَدٍ هَيَّا لَهُ عِوَضًا
وَإِنْ تَغَيَّرَ لِي عَنْ وُدِّهِ رَجُلٌ
لَمْ يَقْطَعْ اللهُ لِي مِنْ صَاحِبِ أَمَلٍ
لَا تَمْتَهِنُ أَبَدًا خَدْيِكَ مِنْ طَمَعٍ
وَإِبْغِ المَكَايِبَ مِنْ أَرْكَى مَطَالِبِهَا

[البسيط]

(١) ك: «تقنادك».

ولآخر:

تَعَقَّبُهُ مِنْ بَعْدِ جِدَّتِهِ نَكْسُ
أَوِ الْبَسْتَرِ لَمْ يُجِبْتِ وَلَا حَبَّتِ الشَّمْسُ
فَفِي كُلِّ أَرْضٍ لِلْفَتَى الْأَكْلُ وَاللَّبْسُ
[الطويل]

إِذَا مَا أَطَالَ الْمَرْءُ مُكْتَبًا بِبَلَدَةٍ
وَلَوْ أَنَّ هَذِي الشَّمْسُ دَامَ طُلُوعُهَا
فَجَلَّ طَالِبًا لِلرِّزْقِ فِي الْأَرْضِ وَاعْتَرَبَ

ولآخر:

فَدَعِ الدِّيَارَ وَأَسْرِعِ التَّحْوِيلَا
فِي بَلَدَةٍ تَدْعُ الْعَزِيزُ ذَلِيلَا
[الكامل]

وَإِذَا الدِّيَارُ تَنَكَّرَتْ عَنْ أَهْلِهَا
لَيْسَ الْمَقَامُ عَلَيْكَ حَتْمًا وَاجِبًا

آخر:

يَنْجِيكَ مِنْ دَارِ الْهَوَانِ اجْتَنَابُهَا
[الطويل]

إِذَا خِفْتَ مِنْ دَارِ هَوَانَا فَايْمَا

ولآخر:

فَرَجُّ الْحَوَادِثِ مِثْلُ حَلِّ عِقَالِ
فَاشْدُدْ يَدَيْكَ بِعَاجِلِ التَّرْحَالِ
وَالعَجْزُ آفَةٌ حَيْلَةِ الْمُحْتَالِ
[الكامل]

أَصْبِرْ عَلَى حَدَثِ الزَّمَانِ فَايْمَا
وَإِذَا رَأَيْتَ مِنْ أَيْنِ عَمَّكَ جَفْوَةٌ
إِنَّ الْمَقَامَ عَلَى الْهَوَانِ مَذَلَّةٌ

وقد قيل في حبِّ الوطن: أَحَقُّ الْبُلْدَانِ بِنَزْعِكَ إِلَيْهِ بَلَدٌ أَمَّصَكَ حَلَبُ رِضَاعِهِ.
وقيل: احفظ بلدًا أُرْسَحَكَ^(١)، غِذَاؤُهُ، وَارْعَ جَمِيَّ أُنْكَكَ^(٢) فِنَاؤُهُ.

وقيل: لَا تَشْكُونَ بَلَدًا فِيهِ قَبَائِلُكَ، وَلَا أَرْضًا فِيهَا قَوَائِلُكَ.

وقيل: من علامة الرُّشْدِ أَنْ تَكُونَ النَفْسُ إِلَى أَوْطَانِهَا مُشْتَاقَةً؛ وَإِلَى مَوْلِدِهَا تَوَاقَّةً.

قيل: ولما خرج الرشيد إلى خراسان وصار بعقبه همدان، أنشأ يقول:

وَطَوَّلَ هَمٌّ بِإِدْبَارِ وَإِقْبَالِ
عَنِ الْأَحْبَةِ لَا يَدْرُونَ مَا حَالِي
لَا يَخْطُرُ الْمَوْتُ مِنْ حَرْصِي عَلَى بَالِ
إِنَّ الْقُنُوعَ الْغِنَى لَا كَثْرَةَ الْمَالِ
[البسيط]

حَتَّى مَتَى أَنَا فِي جِلِّ وَتَرْحَالِ
وَنَازِحُ الدَّارِ لَا يَنْفِكُ مَغْتَرِبًا
فِي مَشْرِقِ الْأَرْضِ طَوْرًا ثُمَّ مَغْرِبًا
وَلَوْ قَنَعَتْ أَتَانِي الرِّزْقُ فِي دَعَايِ

(٢) المحاسن والأضداد: «اكتنفاك».

(١) في المحاسن والأضداد: «أرسحك».

وذكروا أن أبا دُلفٍ لَمَّا وَلِيَ الشام، طَالَ مُقَامُهُ، فَحَنَّ إِلَى وَطَنِهِ، فَكَتَبَ إِلَى يَزِيدَ بْنِ مَخَشٍ (١) :

أيزيدُ طالتْ غُرْبَةً وَمُقَامُ
أيزيدُ هل من مطمعٍ في أوبى
لعبِ القراق بنومه فأفاته
ما نام عنه وإن رقدتم شوقه
والشوقُ ألزمتُ البكاءَ فنفسه
يا طائفًا أهدى السلامِ إلى فتي
أنى وكيف ينامُ صبُّ هاتمِ
يا جانبِ الأهوازِ جادك وإبل
كم فيك من شجنٍ ومأنسٍ وخشة (٢)
فلئن أحلكما الزمان ببلدة
وشواقٍ ترزُع السحاب، شوامخ
أنى أرى الأيام تجمُع بيننا
أيزيدُ ساعدك الزمان وخانتنا
تسمى ضجيج خريدةٍ ومضاجعي
وتجبرُ أذيال النعيم مُرَقلاً
مُتسربلاً حلق الحديد يحفنى
من كل أشعث في الحديد مُقنع
والحربُ حرفتنا وليست حرفة
نعرى السيوف فلا تزال عريّة
ما للزمان اعتاقنا من بينكم
يأليته إذا لم يدم إحسانه
[الكامل]

فبلغ شعره المأمون فقال: حنَّ القاسم بن عيسى إلى وطنه وأمره بالانصراف.

وقال الأصمعي: قدم سعيد بن مضمض على الحسن بن سهل فأنشده قصيدة يصف فيها حنينه إلى سوء حاله بالبادية ويستميحه:

سقيًا لحى باللوى عهدتهم
منذُ زمانٍ ثم هذا ربعمهم

(١) «مخش».

(٢) ل: «كم قيل».

(٣) اللهم: الجيش العظيم؛ كأنه يلتمهم كل شيء.

ولم يَنَاقِ الحِثَانِ شَعْبَهُمْ
 تَقَطَّعَ حَيْلِي مِنْ وَصَالِ حَيْلِهِمْ
 أَوْ أَجِدُنْ ذَاتَ يَوْمٍ بَدَلَهُمْ
 صَبٌّ مُعْنَى مُسْتَخَفٍ إِثْرَهُمْ
 يَنْحُهُمْ وَدَا وَيَرَعِي عَهْدَهُمْ
 وَعَادَ يَوْمًا عَيْشُهُ وَعَيْشُهُمْ
 وَلَا يَعُودُ عَيْدُهُ وَعَيْدُهُمْ
 وَقَدْ مَضَى الدَّهْرُ وَطَاحَ نَجْمُهُمْ
 وَأَقْصَدْ لِنَحْوِ آخِرِينَ غَيْرِهِمْ
 رَأَيْتُ إِذَا لَامَ الرِّجَالُ زَائِمَهُمْ
 حِينَ تَعَيَّا بَعِيَالِي أَمْرَهُمْ
 قَوْمٌ كَثِيرٌ رَغْبَةُ تَرْكِهِمْ
 وَلَا يَهْمُ بِأَسٍّ وَلَا ذِمَّتِهِمْ
 عَنِّي تَحَمَّلْتُ فَمَا أَيْقَظْتَهُمْ
 زَانُوكَ زَيْنًا بَاقِيًا وَزَيْنَتَهُمْ
 مَا فِي جَمِيعِ الْعَالَمِينَ مِثْلَهُمْ
 وَأَنْتِ تَبْتِيهِ كَذَاكَ بَعْدَهُمْ
 لَمْ يَبَيِّنْهُ بَانَ سَوَاهِمُ قَبْلَهُمْ
 كَانُوا مَنَاجِبَ قَدِيمًا فَضْلَهُمْ
 إِلَّا وَأَنْتِ شَمْسُهُمْ وَبَدْرَهُمْ
 وَغَدْرٌ تَجْرِي وَأَنْتِ بَحْرَهُمْ
 وَفِيهِمُ الْخَيْرُ وَأَنْتِ خَيْرَهُمْ
 خَلِيفَةُ اللَّهِ وَأَنْتِ صَهْرَهُمْ
 لَا يَشْبَعُونَ وَأَبْوَاهُم مِثْلَهُمْ
 وَشَرِبُوا الْمَاءَ فَطَالَ شَرِبُهُمْ
 وَالْمَضْغُ إِنْ نَالُوهُ فَهُوَ حَسِيهِمْ (٤)

عَهْدَتَهُمْ وَالْعَيْشُ فِيهِ غِرَّةٌ
 وَلَمْ يَبِينُوا لِنَوَى قَدَافَةٍ
 فَلَيْتَ شِعْرِي هَلْ لَهُمْ مِنْ مَطْلَبٍ
 أَوْ يُعَذَّرْنَ بِالْبِكَاةِ إِنْ بَكَى
 مُكَلَّفٌ بِالشُّوقِ لَا يَنْسَاهُمْ
 وَيَنْتَدِرُ النَّذِيرُ إِنْ رَأَهُمْ
 وَلَا وَرَبَّ الْعَرْشِ لَا يَلْقَاهُمْ
 وَكَيْفَ يَلْقَاهُمْ كَبِيرٌ سَنَّهُ
 هِيَهَاتَ عَدَّ النَّفْسَ عَنْ ذِكْرَاهُمْ
 هَذَا وَقَدْ رَأَيْتُنِي فَلِمَ أَلَمْ
 أَدْعُو ابْنَ سَهْلٍ حَسَنًا وَمَجْدَهُ (١)
 أَظَلُّ أَدْعُو بِسَاسِمِهِ وَدُونَهُ
 تَخَيَّرًا اخْتَرْتُهُ عَلَيْهِمْ
 نَامُوا فَلَيْتَ أَنْ رَأَيْتُ نَوْمَهُمْ
 يَابِنِ كِرَامٍ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ
 كَانُوا هُمْ الْأَشْرَافُ سَادُوا كُلَّهُمْ
 بَنُوا جَمِيعَ الْمَجْدِ فِيمَا قَدْ مَضَى
 فِي شَرَفٍ مُؤَيَّدٍ أَرْكَانُهُ
 فَيَابِنِ سَهْلٍ وَابْنِ آبَاءٍ لَهُ
 وَاللَّهُ مَا تَصْبِحُ بَيْنَ مَعْشَرِ
 وَالنَّاسِ أَخَاذٌ وَمَاءٌ نَاقِعٌ (٢)
 وَالنَّاسُ أَجْنَاسٌ كَمَا قَدْ مَثَلُوا
 حَاشَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّهُ
 إِلَيْكَ أَشْكَو صَيِّبَةً وَأَمَّهُمْ
 قَدْ أَكَلُوا الْوَحْشَ فَلِمَ يَشْبَعُهُمْ
 وَامْتَذَقُوا الْمَذْقَ فَذَا دُنْيَاهُمْ (٣)
 لَا يَعْرِفُونَ الْخَيْرَ إِلَّا ذَكَرَهُ
 وَمَا رَأَوْا فَكَهَّةً فِي عَيْصِهَا
 وَمَا لَهُمْ مِنْ كَاسِبٍ عَلِمْتُهُ

(٣) ط: «فيادنياهم».

(٤) ط: «حسهم».

(١) ل: «مجدهم».

(٢) الآخاذ: الغدير، ويجمع نادرا على آخاذ.

ومثلُ أَعْوَادِ الشُّكَاغَى كَلِبْهِمْ^(١)
 كَانُوا مَوَالِيَّ وَكُنْتُ عَبْدَهُمْ
 أَدْعُو لَهُمْ: يَا رَبِّ سَلِّمْ أَمْرَهُمْ
 يَا رَبِّ بَاعِدْهُمْ وَبَاعِدْ دَارَهُمْ
 إِلَى ذَرَا اللَّهْمِ وَهِيَ قَدْرُهُمْ^(٢)
 وَهِيَ أَبُوهُمْ عِنْدَهُمْ وَأَمَّهُمْ
 مِنَ الْبِلَاءِ وَأَسْمَادُ سَمْعَهُمْ^(٤)
 قَوْمٌ مَسَاغِبٌ قَلِيلٌ نَوْمُهُمْ
 فَلَوْ يَعْضُونَ لَذَكَّى سَمُّهُمْ
 هَذَا وَهَذَا دَائِبَةٌ وَدَائِبُهُمْ
 وَلَا يَمُوتُونَ وَذَلِكَ قَصْرُهُمْ
 مِنْكَ يَرِمُ فَقْرَهُمْ وَيُؤَسِّسُهُمْ
 فَجُدْ لَهُمْ بِنَائِلٍ لَا تَنْسَهُمْ
 حَمْدًا وَشُكْرًا كُلَّ ذَاكَ عِنْدَهُمْ
 فَلَا تَجُودَنَّ لِخَلْقٍ بَعْدَهُمْ
 [الرجز]

وَجَشَّهُمْ قَدْ بَاتَ مَنُوبَ الْقَرَى
 كَأَنِّي فِيهِمْ وَإِنْ وَلِيْتَهُمْ
 بِجْتِهَذَا بِالنَّصْرِ لَا آلَوْهُمْ
 وَتَارَةً أَقُولُ مِمَّا قَدْ أَرَى:
 يَاوُونَ بِاللَّيْلِ إِذَا مَا أُحْرَجُوا
 بِهَا يَطُوفُونَ إِذَا مَا أُجْرَتْهُمْ^(٣)
 زُغِبَ الرِّءُوسُ قُرَعَتْ هَامَاتُهُمْ
 بَلْ لَوْ تَرَاهُمْ لَعَلِمْتُ أَنَّهُمْ
 وَكَالسَّعَالَى فِي طَوَى مُسُوكِهَا
 قَدْ جَرَسُوا الدَّهْرَ وَقَدْ بَلَاهُمْ^(٥)
 وَلَا يَعْيشُونَ بِعَيْشٍ سَابِغٍ
 وَقَدْ رَجَوْنَا يَا بَنَ سَهْلٍ نَائِلًا
 فَإِنَّمَا أَنْتَ حَيًّا أَمْثَالَهُمْ
 وَأَسَدٍ نَعْمَاكَ إِلَيْهِمْ وَأَتَّخِذُ
 هَذَا وَأَنْتَ قَدْ حُرِمْتَ حَظَّهُمْ

فقال له الحسن: سل ما شئت^(٦) وتمن ما أحببت، فلو خرجت إليك من ملكي كله ما كافأتك.
 فقال: تشتري لي غنيمات، وتردني إلى البادية. فقال: تحن إلى مكان تصفه بهذه الصفة! قال:
 الوطن، الوطن! فاشترى له ألف شاة وأعطاه عشرين ألف درهم، وردّه إلى وطنه.

وما قيل فيمن كره الغربة. قال ابن أبي السرح: قرأت على حائط خان بالأهواز:
 إِنَّ الْغَرِيبَ وَلَوْ يَكُونُ بِيَلَدَةٍ يُجِيبِي إِلَيْهِ خَرَاجُهَا لِغَرِيبٍ
 وَأَقْلَ مَا يَلْقَى الْغَرِيبُ مِنَ الْأَذَى أَنْ يُسْتَذَلَّ وَقَوْلُهُ مَكْذُوبٌ
 [الكامل]

قال: وقرأت على حائط خان بعسكر مكرم، من الأهواز:
 إِنَّ الْغَرِيبَ إِذَا ينادي مُوجِعًا عِنْدَ الشَّدَائِدِ كَانَ غَيْرَ مُجَابٍ
 فَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى الْغَرِيبِ فَكُنْ بِهِ مُتْرَاحًا لِتَبَاعُدِ الْأَحْبَابِ
 [الكامل]

(٤) اسماء الشيء: ذهب.

(٥) المجرس: الذي جرب الأمور.

(٦) ك: «حاجتك».

(١) الشكاغى: شجر ذو شوك.

(٢) اللهم: القدر الواسعة.

(٣) اجرتموا: اجتمعوا.

قال: وقرأت على حائط خان ببغاء في الجانب الغربي:

غريبُ الدار ليس له صديقُ
تعلقُ بالسؤال بكلِّ شيءٍ
فلا تجزع فكلُّ فتى ستأق
على حالاته سعةٌ وضيقُ
جميعُ سؤاله: كيف الطريقُ؟
كما يتعلَّق الرجلُ الفَرِيقُ
[الوافر]

قال: ووجدتُ على بابٍ مكتوباً:

عليك سلامُ الله يا خيرَ منزلٍ
فإن تكن الأيامُ فرقتن بيننا
رَحَلْنَا وخَلَفْنَاك غيرَ ذَمِيمٍ
فما أحدٌ من ربيها بسليمٍ
[الطويل]

وأنشد:

أقمنا مُكرهين بها فلما
وما حُبُّ البلاد بنا ولكن
ألفناها خَرَجْنَا مُكرهينَا
أمرُ العيشِ فُرْقَةٌ من هُونِنَا
[الوافر]

ولآخر:

أقمتُ بأرضكم بالكُره مني
وأوطنتُ البلادَ وجُنَّ قلبي
فلما طاب لي فيها المقيـلُ
بغزلانٍ بها، أزف الرحيلُ
[الوافر]

ولآخر:

وإن اغتراب المرء من غير فاقية
فحسبُ الفتى بخساً وإن أدرك الغنى^(١)
ولا حاجة يسئموها لعجيبُ
ونال ثراءً أن يقال غريبُ
[الطويل]

ولآخر:

أي سرورٍ لعلاشٍ مُغتربٍ
لا تطعمُ النفسُ في هواه ولا
فردٍ وحيدٍ ناءٍ عن الوطنِ!
يكحلُّ عيماً بمنظر حسنٍ
[المنسرح]

ولآخر:

سَلِّ اللهُ الإيابَ من المغيبِ
فكم قد رَدَّ مثلك من غريبِ

(١) المحاسن والأضداد: «نحسا».

ولا تَيْسَس من الفرج القريب
[الوافر]

وسلّ الحزن عنك بحسن ظنّ

آخر:

لعلّ إياب الطاعنين قريبُ
ألا لا تُعزّزني فلستُ أجيباً
وكلُّ غريبٍ للغريب حبيبُ
لطبتهم، إني إذنٌ لكذوبُ
ففاضت لها من مُقلتي غروبُ
[الطويل]

تصبرٌ ولا تعجلُ وقيت من الردى^(١)
فقلتُ وفي قلبي جوىً لفراقها
أعادلُ حبي للغريب سجيّةً
لئن قلت لم أجزع من الين إن مضوا^(٢)
بلى غُبرات الشوق أضمرت الحشا

ولآخر:

مُجَلِّحَةٌ يشيبُ لها الوليدُ
[الوافر]

إذا اغترب الكريمُ رأى أموراً

قال أبو الحسين محمد بن أحمد بن يحيى بن أبي البغل: أنشد أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب:

ما كنتُ أحسبُ أن يكو
بخل الزمانُ عليّ أن
فأحلفني في بلدةٍ
قد كنتُ أنتظرُ الوصا
ن كذا تفرّقنا سريعاً
نبتني كما كنا جميعاً
وأحلك البلد الشسيعة
ل، فصرتُ أنتظرُ الرجوعا
[الكامل]

ولآخر:

داما عليه، فتمّ الوصلُ وأتفقا
ريبُ الزمانِ وصرُفُ الدهرِ فافترقا
وأسقط الين من عوديهما الورقا
[البيسط]

إفان كانا لهذا الحب قد خُلقا
كنا كفضنين في عودٍ ففالمها^(٣)
فاصفرَّ عودهما من بعد خضرته

ولآخر:

لعمرك إن ذا خطبٍ عظيمُ
عليك وللفراق، فمن تلومُ
[الوافر]

أتظعنُ والذي تهوى مُقيمُ
إذا ما كنت للحدثان عوناً

(٣) ك: «فالمها».

(١) ك: «سلمت».

(٢) ك: «قضوا».

آخر:

أخْلَى منها نازحون بعيدُ
وَجوه أَخْلَى الَّذِينَ أَرِيدُ
[الطويل]

لقد شفنى أنى أدورُ ببلدةٍ
أقلبُ طرفى فى البلاد فلا أرى

آخر:

واسفح بها من دمك المَهراق
يجرين بين حاجر ومآقى
لكنها صفرُ من الطراق
فالدَّمع ينطقُ والرسومُ بواقى
والعيشُ غَضُ مُورقُ الأوراقِ!
كسف الهلالِ عراه وجهُ محاق
خوفُ الحذارِ وشدةُ الإشفاق
لكن أيامَ البلاءِ بواقى
شتانَ بين مشائمِ وعراقِ!
لما أظلمهمُ وشيكُ فراقى!
تُرورى غليل مُتيمٍ مشتاقِ!
[الكامل]

قف بالمنازل وقفة المشتاق
لا تبخلن على الديار بأنمُع
تلك الديار كما عهدتِ عَميرة^(١)
لم يُيقها أمدُ تقادمِ عهدِهُ
لهفى على زمن مضتِ أيامه
أيامنا ما كنتِ إلا خلسةً
أو نظرةً من خائفٍ لم يُنجه^(٢)
وكذاك أيامُ السُرورِ قصيرةٌ
كيف اللقاءِ وقد تطاوتحت النوى
ياليت شعرى كيف عهدُ أحبِّ
ظنى بهم حسنٌ وكيف بأوبةٍ

* * *

ومنها نجديات:

وهل أجتى بالعين من خدِّهم وردًا
فأحسبُ من نجدٍ على كبدى بردًا
بشخطِ النوى والبعدِ من قُرْبهم عمدًا
ولا القربُ أيضًا من ديارهم أجدى
وحبُّ سليمى القلبِ من بينهم أودى!

ألا هل أرى حورًا تبرقنَ بالحمى
لعلى أرى نجدًا ومن حلِّ بالحمى
خليلى قد داويتُ عقلًا سلبتهُ
فلم أرِ بعدَ الدارِ يشفى من الجوى
بلى إن فى النأى التقطعِ والأسى
ولآخر:

بليلٍ على نجدٍ تذكّرني نجدًا
فذكّرني نجدًا وقطّعتنى وجدًا

نسيمُ الحزامى والرياحُ التى جرتْ
أتانى نسيمُ السدرِ طيبًا من الحمى

(١) ك: «كما علمت».

(٢) ل: «لم ينجه».

ولآخر:

بصحراءٍ من نجران ذات تَرَى مُنْدَى!
وقد ضربته نَفْحَةٌ من صَبَا نَجْدَا!
[الطويل]

أَلَا لَيْتَ شَعْرَى هَلْ أَبَيْتَنَ لَيْلَةً
وهَلْ أَرَدَنَ الدَّهْرَ حَصْنَ مُجَاشِعٍ

ولآخر:

بنا بين المنيفة والضمار^(١)
فما بعد العشيّة من عَرَارِ
وربّما رَوْضَه غَبَّ القطار
بأنصاف هُنَّ ولا سِرَّار
وأنضُرُ ما يكونُ من النهار
[الوافر]

أَقُولُ لصاحبي والعيشُ تُخْدِي
تَمَتَّعَ من شميم عَرَارِ نَجْدِ
أَلَا يَا حَبِذَا نَفْحَاتُ نَجْدِ
شهُورٌ يَنْقُضِينَ وما شَعَرْنَا
فَأَمَّا لَيْهَنَّ فَخَيْرُ لَيْلِ

قال: وقال الفتح بن خاقان: ورد على أعرابي من البادية نجدى فصيح، فبات ليلةً عندي على سطح مشرف على بستان، فسمع فيه صوت الدواليب، فقال: ما أشبه هذا إلا بحنين الإبل! وأنشد:

وَأَجِنُّ من شوقٍ إلى نَجْدِ
ودموعُ عَيْنِي أَحْرَقَتْ خُدَى
[الكامل]

بَكَرَتْ تَحَنُّنًا وَمَا بِهَا وَجْدِي
فَدَمُوعُهَا تَحِيَّا الرِّيَاضُ بِهَا

(١) للصمة بن عبد الله القشيري، ديوان الحماسة ٣: ١٢٤٠.

محاسن الدعاء للمسافر

بأين طالع وأسرّ طائر!
لا كِبًا بك مركب، ولا أشتّ بك مذهب، ولا تعذّر عليك مطلب!
سهل الله لك السير، ويسرّ لك القصد، وطوى البُعد بمسرة الظفر، وكرامة المدّخر!
بأين طائر، وأسعد جدًا!
على الطائر الميمون، والكوكب السعد!
وفي رسالة للبحترى:
إلى حيث تتقاصر أيدى الحوادث عنك، وتتقاعس نواب الأيّام دونك!

فصل:

وخصّصت بسهولة المطلب ونجاح المنقلب!
كان الله في سفرك خفيّرًا، وفي حضرك ظهيرًا.

آخر:

بسعى نجيح، وأوب سريع وسريح!

آخر:

قصر الله محلّه، وهدى رحله، وسرّ بأوبته أهله. ولا زال آمنًا، مقيماً وظاعنا!

آخر:

بأسعد جدّ، وأنجح مطلب، وأسرّ منقلب، وأكرم بداية، وأحمد عاقبة!

فصل:

فاشخص مصحوبًا بالسّلامة والكلاءة، آيبًا بالنجح والغبطة، محوطًا فيها تطالعه بالعناية والشفقة.
في ودائع الله وضمانه، وكنفه وجواره، وستره وأمانه، وحفظه وذماره^(١).
وقال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم: إنّي أريد سفرًا، فقال: «في حفظ الله وكنفه، زودك الله التقوى، ووجهك إلى الخير حيث كنت».

(١) المحاسن والأضداد: «وذمانه».

كتب أبو العيناء:

أستخلف الله فيك، وأستخلفه منك.

لابن أبي السرح:

من ليس يخلو القلب من ذكره
في كنف الله وفي ستره
[السريع]

وأشد الآخر:

فارحل أبا بشرٍ بأين طائرٍ
وعلى السعادة والسّلامة فانزل
[الكامل]

www.alkottob.com

مساوي الدعاء للمسافر

بالبارح الأثام^(١)، والسائح الأعضب^(٢)، والصرد^(٣)، الأتكد، للسفر الأبعد.
لا استمرت مطيته، و [لا] استتبت [به] أمنيته. ولا تراخت منيته. بنحس مستمر، وعيش
مُر، لا قرى إن استضاف، ولا آمن إن خاف.

وقال إن علياً لما اتصل به مسير معاوية قال: لا أرشد أم قائده، ولا أسعد رائده، ولا أصاب
غيثاً. ولا سار إلا ريثاً، ولا وافق إلا ليثاً!
أبعده الله وأسحقه، وأوقد ناراً على أثره!
لا حطّ الله رحله، ولا كشف محله، ولا بشر به أهله!
لا زكى له مطلب، ولا رُحِب له فيه مذهب!
لا سقاه الله غماماً، ولا يسر له مراماً!
لا فرج الله همه، ولا سرّ غمه، ولا حلّ عقده، ولا أورى زنده!
جعله الله سفر الفراق، وعصا الشقاق!
وأنشد:

بأنكد طائر وبشّر فأل
بحدّ السند حيث يكون مني^(٥)
كأ بين الجنوب إلى الشمال
على خوفٍ تحنُّ إلى العيال
لأبعد غايةٍ وأخسّ حال
غريباً تمتطى قدميك دهرًا
[الوافر]

الباهل:

إذا استقلت بك الركابُ فحيث لا درت السحابُ!^(٦)

(١) البارح: ما مرّ من الطير والوحش من بينك إلى يسارك؛ والعرب تنظير به؛ لأنه لا يمكن أن تمر حتى تنحرف (اللسان).
(٢) السائح: ما مرّ بين يديك من جهة يسارك إلى بينك والعرب تميم به؛ لأنه أمكن للعيد؛ وقد يتشاءمون به أيضاً، قال
زهير:

جرت سُنْحًا فقلت لها أجيزي نوى مشمولة فمقي اللقاء!

والأعضب: المكسور القرن، وهو ما يتشامم به.

(٣) الصرد: طائر فوق العصفور، وكان العرب يتشاءمون به أيضاً لصوته.

(٤-٤) من المحاسن والأضداد.

(٥) ل والمحاسن والأضداد ١٢٦: «السد».

(٦) المحاسن والأضداد ١٢٧.

وحيث لا يُبتَغى فلاجٌ
وحيث لا يرتجى إيابٌ
[مخلع البسيط]

تُعمرُ فيها ولا تُرزقُ
ولا يثمرُ الشجرُ المورقُ
ويُكدي السحابُ بها المغدقُ
[المتقارب]

وكلُّ نحسٍ بك مقرونٌ
وحيث لا يفرحُ محزونٌ
ليس بها ماءٌ ولا طينٌ
[السريع]

ابن أبي السرح:
فسرُّ بالنحوس إلى بلدة
ولا تمرُّ الأرضُ من نهرها^(١)
تفيضُ البحارُ بها مرَّةً

الباهلي:
أدنى خطاك الهندُ والصينُ
بحيث لا يأنسُ مستأنسٌ
تهوى بك الأرضُ إلى بلدةٍ

(١) المحاسن والأضداد: «من زهرها».

محاسن الرؤيا

حدّثنا أبو عبدالله أحمد بن أبي ذؤاد، قال: كان المأمون يُبطلُ الرؤيا، ويقول: ليست بشيء، ولو كانت على الحقيقة كنّا نراها ولا يسقط منها شيء، فلما رأينا أنّها يصحّ منها الحرف والحرفان من الكثير، علمنا أنها باطل، وأنّ أكثرها لا يصحّ.

وكان بعث بابنه العباس^(١) إلى بلاد الروم، فأبطأ عليه خبره، فصلى ذات يوم الصبح، وخفق وانتبه، ودعا بدايته وركب، وقال: أحدّثكم بأعجوبة، رأيت الساعة كأن شيخاً أبيض الرأس واللحية، عليه فرّوة، وكساؤه في عنقه، ومعه عصا وفي يده كتاب، فدنا مني وقد ركبت، فقلت: من أنت؟ فقال: رسول العباس بالسلامة - وناولني كتابه، فقال المعتصم: أرجو أن يحقّق الله رؤيا أمير المؤمنين ويسره بسلامته. قال: ثم نهض، فوالله ما هو إلّا أن خرج فسار قليلاً إلّا وبُصر بشيخ قد أقبل نحوه في تلك الحال، فقال المأمون: هذا والله الذي رأيت في منامي، وهذه صفته. قال: فدنا منه الرجل فتحاه خدمه، وصاحوا به فقال: دعوه! فجاه الشيخ، فقال له: من أنت؟ قال: رسول العباس وهذا كتابه، قال: فبهتتا وطلال منه تعجبنا، فقلت: يا أمير المؤمنين، أتبطلُ الرؤيا بعد هذه؟ قال: لا.

وحدّثنا عليّ بن محمد، قال: حدّثني أبي، عن محمد بن عبد الله، قال: رأيتُ فيما يرى النائم في آخر سلطان بني أمية، وكأني دخلتُ مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فرفعتُ رأسي، ونظرت إلى الكتاب الذي فوق المحراب، فإذا فيه: ما أمر به أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك، فإذا قائل يقول: يُمحي هذا الكتاب، ويكتب مكانه اسم رجل من بني هاشم، يقال له محمد، فقلت: فأنا محمد، فابن من؟ قال: ابن علي، قلت: فأنا ابن علي، فابن من؟ قال: ابن عبد الله، قلت: فأنا ابن عبد الله، فابن من؟ قال: ابن عباس، فلو لم أكن بلغتُ العباس ما شككتُ أني صاحب الأمر. فتحدّثت بهذه الرؤيا في ذلك الدهر، ولا نعرف نحن المهديّ فتحدّث الناس بها حتى وُلّي المهدي، فدخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفع رأسه. فإذا اسم الوليد، وإنّي لأرى اسم الوليد في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليوم. فدعا بكرسيّ، فألقني له في صحن المسجد، فقال: ما أنا بيارحٍ حتى يُمحي ويكتب اسمي مكانه، فأمر بأن يحضر العمّال والسلايم، وما يحتاج إليه لذلك، فلم يبرح حتى غير، وكتب اسمه.

(١) ك: «العباس ابنه».

قال: ورأى رجل أبادلف فيما يراه النائم، فقال: ما حالك؟ فقال:

فلو أننا متنا تركنا لكان الموت راحة كل حي
ولكننا إذ متنا بعثنا ونسأل بعده عن كل شيء
[الوافر]

قال: ورأى رجل الحجّاج بن يوسف الثقفي فيما يراه النائم، فقال له: ما حالك؟ فقال: ما أنت وذاك! لا أم لك! فقال: سفيه في الدنيا سفيه في الآخرة.

وعن إسحاق بن إسماعيل بن عليّ، قال: حدثني عمي عيسى بن علي، قال: دخلت على المنصور، فقال: يا أبا العباس، أتذكر رؤياي بالشرأة؟ قلت: يا أمير المؤمنين، أتى رؤيا؟ قال: منلك ينساها! كان يجب أن تكتبها بقلم من ذهب في رق، وتوصي بها بنيك، وبني بنيك! قلت: فأخبرني بها يا أمير المؤمنين قال: رأيت كأنني يمكة. إذ فتح باب الكعبة. فخرج رجل، فقال: عبد الله بن محمد! فقام أخي. فقال الرجل: ابن الحارثية! فدخل أخي. فأبطأ هنيهة ثم خرج، وفي يده لواء. فخطا خطأ خمسا، ثم سقط اللواء من يده، ثم خرج الرجل بعينه، فقال: عبد الله! فقام عمي عبد الله بن عليّ وصعد الدرجة، فزحمته ببعض أركاني، فسبقت، فإذا بأبي، وإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لي الرجل: ابدأ برسول الله صلى الله عليه وسلم، فسلمت عليه، فدعا بلواء فعهقه لي، ثم قال: هاك فيك وفي ولدك. حتى تقتلوا به الرجال. فخطوت خطأ، لو شئت أن أخبركم بها لأخبركم.

وحدثنا محمد بن يونس، قال: أخبرني منصور بن أبي مزاحم، عن طيفور مولى أبي جعفر. قال: قال المنصور: رأيت في السنة التي ولي فيها هشام بن عبد الملك كأنني راكب حمارا أسود وعليه حمل تين عظيم - وكان بالموصل رجل يعبر الرؤيا - فحججت تلك السنة، فرأيتته بمنى وقصصت عليه الرؤيا، فقال: أخبرني لمن هذه الرؤيا؟ فقلت: لرجل من أفناء الناس. قال: ما قلت الحق، أصدقني وأصدقك، فقلت: لرجل من بني هاشم، قال: الآن جئت بالحق، إن صدقت الرؤيا صار صاحبها خليفة، قال: فانسللت كالهارب خوفاً أن يظهر من قولي وقوله شيء.

قال: فبينما الربيع ذات يوم قد دخل؛ فقال: يا أمير المؤمنين، رجل بالباب معبر يستأذن، قال: أدخله، فأدخله، فلما رآه تبسم، وقال: هذا صاحبي، فدنا منه وقبل يده، فقال: أتذكر رؤياي؟ قال: نعم، وهي التي حملتني إليك، قال: كيف كانت تأولتها، قال: قلت: راكب حماراً أسود، والحمار جد الرجل، وسواده سودده، قلت: وكان على الحمارة تين، فقلت: الحنطة والشعير يخرجان من التين، ومن قعد عليه وصار مالكة، فقد ملك الأقوات فهذا رجل يملك الناس.

قال: لله أبوك! ما أحسن ما عبرت! وأسرع ما صحت. وأمر له بصلية وقال: أقم عندنا، وحول عيالك، فإننا نأمر لك بأرزاق تسعك وإياهم، ففعل ذلك.

وبلغنا عن مزاحم، مولى فاطمة بنت عبد الملك، عن فاطمة، قالت: كنت مع عمر بن عبد العزيز، وهو نائم، فانتبه، وقال: يا فاطمة، لقد رأيت رؤيا، ما رأيت أحسن منها! قلت: حدثني بها يا أمير المؤمنين، قال: حتى أصبح، قال: فجاء المنادي، فناداه بالصلاة، فقام فصلى بالناس الفجر، ثم رجع إلى مجلسه، فأتيته؛ فقلت: يا أمير المؤمنين. حدثني بالرؤيا. فقال: رأيت كأني في أرض خضراء. لم أر أرضاً أحسن منها. ورأيت في تلك الأرض قصوراً زبرجد. ورأيت جميع الخلائق حول ذلك القصر؛ فبينما أنا كذلك. إذ نادى منادٍ من القصر: أين محمد بن عبد الله بن عبد المطلب؟ فقام النبي صلى الله عليه وسلم، فدخل القصر، فقلت: سبحان الله! إنه في ملاً فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولم أسلم عليه!

فلم ألبث إلا قليلاً. حتى خرج المنادي، فنادى: أين أبو بكر الصديق؟ فقام أبو بكر رحمه الله. فدخل.

فما لبثت إلا قليلاً، حتى خرج المنادي، فنادى: أين عمر بن الخطاب؟ فقام عمر فدخل، فقلت: سبحان الله! أنا في جمع فيهم أبي. ولم أسلم عليه.

فما لبثت إلا قليلاً. حتى خرج المنادي ينادى: أين عثمان بن عفان؟ فقام عثمان رحمه الله، فدخل.

فما لبثت إلا قليلاً. حتى خرج المنادي. فنادى: أين علي بن أبي طالب؟ فقام علي، فدخل. فما لبثت إلا قليلاً. حتى خرج المنادي، فنادى: أين عمر بن عبد العزيز؟ فقامت فدخلت. فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم قاعداً. ورأيت أبا بكر عن يمينه، وعمر عن يساره. وعثمان وعلياً بين يديه. فقلت: أين أقعد؟ لا أقعد إلا إلى جنب أبي. قال: فقعدت عند عمر بن الخطاب؛ فرأيت فيها بين النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر شاباً حسن الوجه. فقلت: يا أبت، من هذا؟ قال: هذا عيسى بن مريم.

قال: فما لبثت إلا قليلاً. حتى سمعت منادياً ينادى: يا عمر بن عبد العزيز؛ أثبت إلى ما أنت عليه.

قال: ثم قمت، فخرجت فلم ألبث إلا قليلاً، حتى خرج عليّ عثمان، وهو يقول: الحمد لله الذي نصرني. ثم لم ألبث إلا قليلاً؛ حتى خرج عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه، فقال: الحمد لله الذي غفر لي!

مَسَاوِيءُ الرَّؤْيَا

روى عن عمر بن حبيب القاضي، أن رجلاً كان بالبصرة. وكانت له امرأة؛ وله منها ابنان؛ فمات وترك لهم شاة، فرأت المرأة في النوم؛ كأن أحد ابنيها يقول: يا أمة^(١). ما ترين هذا الجدى، قد أفنى علينا لبن هذه الشاة! وليس يد من أن أقوم فأذبحه، فقالت: لا تفعل يا بُنى. فقال: لا بد من أن أذبحه. فقام فذبحه، وسَمَطَه وشواه، وأخرجه من التتور؛ فقعد هو وأخوه يأكلان، فكلمه أخوه بشيء، فأخذ السكين فشق بطنه.

فانتبهت فزعة؛ وإذا ابنها يقول: يا أمة؛ أما ترين هذا الجدى. قد أفنى علينا لبن هذه الشاة. أقوم فأذبحه! فقالت: لا تفعل يا بُنى. فجعلت تتعجب من تصديق الرؤيا فأخذت بيد أخيه. فدخلت بيتاً، وأغلقت الباب من داخله؛ فبينما هي مفكرة مهتمة، إذ غفلت، فرأت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم؛ فقال: ما شأنك؟ فخبرتة الخبر. فنادى: يا رؤيا. فإذا الحائض قد انصدع. وخرجت امرأة جميلة بارعة الجمال، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: ما أردت إلى هذه المسكينة! قالت: لا والذي بعثك بالحق نبياً ما أتيتها في منامها. فنادى: يا أضغاث أحلام، فخرجت امرأة دونها. فقال: ما أردت إلى هذه المسكينة؟ قالت: رأيتهم بخير؛ فحسدتهم، فأردت أن أغمهم.

فقال صلى الله عليه وسلم: «ليس عليك بأس» فانتبهت وأكلت مع ابنيها. ولم يزالوا بخير.

(١) ك يا أمة!

محاسن الإزكان

قال: نظر إياس بن معاوية إلى نسوة قد فزغن من بعير، فأشار إليهن. فقال: هذه بكر، وهذه حامل، وهذه مُرضع. فقام إليهن رجل، فسألهن فكنن كما قال. فقيل له: كيف علمته؟ قال: رأيتهن لما فزغن، وضعت كل واحدة منهن يدها على أهم المواضع إليها، فوضعت الحامل يدها على بطنها، ووضعت المرضع يدها على نديها، ووضعت البكر يدها على قُبلها.

* * *

قال: ونظر إياس يوماً إلى رجل متأبط شيئاً، فقال: معه سُكَّر. وقد وُلد له غلام، فاتبعه الرجل فسأله؛ فإذا هو كما قال: فقيل له في ذلك، فقال: رأيت الذباب قد أطافت به، فقلت: معه حلوة وهو سُكَّر. ورأيتة نشيطاً. فقلت: وُلد له غلام.

مَسَاوِيءُ الْإِزْكَانِ

قال: واستقبل إياس رجلاً، فقال: خذوه؛ فإنه سرق، وسيأتي من يطلبه. فأخذه فلم يتجاوز ساعة حتى جاء قوم يطلبونه، فأخذه. فقيل له في ذلك، فقال: رأيته يُرعد ويعدو مُدْها، متغير اللون يُكثر الالتفات. فزكنتُ فيه هذا؛ وإنه لصّ.

* * *

قال: ورأى رجلاً على عاتقه جرّة عسل، فقال: فيها سُمٌّ أو حيّة، فنظروا فإذا حيّة؛ فسئل عن ذلك. فقال: رأيت الذباب تحوم حوله ولا تسقط عليه. فعلم أنه حيّة أو سُمّ.

www.alkottob.com

| الصفحة | الصفحة |
|-------------------------------------|---|
| محاسن مجالس أبي العباس السفاح في | مقدمة ٣ |
| المفاخرة ٨٩ | وبه الأمان من الخذلان ٥ |
| محاسن الافتخار بالنبي ﷺ ٩٣ | محاسن رسول الله ﷺ ١٧ |
| مساوئ الأفتخار ٩٦ | محاسن المعراج ٢٥ |
| مساوئ أصحاب الصناعات ٩٨ | مساوئ من تنبأ ٣٠ |
| محاسن النتاج ٩٩ | محاسن أبي بكر ٣٢ |
| مساوئ النتاج ١٠٢ | محاسن عمر بن الخطاب ٣٥ |
| محاسن الوفاء ١٠٣ | محاسن عثمان بن عفان ٣٧ |
| مساوئ قلة الوفاء والسعاية ١١٤ | محاسن علي بن أبي طالب ٣٨ |
| محاسن الشكر ١١٦ | محاسن من أمسك عن الوقوع في |
| مساوئ الشكر ١٢٠ | أصحاب النبي ﷺ ٤٤ |
| محاسن الدهاء والحيل ١٢٢ | مساوئ تلك الحروب ومن تنقص عليّ |
| مساوئ العمى وضعف العقل ١٣٥ | بن أبي طالب ٤٥ |
| محاسن التيقظ ١٣٧ | مساوئ من عادى عليّ بن أبي طالب ٤٧ |
| مساوئ التيقظ وتركه ١٤٦ | محاسن الحسن والحسين ابني علي بن |
| محاسن الرسل ١٤٧ | أبي طالب ٥٢ |
| مساوئ الرسول ١٤٩ | مساوئ قتلة الحسين بن علي ٥٤ |
| محاسن الحُجاب ١٥٠ | مساوئ الحرّة ٥٩ |
| مساوئ الحجية ١٥٣ | محاسن ما قيل فيهم من الأشعار ٦٢ |
| محاسن الولايات ١٥٧ | محاسن السبق إلى الإسلام ٦٤ |
| مساوئ الولايات ١٦٠ | مساوئ من ارتد عن الإسلام ٦٧ |
| محاسن بُعد الهمة ١٦١ | محاسن المفاخرة ٧٠ |
| مساوئ سقوط الهمة ١٦٤ | محاسن كلام الحسن بن علي ٧٣ |
| محاسن كرم الصحبة ١٦٦ | محاسن كلام عبد الله بن العباس ٨٢ |
| مساوئ الصحبة ١٧٣ | محاسن كلام غانمة بنت غانم في شرف |
| محاسن السخاء ١٧٥ | بني هاشم وفخرهم ٨٦ |

الصفحة

| | | | |
|-----|-------------------------------------|-----|--------------------------------------|
| ٢٧٦ | محاسن الدين | ١٩٧ | محاسن صلات الشعراء |
| ٢٧٧ | مساوئ الدين | ٢٣٠ | مساوئ منع الشعراء والبخل |
| ٢٧٩ | محاسن إصلاح البدن | | مساوئ من استدعى الهجاء ومن هجا |
| ٢٨٢ | مساوئ ما يفسد البدن | ٢٤٤ | نفسه |
| ٢٨٣ | محاسن الندامة | ٢٤٦ | محاسن الرجال |
| ٢٨٤ | مساوئ الندامة | ٢٤٨ | مساوئ الرجال |
| ٢٨٦ | محاسن الحنين إلى الوطن | ٢٥٢ | محاسن ذكر التعم |
| ٢٨٨ | ذكر من اختار الوطن على الثروة | ٢٥٤ | الشعر في هذا الفن |
| ٢٩٠ | مساوئ من كره الوطن | ٢٥٥ | محاسن الفقر |
| ٣٠٠ | محاسن الدعاء للمسافر | ٢٥٦ | مساوئ الفقر |
| ٣٠٢ | مساوئ الدعاء للمسافر | ٢٦٥ | محاسن الثقة بالله عز وجل |
| ٣٠٤ | محاسن الرؤيا | ٢٦٧ | مساوئ الثقة |
| ٣٠٧ | مساوئ الرؤيا | ٢٦٨ | محاسن طلب الرزق |
| ٣٠٨ | محاسن الإزكان | ٢٧٣ | مساوئ طلب الرزق |
| ٣٠٩ | مساوئ الإزكان | ٢٧٤ | محاسن استصلاح المال |

| | |
|--------------------|----------------|
| ١٩٩١ / ٥١٦٣ | رقم الإيداع |
| ISBN 977-02-3362-5 | الترقيم الدولي |

١ / ٨٤ / ٦

Dhakhā'ir AL'Arab

61

Al Mahāsen Wal Masāwi
Par
Ibrāhīm Ben Mōhammād
Al Bāihāki

Edition Critique
Par
Mōhammad Aboul Fādle Ibrāhīm



DAR AL-MAAREF